

والنص القرآني جاء بقول الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ، لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذي يجعل الأسلوب يجيء بهذا الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش في القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب في قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم . وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أى أساس بنيت شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويظنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك . وأنتم لا تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن ( لا ) زائدة ومنهم من كان أكثر تلذذا فقال : ( لا ) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : ( لا ) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا الأدب ، لأن الذى يتكلم هو الإله وليس في كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفته شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدى المراد منه ، لأن الله مراديات في كلامه ، وهذه المراديات لابد أن يحققها أسلوبه . والمثال في حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندي مال » أو ما عندي من مال ؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أى ما عندي من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندي مال » أى ليس عنده ما يعتد به من المال الذى له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يقال له : مال . إن في جيبه القليل من القروش .

و « لا » في هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أنني إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلمظ الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم في التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حيا في الكفار ، بل حيا في النبي والنتج ، وكان الحق يقول لهم : أنا أعذرکم لأنکم تأخذون بظاهر جهد اليمين « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » وبالفهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ، لأن هذا هو مدى علمكم ، وما أدراكم أنني إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعلمون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب بـ « لا يؤمنون » فـ « لا » حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم بقول :

﴿وَنَقْلِبُ اَفْئِدَتَهُمْ وَابْصِرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوْنَ اَبَدًا ۚ  
اَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

وحين تقول : أنا قلب السليمة فهذا يعنى أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر القواد ، بل بباطن وعظيم خبري أعلم الباطن منهم فاطمئنا إلى أن حكمي هو الحكم الحق الناتج من قلب لطيف خبير .

وقد يكون هنا معنى آخر ، أى أن يكون القلب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا في هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فإن لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت آية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجيء الآية أبطل أمره كذلك لم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا فد لا تستحسنه ثانيا . حين « نقلب أفئدتهم وأبصارهم » أى أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم ( ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ) .

إن الإيمان يحتاج إلى استنبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن نستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان في فؤادك . ومبجانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هل رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدوة منهم على الاستباط ؟ وهل أفئدتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿وَنَقْلِبُ اَفْئِدَتَهُمْ وَابْصِرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوْنَ اَبَدًا ۚ اَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

(سورة الانعام)

إذن فهم لا يؤمنون ويسرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية قلن يؤمنوا ، وفي هذا عذر للمؤمنين في أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ



لماذا؟ لأن الحق قال : «كما لم يؤمنوا به أول مرة»، أى أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم «ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» والطفيان هو تجاوز الحد، وهم قد تجاوزوا الحد هنا فى استقبال الآيات، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلا، وعجزوا عن أن يأتوا بحشر سور، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة، وكان يجب ألا يطفوا، والا يتجاوزوا الحد فى طلب الاقتناع بصدق الرسول.

«ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» و«العمه» هو التردد والخيرة، وهم فى طغيانهم يترددون، لأن فيهم نظرة تستيقظ، وكفرا بلع، يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن؟ والفطرة التى تستيقظ فيهم تلمع كرمضات البرق، وكان يجب ألا يترددوا : أو «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم» فى النار؛ لأن البصر لم يؤد مهمته فى الاعتبار، والقلب لم يؤد مهمته فى الفقه عن الله، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم لى النار.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى  
وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلَا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ  
يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ بِجَاهِلُونَ﴾

هنا يوسع الحق المسألة. فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون، بل قال : «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة» مثلما اقترحوا، أو حتى لو كلمهم الموتى، كما قالوا من قبل :

[سورة الدخان]

﴿فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ حَٰسِدِينَ﴾ (٢١)

وبأتى القول : «وحشرنا عليهم كل شيء» و«الحشر» يدل على سرق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب فى صندوق من الورق المقوى ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط، وهنا يوضح الحق : لو أئنى

أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقلدتى صالحه أن أتى بالآيات التى طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تفسن بالإيمان .

أوحشنا عليهم كل شىء قبلًا و«قبلا» هى جمع «قبيل»، مثل سرير وصرور .

«أوحشنا عليهم كل شىء قبلًا» . وهذا يعنى أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية، وهكذا . قلن يؤمنوا، أو «قبلا» تعنى معاينة أى أنهم يرونها بأعينهم، لأن فى كل شىء دبرًا وقبلا، والقبيل هو الذى أمام عينيك، والدبر هو من خلفك . فإن حشنا عليهم كل شىء مقابلًا . ومعاينا لهم قلن يؤمنوا . وإن أخذتها على المعنى الأول أى أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المعطى أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجهة، أى أنهم لو رأوا بعيونهم مواجهة من أمامهم قلن يؤمنوا .

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوتَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلُوفُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (١١١)

[سورة الأنعام]

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التى إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطى الاختيار فى التكليف ولذلك قال سبحانه :

﴿ نَعْلَمُكَ بِسَخِّ نَفْسِكَ أَلَا يَكُونُوا مُزْمِنِينَ ﴾ (٢) إِنْ تَشَاءُ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)

[سورة الشعراء]

والله لا يريد أعناقنا تخضع، وإنما يريد قلوبنا تخضع . لذلك بذل الحق الآية بقوله : «ولكن أكثرهم يجهلون» . والجهل يختلف من عدم العلم، بل الجهل هو علم المخالف، أى أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفى أن نقولها حتى يفهمها قورا . لكن مع الجاهل هناك مسائلتان : الأولى أن نزيل من ادراكه هذا الجهل الكاذب، والأخرى أن نضع فى



إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعنى أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ  
الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ  
الْقَوْلِ غَمُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا  
يَفْعَلُونَ ﴾

« وكذلك » إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطى الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له في موكب الرسالات ، فليست بدعا - يا محمد - في أنك رسول يُواجه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقبول بهؤلاء الأعداء .

وهل قَتَّ أعداء الرسل في عهد من أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثروهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلا بد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسيين للمهمة التي تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد في هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداوة ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ، لأن الإنسان إذا ما كان في منبج غير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تحبذ الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا تحبذ الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولولم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فائرة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أى لون من ألوانهم من يتحدى أى قضية من قضايا الدين . في هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يثار على الدين .

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن في أي مظهر في الوجود يُغلب الله على مراداته في كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذي يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، ولوضحنا من قبل أن الباطل جندي من جنود الحق ، لأن الباطل حين يعرض ويعرِد في الناس يتساءل الناس متى يأتي الحق لينقلنا ، وأنت ساعة ترى مريضاً يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندي من جند الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطفاً في هذا المكان فسارخ إلى علاجه . ولذلك نجد أنصف الأمراض وأشهرها وأخبرها ، هي الأمراض التي تأتي بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن يستعصى شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندي من جنود العافية .

وحين يكون لك عدو في الحارة أوفى البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هنة وعيب حتى لا يشنع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنصروه على نفسك .

والشاعر القديم ، الذي أحسبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداى لهم فضل على ومنه فعندى لهم شكر على ففهم ليا  
فهم كدواء والشفاء بمسره فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا  
هم بحشوا عن زلتى فاجتنبتها فأصبحت بما دنس العرض نحاليا  
وهم أججوا جهلى ولكن ببخضهم وهم نالسون فاكسبت المعاليا

لذلك لا بد أن تنظر إلى كل شيء بحكمة إيمان الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ  
زُحُوفَ الْعُوقِ غُرُورًا وَلِرَّسَلَةِ رَبِّكَ مَا فَعَلُوهُ فَاذْرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١١٦)

( سورة الانعام )

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيجين ومثيرين للنبي ولأتباعه ، لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أصبحت في نفس المقابل قوة حتى لا يهزم



وعلى جمع المذكور وجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لي » ، أو « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ؟؟ ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٢٧﴾

[ سورة الأعراف ]

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بَيْنَهُمْ إِخْوَانًا ۝١٢٢﴾

[ سورة آل عمران ]

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذي يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعت مصلحته واحدة في معاداة المعادى يكونون وحدة في العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد في العداوة . لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدواً برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ۝١١٢﴾

[ سورة الأنعام ]

وشياطين الإنس والجن كما يقول النجاة بدل من عدو و « شياطين » جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » والوحى - كما نعرف - هو إعلام بخفاء ، ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض ؟ لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحققين في قضية يتحركون في علانية . ولا يستخفون من الناس .

« يوحى بعضهم إلى بعض » ومن الذى يوحى ؟ ومن الذى يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحى : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً فى النفس ، أو إن كان بالإشارة أو باللمس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أماليب الوحى الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحى من شياطين الجن فهل يوحون إلا بشر ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشر . مصداقاً لقوله الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، وتعلم أن المسائل حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسية ، والوسوسة هى صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن للفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغرى بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

« يوحى بعضهم إلى بعض » وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجنى يوحى لجنى ، لأن الجن مكلف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » الزخرف . هو الشئ المزين ظاهراً لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل :

﴿ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . (٤٥) ﴾ [سورة الزخرف]

أى أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿ يُوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . . (١١٣) ﴾ [سورة الأنعام]

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقتربوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ، لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية فى ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر :

اشرب الخمر لنصاب بتليف الكبد مثلاً !! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليزهد همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

« زخرف القول غروراً » أى ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرة هذا الشيء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى أعطى خلقه اختياراً فى أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، فى نور أو فى ظلمة . ويأتى الوقت الذى يشيب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو - جل شأنه - لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شيء فى الكون يقع على غير مشيئة الله ؟ ونقول : نعم كل شيء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذى خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا إن شاء الله ، لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل فى بعض الأمور ، فالذى ينظر إلى أن كل فعل من الله أى ليس بطاقة من عبده ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا ويحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتى من الله ، فأنت - على سبيل المثال - لم تخلق القوة التى لبيد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هى العضلات التى تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذى خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها لى قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التى فى اليد ، ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » أى لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا تأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان ؟ خذ المثال من نفسك . أنت فيك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، ولا اختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تعرض ؟ لا .

أَنْتَ احْتِبَارٌ أَنْ يَقَعَ عَلَيْكَ حَجَرٌ وَأَنْتَ تَمْشِي ۚ لَا

أَنْتَ احْتِبَارٌ فِي أَنْ يَصِيْبَكَ سَائِقٌ مَكْرَانٌ ۚ لَا .

أَنْتَ احْتِرَافٌ فِي أَنْ تَمُوتَ أَوْ لَا تَمُوتَ ۚ لَا نَقْدَ جَعَلَ اللَّهُ فِيكَ الْأَمْرَيْنِ الْأَشْيَيْنِ :

قَهْرُكَ فِي أُمُورٍ وَالْفَهْرِيَّةُ تَثْبُتُ لَهُ . سُبْحَانَهُ . الْعُدْرَةُ وَطَلَاغَتُهَا ، وَجَعَلْتُكَ مَحْتَارًا فِي أَشْيَاءَ ، وَالْإِخْتِبَارُ يَثْبُتُ صَحَّةَ التَّكْلِيفِ

وَيَتَابِعُ الْحَقُّ مَذْبَلًا الْآيَةَ ۚ أَعْدَرَهُمْ وَمَا يَمْتَرُونَ ۚ لِأَنَّ اقْتِرَاءَهُمْ وَكَيْدَهُمْ وَدَعْمَهُمْ لَمَّا طَلَسَ لَيْسَ يَمِيرُ مِنْ حَقِيقَةٍ لِأَمْرٍ شَيْئًا ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ هَتَرَءَهُمْ يَعْرِقُ الدَّعْوَةَ ، لَا ، فَقَدْ صَارَ اقْتِرَاءُهُمْ وَكَيْدُهُمْ وَعَدَاوَتُهُمْ لِلدِّينِ وَقُوَّةً مَهْجَةً لِمَا دَعَا ۚ لِأَنَّ يَحْبِصُ الدَّعْوَةَ مِنَ الشَّوَابِ وَيَصْهَرُ الْمُؤْمِنُ بِهَا وَيُحَرِّجُ مِنْهُمْ حَصْلَةَ الشَّرِّ وَيُلْأَمُ بِحُلُلِ الْخَيْرِ

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ لَيَذْهَبُ جَهَاءً وَأَمَّا مَا يَبْعَثُ فَلِصْفِ الْأَرْضِ ۚ ۝ (٧) ﴾

[سورة الرعد]

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَهْجَاتٌ لِهَذِهِ الْمَسَائِلِ لَدَحَرَ الدَّعْوَةَ ائْتَدَى وَطَلَسَ وَلَا تَدَسَّ قِيَامًا لَا يَعْرِفُ قِيَمَةَ الْإِيمَانِ ، أَلَيْسَ بِكَ يَحْبِصُ اللَّهُ لِدَعْوَةِ الْأَعْدَاءِ وَيُلْقِيهِمْ لَدَيْهِمْ يَقُولُ أَمَامَهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِي حِمْنَةِ الدَّعْوَةِ أَحَدٌ مِنْ ضَعَافِ الْعَقَائِدِ وَضَعَافِ الْإِيمَانِ ، وَهُمْ لَدَيْهِ يَحْرَجُونَ هَرَبًا مِنْ مَسْئُولِيَّاتِ الْإِيمَانِ وَلَا يَبْقَى ، لَا أَصْحَابُ الرِّسَالَةِ لَدَيْهِ يَحْبِصُونَ ائْتَدَى مَعَ اللَّهِ وَيَنْقِصُهُمُ اللَّهُ بِوَاسِطَةِ الْأَعْدَاءِ وَبِذَلِكَ قَالَ

[سورة التوبة]

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا رَادُّوكُمْ إِلَّا جَبَلًا ۚ ۝ (٤٧) ﴾

لَمَّا لَحْمَكَةُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ . تَبَطَّ عَرِيضَتُهُمْ وَصَعَفَ رَعْبَتُهُمْ فِي الْأَسْعَافِ وَالْخُرُوجِ مَعَكُمْ

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ ابِعِثَّتْهُمْ فَنَفِضَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا

[سورة التوبة]

مَعَ الْقَاعِدِينَ ۚ ۝ (٤٦) ﴾

وهما يقول الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ، وزخرف القول هو لون من لأداء له سماع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر في قلوبهم ولا في نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعونه ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفِئَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِالْآخِرَةِ وَلِئَرْضَوْهُ وَلِيقْتَرْفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

كان من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن رُيت له معصية فإنه يتساءل : كم ستلوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ، ومادا أفعل يوم القيامة الذي يكون فيه الإنسان إما إلى دخول الجنة وإما إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تنقل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيفوق نفسه : فليستع في الدنيا فقط ، ولذلك لم يستحصر كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنت في هذه الدنيا محاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا في العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القاهرة في العقوبة ؟ ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبأهم إذا عرضت لهم أى معصية ، يفارمون بالعقاب ، فلا يقتربون منها . ( ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ) .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ، لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان مثا في الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تترقب عند كل ما يسمع ، بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسموه التسمع لا السمع ، وهذا هو الإصغاء . ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام . من تسمع غانية أى امرأة تنهى بخلاعة - ولم يقل « من سمع » ، والإنسان ما قد يسير ويذهب إلى أى مكان والمندباع يذيع الأعارى ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك



## سُورَةُ الْاِنْعَامِ

﴿٣٨٨٣﴾

السمع منطقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتعشت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهي مغمضة ، إنها ترى وهي مفتوحة ، والعين تنمض بالجنون أما الأذن فليس لها جنون يقول لها : لا تسمعي هذه ، وهذه اسمعها .

فإن بالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذي له فيه اختيار

﴿وَلَنُصَنِّفَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرَوْهُنَّ نَارَهُنَّ وَقُلْ آمَنُوهُمْ مَّقَرُّهُنَّ (١٠٣)﴾

[سورة الأنعام]

كان فيه شيئا يسمع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أى يوافق ما فى الأعماق ، وشيئا آخر يمر عليه الإنسان من اكرام غير ملتصت إليه . والأفئدة هي القلوب ، صحيح أن الأذان هي التي تصنى ، لكن القلوب قد تسمع ما يقال ، وكان النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا يؤمن بأن هناك آخرة وعندها استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون الثبات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى المراد وهذا إدراك .

﴿وَلَنُصَنِّفَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ . . (١٠٣)﴾ [سورة الأنعام]

ثم تأتى المرحلة الثامنة والمرحلة الثالثة :

﴿. . وَلَيَرْضَوْنَهُ وَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾ [سورة الأنعام]

وقد يصعب إنسان ، ثم تنبه نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة لكن هناك من يصغى ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم يتزعزع للعمل ليقترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هي : « ولنصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » . ثم المرحلة الثانية : « ليرضوه » ، ثم المرحلة الأخيرة : « وليقترفوا » أى يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التي درسها علماء النفس فالإدراك ؛ « لنصغى » ، والوجدان ؛ « ليرضوه » ، والتزوع ؛ « ليقترفوا » .

وقبل أن يؤند علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المحتقة من إدراك ووجدان ، وتزويج ، والشرع لا يتدخل عند أى مطهر من مظاهر شعور المرء ، لا عند التزويج إلا فى حالة واحدة حيث لا يمكن فصل الزوج عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون فى عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد فى نفسك ، تحبها وتعشقها تفتن بها ، ومحرم عندك الزوج ، فحين تتقدم ناحيتها بقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ، لأنه إن أدرك وجد ، وإن وجد نزاع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَنْصَابِهِمْ ﴾ (٢١)

[ سورة النور ]

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَنْصَابِهِنَّ ﴾ (٢٢)

[ سورة النور ]

إذن فقد مع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى التزويج ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالى فى كل شيء يحتف من الإدراك الجمالى فى المرأة . الإدراك الجمالى فى المرأة يحدث عملية كيميائية فى الجسم تسبب التزويج ، ولا يمكن فصلها أبدا . (وتسمى إليه أئمة الدين لا يؤمنون بالأخرة وليس صوره وليقتربوا ما هم مقترفون) . وساعة ما نقول : « ما » رياتى الإيهام فهد دليل على أن هناك أموراً كثيرة جداً ولذلك يقول الحق :

﴿ لَغَشِيَهُمْ مِنْ آلِيمٍ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٧٨)

[ سورة طه ]

أى أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : ( رابقتروا ما هم مقترفون ) .

أى أن كل واحد يقترب ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يعيل إليه ؛ فهناك من يعتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التى لا تحد ؛ لذلك جاء لها باللفظ الذى يعطى العموم .

وما دامت المسألة فى نبوة واتباع نبوة ، وفى أهداء شيب طين من الإلس والحن

ويؤتى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك كذا وكذا ويذلون قصارى جهدهم في إيدائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبغى حكماً غيرى ؛ لأنى أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذى سوف أجازى

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتى من يقول مراد المقتن كذا ، أو المفسر الفرنسى قال كذا ، والمفسر الإنجليزى قال كذا ، لا ، إن الذى يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، ولرسول صلى الله عليه وسلم يقول :  
( إنما أنا بشر وبكم تختصمون إلى فلعن بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بهن مسلم فإنما هي قطعة من السر فلباغتها أو لتركها ) (١) .

أى إياك أن يقول واحد . إن النبى قد حكم ؛ لأن اسبى صلى الله عليه وسلم قد حكم نظهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصين قوى الحجة ، والآخر لا يجيد لتعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذى قضى ، وما دام هو الذى قضى وهو الذى يحكم بيسكم ، فليظن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين  
ولذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ  
الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ  
أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

فسبحانه هو من يحكم وهو من قضى ، وهو من يعلم لقانون ويعلم من يتبع

تسألون ، ومن يخاف لقادري ، ساعة تقوم ، أعير الله أبعي حكيم » فهذا دليل على أنك وثق أن حيث من يقول لك إلا لا تستعني حكيم إلا الله ، ولذلك يطرح مسألة في صبعة منهم ، ويقرب صلى الله عليه وسلم مسعد عن ربه . « وهو الذي نزل إليكم بكتاب معصلا » . ولم يقل رسول الله وهو الذي أنزل على الكتاب ، بل قال معصلا عن رب العزة « وهو الذي أنزل إليكم بكتاب » كان العدوة ليست محمد وحده ، لكن العدوة لأمة لا يحاربونها ، ولحكم لأمة الإيمان كلها . ومع أن القرن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته لبلاغ إلى الناس وهداية من للمؤمنين . ويمكن تكون العدوة لدى هداية المؤمنين كلهم ، ولذلك أنزل عليه الحق هداية تسأل « أعير الله أبعي حكيم » كما أنزل عليه من قبل القول الحق

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾

( من الآية ١١٢ سورة الأنعام )

إذن العدو الذي هو العدو للمؤمنين به والمتمسكين له ، لكن قومة العدوة تكون لدى المرسل من الحق .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْبُدُونَ قَوْلَ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُ مِنْ أَتَمْتَرِينَ ﴾

( من الآية ١١٤ سورة الأنعام )

وكلمة « من ربك بالحق » فيها إعراف للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالعبادة ، لأن غاية إيراد الكتاب لكم أنتم ، ولكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يربح في صفات الله صفة ، ولن يزيد في حيث الله منك بل العدة أنتم

﴿ مُعِيرَ اللَّهِ أَيْتِي حَكِيمًا وَهُوَ الَّذِي نَزَّلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ ﴾

( من الآية ١١٤ سورة الأنعام )

وسبحانه لم ينزل الكتاب ، لا تفصيل لا تفتن فيه مسأله بأحرى

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ أَن يَقُولُوا إِنَّهُ كُفَرٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
الْمُتَمَرِّضِينَ﴾

( من الآية ١١٤ سورة الأنعام )

والمقصود هنا بالذين آمنوا الكتاب ليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعمتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم عسفوا دين . فيها يعلم يبدونه ويظهرونه ، وديننا يسر به ، فما يسره لا يعلمونه ويحرمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلوها ، وما الذي جعلهم يفترون هكذا ؟ لأن لهم حاليين اثنين . حال أيام أن كانوا يعاديه من لا يؤمن بالسماء ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق :

(وكانوا من قبل بسطنحون على الدين كهروا)

( من الآية ٨٩ سورة البقرة )

لقد كانوا من قبل أعداء لدين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشغل أن يتنصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظن رمان نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم :

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا)

( من الآية ٩ سورة التوبة )

وكان الثمن هو بقاء السلطة في أيديهم ، وعندما تأتي النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس في الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ أَن يَقُولُوا إِنَّهُ كُفَرٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
الْمُتَمَرِّضِينَ﴾

( من الآية ١١٤ سورة الأنعام )

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذي يشيعرته هو باطل . إذن مهناك علم بينهم وبين نفوسهم ؛ وعلم آخر يمولونه للآخرين . وقوله الحق : « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن لقراى منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب لنبى الله ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فلهذا المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أمورا قد تزلزل الإيمان ؛ لذلك يأتى الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذا قال لهم لا تغتروا ولا تشكروا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَنَعَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ  
لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

وكلمة « نعت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها حاتمة ، فما مراد بالكلمة التى نعت ؟ . أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٣) ﴾

[ سورة المائدة ]

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه ؟ ونرى أن معنى « نعت » استوعبت كل أقصى الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكما من الأحكام ، لأن الأحكام عطف كل الأقضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطى معنى الجمع . وأنت سمع فى الحياة اليومية من يقول : « وألقى فلان كلمة طيبة فوبلت بالاستحسان والتصفيق » هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة » إذن « نعت كلمة ربك » المقصود بها المنهج الذى يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق :

﴿ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾

[ سورة الكهف ]

أهي كلمة أو كلمات؟ أنها كلمة ولكن فيها كلمات إذن لفظ «كلمة» تطلق ويراد بها اللفظ المفرد، وتطلق ويراد به الكلام. ولكلمة في الأصل لفظ مفرد، أي لا يكون معها لفظ آخر، ولكنها تدل على معنى، فإن كان المعنى غير مستقل بالمعنى، ويحتاج إلى تسمية شيء إليه لفهمه فهذا حرف، وأنت تقول: «في» وهو لفظ يدل على الطرية، إلا أنه غير مستقل بالفهم؛ لأن الطرف يقتضي مقروفاً ومظروفاً فيه، فتقول «الله في الكوب» لتزدي المعنى المستقل بالفهم وكذلك ساعة تسمع كلمة «من» تفهم أن هناك ابتداء، وساعة تسمع كلمة «إلى» تعلم أن هناك انتهاء. وإن كان يدل على معنى في نفسه وهو غير مرتبط بزم من هو الاسم. وإن كان الزم جزءاً من «هو» الفعل. أما «الكلام» فهو الألفاظ المفيدة.

وحين تسمع «سما» تفهم المعنى، وكذلك حين تسمع كلمة «أرض» وهو معنى مستقل بالفهم. وحين تسمع كلمة «كتب» فهي تدل على معنى مستقل بالفهم، وانزمت جزم من الفعل، مكتب تدل على الزمن الماضي و«يكتب» تدل على الحاضر و«سيكتب» تدل على الكتابة في المستقبل إذن «الكلمة» لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف، و«الكلمة» قد يقصد بها الكلام.

وقوله الحق: «تمت كلمة ربك» تعني الكثير فإن إردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله. وكلام الله تسميه «كلمة» لأن مدلوله كلمة واحدة. انتهت وليس فيها تضارب، هذا إن أردنا بها القرآن، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شيء، وكل قصة في الوجود وأيضاً لم يس أو يدك فيه حرف بل بقي وسيبقى كما أنزل، لأن الألف في الكتب التي نزلت أنهم كتّموا بعضها وسوا بعضها، وحرفوا بعضها، وكان حفظها موكراً إلى الكافرين، ومن طاعة الأمر التكييف أنه يقطع مرة، ويعصى مرة أخرى. وإن أطاعوا حافظوا على الكتب، وإن عصوا حرقوها بدليل قوله الحق:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آمَنُوا لِلَّذِينَ هَادُوا  
وَالرُّسُلُيونَ وَالْأَحْيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ ..﴾ (٤١) [سورة الأنعام]

و«استحفظوا» أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفي عرصة أن يطع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر يختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ مُرْتَبِئَاتُ الذِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

[سورة الحجر]

ف سبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلف عمل فيها أبداً

إذن بقوله الحق : « تمت كلمة ربك » المقصود بها أن تطمئن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن يتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصاً مساوياً لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴾ (٥٣) فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ ﴾ (٥٤)

[سورة المشرا]

ومرة أخرى يقول سبحانه .

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ ﴾ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ ﴾ (١٢)

[سورة ص]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَٰذَا تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مِثْلًا ﴾ (٢٩)

[سورة الإنسان]

فهذا لون ونوع من المشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١٨)

[سورة القیامة]

والحق يقول .



﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ لِي صَلَاتِهِمْ حَسْبُهُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ  
الْعَمْرِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ بِزُكْوَاهُمْ فِيعَالُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِأُصْرُوهُمْ حَسْبُتُونَ  
(٥) إِلَّا عَنِ آبَائِهِمْ أَوْ عَمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَمْنُونِينَ (٦) لَمَنْ أَتَمَنَى وراءَ  
ذَلِكَ فَأُوتِيَكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ  
هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)﴾ [سورة المؤمنون]

وفى آية أخرى يقول :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٢٤)﴾ [سورة المعارج]

وكل ذلك يدل على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك  
قد تمت . أو قول الله : « و تمت كلمة ربك » ليبدل على أن كلمة الله هي العليا ،  
ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هي العليا » لم يجعلها الحق جملاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ،  
وسبحانه الفاعل :

﴿وجعل كلمة الدين كفروا السُّعْلَى .. (١)﴾ [سورة النجدة]

هذا السياق الإعرابي حصل فيه كسر مقصود ، والسياق في غير القرآن أن يقول .  
وجعل كلمة الله هي العليا ، ولكن سبحانه يقول :

( وجعل كلمة الدين كفروا السُّعْلَى وكلمة الله هي العليا )

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هي العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا  
دليل على أن كلمته قد تمت

ونلاحظ أن قول الحق : « و تمت كلمة ربك » تأتي بعد « أفغير الله أتمى حكماً » ،  
واسئغريء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المظلمين

والمحققين ، وبين المهتمين والفضالين ، إنه الحق القائل :

﴿مَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَوْنَهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾

( من الآية ١٠ سورة النكبات )

والحاصب هو الريح التي تهب بحملة بالخصب وكانت عقوبة لقوم عاد .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾

( من الآية ١٠ سورة النكبات )

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاتَّبَعُوا أَمْرًا غَالِيًا﴾

( سورة الحاقة )

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : ( فخسفنا به وبداره الأرض ) .

وكذلك : ( وسهم من أغرقنا ) .

وفد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق - من قبلهم - المكديين لنوح . إذن كل قوم اخنوا حكم الله عليهم ، لكث يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التي أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المصحح ، ولذلك قال الحق :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

( من الآية ١٥ سورة الإسراء )

وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ مِنْهُمْ﴾

( من الآية ٣٣ سورة الأنفال )

إذن « تحت كلمة ربك » ، وهي الفصل النهائي :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَكُفَّارُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدُنَا

[سورة الأنعام]

لَهُمُ الْغُيُوبُ (١٧٣) ﴿

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والتصور للمنهج الغالب يقتضى الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القاتل

[سورة المجادلة]

﴿ لَا غَلِيْنٌ أَمَّا وَرُسُلِي .. (١٦) ﴾

وما قاله كن هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطبقاً للكلام

[سورة الأنعام]

﴿ رَتَمْتُ كَلِمَتَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا .. (١٦٠) ﴾

أى وافق الواقع الكونى ما قال الله به ، وكيف كان الواقع صادقاً وعدلاً فى أن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصياً للولدك ، وصادف أنه هو الذى يدرس فى المدرسة وهو الذى يدرس لاهيك ثم قلب له : أريد أن يسبح الولد فى الامتحان ووعده المدرس بذلك ثم جاء الامتحان وبجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولحم للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذ غير عادل ، لكن كلمة الله تسمى مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهى كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضع الثواب والعقاب : ( وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة لقدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علم الله عبادته احتياط الصديق فى كلامهم : فأوصاهم .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٤) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . (٢٤) ﴾ [سورة الكهف]

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذى لا نتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فمن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحصى الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلا على وفق ما عنده من قوايين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول « أفعل ذلك غداً » ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟! لكن الله إذا قال : ( سامع ) فله طلاقة القدرة

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١١٥)

[سورة الأنعام]

ومادامت الكلمات ستتحقق واحكم سيصدر لهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه في عدواتهم ، وعليهم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَیُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِیَجْعَدُوا لَهُمْ .. ﴾ (١١٦) [سورة الأنعام]

أى ليعلموهم بخفاه ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بحفاه فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنَ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦)

و« من فى الأرض » المقصود بهم المكلمون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أرامر وبوہ ، مما دون الإنسان لا أمر له ، و« أكثر » لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، وما دام القول هو « أكثر » فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأما كثير فإنها ، تعطى له كميتته فى ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولعلنا كما سمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل

مصر منك كثير ، أى إن كنت رجلاً طيباً فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريراً  
فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۚ ۞ ﴾ [سورة الحج]  
فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسام الأمر : لأن بهم اختياراً ،  
صراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس بل قال  
« وكثير من الناس » ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : « وكثير  
حق عليه العذاب » هؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم فى ذاتهم فهم كثير ،  
والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولذا يقول الحق : « وإن تطع أكثر  
من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ؟

« الطاعة » - كما يعرف - متعينة للأمر هى « افعل » ، والنهى فى « لا تفعل » إذا  
قال الحق للإنسان افعل كذا : فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال  
« لا تفعل » فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شيء لا تقدر  
عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان صانع حين يؤمر أو يُنهى إنما يؤمر وينهى  
لمصلحته ، فإن لم يرجد أمام مصلحة معارض من منهج إلهى فهذا من مصلحته  
أيضاً ؛ لأن الله أجبر له حرية الفعل والتفكير . ويوضح الحق : من رحمتى أن جعلت  
لكم تشريعاً ؛ لئلا تتركوا الناس إلى أهوائهم يساًمر كل واحد من الذين لهم  
السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس عما يعالف هواه ؛  
لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى  
أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع  
« امعلوا كذا » و « لا تفعلوا كذا » وبذلك يأتى الاستطراق لنصهم جميعاً . ولذلك  
يقول الحق :

﴿ وَإِن تَطِيعُوا أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ۞ ﴾ [سورة الأنعام]

ههناك أساس مؤمنون وهم أصحاب العطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو العطرة في الإنسان ، وقد جاء التشريع ينمى في صاحب العطرة السليمة فطرته أو يكتسبها له ، ويعدل في صاحب التزعة السيئة ليعود به إلى العطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : ( إن يتبعون ، لا الظن ) . كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، وينيب عنه ما يجر عليه من الويل قيم بعد ذلك .

والظن : - كما تعلم - هو إدراك انطوف الراجع ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوي .

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦)

[ سورة الأنعام ]

و « إن » - كما نعرف - تأتي مرة جازمة : إن تفعل كذا تجب كذا ، وتأتي مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُتْهِمُوا إِلَّا سُبْحَىٰ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦)

[ سورة النحل ]

أي : ما أماتهم ؛ فـ « إن » هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون ، لا الظن » أي ما يتبعون إلا الظن . هم إما أن يتبعوا الظن وإما أن يخرصوا ( فالخارص ) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر في سوق الحلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكسوم من القمح ؟ . فيرد : حوالي عشرة أرادب أو اثني عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقيني أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلوك . لأنهم لا يملكون دليلاً علمياً ، ولا حفاً يقينياً ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجحاً

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ  
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٧)

وسبحه نرى «هو» هذه فاعرف أنها تُردّ ونجيب على ما يمكن أن يقال، مهتاك من يقول : أن سوف أرى تصرفات فلان، ولأنك من البشر فصههما عدت عنه فأت محدود الإدراك : لأنك ستري تصرفات فقط، ولن ترى نفعالات قلبه وتقلبات عقله، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم : لأن الميزان كده عنده، إنه يدرك الظاهر والباطن، وهو سبحانه يقول ها : «أعلم» وهناك «عليم»، و«العليم» هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به، لا الخافى منه، أما الذى يرى الظاهر والخبى فهو أعلم .

ولذلك كان لنبى ﷺ فى مسائل كثيرة يعامل الناس بعلايتهم، ويترك سرائرهم إلى الله . وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام، سأله ﷺ لماذا؟ قال : لأنه أعلن لإسلام نفاقاً . فقال ﷺ : أسفقت عن قلبه ؟ ! .

وسبحه وتعالى «أعلم» : لأنه يعلم الظاهر والباطن، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور

ويقول الحق

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِشَايئِهِ  
مُؤْمِنِينَ﴾ (١٨)

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُكَلِّمُوا مِمَّا ذُكِّرَ بِكُمْ مِنْ أَلَدِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ  
إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ الْبُضُلُونَ يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ إِن رَّبَّكَ  
هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

ما الذى أحس هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هلك أعداء  
لكل من ينسبون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى هيأها الله  
لهم ، فحين يقولون الاعتراضات بعد المنهج يرد عليهم ويدللك تنتفع الدعوة إلى أن  
تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج ،  
فحين قال لهم : إننى أسرى من إلى المسجد الأقصى وخرج من إلى لسماء فى  
ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة ليصدوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أتدعى أنك  
أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهر ؟ !! لكن أبو بكر الصديق قال :  
إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر بالمخالف  
للتواهم ، ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خير السماء فكيف أكذبه فى  
ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقي

لكن المعارضين لرسول الله ﷺ قالوا : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن  
نضرب إليها أكباد الإبل شهراً فأعطى ﷺ لهم الأمارات ووصف لهم العير التى  
فى الطريق ، وغير ذلك من لعلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ،  
ولو مرت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا  
الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حالياً من يقول وهل من المعقول أنه ﷺ راح إلى بيت  
المقدس وحده فى ليلة ؟ لا بد أن ذلك كان حلماً لو لم يقولوا هم هذا ما كما  
عرفنا الرد ! إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم  
لساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ، لأنه ﷺ لو قال



لهم : إني جئت لى رحى بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم  
السى حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ وخذ أن يكذب ، لكنهم  
ما داموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم هموا من الذهاب  
أنه ليس ذهاب رؤيا ورمى ذهاب قلب ، لقد فهموا عنه أنه قد انتقل بجسده من مكة  
إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعا الآن ، لرد به على  
المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التى يمكن أن ترد على أية شبه يشير بها أى إنسان  
سواء كان ماضيًا أم معاصرًا .

والحق هنا يقول .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٦٨) [سورة الأنعام]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاور الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها ،  
وقالوا : يقول النبى لكم : إن لمسة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما قدبحونه  
بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هى لسيبة التى قالوها ، وهى أولاً  
مغالطة فى الأساليب ؛ لأن الميتة حير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحتها  
لظهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة العقضية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً  
بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سبب للبيئة ، إنما القتل هو سلب  
للبيئة أولاً فتزحمق الروح ويبقى الدم فى الجسم . ثم هل يأخذ بشرع وهو الرب  
الأعلى الحكمة منا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟

وقد سبق لنا فى عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا فى الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل  
الفضلات الصارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الصارة من الحيوانات التى  
يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو  
يأكل ويهضم ويمتص العناصر المعدنية ليتكون الدم والطاقة ، وفى الحسد أجهزة  
تصفى وتنقى الجسم من السموم الصارة ، فالكلية مثلاً تصفى الدم من البولينا  
وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسجين ، وكل ذلك لتخفيض الحسد  
من الفضلات الصارة ، وأوعية الدم فى الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفاسد ، والدم الفاسد هو الذى لم تتم تنفيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحيين بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ، فأثار الدمين الاثنين موجودة . وكذلك آثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعفل فى شيء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلوت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكان الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

إن تلمى أى حكم من الحق ، لا يصبح أبداً أن نبحث عن علة لولا ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذى آمننا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

وللآيتين - كما علمنا - سبب نزلنا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد نقت فى عضدهم العفدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله . فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأما أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوب شيئاً إلى قبها ؟ سبحانه جل وعلا منزّه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، وكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخصاص ، يقولهم : كيف تبسحون لأنفسكم ما قتلتموه أى بالذبح . ولا يسبحون ما قتله الله أى أماته ، فيه مغالطة فى عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يصح عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التى يثيرونها ، فقال ﴿ فَكُونُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٨)

وما معنى الذكر ؟ إن عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً ، فسيئنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذهبت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسياً أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من اللبنة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذهبت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعى رحمه الله يرى : ما دمت مؤمناً ومثلاً على البيع وأنت مؤمن فكل مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر الله .

ونقول . ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يصر الشئ بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إن الذكر باللسان فليبحث فى الحديث القدسى الذى قاله الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم » (١٩) .

إذن فقد سمى ربا الخاطر فى النفس ذكراً ويدلك يصح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال

لذلك أقول : يجب أن يحدد معنى الذكر أولاً حتى تنهى الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ، لأن الذكر وهو حظور الأمر على أفعال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الحضور على أفعال ، وقد يظل حظور الأمر على أفعال فقط ، بدليل ما جاء فى الحديث السابق .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء ؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليدبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرّم وهو الله ، إذن اختياره حيواناً لتدبح دليل على أنه ذكر الله في نفسه أو في القول ، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه فإن أولم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن البس عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من دبحها وهل سقى أو لم يسق ، أوضح له سأله . سم وكل

فالإنسان ما لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرّم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائياً بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض صبيه تلقائياً . ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بحاطره هو فعل ذوبال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عباء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أنطع » (١)

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على ثالث أن تفعله أو لا تفعله . إذن فأنه سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الحاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل ميتفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تدبح عجباً ، أو خروفاً ، وتأمل أنت كيف يُمدرك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسحير الله كل الكائنات لك . فبسم الله تدبحه

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

(١) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة

نقبل عليها باسم الله . ولذلك نحظر . بعض الناس حرم يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة مهمته في الحياة ، لأنه مخلوق لهذا الهدف وممثل له .

لقد قلت سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المراوالات الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأق إلى الحيوانات التي لم يخلقها الله للإنسان ، كالخمار مثلاً إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يمتها ، كان التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت حرد أن يجد رفته إلى الأمام ، يكن الحيوان الذي أحله الله للأكل ، مثل البجاصصة أو الخروف أو العجل ، بجده الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يجد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الرفق في مصر : إنه يطلب الخلال ، أي الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ، لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

هذا معنى كلمة « باسم الله » أي أنني لم أجترى على هذا العمل إلا في إطار اسم الله الذي أحل لي هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين . لا تسمعوا كلام الكافرين ، وياق السؤال الاستكاري : « وما لكم ألا تأكلوا بما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أي سب بمنعكم من أن تأكلوا بما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، مما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التي نص الله عليها ، قربا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قبل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خبقت هذه الأشياء ؟ ونقول . إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكل حيوان مهمة . وإن ذهبت محرماً ، فقد يتناقص هذا العمل مهمته . فالحزير - مثلاً - حرمه ربنا ؛ لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كي يلم حراثيم الأشياء التي لا تراها العين ، فأنت حين تدبجه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصلحة ؛ لذلك حرم وحل له ، وياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشيء الصر ، فقد حرم شئ غير صار لأنه يريد بذلك الأدب في « فعل هذا » ولا تفعل هذا . وبذلك قال الحق سبحانه .

﴿ فَيُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيعَتِ أُحْلَتْ لَهُمْ ﴾

وفي حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءنا في الجيش بالشدّة ، يفسون هل الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعرّفوا التزام الأدب وانطاعه والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحاته يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن في بعض الأحيان نتناولها لتدأرى بها الأمراض . فلما أخذها الإنسان من غير مرض أو داء فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للسلاح لا تأتي بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أولاً ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير

وسبحاته وتعالى قد منع عما نلك الألوان من مغيبات العقل ، لعلنا نحتاج إليها في لحظة الشدة والمرض

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريرية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أى يا من آمنتم بالإله الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أفبئت على أى شيء مما أحبه الله لك فأنزل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأثرها في كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هي صفات الكمال لله ، لئلا توجد في غيره . ونحن نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول . باسم الله . ونهى المسألة . ونحن ناقش أسماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم . إن الحق سبحانه وتعالى قال في أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الرِّبَا ﴾

( من الآية ٢ سورة المائدة )

وها في سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

( من الآية ١١٩ سورة الأنعام )

والمسيهون من البعيا قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها برلت

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٣٩٠﴾

بعد السور المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق في السورة المكية « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » في السورة المدنية ؟ وبعض العلماء للذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم في سورة المائدة وجاء أيضاً في سورة الأنعام فقال :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَعْمِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ لِأَنَّهُ رِجْسٌ أَوْ لَحْمًا مِنْ أَهْلِ كِتَابٍ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لِي بِهِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَلَا أَجِدُ فِي أَنْ يُذَكَّرَ غَيْرُ ذِي هَيْبَةٍ ﴾ [سورة الأنعام]

أي فصل لك في هذه السورة المكية . وقد يأتي واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة ماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية في المنهج ، وتأتي السنة بالتفصيل في إطار :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [سورة الحشر]

واحق يقول ما :

﴿ رَفَعْنَا لَكُمْ ذِكْرَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطَرَرْتُمْ إِلَيْهِ .. ﴾ (١٩) [سورة الأنعام]

واضطرار هو أمر ملجئ إلى شيء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطراً أنه يلجأ إلى شيء فقد أسبابه المشروعة كالشيء يريد أن يأكل ليستبقى الحياة ، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقى به الحياة فهو مضطر . ونقول له نأخذ من غير ما أحس الله بالفقر الذي يدفع عنه الضرورة ، فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشجع .

والحق يقول :

﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ .. ﴾ (٣) [سورة المائدة]

والمخمصة هي المجاعة . إذن بالاضطرار هو شيء فوق الأسباب المشروعة

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة في أن يناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ أَتَّبِعُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١١٩) ﴾

[سورة الأنعام]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك في نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالماً بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله ﷺ -

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ عَنِ الْهَوَى (٢) ﴾

[سورة النجم]

وحين يقول الحق : « وَإِنْ كَثُرَ أَتَّبِعُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بדרךها ولكنك تعدل عنها .

﴿ وَإِنْ كَثُرَ أَتَّبِعُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٢١) ﴾

[سورة الأنعام]

وساعة ترى محيى متعلق بعد « يضلون » وهو قوله : ( بأهوائهم ) تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم في القضية ، وهذا يحتج عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . « بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها ويذيل الحق الآية بقوله .

﴿ .. إِنْ رَأَيْتَ أَنَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَذِرِينَ (١٢٦) ﴾

[سورة الأنعام]

وقد أسمع الله في النصر القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .



ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِي  
يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾

هذه تقييدات السماء التي تحمي المجتمع من بعضه وذلك في الانفع عن أحد عن  
مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك عن محله من غيرك تكون المحالفة مما يدرك لكنها  
ليست كل الفساد في المجتمع ، ففساد المجتمع يأتي من أشياء كثيرة لا تنفع تحت دائرة  
الإدراكات . وهناك أشياء تكون في منافع الناس البشرية التي تصدر عنها عوامل  
النزوع ؛ فقل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم  
الظاهر . والتقييدات البشرية كلها تحميها من ظاهر الإثم ، ولكن منحه السماء بحميها  
من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم

ويوضح لنا الحق لفرق بين تقيد البشر للبشر وتقيد الإله ، مسحاته رقيب على  
مواجيدكم ووجدانكم ومراكم ، فليأكم أن تعملوا باطن الإثم ، ولا يكفي أن  
تحمي نفسك من أن يرك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من  
أن ينتظروا بالجرية ويفتروها علانية ، والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن  
تشريع الأرض يحمي الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمي الناس من  
ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أصعب أنواع الإثم في الأرض .

وبعض أهل الاكتساب في الشر برياستهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر  
وكانهم يفعلون أمراً قد نعدوا عليه بلا افتعال .

و « كسب » - كي نعلم - تأتي بالاستعمال العام للخير ، و « اكتسب » تأتي للشر  
لأن الخير يكون فيه العمل العمل رتبياً مع كل المكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد  
- مثلاً - أن يشتري من محل ما فهو يذهب إلى المحل في وصح الباهر ويشتري . لكن  
من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة رتبياً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد  
يصبح بكثرة المرات والدربة عليه لا يتطلب ابتعلاً ، لأنه قد أصبح لوباً من

الكسب . و« يكسبون » تدل على الربح ؛ لأن « كسب » تدل على أنك أحدث الأصل والريادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخمر إنما يعطي لنفسه مقومات الحياة ويأخذ أجر لأخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد في حركته أن يحقق لذاته نعماً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينعمه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم يشأ من ذلك لفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمي الله الإنسان المؤمن بأعنه حتى يميز بين ما يحقق له الغرض لحالي ويحقق نعماً مبدأً ولا يأتي له بالشر وما يحقق له نعماً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة وبهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات - مثلاً - يحققون لأنفسهم نعماً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذي لا يلتفت إلى دروسه ، والذي ينام ولا يستيقظ ، والذي إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكع في الشوارع ، هو في ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن ماله إلى الفضل . فيما نجد أن من اجتهد وجد وتعب قد حقق لنفسه لنفع المستمر الذي لا نعقبه ندامة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ مُحْزَنُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (سورة الانعام)

في الدنيا نجد أن الحزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

والذي يصون للمحرم - إذن - هو التقيس السماوي ، فليسبح لا يحمي الإنسان من حركه فحسب ولكنه يقن لحركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ أُولَئِكَ هُمُ

الْمُجْرِمُونَ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١٦١)

## سورة الانعام

﴿ ٣٩٠٩ ﴾

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ «نفسق» وهو ما تشرحه الآية الأخرى ويبرره باسم مخصوص

﴿ قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مِثْلِ أَرْحَىٰ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ ذِمًّا مَشْتَرَكًا أَوْ نَحْمَ حَبِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلُ الْغَيْبِ اللَّهُ بِهِ ﴾ [سورة الأنعام]

إذن «فسقاً» معضوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو (فسقاً) ، والمعطوف عليه بحكم يحتص بالمعطوف عليه . وهذا الحكم هو الرجس وهكذا، أحدث الثلاثة للمهرمات حكم الرجس وعطف غيرها ما دبح وذكر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس ونفسق

ويقول الحق « وإن الشياطين ليرحون إلى أوليائهم » سبحانه يريد أن يبين لنا أن العطرة السليمة التي لا يميلها هوى تصل إلى حلق الخير ، ولذلك نجد أن الذين يحنون ويخصص بعضهم بعضاً على الشر ويعلم بعضهم بعضاً بحقد إثم ياحدون مقام لشيطان بالوسوسة والتحريض على المعصيات والكفر ، لأن المسألة العظيمة تأتي هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف لها ويتحيل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحى منك إلى غيره ، فيدله على الفساد ويكون بذلك في مقام الشياطين الذين يرحون إلى أوليائهم بعلام خفى ، لأن العطرة السليمة تأتي الأشياء لشريرها ونقص أيضاً فيها ، ولا يجعلها تقدم إلى شر لا الهوى . هذا ما أراد شيطان من الإس أو شيطان من آخر أن يرى لنفسه فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويلرز بكلام معوف مزين .

« وإن الشياطين ليرحون إلى أوليائهم ليعبدوكم وإن أظعنموهم بكم لمشركون » وفي ذلك إشارة إلى قول المشركين « تأكلون ما قتلتم أنفسكم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

[سورة الأنعام]

﴿ .. وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١٢١)

وكان مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لكون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال وإتباع عابد لمعبود أمراً ودهياً ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرج بك عن صلب وقلب مهيجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوْ مَنْ كَانَتْ مِيثَاقَ حَيْثِنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا  
يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ  
بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴾

والحق سبحانه وتعالى - كما عرفنا - يعرض بعض القصص لا عرضاً إجبارياً منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه - جل وعلا - عليم بأنه حين يأتي لك الاستفهام ، ثم يدور ذهنك لتجيب فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً تعبيرياً أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفي وأقواها الاستفهام بالنفي . وحين يعرض سبحانه القصة التي نحن بصدد فهمها يوضح وهو العليم أنك إن أحيت أن تجيب فلن نجد إلا الجواب الذي يريد الحق .

إنما نجد في الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هي الحياة ؟ . الحياة هي وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشيء يكون على حالة يؤدي بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مستوى للحياة هو ما تجتمع فيه الحركة والحس والمكر ، وهذه الأمور توجد كلها في الإنسان . أما الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له خريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو محكوم بالخريزة في أشياء وبالاختيار في أشياء ، وليس لك في الخريزة عمل . لكن في مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعممه وتستطيع ألا تعمله

إذن فالحياة هي أن يكون الكائن على حال يؤدي به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار فهي الإنسان حياة ، وهي الحياة حياة ، وفي النبات حياة ، وفي الجمادات حياة ، وكلما تقدم العلم يثبت لنا حيوات أشياء كثيرة جداً كنا نغفل ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا في التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أمعاء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فإذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزائه إلى جمادات لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يتفتت العظم .

وكن قدبماً في الرفق نخلب اللبن في أوعى من لمحار وتوضع في مراند ، ويستمر اللبن أسبوعاً في المرقد ، ويكون أحلى في يومه عن أمسه . ويرداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ روجة الفلاح قطعة الفشطة الأخيرة وتصنع منها الحبن الجميل الطعم . أو الرمد لكن بعد أن غلبنا اللبن مجده يمسد بعد عدة ساعات ، لأنك حين وضعته في المرقد ، أخذته بالحياة فيه فطلت فيه حيوية حياته ، لكن حين غلبته لقد قتلت ما فيه من الحياة ، فإما لم تضعه في ثلاجة لا بد من أن يتعفن . ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدي مهمته كلبن ، إنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل الكثرية وغيرها ، ولا يلعب الحياة إلا الهلاك وهو ما قاله الحق :

[سورة القصص]

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . . (٨٨)﴾

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شيء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ . . (٢٤)﴾

[سورة الأنعام]

كأن للإنسان حياة في ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشي به . كأن الحياة تنتقل في أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تصح به مرأى الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينه إلى المرئى عبره ، إلى أن جاء لعربي المسلم ابن الهيثم وقال هذا رأى جانبه الصواب في قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ، لأن شعاعاً من المرئى يصل إلى عين الرائي . بدليل أن المرئى إن كان في ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان في ظلمة لا يدركه الإنسان ،

ولو كانت الأشعة تخرج من عيني الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت في نور أم في ظلمة، وتعذلت كل النظريات في الضوء على يد العالم المسلم، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوجرافية والسينما. إذن فالنور وسيلة إلى المراتب.

ويترك الحق سبحانه وتعالى في أفضية الكون الحسية أدلة على الأفضية المعنوية؛ فالنور المحس الذي نراه إما ضوء الشمس وإما ضوء القمر، وإما ضوء المصباح، وإما غير ذلك، وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملًا بفعلياً غير ضار. ونحن نفسى المصباح بالكهرباء حين يعيب النور الطبيعي - نور الشمس - وعندما نصي مصابيحنا نرى الأشياء وتتفاعل معها ولا تحطمها ولا تحطمتها، وكل واحد مما يأخذ من النور على قدر إمكانيته. إذن كل واحد يصي المكان المظلم الذي اضطرب إلى يغيبه المنير الطبيعي على حسب استطاعته، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسية الملموسة لتأيد منها دليلاً على أن الله إن فعل نقيماً بوراً فلا يأتي بغير من عندنا، ما دامت قيمة موجودة.

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك، ويأتيه المنهج ليحيى حياة راقية. ويوضح سبحانه لكل إنسان : احرص على الحياة الثانية الخالدة التي لا تنتهى وذلك لا يتأتى إلا باتباع المنهج، وراك أن تظن أن الحياة فقط هي ما تراه في هذا لوجود لأنه إن كانت هذه هي عاية الحياة لما أحس الإنسان بالسعادة؛ لأنه لو كانت الدنيا هي عايته لكان أن يكون حظاً من الدنيا جميعاً واحداً وأصعاً واحداً، وحالاتاً واحدة، والاختلاف فيها طويلاً ونقصاً وحالاً دليل على أنها ليست العاية؛ لأن عاية المتساوي لا بد أن تكون متساوية.

إذن فقول الله هو القول انفصل :

﴿وَمِنْ الدَّارِ الْآخِرَةِ نَحْنُ الْحَيَوَانُ .. (٢٤)﴾

[سورة المائدة]

فهذه هي الحياة التي لا تصيب منك ولا تضيق منها، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته. إذن فالذي يحيى الحياة الحسية الأولى وهي الحركة بالنفس في الروح هو ميت متحرك.

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا بِمَشْرِئِنَا ۚ ﴾

( من الآية ١٢٢ سورة الأنعام )

أى أنه سبحانه قد أعطى مثل هذا المعد حياة حاللة ونوراً بمشيئته ، لا يحطم ولا ينحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوى ، لا تختلف عن الحياة فى ضوء الإيمان ، مثل هذا نقول : لا ، ليس يسهى تساوى فهي مختلفتان بدليل أن الحق يقول :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة الأنعام )

فسبحانه يخاطبهم ، ومقدم يحاسبهم فهم أحياء بالقانون العادى ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المبهج الذى يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التى ينفخها فى المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ، إنه أعطاها المؤمن والكافر . ثم يأتي روح ثانية تعطى حياة أبدية . ولذلك سقى منهج الله مخلقه روحاً

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا ۖ أَتْرَىٰ ۚ ﴾

( من الآية ٥٢ سورة القصص )

فالله يعطى حياة حاللة .

إذن نقوله الحق : « أومن كان ميتاً فأحييناه » أى أومن كان صاعداً هديده ، أومن كان كافراً فجعلناه مؤمناً . ولنلاحظ أن فيه « ميتاً » بالتخفيف ، وفيه ميت بالتشديد . والميت هو من يكون ماله الموت وإن كان حياً ، فكل منا ميت وإن كان حياً . ولكن الميت هو من مات بالفعل وسلبت وأرهقت روحه . ولذلك يحاسب الحق نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : ( إيت ميت ) .

أى تزول إلى الموت وإن كنت حياً الآن لأن كلاً منا مستمر فى الحياة إلى أن يتلبس بصفة المص ، ويقول الحق : « فأحييناه » أى بالمهيج الذى يعطيه حياة ثانية ، ولذلك سمى القرآن روحاً ، وسمى من نزل بالقرآن روحاً أيضاً

« وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس » ولما يمشى به في الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ، لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تختلط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التعامل الصعب لأنهم أصحاب أعيار ويتابع الحق : « كمس مثله في الظلمات ليس بخارج منها » وهذا تساؤل جوابه : لا ، أي ليس كل منها مساوياً للآخر ، مثلاً يقول : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ والفطرة هنا تقول : لا ، مثلاً تؤكد الفطرة عدم استواء لظلمات ولنور ، أو اللعل والحرور ، ومن تأمنا الله على الجواب : لأنه سبحانه يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستعظام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خيراً

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

( من الآية ١٢٢ سورة الأنعام )

والمعنى هنا أي تركناهم عرصة لأن يفعلوا للتزيين ، ولم يحرمهم الحق بالعصمة في اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حراً للإنسان :

﴿ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

( من الآية ٢٩ سورة الكهف )

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُّجْرِمِينَ  
لِيَمَّكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ  
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وقول الحق سبحانه . « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبيهاً بشيء ، لكنها وحدها في مكة من يذهبك العداء ويتهاصك ويقاومك في أمر الدعوة إلى الله ، ويصد عن



سبيل الحق؛ إن تلك قصية لست فيها بدعاً من الرسل؛ لأن هذه لمسألة قصية سائدة مع كل رسول في موكب الإيمان، وقد كدلت أي كما جعلت من مكة مسجراً من يمكرون جعلنا في كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة، فلم تكن بدعاً من الرسل، وحيث لم تكن بدعاً من الرسل فتصير على ذلك كما صير أولو العزم من الرسل، وأنت أولى منهم بالصبر؛ لأن مشقتك على قدر مهمتك الرسالية في الكون كله، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة لمعالج داء محدوداً في زمان محدود، وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة، فلا بد أن تتناسب المشقات التي تواجهك مع عموم رسالتك التي جعلت الله بها

﴿وَكَدَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مَّا نَكُورُ مَجْرِمِهَا.. (١٢٣)﴾ [سورة الأنعام]

والإجرام هو مأخوذ من مادة «الجيم» و«الراء» و«الميم»، الجرم والحُرْم والحُرْمَة فيها معنى القطع، و«مجرميتها» جمع مجرم، ومجرم من أحرم، وأحرم أي ارتكب الحرم والحريم، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالحريم عن مجتمعه الذي يعيشه، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو، فكأنه قام بعمية العزال اجتماعي، وجعل كل شيء لنفسه، ولم يجعل نفسه لأحد؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التي تترتب على ذلك.

إذن والإجرام هو لإقدام على الفواحش أقدماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه؛ لأنه يريد كل شيء لنفسه، ومادام يريد كل شيء لنفسه ومنه من التسلط موجود فيه، ويرتكب الردئ، ولأنه يرتكب الردائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الردائل؛ كي لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه.

﴿لِيُكْرَرُوا فِيهَا وَمَا يُمَكِّرُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٤)﴾ [سورة الأنعام]

ويكرر كما يعرف مأخوذ من النصف الأعصاب بعضها على بعض النفاذ بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعين أن تقول هذه الورقة من هذا النوع، لأن الأعصاب والعروق معروفة ومنشبكة ومجدولة بعضها مع بعض، والمكرر يصنع ذلك

لأنه يريد أن ينف نبيته حتى لا يكشف عنه ، وما دام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف الكرين ، لأنه لو لم يعلم ضعف تكويه لما عكر لأن القوى لا يكرر أبداً ، بل يواجهه ، ولذلك يقول الشاعر :

وضعيفة إذاً أصبحت فرصة قتلت كذلك قدرة الصغفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث لنفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر ، فيجهز على حصصه خوفاً من ألا تأتي له فرصة أخرى ، لكن القوى حين يأتي لخصمه لميسكه ثم قد يحدث نفسه بأن يترك ، وعندما يترك هذا الخصم حمافة جديدة فيعاقبه إذن فلا يكرر لا الضعيف ، والحق سبحانه وتعالى في هذه المسألة يتكلم عن الجريس من أكابر الناس ، أي الذين يتحكمون في مصائر الناس ، ويمسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف في مواجهتهم وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة ، وبعضها وقع فيه الحادل والخلاب ، ومن العجيب أن اخلاف لم يُصنف ، وكل جمعة من العلماء يمسكون برأيهم . وهذه الآية التي نحن بصددها حواطرها عنها تلتقي مع القول الحق .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلكَ قَوْمًا مِّنْهُمْ أَتَوْا بِمُتَوَفِّيهِمْ لَنَفْسِمْ فِيهَا فَعَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنِّي مُلَاحِظِينَ ﴾ (سورة الإسراء)

وهذه الآية فيها اشكال ، وقامت بسببها معركة بين العلماء ؛ فنجد منهم من يقول : وكيف يأمر الله أناساً بالفسق ؟ . وحاولوا أن يجدوا تأويلاً لذلك فقالوا : إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق . واخانب الناس من العلماء قالوا : لا ، إن الحق لا يقسر الشر على الفسق ، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله في المنهج فلا بد أن يعرف أن هذا الأمر فرصة لأن يعاغ وعرضة لأن يعصى ؛ لأن المأمور - وهو المكلف - صالح أن يعص ، وصالح ألا يفعل ، وأن الأمر قد أمر بشيء ، والمأمور له حق الاختيار ؛ ولذلك نجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴾ (سورة البينة)

والفسق - إذن - مترتب على اختيار المأمور .

وحين تأمل نحن بالخواطر معنى « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل في التكريات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على تخنفة لله في ذلك ، فهو الدائل . ( وما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون )

ويتمش أيضاً أمر الله في تشريعات ، ولبشر الدين نزلت هم هذه التشريعات أن يختاروا بين طاعة أو العصيان ، وسبحانه لقائن عن الأمر بالتشريع ( وما أمروا إلا ليعبدوا الله ) .

وحين يقول الحق . ( وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها )

فسبحانه لا يهلك هذه القرية طبعاً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلا بد لهم من العقاب بالدمار

وهكذا نرى أن العبداء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر في القرآن جاء على لربى . أولاً أمر المكربين بالقهرىات فلا يستطيع المأمور أن يتحلف عنه ، ويمثل الأمر القهرى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذْ أَرَادَ شَيْءٌ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٦)

( سورة يس )

فالأمر جاز في عالم الأزل ليبر حين يشاء الحق . ولأمر الناس . هو لأمر لتشريع وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفي هذه الإصدار منهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ قَدْ مَرَّهَا

تَذْمِيرًا ﴾

( سورة الإسراء )

فلا نقل : إن الله يأمر بالمشق ، والحق قد أمر المؤمنين بالهدج لأنه سبحانه لا يأمر بالمعشاه ، بل جاء الأمر بكل البشر أن يهدو . لله مخلصين له الدين . لكن كبار

أهل هذه القرية أحضروا البديل للضاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميراً . فإن كان في الكوريات فلا أحد من خلق الله مكلف في الكوريات ، أما أمره الثاني في اتباع المذبح فلنا أن نفهم أنه الاختيار

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لنتقرب مع الآية التي نحن بصددها خوفاً منها : أي وإذا أردنا أن نهلك قرية أرسلنا منبهاً لها فأكابرها كانوا أسوة سيئة فسقوا فيها بعدم إطاعة منبه الله فحق عليها القول فدمرناها تدميراً وكذلك أيضاً . نفهم قوله الحق : وما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وما يشعرون ، لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يفتن شيئاً من طريق ملتوي لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستلهم الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة حل هذه الفطرة لذلك يلتوى ولكل هد الماكر نقول : أنت تريد أن نتحقق لمصك خيراً عاجلاً وشهوه موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العفوية التي نشأ من هذا الأمر بالسنة لك ، وكذلك عفوتك على أنك أصلت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

( من الآية ١٢٣ سورة الأنعام )

أي لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدي إلى النفع الحقيقي .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا إِنَّا تُومِنُ حَتَّى تُوَفَّى  
مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ  
رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ  
اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

وكان الآية التي أرسلها الله مع رسوله وهي القرآن نشيت لهم صدقه في البلاغ عن

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٣٩١٩

الله لم تقمهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طدبوا بآيات أخرى ، فهم قد دلوا .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَسُوعَا ۖ ﴾ (١) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيرٍ وَعَبَ فُتُجَرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فُتُجِيرًا ۖ (٢) أَوْ تُنْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْهَا كَسَافًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَلًا ۖ (٣) ﴾ [سورة الإسراء]

هم لا يريدون أن يؤمنوا من إنهم يدخلون في الدجاج ، والتمس من سبل العوار من الإيمان ، لذلك نجد أن كل احتجاج حتى وقصرو بها أمام دعوة الرسول هي أكديب ؛ فقالوا ، إنه ساحر يفرق بين المرء ووجهه ، وبين الولد وأبيه ، ويدخل مما جاء به . - ويزعم أنه من عند الله - الفتنة في الأسرة الواحدة

لكن لماذا لم يتساءلوا : لماذا قد سحر غيرنا فمادالم يسحره ؟ . وهل تأبوا هم على السحر ؟ وهل للمسحور رغبة أو حيار مع الساحر ؟ إنهم في ذلك كادبون .

ثم قالوا ، إن الرسول ﷺ شاعر ، وهو أن أحداً غيرهم قد مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يحفل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر ، ويطلب الحق منهم ألا يقولوا أياً جماهيرياً ؛ ففي الرأي الجماهيري يعتمد ويلتس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائدها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةِ اللَّهِ تَعْلَمُونَ اللَّهُ شَيْءٌ وَفُودَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ ۖ .. (٤٦) ﴾ [سورة مائدة]

أي لا تأتوا في أثناء هياج نفس وتتهموا الرسول ﷺ بالجنون ، لأن قولكم في الهياج الجماهيري غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا بالله

مثني أي اثنين اثنين ، وكل اثنين بقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونري قضايه : أهو كاهن ؟ أهو ساحر ؟ أهو شاعر ؟ هيين الاثنين لا يصيح الحق أبد ، لأن كلا منها يناقض الآخر ، وحين يجلس اثنان لمناقش ، إذا اهرم مهابا واحد أمام الآخر لا يفصح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن يهزم أمام غيره ، وتجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معا ليناقشا ، ويبحثا أي أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ، لذلك يأل الأمر من الله أن يقوموا لله مثني أو مرادي ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول أهو محبوس ؟

إن أعمال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . وعمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه عن خلق عظيم ؟ ، لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقلبه المجنون ، أبصره ، أبشتمه ، أيقطع له ملامسه ؟ أما الخلق لعظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمرا افتعاليا . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أي قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل يسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ في النفس تصير هي الخلق وتصدر عن النفس الأفعال يسر وسهولة . وفي أعمال الممان نسميها خلقاً ، وفي أعمال المدة نسميها آلية .

وكنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سياره فهو يتعلم الأفعال التي تؤدي إلى سبر السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها يسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن في الخلق حين تصدر عنه الأفعال بذرة ومهارة ، وبعد - عن سبيل المثال - من يتعلم الفقه ، يسأله إنسان عن الحكم في الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه في وقت طویل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا ينعى في استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق . أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثني مثني أو فرادي وادرسوا تصرفاته متحدثون أنها تصرفات منطقية مبنية عن خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ، لأن المجنون لا صاحب له في حركاته ولا في سكناته ولا فيما يأتي ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ، لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس نكاحاً ، فالكهنة قد يستدلون بآيات

الله ثمنا قليلا ، وهو الذي أعلن لكم بعض الملك والثروة والجاه . لكنهم قالوا :

﴿ وَرَدَّا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . . (٦٢٤) ﴾

[سورة الأنعام]

ومد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك ، وكان من ناحية السأس من رسول الله ، ومن ناحية المال كان عبيا ، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد ، وقال : لو كانت الرسالة بكن هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا . لأننى أسن ولأننى أكثر عمالا ولأننى أكثر ولداً . وهو قد فاسها بمقاييس البشر ، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة لبست رقامة ، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الرزق وغير ذلك لكك لست على خلق محمد ﷺ ، الذى فطره الله عليه وأعده واسطفاه ليكون رسولا ، ولكن مع هذا قال بعضهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٦٢٥) ﴾ [سورة الزخرف]

ولنسمع رد القرآن :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . (٦٢٦) ﴾ [سورة الزخرف]

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية ، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله ، وفرق بين الرحمة فى الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال ؛ لأن هذه عطاءات ربوية . لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية ، انكم تميزهم فى دياركم باندال والذين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة ، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال ما وجدت من يفلح لك الأرض ، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس . ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولا ، أى يقب سببانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس ، تكون لهما فى زمن ولآخر فى وقت ورمز آخر ولا تدوم لأحد .

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال : زاحمتا بنى عبد مناف فى

الشرف، أصمموا فأطعمموا، كسوا فكسوا، دبحوا فذبحوا. حتى صرنا كفرة على رهان، قالوا. ما يبى بوحي إلهه والله لا يرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا برحي كما يأتيه، ومعنى كفرسى رهان، أى محين تنطلق الخيل فى السباق فى وقت واحد كانوا يندقون عوداً فى الأرض عند نهاية السباق ومن يجلبه من الأرض يقال له حاز قصب السبق، وعود القصبه هو عاية المشوار، حتى لا يقول أحد لقد سقى بخطوة أو غير ذلك.

وهنا يقول الحق : ( وإذا جاءتهم آية )

وانظر إلى كلمة «جاءتهم آية»، مرة يقول: (قد جئناك بآية من ربك)، ومرة يقول «جاءتهم آية»، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تحيىء.

﴿ قَالُوا لَوْ نُؤْمِنُ حَتَّى تُنْزِلَ مِثْلَ مَا نُؤْتَى رُسُلُ اللَّهِ .. ﴾ (١٧١) [سورة الأنعام]

ويقول الله لهم رداً عليهم . لا نفترحوا ذلك على الله ؛ لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ؛ لأن الرسالة إنما تحيىء لتشر حبرا فى الجميع، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير . والغير يريد أن يأتى له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس . والرسول قد جاء ليشر خيره للأخريين، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به . ويأمر سيدها رسول الله ﷺ فل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة، أما ما تركه فقد صد صدقة للناس، أى أنه لم يتفع به فى النسيء؛ لذلك هو مأمون على الرسالة، ولم يرد أن يأخذ الدنيا ليرتبها أهله من بعده . وقد أراه الله كذلك ليكون خيره لكل الناس فالرسالة تكليف، والسوة ليس حراؤها، بل من عطفه اخراء أنه فى الآخرة، ولعلك حينما جاء رسول الله ﷺ فى بيعة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك. قال تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا.

قالتوا له : فما لنا ؟ أنت اشترطت لنفسك ، فما لنا إن تمنع وعينا ؟ . ماذا قال الرسول ﷺ ؟ . قال سكم الجنة هذا هو لثمن ابدي عده ،



فمن يريد الجنة يأتي إلى الإيمان، ومن يريد ما هو دون الجنة وليس مكانه مع أهل الإيمان، مع أنه قال لهم فيما بعد ستركم من السفن وتعرضون الزراري والوسائد وتجسسون عليها، ويشرهم بالكثير، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن من هؤلاء من لا يدرك حبراً في الدنيا مع الإسلام؛ بل يموت والإسلام ضعيف واتباعه في قلة، لذلك أعطاهم الخراء المضمر لهم جميعاً حين قالوا له: ماذا إن نحن وقيّنا؟ قال: لكم الجنة. وكأنه ﷺ يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جراً على عمل الصالح، فجاء العمل الصالح حائل لا يفرث ولا تفرته.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ ..﴾ (١٢٣) [سورة الأنعام]

وحسين شامل قولهم: (لن نؤمن) يجد أن في هذا القول إصراراً على عدم الإيمان، أي لن نؤمن حتى في المستقبل إنهم تحكموا في المستقبل ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر، ومن بقي منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح. ومن لعجيب أن العساة التي يطفون بها هي عساة مهزوزة لا تنضم مع مسطق الكفر منهم، قالوا: لن نؤمن حتى مؤني مثل ما أوتى رسل الله، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلاً من الله، والأصل في الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله ﷺ خاتم الرسل، وهذا القول يدل على مجرد امعاضة المقترنة بالفاء، فما دمت تعرفون أن الله رسلاً يصطفونهم، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله في الاختيار؟

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية، حسية مرئية، وهي وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم، إلا إنه لا ديمومة لها، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فيمطر لئلا يكذب هذه الآية الكونية، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى، وكذلك رسالة عيسى ﷺ حيث أيرأ الأكمة ولأبرص بإذن الله. وهذه رسالات لمرس محدود وفي يوم محدودين، لكن الرسول ﷺ جاء ومعه المهج المعجزة الباقي إلى قيام الساعة، فإذا كانت المعجزة حسية فإن يراها إلا قروم مختصون لأن الأمر الحسي لا يتكرر، بل ينتهي، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة. فلا بد من آية باقية إلى قيام الساعة؛ لذلك كانت الآية في المعويب والعفليات التي لا تخلف فيها الأمم ولا تتحلف فيها الأزمان،

لكنهم أرادوا معجزة حسية، وأخرى عقلية، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية، فحسم الحق الأمر وقال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته»

ولو نظرنا إلى كلمة «الله أعلم حيث يجعل رسالته»، فكلمة «أعلم» تدل على أنه قد يمكن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمداً ﷺ، لأن الذين واجههم ﷺ بأمر الدعوة، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة، أو أمر به بمجرد الإخبار؟ لقد آمنوا بمجرد الإخبار، لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض، ولا بد أن يكون مأمونا على خبر السماء، لأنه لم يكذب عليهم في أمر الأرض، فكيف يكذب في أمر السماء؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال: صدقت، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته، وقالت أول استنباط فقهي في الإسلام. وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الاصطلاحي الحديث، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هي استنباطات للعمل المطري السليم البعيد عن الأهواء. إنه يقدر أن يستقرى الأمر ولا بد أن يهتدى، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذي أصابه مرض أو مس من الجن رفضت ذلك لأنه يصل الرحم، ويحمل الكل، ويعيس على سواك الدهر، وقالت له: والله لا يخريك الله أبداً.

إذن فقد جاءت بالمقدمات التي توضح أن ربنا لا يمكن أن يأخذ، وكل المقدمات مفاحر، كلها خلق عظيم، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتي منهج السماء، التقاءات إنسانية بالمطردة دون تفسير أو تدبير، وكان هذا أول استنباط فقهي في الإسلام. ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول روجة له؟ لأنه مستمر به فترة لا يحاج فيها إلى روجة فقط، بل إلى صاحبة، ذلك النصح الكامل الذي نستقبل به مسائل التنو، ولذلك حين يخرج إلى العار تأتي له حكمة خديجة في الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام؟

«الله أعلم حيث يجعل رسالته»، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه حصلاً وأشياء حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول

## ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَهْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

( من الآية ١٢٤ سورة الأنعام )

ها سجد فجرة انتقالية في الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عن يظنون أنهم كبار ، فيأتي ليقول : إن الصغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم دانياً ، فكل منهم سيصغر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان في نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار مسروباً إلى عدية ، فهو لا يروى أبداً ، لأنه لا توجد قوة ثانية تقول له إن قدرك من يحقق فالصغار والذل راهوان سيرل هم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلي يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد

## لمادا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل ، إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذي تكون فيه ذلة النصر والعذاب الأليم الذي يكون في ابنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معريات قيمة ، فمن ناحية ابنية يهينه العذاب ، ومن ناحية المعاني النفسية تصيبه الإهانة ، فذلك من يتعذب لكث لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تنقي من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلى للشامتين أرواحي أرى لرب الدهر لا أنصعصع  
لذلك يرل قدر الله بالعذاب على نوعين عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذي لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُزَلْ الحق العذاب هؤلاء جراف ، لكنه بسبب ما كانوا يكرهون ، فسبحانه هو القائل :

## ﴿ وَمَا ظَنَنَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظُنُّونَ ﴾

( من الآية ١١٨ سورة الحل )

والحق سبحانه وتعالى حسيماً عرص هذه القضية عرصها ليبين لنا أنه لم يرعم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختبار في التشكيف بل أوحى ذلك في إطار

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ...﴾ (٢٩)

[سورة الكهف]

ولكن الإرعام من الحق جاء للأمور القهريّة القدريّة الكويبة الخارجة عن نطاق التكليف، أما أمر التكليف فثالته سبحانه وتعالى قال فيمن يرضون الطاعة: «يعصيب الدين أجزمو صغار عند الله وعذاب شديد» وسبحانه قد أوضح لنا - نحن بم نجعل ذلك قهر أمنا لهم دون عمل عملوه باختبارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاء لكرهم

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى لنا بقصبة يقع فيها الجدل التبريري لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم في الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك؛ فيقول سبحانه

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ  
لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا  
حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ  
يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥)

نجد من يقول إن ريسا حين يريد لإسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله ومادنت المكلف دن؟ .

وللرد على هذا نقول: لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان، المعنى الأول الدلالة وهي أمر وارد وواجب حتى للكافر فإن هدى الله للكافر أن يبدله إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهي للذي آمن، ويصبح أهلاً لمونة الله بأن يحفف عنه أعباء المكاييف ويسر لها له ويجعله يعيش كل الأوامر ويعشق المعص والتجاني عن كل التواهي

يقول بعض الصالحين: «اللهم إني أخاف ألا تيسى على طاعة، لأنى أصبحت أشتهيها» كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد فيها مشقة أو تكليفاً، لذلك فهو خائف، وكأنه قد فهم أنه لا بد أن توجد مشقة، ولئلا هذا الإنسان الصالح يقول: لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقتك فألمت لعبادة كما ألمتكم وعشقتكم، وحدث الانجذاب منك وبين الطاعة، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا بؤدى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كالى لكنه ﷺ يقول لئلا حيسا يأتى وقت الصلاة: «أرحنا بها يا بلال».

وهذا غير ما يقوله بعض من يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم: هيا نصلى ليريحها من على ظهورنا، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حبسما يحربهم ويشدد عليهم أمر حارج عن نطاق أسبابهم، يقول الواحد منهم: ما دامت الصلاة تريح القلب، فلأذهب إليها وألقى ربي زائداً على أمر تكليفه لى متقرباً إليه بالوفاء، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. ومعنى حربه أن الأسباب الشرية لاتنهض به، فيقوم إلى الصلاة، وهذا أمر منطقي، ولله المثل الأعلى.

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه، فما بابا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فدمى نروح؟ إنما ملجأ لربنا ولقد كان ﷺ إذا حربه أمر قام إلى الصلاة.

بدن فمشتى التكليف شىء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة، وقد يجور أنه شاق عليك؛ لأنه يحرجك أولاً عما ألمت من الاعتقاد. فمدا يأتيك أمر فيه مشقة تقول: إن هذه المشقة إنما يريد بها لى حس الحراء، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حباً لك، وكان واحد من الصالحين - كما قلت - يخاف ألا يشاق على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس، والإنسان مطالب بأن يعارب نفسه فى شهواتها لكن رسول الله ﷺ وضع لنا المثل فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما حث به» أى يصبح ما يشهيه موافقاً لمهج الله، فإذا وصل واستهى المؤمن إلى هذه المربة فهو نعم العبد السرى.

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان. هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة.

فَإِذَا مَا اقْتَضَتْ هِدَايَةُ السَّلَاطَةِ وَأَمْنَتْ بِالْحَقِّ فَمَسْحَانَهُ بِخَفِّفْ عَلَيْكَ أُمُورَ الْمُكَلِّفِينَ .  
وَيَجْعَلُكَ عَاشِقًا لَهَا ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ الصَّلَاحِ : رَبَّنَا قَدْ مَرَّصَ عَلَيْكَ خَمْسَ  
صَلَوَاتٍ ، وَسَمَحَانَهُ يَسْتَحِقُّ مَا لَوْ قُوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ مَرَّاتٍ ، وَمَرَّصَ عَلَيْكَ  
رَبِّتَ نَصَابَ لَزَكَاةٍ وَهُوَ اثْنَانِ وَنِصْفُ بَدَايَةِ ، وَسَمَحَانَهُ يَسْتَحِقُّ مَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ  
وَاحِبُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَذَا عَشَقٌ لَتَكْلِيفٍ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ( فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ  
يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ) .

وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ، أَيْ يَدْلُهُ سَبِيحَانَهُ كَمَا دَلَّ كُلُّ الْعِبَادِ إِلَى الْمُبْعِ ، لَكُنْ  
الَّذِي اقْتَضَى مَالِدَالَةَ وَأَمْنٍ يَسْهَلُ عَلَيْهِ نَبْعَاتُ التَّكْلِيفِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ الْحَقِّ .

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَإِن تَقِيبُوا عَلَى الْغَالِيَةِ غَيْرَ بِكَ تَوَّابًا وَحَكِيمًا ﴾  
مَرَدًا ﴿ ١٦٠ ﴾

( سورة مريم )

هَذِهِ هِدَايَةُ الْمُعَوْنَةِ ، وَفِيهِ فَرْقٌ هَا بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَا عَمَلُ فِيهِ  
إِلَّا الْإِعْتِقَادُ ، إِنَّمَا هُوَ حَمْلُ النَّفْسِ عَلَى مَطْلُوبَاتِ الْإِيمَانِ . وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ كِتَابَ رَجُلٍ  
قَرِيشٍ رَفَعُوا أَنْ يَقُولُوا : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ؛ لِأَنَّهُمْ عَدِمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَجْرَدِ كَلِمَةٍ  
تَقَالُ ، وَلَكِنْ هِيَ مَطْلُوبَاتٌ تَتِمُّ فِي التَّكْلِيفِ الْبَاقِيَةِ عَلَيْهَا بِـ « أَفْعَلْ »  
و « لَا تَفْعَلْ » فَالتَّكْلِيفُ يَقُولُ لَكَ : « أَفْعَلْ » لَشَيْءٍ هُوَ صَعِبٌ عَلَيْكَ ، وَيَقُولُ  
لَكَ : « لَا تَفْعَلْ » فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَتْرَكَهُ ، لِذَلِكَ يَقُولُ سَبْحَانَهُ .

﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

( س الآية ١٦٠ سورة الأنعام )

وَسَبْحَانَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ جَلَّمَ أَنَّهُ قَدْ اعْتَقَدَ شَرِيعَةَ التَّوْحِيدِ وَرَضِيَ بِهَا  
وَاطْمَأَنَّ بِهَا ، فَيَأْتِي إِلَى فَهْمِ التَّكْلِيفِ ؛ لِأَنَّ صَحِيحَ الْإِسْلَامِ يَفْتَضِي الْإِقْبَادَ لِأُمُورِ  
التَّكْلِيفِ ، فَمَنْ أَخَذَ الْهِدَايَةَ الْأُولَى وَأَمْنَ بِرَبِّهِ ، يَوْصَحُّ لَهُ سَبْحَانَهُ آمَنَتْ بِ  
وَحْتِي ؛ لِذَلِكَ أَحَقُّكَ عَنْكَ نَبْعَاتُ الْعَمَلِ ، وَيُشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَيُشْرَحْ  
الصَّدْرُ هَذَا بِكَوْنِهِ جَزَاءً . فَمَسْحَانَهُ هُوَ الْفَائِلُ :

## ﴿ أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

( سورة السرح )

فقد جازاه ربنا بذلك ، لأنه أتى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليشرب على المراد والمطلوب منه يعلم أنها لتكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد للتشبع بقول التكليف ، فإنه يجمعها عنك لا بالتفليس منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلمص بك بأشياء فوق ما كلمك الله ، لتكون من أهل المودة ومن أهل التحسينات ومن الذين يدخلون مع الله في ود ، وتلتصق لنفسك وأنت تقول : لقد كلمني الله بالفضل وسبحانه يستحق الكثير . فتريد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسي

« من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب » وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » (١) .

أي بالأمور التي تزيد على ما كلمه في الصلاة والركاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أي يجعل الأمور التي يعطي بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقها لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك في حلقه مثلاً للناس . فتجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأجله فهو باقى يتمتع ويكثّر . لذلك يحرص عبده الإنسان ، فيحنى الله العبد من أجل البدل والعطاء .

إنما نجد المؤمن يعطي للسائل لأن السائل هو الخسر الذي يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل رادى إلى الآخرة بغير أجر ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام عن - رضى الله عنه وكرّم الله وجهه - ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

وسحار الإمام على مقياس الإيمان في نفس كل مؤمن ، وقل له . إن جاءك من يطلب منك ، وجاء من يعطيك ، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب

إذن في شرح صدره للإسلام أي يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة ، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاء آخر بأن يعشفه في التكليف ويهديه الله إلى طريق الحق ، لأن هناك هداية إلى السوء وهداية إلى الجلاء على المسجع ، ولذلك يجد القرآن يقول : عمن ضلوا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْصِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [سورة النساء]

كان هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجلاء ، ونجد الحق يقول .

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُعْمِلَ أَعْمَلُهُمْ (١) سَيُهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِأَلَهُمْ (٢) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ (٣) ﴾ [سورة محمد]

وقد يتساءل إنسان كيف يهدي الله من قتل ، وهل هناك تكليف بعد القتل ؟ .  
نقول انظر إلى الهداية ، إنها هداية الجلاء « سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

وهكذا نعرف أن هناك هداية لجلاء ، من يحسن العمل يُجزئه الله الجنة ، أما من يسيء فله عذاب في الدنيا والآخرة

﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَلْوَةً حَرْجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي لِسْمَاءٍ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾ [سورة الأنعام]



وبل هذا نحن من الله على خلقه؟ لا، لأنه مادام دعاهم للإيمان فأسر بعضهم وصاروا أهلاً لتحليلات، وكفر بعضهم فلم يؤثروا، فصاروا أهلاً للخرج وضيق الصدر. ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدي به مهمته، فحين يقال صاق البيت بي وبعبائلي، فهذا يعني أن الرجل وروجه في البداية عاش في غرفتين، وكان البيت متسعاً ثم ألجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت وهكذا تعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل وقال: صدره ضيق أو ضيق فقد ورد في القرآن لفظ ضيق على بعين: فالخلق يقول:

﴿.. وَلَا تَلِكْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٤٧)﴾ [سورة الحل]

وهناك في الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها توجد كلمة ضيق، وأحق يقول:

﴿لَعَلَّكَ بَارَكٌ بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ.. (١٢)﴾ [سورة هود]

فما المراد من «صائق»، و«ضيق»، و«ضيق»؟. نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين في التشويش القسب والرئة، والرئة هي الجارحة التي لا تستمر الحياة إلا بعملها، فقد تبطل الأمعاء مثلاً، أو تتوقف قليلاً عن عملها، ويمغنى الإنسان عن خريبه من الدهن أو اللحم ولذلك يصير الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصير على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على فتقد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيقة والزفير

ولقد قلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد يملك بعضاً قوت بعض وأقل منه أن يملك بمصا ماء بعض، لكن أملك أحداً هواء أحد؟ لا، لأن الرضا والغضب أغير في النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحيسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرصى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» نعلم عنها أن الصدر

هو محل التنفس، والرفة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثاني أوكسيد الكربون، وعندما يصاب الإنسان بوية برد نراه وهو يجد صعوبة في التنفس، كأن حيز الصدر صار ضيقاً، فلا يدخل الهواء الكافي لتشغيل لرتبتين، ويحاول الإنسان أن يعرض بالحركة ما فاته فيسهج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء، فيسهج؛ لأن الحيز قد ضاق، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً، ينهج أيضاً؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود، لمعادنة الجاذبية الأرضية، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليسحب إلى أعلى ويقاوم الجاذبية.

إننا نجد نرول السلم مريحاً؛ لأن في النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر، فإذا ضاق الصدر بمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم، ولذلك يقال: «فلان صدره ضيق» أي أن التنفس يبجهد (جهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الجسم الذي يسعه صدره).

«ومن يرد أن يصله يجعل صدره ضيقاً حرجاً والخروج معناه الحجز عن الفعل، كان يقول حرجت على دلائل أن يعمل كذا، أي ضيق عليه ومنعه من أن يؤدي هذا العمل. (كأنما يصعد في السماء)

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لعمل الجسم إلى جهة من جهاته، فالجهات التي تحيط بأي شيء ست هي فوق وتحت، ويمين، شمال، وأمام، وخلف، وعرفنا أن الهبوط سهل؛ لأن الجاذبية تساعد عليه، والمشى ماذا يعني؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف، فهو فعل في الاستواء العادي الطاهر، والذي يتعب هو أن يصعد الإنسان، لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين: قوة للفعل في ذاته، والقوة الثانية لمعادنة الجاذبية.

«ومن يرد أن يصله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنه يصعد في السماء» وذلك بسبب مشقات التكليف؛ لأنه لم يدخلها بعشق، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذي يستقبل هذه التكليف بشرح صدره وبإسقاط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل، والذي يسهل مشقة الأعمال حلوة تصور الجزاء عليها؛ فالذي يجتهد في دروسه إنما يستحضر في ذهنه لذة النجاح وأثار هذا النجاح

في نفسه مستقبلاً وفي أهله . أما الذي لا يستحضر نتائج ما يفرض فيكون العمل شاقاً عليه

﴿ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يُمْلَهُ يُجْعَلْ صَدْرُهُ حَقِيقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ .. ﴾ (١٢٥)

[سررة الأنعام]

والسماء هي كل ما هلاك فاطتك ، فالجو الذي يحلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهر آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القرن دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذي كان يدرك أن الذي يصعد في الجو يجب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثاني لما مضى الحادية ولذلك يصيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافي لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ويقول لهؤلاء العلماء . لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق في القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحس شهوتنا في أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا ننتهات فنجعل من تفسيرنا آية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المحققين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ، فالنظرية افتراضية وقد تخيب

لذلك نقول أتبع القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للبدلية . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التي أثبتت التجارب صدقها

وقد قل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لا تناقض الحقيقة القرآنية مع حقيقة الكونية ، لذلك لا تحده أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها في شيء وهي غير محصورة فيه . وننبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية

﴿ .. كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ

[سررة الأنعام]

لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢٥)

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتهم بسب كفرهم وعدم إتيانهم على التكليف

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ  
لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

وهذا مقصوده ما تقدم من آيات من كتاب لإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح المصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ، فمرة نعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام

( وهذا صراط ربك مستقيماً ) وه الصراط هو الطريق السوى ، والطريق السوى قد يكون مع سنوئه معوجاً لكن هذا الطريق مستر ومستقيم ، وعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للعبية وعن هذا فصراط لا تعنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يعنى عن صراط ، بل لابد من صراط مستقيم ليكون أقصر طريق إلى العيبة وبلا متاعب ، إنما نحن البشر يرى المهندسين وهم يقبسون الأبعاد والمسافات والعايات وابتدائات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدائيات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيد ، وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كأداء كبحيل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما ننحت نفق في الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحى الطريق ليضمنوا جودة تمهيد الطريق فإن جاء المهندسون وقالوا نمش من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك ، إلا جعلوا الطريق متمرجاً أو حلزانياً ، وذلك لبتعادى السائر العقبات التى ليس له قدرة عليها

لكن إذا كان الصراط قد مهد به رب ، أتوجد له عقة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم - ولنلاحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطية الرب ، إنه سيد ، ومرب ، وخالق الخلق ونصمهم هم ما يعينهم على مهمتهم في اوجود معونة ميسرة سهلة وهكذا يعرف أن طريق الحق هو الصراط المبدى استقيم ، أى الذى يصل بين البدايه والنهايه . فإن كان الطريق الذى نتبعه مستقيماً ومعبداً ، وسهلاً ، فلماذا لا نتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلاحظ أنه سبحانه قد أسد الرب لمحمد ، أى من أجل خطئه جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولى لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِنَا لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١١)

( سورة الأنعام )

« فصل » أى أن كل شيء في هذا الكون مخلوق لما ياسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقتها ربنا لتحقيق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عت والمهج الذى أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شيء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولد . ولا يعطى سبحانه الحياة لمخلوق ويوجد في الكون ، ثم يعزبه من أسلحة الحركة في الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبنى بيتاً ، أقول له . اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت ونمطه ؟ أقول له . تعلم كيف تكون ضيفاً وكهربائياً ونقاشاً ؟ إن افراد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتي غيره ليؤدي له عملاً ليس له فيه مرهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أمراده .

ولو كما تخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا في التعميم يقومون بأعمال في الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محسوسة ليهبهم قدرات أخرى تصنع في مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعديماً غالباً لصار الحرم مقلوباً وإن قلب الحرم فمعنى هذا أن أجراء منه ستكون بغير دعائم في الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقلياً أرادته الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج في

الجامعة ثم اكسب الشارع . وكسب في الغد حداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحس استقلال قدر الله في نفسه يُعطى الله له من العمل كل الخير .

ونلاحظ الآن أن من يعمل موظفاً في الدولة يحيا في راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدر عمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الوكيل والتعب لمن كان تقدير عمله في يد غيره . ( وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ) .

وانظر كل قصة في الكون ، لم يتدخل ابن آدم فيها لأنه نجدها مستقيمة ، ولا يأتي لعساد إلا في القصايا التي أدخل ابن آدم أنه فيها بدون منهج الله . فإن دخلت في كل مسألة بمنهج الله يستقيم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى في كونه والذي لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه : السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أموراً تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّسَاءَ رَعَعَهَا وَوَصَّعَ الْبِرَّكَانَ ۝ أَلَا تَطْمَئِنُّ فِي آيَاتِنَا ۝ ﴾

( سورة الرحمن )

فإن أردتم أن تستقيم أموركم في شئوكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنهج الله ؛ لأن الأشياء التي تدار بمنهج الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدي مهمتها كما ينبغي .

فعل الإنسان - إذن - أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التي أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولا بد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى النتائج المطلوبة . وأقصر الأمور أن نسأل نفسك . أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادعى واحد في كون الله - وما أكثر ما يدعى - أنه خفيك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله بقرره ، دون صيانتكم ، وسيظل الناس متعبين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالفها . ( وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ) .

ولم يقل فصلنا الآيات بواحد ، بل قال : لقوم ، حتى إذا ما مال أو عقل واحد في العكر يعدله غيره . وكلنا متكاملون في التكبير ، وهذا التكامل في التكبير يعصم كل

مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل حنذى قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدسه  
غيرى وهذه قصبة كونية لو استقرأب الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبداً ، ولا بد  
من تذكر الغاية التى جاء بها فى قوله الحق :

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَيْسَ بِمُحَرَّمِينَ كَانُوا  
يَعْمَلُونَ﴾

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا وربطوا ، لهم دار السلام ، وهو  
أسلوب مكون - كما يقال - من مبتدأ وخبر ، إلا أن المبتدأ أخرت ، والخبر تقدم ،  
وكان المطلق أن يقال : «دار السلام لهؤلاء» ولكن الأسلوب القرأى جاء ليقدم الخبر  
المكون من الحار والمجرور ومتعلقه ، ويؤخر ابتداء وذلك لخصوصية أرادها الحق ،  
وهى أن هذه لدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و«دار  
السلام» مكونة من كلمتين ، «دار» ومعناها ما يستقر فيه الإنسان ، ويجمع هذا  
المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان ، وهى أوسع قليلاً من كلمة «بيت» ؛ لأن البيت  
مكان يعد للبيوتة ، لكن كلمة «دار» تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها

و«دار» هنا مضافة إلى السلام ، وهو - كما نعلم - اسم من أسماء الله ، إذن  
فالحق هنا يوضح لهم دار مسوية للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جراًء منه ،  
فإذا كانت الدار لى وعدها الله هى دار السلام وهو الله ، فلا بد أن فيها متعاً  
وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : «دار الله ؟» ،  
لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دار الدنيا ، وهذه الدار ؛ فنور الدنيا فيها متع ، ولكك فيها بين  
أمرين : إما أن تصوت أنت ما هى فيه ، وإما أن يموتك ما فيها ، ولذلك لا يوجد فى  
الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد بناوئث فيها ويعادبك ، وقد تأتى بك مكدرات المرض ،  
وقد تأتى لك معكرات الأعداء ، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام فى الدنيا ،  
ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد أمنت ، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التي كانت في دار الدنيا .

﴿ يَهُمُّ دَارَ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ ۝٢٢٢ ﴾

[سورة الأنعام]

وكان دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون ، ولكنها جاهزة معدة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين ، وسبحانه قد خلق جناتاً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا ، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه ، على فرض وتقدير أنهم كفروا . وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويترثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا في الدنيا

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۖ ۝٢٢٣ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٢٤ ﴾

[سورة المؤمنون]

فلم يخلق الخلق جناتاً محدودة ، لا ، بل أعد وهباً من الجنات ما يتسع لكل الخلق إن آمنوا ، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا . وما دامت العندية مسروبة إلى الله فهي عندية مأمونة .

وبعد ذلك أيتحلى الله عنهم ويكسهم إلى ما أعد لهم ؟ . لا ، بل قال :

﴿ ۝٢٢٥ وَهُمْ فِيهَا يَكْمُلُونَ ۖ ۝٢٢٦ ﴾

[سورة الأنعام]

هناك إعداد ، ثم قيومية ولاية الله ، وهذه القيومية لله ، هي للمؤمنين في الدنيا . لكن فتلاحظ أن الولاية في الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله ، لكن في الآخرة هناك الخراء الذي لا يكله الله للأسباب ، فتكون الولاية مباشرة له ، لأنه سيعطيك فوراً ، وإذا خطر أى شيء يبالك فمعه حاضرأ ، فهي متعة على غير ما ألف الناس ، لأن الناس يشتمعون في الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن في الآخرة بلا ملكية لأحد حتى في الأسباب ، لذلك بقول سبحانه :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ ۝٢٢٧ ﴾

[سورة غافر]



ومستجد الإجابة هي قوله - سبحانه - :

﴿لِلَّهِ التَّوْحِيدُ الْقَهَرُ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو التولى الذي يديك ، تقرأ ستمع به ، فلا تصطر حق أن تنادي عليه يأتي لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كم عمل لك في الدنيا ووفيك للعمل وهو وبيك في الآخرة بحسن الخراء بك بسب ما كنت تعمل ، فاعمل في الدنيا هو السرع وهو الحرث لثمره الآخرة . ولكن أعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل عطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطء على قدر الأعمال ، لب لو حسنها لما أديت ثمن عشر معشر نعم الله علينا في الدنيا فكأن تعمل في الدنيا ليزدي شكر ما أودع علينا وأعطى من النعم ، فإد هذه الحق سبحانه وعلى وأعطانا بعد ذلك ثوب فهو الفصل منه ، ولذلك يوضح الحق لك إياكم حين توفون في عمل أن نعمتوا ، بأعمالكم ، بل عليكم أن تذكروا أن ذلك فصل من الله .

﴿قُلْ يَفْعَلُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ مِثْلَ شَيْءِكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ خَيْرٌ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٥)

(سورة يونس)

وقد شرح السي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« من يَدْخُلْ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ رَحْمَةً ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله مع فضل ورحمة » (١)

إذن المسألة كلها بالفصل من الله ، ولكن فصل الله شرطه العمل الصالح ، فأنتم تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربكم أضعافه ، وبطبيعته الخيال فعملك لن يرفع جلالة أو جماله أو كماله أو يريده صفة أو يريده منكراً ، لكنه يعطيك على ما عمله لنعمتك ولنعم بهي جنك .

ولذلك نجد لإمام الرازي - رحمه الله - يقول : إن يعمل في ذاته يورث

(١) رواه مسلم في المصابيح واللفظ به ، ورواه البخاري في المرقى والترمذي ، وابن ماجه في الترمذ والداودي في المواقف ، ورواه أحمد في المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦

الذات شيئاً من الصفاء الذي ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجراء في الراحة ، والراحة النفسية هي الأمر المعنوي الذي يوجد في بنية مادية هي قالبك . ساعة يوجد شيء في النفس فهو يؤثر في القلب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره في الشفة نفسها فيحمر الوجه ، ويرتمش الإنسان للانفعال بالغضب ، والعصب أمر معنوي لكنه أثر في البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرك ، يظهر ذلك في الشفة أيضاً ، فتشرق وتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر في البنية ، والبنية تؤثر في العمل

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعُشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَعْنَا أَمْثَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالِ الثَّارُ مَثُونًا لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

وساعة تسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أي أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أي اليوم الذي يقف فيه الجميع ويحشرون ، ونحن ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء « يا معشر الجن » وهذا « نداء » . فكان الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضي متنادياً ، وهو الحق سبحانه ، ومتنادي وهو معشر الجن والإنس ، وقولاً يبرز صورة النداء . فكان العبارة هي : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإنس ، و « الحشر » هو الجمع ، و « المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعامش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرمة بخصوصها : يا معشر التجار ، يا معشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهي جماعة مختلطة اختلاط تعامش ومعاشرة .

﴿يَمْشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ...﴾ (٢٦٨) [سورة الأنعام]

و«استكثر» أى أخذ منه كثيراً ، كمن استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصديقاء ؛ فمادة «استكثر» تدل على أنه أخذ كثرة ، وماذا يعنى استكثرهم من الإنس ؟ . نحن نعلم أن من الجن طائفتين ، ومنهم عاصون ، والأصل فى العصيان فى الجن «إبليس» الذى أقسم :

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعْرِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨١) [سورة م]

فكان الجن يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ، لأنهم إذا أطاعوكم فى الموسسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ماكان يحدث ، فكان الإنسان إذا سائرل وادياً مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادى- من الجن- ويطلب أن يحفظه ويحفظ مناعه ، وحينما يرشوس له شىء يسارع إلى تميذه ، وهذا استكثرار .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا رَأَيْنَا اسْتِمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ (٢٦٨) [سورة الأنعام]

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منفع الله ، لهؤلاء إغواء وسيادة ، يأمر ونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم يحققون لهم شهوة نهم فى صورة تدبير ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك برصى فيهم خريزة الانقياد للتدبير ؛ لأن كل نفس مفعورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قريائه وجددهم أباء أعيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وعداً سريفاً ، ويكون اليوم غنياً وغداً فقيراً ، فما الذى يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأفيار ؟ .

إن الإنسان يحب أن يلجأ ويرتبط بقوى ؛ حتى إذا جاءت هذه الأفيار كانت

منشأ له . إلا أن هناك من يصعد هاهنا التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله معطوناته هذا الإيمان في «الفعل» و«الاول» «الفعل» . تكن الأشياء التي يعملونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكليف إلا أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أى حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً ، لأن الإنسان لا يفتش نفسه ، فالإيمان بحسب النص إذا جاء أمر فوق أسابك ، وليس هناك من يقول : يا شمس أو يا قمر ، يا شيطان أو يا صغرا لا يمكن ، لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ أَوْ قَائِمًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُصَّةَ مَوْتِهِ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (١١٠) [سورة يونس]

وهنا يقول الحق عن الإنس :

﴿ وَقَالَ أَزَلَيْتُمْ هَؤُلَاءِ مَنْ أَنْشَأْتُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَتَعْتَبُ أَعْيُنُنَا ﴾ (١٢٨) [سورة الأنعام]

أى أن هذا الاستتاع أمداً ، هو أمد الأجل أى ساعة تنقضي وتنتهى الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق .

﴿ .. قَالَ النَّارُ مَتَوَاتِكُمْ حَسِبْتُمْ فِيهَا أَنْ تَبَدِّلُوا أَلْسِنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَكِيمِينَ ﴾ (١٢٨) [سورة الأنعام]

[سورة الأنعام]

وهنا «الشراء» هو الإقامة ، و«متراكم» أى إقامتكم ، «إلا ما شاء الله» وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، ناز فيه كلام طويل ، هناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : «إلا ما شاء الله» أى أن له طلاقة القدرة والمشيئة ، فيفعل ما يريد لك حسب الأمر وحده هو «ما شاء» فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (١٨) [سورة البقرة]

وهنا حدد «ماشاء» ، أى أن ماشاء يكون في غير الشرك به فإن الشرك لا يكون محل عصفان منه سبحانه . أو يجوز «إلا ماشاء الله» أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى في النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من لرمس الخلودى ، فلى يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب فمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود فى الجنة أو النار .

وبن نحن أيضاً «إلا ماشاء ربك» فى سورة هود حيث يقول الحق

﴿أَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَمْزِمٌ وَنَهْلٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِى الْجَنَّةِ فَخَسِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ ﴿١٠٨﴾﴾

إذن فهناك الاستثناء فى النار والاستثناء فى الجنة ، فنقول الحق ، «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك» فمجيء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على أن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فى النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك؟

والرد على هذا أن أهل النار لا يخلدون فى عذاب النار، وحده بل يعملون بالزمزمير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أعظم منها كنها وهو سحق الله عليهم ولعنهم وطردهم وهانت إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال . (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم ما يفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله . (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته . (إن ربك فعال لما يريد) أن ربك يعمل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة الذى لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله : «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» . حَكِيمٌ هُوَ أَنْ يَعْذِبَ ، عَلِيمٌ  
بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْذِبَ ، وَمُقَدَّرٌ عَذَابُهُ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَنْجُو وَيَنْعَمَ ،  
وَبِمُقَدَّرِ ثَوَابِهِ وَنَعِيمِهِ ، وَحَكِيمٌ فِي أَنْ يَرْحَمَ . وَيَقُولُ الْحَقُّ بَعْدَ ذَلِكَ .

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّلُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ ﴾ (١٢٩)

«وكذلك» تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الحدل ، فقال الحق على ألسنة  
الإنس

﴿ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضًا بِمَعْصِرٍ .. ﴾ (١٢٨) [سورة الأنعام]

ولم يأت بكلام الجن ؛ لأن كلامهم جاء في آيات أخرى ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ  
وَمَا تَحْنَانُ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْ  
أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ .. ﴾ (١٢١) [سورة إبراهيم]

وكذلك أورد الله ميسم على لسان الشيطان في سورة أخرى .

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ . ﴾ (١٢٦)

[سورة الحشر]

وكذلك جاء الحق في آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا :

﴿رَبِّتْ رِئَا الدِّينِ أَصْلًا مِّنَ الْحَرِّ وَالْإِسِّ تَحْمَلُهُمَا تَحْتَ أَثْقَالِهَا يَكُونُ مِنَ الْأَمْقِينَ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فصلت)

وقوله الحق هنا في سورة الأنعام -

﴿وَكَذَلِكَ يُؤَلِّقُ بَعْضُ الْأَعْيُنِ بَعْضًا﴾

(من الآية ٩٢٩ سورة الأنعام)

أي كما صمم مع نحن والإس ، ناسكثرا نحن من الإس واستصاع بعضهم بعضا ، صلا لا وعواء ، وصاعة ، ونقادا ، يجعل من بينهم ولاية طم على ظالم ، ولا يؤلى عديهم واحد من أهل الخير ؛ لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة ، لا يهتدون على أن يؤدبوا ، الظلم ، فهم قد ورثوا السوء الحمضية في قلوبهم يوم فتح مكة ، وذهبوا فأسهم نطفاء ، ، وبذلك إذا أراد الله أن يؤدب ظالما لا يأتي له الواحد من أهل الخير ليؤدبه ، إنه - سبحانه - تنكره لأهل الخير لم يجعل منهم من يكون في مقام من يؤدب بظلم ، إنه - سبحانه - يجعل أهل الخير في موقف ينتصر على تأديب الظالمين بعضهم بعضا

وتاريخ أراد ذلك فقد صمم الظالمون بعضهم في بعض الكثير ، يوم لو تمكر منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحمهم ؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة

وبذلك بلغنا عي سيدنا ملك بن دينار وهو من أهل الخير يقول هرات في بعض الآثار حديثا قلمي يقول فيه الحق :

«أنا ملك الملوك فلوب الملوك يدي»<sup>(١)</sup>

فإياكم أن يظن لطاعية أو الحاكم أو المستبد أنه أحد الحكم بذكائه أو بقوته ، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة ، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهي هذه المسألة فهو

(١) تذكروا لمصوغات لابن العسوي

بجلاله ينزع المهابة من قلوب حُرَّاسه ، وبدلاً من أن يدفع عنه بالبندية ، يصوّب  
البندية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكاً يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا لعباد ظنموا  
وطغوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : « الظالم سيف الله في الأرض  
ينتقم به ويتنقم منه »

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي فِتْنَةَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١)

( سورة الأنعام )

هناك ما سَلَطَ على الناس من شرِّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ، ولذلك كان أحد  
الصالحين يقول : أنا أعرف مؤلفي من ربي من خلق دابتي ، إن جمعت بي أقول ماذا  
صنعت حتى جمعت بي الدابة ؟ وكان أسأله محسوبة . وهذه معاملة للأختيار ،  
عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته بظلمة دائية . قال عليه  
الصلاة والسلام : « ما من مصيبة تصيب مسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة  
يشاكها » (١) .

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يرقبه الحق جرّاءه من مرض في  
جسمه أو خسارة في ماله ، وكذلك المسء الذي لا يريد له الله الكمال في الآخرة .  
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا  
حط الله تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » (٢) .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي فِتْنَةَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١)  
شيئاً من وراء الله وخلصوا به يقول . لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك  
بما قدمت يدك وما عملت من سيئات أو حسنات .

ويقول الحق بعد ذلك :

( ١ ) رواه البخاري ومسلم وأحمد .

( ٢ ) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .



﴿يَمْعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الَّذِينَ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ  
يَقْضُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ  
هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا  
وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (١٣٠)

وبلاحظ أنه قال هنا : أيامعشر الجن والإنس ، لأنه يريد أن يقيم عليهم الحجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يصح لهم المقويات إلا بعد بلسهم بواسطة الرسل ؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك . فلم يأخذهم - سبحانه - ظلماً .

وهما وقفة ؛ فالخطاب للجن والإنس ، ألم يأتكم رس منكم ؟ فقال بعض العلماء : إن الجن لهم رس ، والإنس لهم رس ، وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : (إن سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) .

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذي جاء به ، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإس ؛ فكأن الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ما ناله الرسول ، وهو هنا يقول سبحانه :

﴿يَمْعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ﴾ (١٣٠) [سورة الأنعام]

وأتت حين تأتي إلى اثنين ، أولهما معه مائه جنه ، والثاني يسير معه وليس معه شيء ، وتقول : «هذان معهما مائه جنه» لهذا قول صحيح . فقله سبحانه : «ألم يأتكم رس منكم» أي من مجمرعكم أو أن الرسل تأتي للإنس ، وبعد ذلك من الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسلاً مبلغاً إلى إخوانه من الجن ؛

﴿ وَإِذْ مَرْقَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حُصِرُوا قَالُوا اُنصِتُوا وَلَمَّا  
قَضَىٰ وَكَلَّمَا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فكان المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الأنس وبعد ذلك يتوجهون إلى  
الجن.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي . ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

والآيات تطلق على المعجزات التي تثبت صدق الرسل ، وما يكون من شرح الأدلة  
الكونية لدالة على صدق الرسل . وكلمة « يقصون عليكم آياتي » أي يروون لهم  
المركب الرسالي من أول « آدم » إلى أن انتهى إلى « محمد » ﷺ . و« يقصون عليكم  
آياتي » قول يدل على دقة الأداء التاريخي ، لأن « قص » مأخوذ من قص الأثر ،  
ومعناها تتبع القدم بدون الحراف عن كذا وكذا ، وهكذا نجد أن المروص في القصة  
أن تكون مستلزمة واقع التاريخ

﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا . ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وهو اليوم المخرى حيث سيقفون أمام الله ويذكرهم الحق أنه قد نبههم وقد أندر  
من أندر

﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ  
كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وقولهم . « شهدنا على أنفسنا » إقرار منهم على أنفسهم « فقد شهدوا على أنفسهم ،  
ويكن ما الذي معهم أن يتغمروا إلى الإيمان بمواكب النبوة » . تأتي الإجابة من  
الحق . ( وغرهم الحياة الدنيا ) .

والذى يغتر هو الشئ الذى يكون له تأثير ، وهو موصوف بأنه « دنيا » !! لذلك فالغرور الذى يأق بالدنيا هو قلة تبصر . ( وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ) . ومن يستقرئ آيات القرآن يجد آية نقول :

﴿ وَأَقْلَرَبَيْنَا مَا كَفَّ مُشْرِكِينَ ﴾

( من الآية ٢٣ سورة الأنعام )

مرة ينعون من أنفسهم أنهم كفروا ، ومرة يشنون أنهم كفرون ، وهذا لاضطراب المواقف أو احتلابها . أو أنهم « شهدوا على أنفسهم » ، بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم ، لأن الإنسان فى الدنيا له إرادة ، وهذه الإرادة مسيطرة على ماله من جوارح وعلاقات مخلوقة لله ، لأن الله جعل للإرادة فى الإنسان ولاية على الأبعاض التى تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإنسان إرادة فيها ، فلا أحد يملك أن يقول للقلب انضض كذا دقة فى الساعة ، ولا أن يقول للأمعاء . لمحركى الحركة الذودية هكذا . لكنه بقدر أن يمشى برجليه إلى المسجد ، أو يمشى إلى الحمار . ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ فى كتاب يصرو لا يبعد .

أذن إرادة الإنسان مسيطرة على الأبعاض لتحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإرادة التى للإنسان على أبعاضه ، وتبقى الأبعاض كلها حرة ، وحين تصير الأبعاض حرة فالأشياء التى كانت تقبلها فى الدنيا يقنون تسجيروها لإرادتك قد زالت وانتهت ، فهى فى الآخرة تشهد على صاحبها ، تشهد الجنود والأيدى والأرجل :

﴿ وَقَالُوا لِلْجُلُودِ هُمْ لَمْ شَهِدُوا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَ اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

( من الآية ٢١ سورة ص )

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذابين ، أنتم عملتم كذا . ويقول الحق بعد ذلك .

## ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٦١)

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ، حتى لا يكون لأحد حجة بعد الرسل ، وقد أقرروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا عن أنفسهم ، وما داموا قد أقرروا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، لأن الحق سبحانه وتعالى قل أن يعاقب على جرم ، وهل أن يجرم يزل النص بواسطة الرسل . أي أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ

« وأهلها غافلون » ، و « الغفلة » ضد البقطة ، فالبقطة هي نسيان الله الدائم ، و « الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أي غير يقظين ، علو أنهم كانوا يقظين ومتشبهين لما احتاجوا إلى الرسل ، لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المقرضين كما يلحق الآباء الأبناء وسائل حياتهم مع ذلك قيم دينهم فكما أن الآباء يعلمون دروسهم وسائل حياتهم ، ثم يقبلونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للمقيم فتعيش القيم في الناس كما عاشت وسائل حياتهم

ولماذا - إذن - عاشت وسائل حياتهم ونورثوها وزادوا عليها أشياء ؟ لأن رايه الدين هي التي يفعل الناس عب ، بسبب أنها تقيد حركتهم في « افعل » و « لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف في وسائل حياتهم لماذا إذن أيها الإنسان تفرح على الترف في ترف الحياة ولا تفرح على الترف في القيم ؟ . لقد كنت - على سبيل المثال - تشرب من الماء أو السع يدك ثم صنعت كوباً لتشرب منه ، رقيت الماء من لشوب وعلته من المنابع في صحاريج أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين !!؟

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آيائه من انقيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرر التشبيه بواسطة الرسل . وكلما انظمت معالم القيم التي يحملها المنهج فهو - جل وعلا - يرسل رسولا رحمة منه وفضلا وعدالة ، ولم يكن يهلك القري بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة صد اليقظة

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ، لأن الآباء كانوا سينقذون لأبنائهم القيم كما يتفكرون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معاً حتى الآن ؟ إن الأب - مثلاً - إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل في دروسه أومسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هي المبرة على المستقبل المادي للابن ، ولا عبرة عن أدائه لروح الله ، لماذا ؟ . إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير في الناس وأصبح أمراً رتياً

وعرفنا أن الغفلة صدحها اليقظة ، كما أن السهر صدح التذكر . والقروب صدح الشروق ، والعياب صدح الحضور

ويقول الحق بنده ذلك

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ

بِغَافِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٩٥١)

« ولكل » ، وجاءت بالتنوين أي لكل من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكان الأعمال تصارت ، فقد تكون في ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التصارت إنما يشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارن للعمل والمكتسب والعاص له ، فهناك من يحرص بكل طاقته ، وهناك من يؤدي عمله بنصف إخلاص ، ومساءلة الإخلاص هذه لا تحدها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسي :

« الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي » (١) .

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيد العبد من جس ما ربه الله عليه ، فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فزيد العبد عشر ركعات في الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله يجاريه الله على إخلاصه في أداء ما عليه ، وجنبنا سأل أعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدي إلا الفروض فقط ، قال له . ( أفلح إن صدق ) (٢) ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هي أشد فلاحاً إلا إذا كان في درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تعيد العلو ، وكلمة « دركات » تعيد المسوط ، والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لآى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَرَبُّكَ الْعَيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَفْشَاكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾

وهت بحنت الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ بحنتنا إلى فضيلة الصاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويعظم لنا فيه لنعمل لمصلحتنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا - كما قلنا - لا تزيد في ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نرده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

(١) رواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث عن أبي طالب

(٢) رواه النسائي والبيهقي في السنن الكبرى

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلق الصفة ، فالله خالق ؛ والله  
رحمن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن  
يسوز ويظهر ما يخلق ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو راق قبل أن يحق  
المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات  
فيه يقول للشيء كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو عني عن العبد وله كل  
المثلث ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول ﷺ يقول .

«لَئِنْ أَفْرَحَ بِتُوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَيَّ بَعِيرٌ وَقَدْ أَصَدَّ فِي أَرْضٍ فَلَاةٌ»<sup>(١)</sup>  
﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا  
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (١٣٩)

إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالق  
موجودة .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عند لقياس أو آدم  
فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليعة في الأرض  
خاضع لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأنى يحلو جديد .  
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَا تَلَايَا وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ ﴿١٧﴾

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلا بد أن يتحقق وعده ، وإذا  
أوعد فلا بد أن يأتي وعده . والوعد إذا أخلق فهو في الخير ، والوعيد يكون في الشر  
والذي يحلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتخير رآيه

(١) رواه البخاري في الدعوات ، ومسلم في التوبة ، والترمذي في الدعوات  
سقط على غيره : أي صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به

فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه في مكنه ، وبعد ذلك خرج عن مكنه ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد له آخر يناقضه فيما وعد أو أوعده فلا بد أن يتحقق الوعد أو يأتي الوعيد . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالإنس يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سغير الحكم ، وسبحانه ليس من لأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ [سورة المد]

وهذا وعيد في أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها ما يؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ النك ، ونقول : قد يتوب أبو لهب هذا ووجهه ويسلمان ، ألم تنب هندا ؟ ألم يسلم أبو سفيان ؟ ! لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبي لهب واختيار روجه ، وإن كان كل منهما محتاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ١ ﴾ . . . [سورة الاحلام]

أي لا يوجد إله آخر ليعدل هذا الأمر

﴿ إِنَّمَا تَوَاعَدُونَ لَا تَأْتِيهِمْ لَئِنَّكُمْ بَعْجَتِينَ ۝ ١٣٤ ﴾ [سورة الانعام]

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتي بما وعده لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فانوعدت وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحد يقدر على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعده ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغفلوا الله أو تفوتوه وتمجروه ؛ فإله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



﴿ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ  
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ  
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

والقوم هم الجماعة ، وعادة يطلق على الرجال لأهم أهل القيام لمهمات ، لأن الشأن والأصل في امرأة السرة والبيتوتة والاستقرار في البيت لقيام على أمره ورعايته .  
وحين تقرأ القرآن نجد كلمة « قوم » ونفهم أن المقصود منها الجماعة التي لهمهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَشَى أَنْ يَكُونُوا حَيْرَ مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ قِسَاءٍ عَشَى أَنْ  
يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾

( من الآية ١١ سورة الحجرات )

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، « قوم » هذه للرجال ولما هوذا  
منها « القيام للمهمات » ، ولما هوذا منها « القوام » . ولذلك الشاعر يقول :  
ولا أدري ولست أحال أدري أقوم آل حصن أم ساء  
بعض الرجال أم ساء .

﴿ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ ﴾

( من الآية ١٣٥ سورة الأنعام )

و « المكان » هو الخير الذي بأخذه جسم الإنسان ، فكل كائن له مكان ، إن وقف  
له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ،  
فحين تقف في مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك  
عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتدح التداخل بين  
الثنين في حين لا يسع إلا واحداً ، وهذا أمر فطري ، فنجد الولد الصغير الذي لم يدرك  
أى شيء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسي الذي يجلس عليه

أخته أو أخوه ، قبل أن يقعد عن الكرسي يشد من يجرس عليه ، لأنه يعرف بالفطرة :  
أن اثنين لا يوجدان في حيز واحد

ونرى ذلك أيضاً في غير الحرم الأرضي ، فانت حين تأتي بقارورة وتضعها في ماء  
لتمتلئ تسمع صوت الهواء الخارج منها في بفقعة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن  
خرج الهواء ، ولأن المياه أكثر فهي تصعق ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم  
التداخل أى لا يوجد شيان اثنان في حيز واحد ومكانتك هي الموقع الذي  
تستولي عليه ، ولذلك حتى في الجيوش وفي الحرب توضع الخطة من أسلحة مختلفة ،  
لنستولي على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا  
مها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتبشيرا من أنهم لن يصلوا إلى السبل  
من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمسك ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه  
من الخلاف والنهضة ، ماذا ؟ ، لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : هل يكون  
ثباتكم مانعاً لي من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاعتكم ،  
وأنا أعمل على طاعة الإيمان ومدد ربى الأعلى من الطاقة

﴿ قُلْ يَنْقَرِمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۚ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ

الْأُفْرِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفِيحُ الظُّلُمَاتُ ۖ ﴾ (١٢٥)

(سورة الأنعام)

« سوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » وهـ له « تعطى دلالة إلى أن الإيمان  
ستكون عاقبة الدار لصالحه ، لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى  
« اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكان الظالمين إن تنلهم عاقبة فهي ليست  
لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون  
ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ دِرْهَمٍ وَالْحَرْثُ وَالْأَنْعَامُ

﴿ تَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا  
فَمَا كُنَّا لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا لَا يَصِلُ إِلَى  
اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ  
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وهنا رجوع إلى كلام عن الذين يناهضون منهج الله.

ولأفرا، أى خلق، وبث، وبشر، والحرث يراد به الزرع، وسمى الزرع حرثاً، لأنه يأتي بالحرث، والأنعام، وهى تشمل فى ثمانية أزواج فى آية تاتى بعد ذلك، وهى الإبل، والبقر، والضأن والمز.

«وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً» أى مما خلق، وهم قد حرثوا فقط، لأن الذى يزرع هو الله، فسبحاته الذى أعطى للبيرة قوتها لترى لها جذراً، وتمنص عناصر العناء من الأرض، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها، وهو الذى جعل البيرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها، وترك غير صالح بقانون الذى خلق فسوى والذى قدر لهدى، والذى منعه الله الحرث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق. إنه- سبحانه- هو المتصرف.

هم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا: هذا لله «برزقهم» وهذا لشركائنا، أى جاءوا بالحرث وقسموه قسمين. وقالوا هذا لله، وهذا للأصنام وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله، وقسماً بهم، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الرعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم، وباليتمكم أنصفتهم مرضى بقسمتكم فيذهب القسم الذى لله بلصداقات على الفقراء، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللعدنة الحجاب عليها والخادمين والذين يشربون لكم الأقداح، وباليتمكم عرفتم العدل فى النفسه بل أن ما صنعتهموه هو قسمة ضيرى جائرة وظالمة، لماذا؟. ثانى الإجابة من الحق.

﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ لَّا يَهْدِيَ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنَّهُ يَهْدِيَ إِلَى  
شُرْكَائِهِمْ..﴾ (١٧٦)

أنتم قسمتم وقلتم: هذا لشركائنا فاصدقوا مع أنفسكم في هذه  
النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم في الهلاك تسميم معين ، وهي  
الريادة لهم ثم حين أنهر فإذا ما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما حصروه لله  
وأعطوه للشركاء وقالوا : إن ربنا عسى أن يرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بأنفسمة  
التي فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك في الأنعام يعدرون عدداً من الأنعام ويقولون: هذه لله ، وتلك  
لشركاء ، فإن ماتت بهيمة من النذور لله لم يعرضوها ، وإن ماتت بهيمة منذورة  
للأصنام يعرضوها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذي نذروه لله ، وأيضاً لعرض أن  
عيناً جارية ساحت فيها المياه تشوي الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض  
المزروعة للأصنام ، إحدى هي قسمة ضيزى من ابتدائية ، وليتهم وفوا بهذه القسمة ،  
وهكذا ساء حكمهم وفسد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ  
قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ  
وَلَيْلِيَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ  
فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ﴾ (١٧٧)

وأيضاً تقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يتعلق بذواتهم في الإنجاب والإنسال ؛  
فقد كانوا يربوا لهم قتل أولادهم ، «التزيين» هو إدخال عنصر التحسين على



أى لا تقتلوا أولادكم حرفاً من فقر ، فأنتم تكونون رزقكم ، وحين يأتى الأولاد برزقهم وبرزقكم معهم . وهكذا يرى أن الصلوة مختلف هي الأتية ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ، لأن حب الأبناء غريزة في النفس البشرية ، ولتسحب أن يكون لها ذرية ، لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه في الأجيال المتتالية . ومحمد الإنسان وهو ممتلئ بالسعادة حين يأتية حفيد ، ويقول : لقد وضعت ذكرى لحيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقي هو الذى يقدم الإنسان من عمل ، لا ذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجب أباؤهم فسيفقرولك ويذلوك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكن يوم يحدث أبناؤك فى قتال وزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهت لملك ، وإن كانوا بنات فسيتم سيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة فى الإغراء لعملية تناقض المطرأة السليمة فى إمتداد النسل .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لَكِثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ يُرَدُّوهُمْ ۖ ۝ (١٣٧) ﴾

[سورة الأنعام]

والكثير من المشركين تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، ويردوهم من الردى ، وهو الهلاك ، والموت

﴿ وَلِيَتَّبِعُوا عَلَيْهِمْ فَيَتَّبِعَهُمْ ۖ ۝ (١٣٧) ﴾

[سورة الأنعام]

أى يخلطو عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين ؟ لقد ورت هؤلاء من أمر قيم الدين ما كان سابقاً وهو ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عت إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أصحالا ليوردوهم مراراً الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم مابقى لهم من دين .

﴿ ۝ (١٣٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا هَلَكُوا فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۖ ۝ (١٣٨) ﴾

[سورة الأنعام]

لأن واد لأولاد وقتنهم إنما يافى فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتضل أنت ؟!

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ٣٩٦ ﴾

كانهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنه - سبحانه - لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار يتفدون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يصلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يفهر على مراده ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه غفلاً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المحتار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضي أمرين اثنين : تقتضي قلوة تتجلى في لأشياء القهرية التي لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي له حق الاختيار بين البديلات في مراداته ، أما بقية الكون فسانن بقانون النسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبت الله علاقة القلوة ، ولكنها لا تثبت لله محبة المخلوق ؛ لأن المحبة تنشأ من أنك تكون حراً في أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد لله على مرادك . ( ولو شاء الله ما نعوه فلهم وما يفترون ) .

و « الاقتراء » هو الاختلاق والكلب التعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صديق الواقع في الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين - الذكر والأنثى - من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا هَٰؤُلَاءِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ سِجْرَتُ لَا يَطْعَمُهَا  
إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرِّمَتْ ظُهُورُهَا  
وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ  
سَجَّزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٩٨﴾ ﴾

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٢١٦﴾

وهذا عماد في الشرك ، لأنهم قسموا الحيوانات واحترث وحجزوا فسموا للأصنام ، وهذه لأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتبهاوا إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولا يد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيرها لك ولا تعمل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال :

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَنْفَعُنَا إِلَّا مِنْ نَشَاءِ بَرَعْمِهِمْ .. (١٢٨)﴾

[سورة الأنعام]

أى هى أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها .

﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا .. (١٢٨)﴾

[سورة الأنعام]

وتحادوا فى الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها :

﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ .. (١٢٨)﴾

[سورة الأنعام]

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه وسبوه إلى أنه متلقى من الله ، ومأمور به منه - سبحانه - ولو قالوا إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء وسبوا إلى الله ، وهم قد انحلو عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله .

﴿.. سَجِزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٢٨)﴾

[سورة الأنعام]

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ  
لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ  
مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ  
إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾



## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٢٩٦﴾

وسودهم لباطل إلى باطل آخر فادعوا أن مافي بطن هذه الأنعام من اللبن ومن  
الأجنة إذا نزلت حية فهي للذكور منهم فقط ، ولا تأكل السماء من ذلك شيئاً ، وإن  
مات منها شيء أكله الرجال والنساء وهذا يثل على التشفيق على القسمة

وييل الحق الآية بالقول الكريم .

﴿ .. سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ [سورة الأنعام]

أى سيجزيهم على كذبهم وافترائهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه - سبحانه -  
(حكيم) فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، وإنه  
سيجاريهم حتى ما فعلوه أتم الجزاء وأكمله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ  
عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ  
ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

وجه الخسران أنهم لم يلمتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبشء هم أيضاً ، ولعلك  
أيها الأب لتلت ولداً ، كنت ستعيش أنت فى رحاب رزقه ، وكثيراً ما يكون لبعض  
من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقان عن مثل هذا الابن ' إن وجهه وجه الخير  
ولسعد والبركة ، فمن يوم أن ولد ولد معه الخير ، وذلك حتى لا يتأبى الإنسان على  
عطية الله ، لأنك حين تتأبى على عطية الله تحرم نفسك العطاء فيما نظنه غير عطاء ،  
وهذا حسران كبير .

إنما نلاحظ أن العرب كانوا في بيئة تستجيب وتلبى الصرخ ، فساعد بصرخ من في شلة نزلت به واستجبد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده والمثان على ذلك ما حدث من جد رسول الله ﷺ حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لا يحفر ، فقال . لو أن لي عشرة أبناء سأضحى بواحد منهم إذن فكثرة الأولاد في هذه المسائل تعطى العزوة وتكثر الصرخ ، ولا يفعل ذلك إلا المظهور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تحسر رزقاً قد يكون في طي من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تعقد مباح الشان أو العزوة أو الأكل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله في الإيجاد بالإغجاب

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ ﴾ (١٤٥)

[سورة الأنعام]

واسمها اتعنى طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً

﴿ .. وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤٦)

[سورة الأنعام]

وهم حين يحرمون على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران ولو تركوها لاتنصعوا منها في حمل أنفالهم أو فيما تدره من لبن ، أو في أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيراً ، وهم مع ذلك فعلوا ما فعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً بلهداية . وكان يكفي أن يصفهم بقوله : « قد خسروا » ؛ لكنه أضاف . « وما كانوا مهتدين » لأن الضلال هو عدم الذهاب إلى المقصد الموصل للنهاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فأثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ  
مَّعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالرُّوعَ بِخَيْلِفٍ ۖ كُلُّهُمْ أَلْوَانٌ  
وَالرُّمَاتُ مَشْكِيهَا وَغَيْرَ مَشْكِيَةٍ ۖ كُلُوا مِن  
ثَمَرِهَا إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا  
تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

وقول الحق : « أنشأ » أى أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نموذج  
نوضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق  
سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواء من شريك أو ند فإنه حين يخلق أى ينشئ  
خلقاً على غير نظام أو مثال كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع  
والثمار بما نفتتات ، وما تنضج به ، وتسمى جنة ونسمي جنات ؛ لأن المادة كلها تدل  
على السر وعلى التنظية ، ومنه الجنون لأن فيه سراً للعقل ، ومنها الجن لأنهم  
مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « الجن » لأنه الذى يستر عن الإنسان طعنت  
الخصم .

والجنة هى المكان الممتلئ بالزروع والثمار ونعموا الأشجار به وتكثف وتلتف  
أغصانها وروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ؛ لأنه  
لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وطاقته  
ومرعى ، وماء وحفيرة ومنعة ، وفيها كل شيء . كما تسمى البيت لعظيم المكتمل  
الذى يضم ويشتمل على كل المراتق « قصراً » لأنه قصرٌ عن أى مكان سواء ؛ لأن  
فيه الأشياء التى تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شيء بعده .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ ۖ ..﴾ [سورة الأنعام]

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف «عرش» ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق : (ورفع أبوه على العرش).

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق (ولها عرش عظيم).

كل ذلك يدل على «العبور» وقوله الحق هنا «مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» ، أى أن الزرع من نوع العنب ، حين معنى به لجعل له القوائم والقواعد التى يقوم عليها ، لأن امتداد أغصانه اللينة لانهض أن تقوم وحدها ، ولكن هناك نوع أيضاً يقوم وحده تسميه العنب لأرضى ، وكأن الكلام مما يحتضن بالكرم . أى أنك إذا ما طرت إلى الزرع الذى لا ساق له كالطيخ ، وكالشمس ، وكالكوسة ، وكل الرووع التى ليس لها ساق تجددها معروضة فى الأرض أى غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش . وإن كنا الآن نحاول أن نرقمها لنعطى لها قوة الإنتاج . والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبی ﷺ (وهو الذى أنشأ جنات معروشات والنخل والزرع). والزرع يطلق ويراد به ما تقتات به من الحبوب .

﴿مُحْتَلَبًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانُ مَغْتَشَبُهُ ۖ وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۖ ..﴾ [سورة الأنعام]

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقته آية فيها كل هذه المعانى بقول

سبحانه .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ حَبِصًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قُرْآنٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانُ مُغْتَشَبُهُ ۖ وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَنَبَّهٖ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُذَمِّنُونَ﴾ [سورة الأنعام]

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعاني الواحدة : لأهم لا يمتكرون بطلان أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم في كل شيء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل عن الخالق ووحدانيته بدليل أنه دبل الآية بقوله . ( إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ) ، ولكن الكلام في الآية التي نحن بصدد خواتمها عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتدع بها يقول :

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

( من الآية ١٤١ سورة الأنعام )

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالله الواحد محتاج إلى الدليل أولاً ، لأن ثائدها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأحسد من الأكل ، لأن الأكل فسادى ما فيه أنه يقرتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأرى تعطى الثواب الباقى والعيم المميم ، لذلك فالآية الأرى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتدع ، وهنا يلاحظ أنه قال . « كلوا من ثمره إذا أثمر » ، وفي هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترقب عل ذلك لون من الضرر وإلا عالجناها بم يريل وينفى عما اضمر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج بك أن تأكل منها ، ولم يجهل الحق لنا حرجاً فيما نحرث ونبلر وبروى ولكن الله سبحانه هو الذى يورع ونحن نأكل منه ، وتجد أهل لريف يشورون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : ( وآتوا حقه يوم حصاده ) .

لقد قلوا إن الآية مختصة بما يُحصد وهو الزروع ، أما الأشياء التي لا يقال فيها : حصد فهي مخرجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أيا حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبت الأرض ينطبق عليه هذا النص ، لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

ما معنى الحصاد في اللغة ؟ . الحصاد في اللغة القطع ، فحبس فصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ، تكون العلال في السابل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حصر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتلويه تعطى ، وعندنا تعربل الحبوب أعط أيضاً ، ويبتدىء الحصاد من ساحة أن تُكبل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المقروض ، لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفي هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

( من الآية ١١ سورة الانعام )

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والمعصر قد فسر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ، لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويلعب في غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل أبي قبيس ذهباً ثم أنفقه في حل ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً في معصية بعد سرفاً

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزو الحدود التى شرعها الحق فتستهملوا هذا في معصية ، أو لا تسرفوا أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق

وكان حاتم الطائي كريماً جداً ، وفعلوا يلزمونه على هذا الكرم ، فقال واحد له لا تخبرني السرف رد عليه فقال له : ولا سرف في الخير . أى أنه مادام في الخير فلا يكون سرفاً .

وإذا كنا سآخذ الأمر على المعينين الاثنى الفقص والزيادة ، فما المانع أن نعطي للفقير أكثر ؟ ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريمية والشياط للعدل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزء وأعطاهم كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُبع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟ غفلة أن نحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتقدم عن أنت أعطيت .

ويطون الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ مَّا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ ﴾

﴿ وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ يَصْطَرِّفُ بَيْنَ الَّذِينَ يَشَاءُ لِيُخْذَلَ الْغَافِلُونَ ﴾

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٢٩٦﴾

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا في الزراعة ونعمه علينا في الماشية قال:  
«ومن الأنعام» وهي الإبل والبقر والغنم ، «حُمُولَةٌ» والحُمُولَةُ هي التي تحمل ،  
يقال: «فلان حَمُولٌ» أي يتحمل كثيراً ، والحق يقول:  
﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِسْمِهِ إِلَّا نَسِيتُمْ الْأُنثَىٰ..﴾ (٧)

[سورة النحل]

والذي تحمله فوق ظهرها يسمى «حُمُولَةٌ» . ولعلك تقول عن السيارة التي تنقل  
«حُمُولَةٌ كذا طن» (ومن الأنعام حُمُولَةٌ وفرشاً) .

والإبل تحمل عليها الرجال ، وكل متطلباتنا ، وفرشاً معها: مقابل  
الحُمُولَةِ . فالحُمُولَةُ هي المشتدة التي تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل  
لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارض  
للأرض أو «ومن الأنعام حُمُولَةٌ» وهي التي تحمل مشاعكم إلى بلد سم  
تكرنوا بالنهي إلا بشق الأنفس « وفرشاً» أي ومن ما تتخلون منه فرشاً بأن  
نسج من وبره وصوفه وشعره ما نمرشه .

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيَاطِينِ  
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٢)

[سورة الأنعام]

وفي الحديث عن الأنعام ، جاء بالحُمُولَةِ والعمرى ويأتى أيضاً بـ «الأكل» ؛ لأننا  
نأكل لحومها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهي تحملنا  
ونأخذ من أصواتها وأوبارها وشعورها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف  
وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتبر بلحمة وانفعالية بين شعيراته

ونلاحظ أنه سبحانه قال في الآية الأولى «كلوا» وهي الثانية : «كلوا» ؛ لأن ذلك  
جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله في الأرض . فكان ولا بد  
أن يؤكد هذا المعنى ، ويوضح: إن الذي خلق هو الله ، والذي كلف هو الله ، فلا  
تأخذوا تحيلاً لشيء ولا تحريماً لشيء إلا عن خلق ومن كذب .

(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)

الشیطان هو الذی یوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشیطان ظهيرة  
فإذا ما كنت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الضاعة إلى رتبة المعصية  
وجراهما على المعالفة فخرجا من الجنة ، كان من الواجب أن نحتاط في قبول هذه  
الوسوسة .

ثم یحصل الحق لنا الأنعام التي نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرشا فقال :

﴿ثُمَّ نَمِیةً أَوْجِیْ قِوَا الضَّكَّانِ اثْنِیْنِ وَمِنَ  
الْمَعْزِ اثْنِیْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِیْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِیَّیْنِ  
أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَیْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِیَّیْنِ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ  
إِذَا كُنْتَ صَادِقِیْنِ ﴿١١٢﴾﴾

وكلمة «أزواج» ، جمع زوج ، و«الزوج» یطلق على الشيء معه ما یقاربه مثل  
«روح النعل» ، ونحن فی أعرفنا فأخذنا على الاثنين ، لكنها فی الأصل تطلق على  
الراحد ومعه ما یقاربه ، إلا أنه إذا لم یكن هناك فارق بین الاثنين بحيث لا یتم  
الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لا یتیمز لأحدهما على الآخر كالجورب مثلا ،  
ففی مثل هذا نستسمح اللمعة فی أن سمی الاثنين زوجا ، لكن إذا كان هناك خلاف  
بین الاثنين لا یقول على الاثنين زوج .

والذكر والأنثی من البشر ، صحیح أنهما یقتربان فی أن كل واحد منهما إنسان ،  
لكن للذكر مهمة وللأنثی مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل «هردة» منها تضعها فی  
أی قدم لأنه هارف بیتهما ، إذن كلمة «زوج» تطلق ویراد بها الشيء الواحد الذی معه  
ما یقاربه واحق یقول :

﴿اسْكُنْ أَتِ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ . ﴿٣٥﴾﴾

[سورة البقرة]



## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٣٩٧١ ○

وكلمة «روح» هنا أطلقت على حيوان ؛ فإدم روح وحيوان زوج ، والحق هو المائل :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٥٤)﴾ [سورة الحج]

ولم يقل عن الاثنين إسم روح ، والالفال : خلق الزوج الذكر والأنثى إحد فكلية «زوج» تطلق على واحد مع ميقارنه ، مثلها كمثل كلمة «توأم» وهي لاتقال للاثنين ، بل يقال لواحد مع آخر . لكن الاثنين يمال لهما توأمين .

﴿ثُمَّ نَفْسَ آدَمَ مِنَ الطَّيِّبِ وَالنَّفْسَ النَّجِسَ (٥٥)﴾ [سورة الأناج]

و«من الطيب» أي ذكرها وأنثاها فتسمى الذكر كشار ، والأنثى «نجسة» ومن النجس ، والذكر سمي «تيساً» ، والأنثى سميها «عرة» ، وبذلك يكون مع أربعة ، ومن هنا علم أن الروح مدلوله فرد ومع ميقارنه

﴿قُلْ أَذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ يُشَوِّبُ يَعْلَمُ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٥٦)﴾ [سورة الأناج]

ومادمت أمم تحرمون وتحملون ، وتقولون : إن هذا من عند الله فقولوا : لا تحرم الذكربين أم حرم الأنثيين ؟ ولا يحدون جواباً ، لأن سبحانه لا يحرم هذا ولا يحرم ذلك ، ولذلك أدرت المسألة إصرار الاستفهام ، والشئ إذا أيرز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سأل الخصم لا يقول إلا عاتوقه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريري ويقول الحق : «يشوئني بعسم إن كنتم صادقين» أي أحبروني بعلم ذلك في التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرم ويحل من خلق وشرع فإن كان عندكم علم قولوا لنا هذا العلم .

ثم يأتي الحق بحبر الأربعة البقية من الأناج فيقول :

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ  
الَّذِينَ حَرَّمُوا مِنْ دُونِ الْإِبِلِ الْأُنثَيْنِ أُمَّا أَشْتَمَلْتِ  
عَلَيْهِنَّ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ  
وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ أَظَلَمُ مِنِّ افْتَرَى  
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً ، والذكر من البقر نسميه ثوراً ، ويطلق بعض  
الناس في تسمية الأنثى من البقر « بقرة » ، إن البقرة اسم لكل واحد منها : للذكر  
والأنثى ، والتاء في بقرة للوحدة ، واسم الأنثى « ثور » ، لا ومن الإبل اثنين ومن البقر  
اثنين قل الذين حرموا من دونه أم الإبل أم الأنثى ؟ أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولاً ، وكنتم  
على فتر من الرسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم  
تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أكنتم شهداء مسألة التحريم ، أي أشاهدتم  
ربكم ورايتموه حين أمركم بهذا التحريم ، لم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون  
الكذب على الله لإضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدي من يظلم نفسه ويظلم  
الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُرْحَى إِلَىٰ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمِهِ  
يَقْطَعُ عَمَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا

﴿ أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ  
 اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ  
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤٥ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم في آيات كثيرة ، فهناك الآية التي قال فيها :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ وَمَا هَلَكَ لِبَاسٍ أَلْبَسَ اللَّهُ بِهِ  
 وَالْمُخَنَّفَةُ وَالتَّوْقُودُ وَالتَّمْرِ ذِيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ  
 عَلَى النُّصُبِ ١٤٥ ﴾

وهنا في الآية التي نحن بصدد نواظرها عنها لحد الحصر في أربعة فقط ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا مَا أَدَّ بِكَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا  
 مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ١٤٥ ﴾ [سورة الأنعام]

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر ؟

من يقول ذلك نقول له : أنت لا تفرق بين إيهاز وإطباب ، ولا تفرق بين إجمال  
 وتفصيل ؛ فالذي شُرِكَ في هذه الآية داخل في الميتة ؛ لأن المخبنة والمتردية  
 والطيحة وما أكل السبع ، والذي ذُبِح على النصب وما هَلَكَ به لعباد الله موجود  
 ودخل في كلمة « الميتة »

ثم : من قال : إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول  
 الله ﷺ ، يتمييز من الله في قوله تعالى :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ (٧) [سورة الحشر]

فلا تقتل إن بالحرمات فقط محصورة في هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ،  
بدليل أن الله مرة يُجملها ، فيحرم علينا الحبائث ؛ فكل حيث مُحَرَّم . وقلنا من  
قبل : إن الدم المسفوح مُحَرَّم ، والدم المسفوح هو السائل الذي ينهال ويجرى  
ويصب ساعة الديح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذي يبلغ  
من قوة تماسكه أن يكون عصبواً في الجسم كالكبد أو الطحال ولذلك يقول  
الرسول ﷺ «أحلت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان  
فالكبد والطحال»<sup>(١)</sup> وفي رواية أخرى : السمك والجراد

وعلى مطلق التحريم للميتة والدم كن لا بد ألا تأكل الميتة من السمك . ولا الكبد  
والطحال ، ولكن الله أحل لنا السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تنفس  
الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفس سائنة أي دم يجري ؛ فإذا ما ذبحا  
أحدهما لا يسيل له دم ، أما الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية  
أنه يكون عضواً في الجسم ، ولا يتكون عضو في الجسم يؤدي مهمة من دم فاسد ،  
بل لا بد أن يكون من دم نقي .

والحق الذي شرع يقدر الظروف المواتية للمكلفين ، وقد عثر بهم ظروف  
وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضرر  
والجوع . لكن على المسلم ألا يمتلأ بطنه من تلك الأشياء

﴿... فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥) [سورة الأنعام]

وأنوع الإضطرار : ألا تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من  
الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهه على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل  
في الإضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تفتح عن نفسك الهلاك ؛

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ابن عمر .

فتأخذ من طعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، وإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة في حال مظنة أن تموت من الجوع فمالتك من الإكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذي رخص ، وهو الذي شرع الرحمة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عرائضه ، وما دامت قد دخلت في دائرة التكليف فهي يكون الغفران والرحمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ  
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَصْرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا  
مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ  
ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِفِعْلِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

هنا يأتي الحق بالتحريم الثاني ، وهو التحريم لستهنيب والتأديب ، مثلما قال من قبل :

﴿فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [سورة النساء]

فهذا نصٌّ هو ما يظهر عندما ننظر إلى أقدم بعض الحيوانات أو الطيور ، فهذه حيوانات يجد تشفق لصيبتها ضاهراً والأصابع معصية ومنعرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراماً عليهم ، ونوع آخر ليجد أصابعها غير مفصولة وغير منعرجة مثل الإبل ، والسمام ، والبط ، والأوز وهي ذو الظفر ، فكل ذي ظفر حرم على اليهود ، وقد حرم عليهم لاخيت وضرر في الأكل ، ولكن تأديباً لهم لأنهم ظلموا في أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالاً لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذي أخذ حاجة أخيه اعتداء ؛ فيمنع عنه المصروف ،

والمصروف هي ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا لسأديب . والخن هو القاتل .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَاقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمُورَ النَّاسِ بِالْغَيْبِ ۖ ﴾ (١٦٦)

[ سورة النساء ]

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتي لهم التحريم عقاباً وتأديباً

﴿ وَعَبَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ ﴾ (١٦٦)

[ سورة الأنعام ]

وأنت حينما تدبغ الديبحة تجرد بعضاً من الدهن على الكلى ، وتجرد في داخلها ما يسمونه « منديل الدهن » وكذلك « آلية الخروف » ، وحين تقطع الرأس نجد فيها نوعاً من الدهن ، وقد حرّم الخلق عليهم في البقر والغنم شحومهما ، وكذلك « كل ذي ظفر » محرم كله . وهناك استثناء في البقر والغنم هو : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا ۖ ﴾ .

أي أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من الشحوم و« الحوايا » جمع حوية أو حاوية أو حاوية وهي ما تحوي من الأمعاء أي تجمع واستدار ، وفي الريف تقول المرأة عن قطعة القماش التي ترميها وتلمها وتصنع منها دائرة مستديرة تضعها على رأسها لتحميها عندما تحمل فوقه الأشياء ، نقول ، صنعت « حاوية » و« الحوايا » هنا هي الأمعاء المليظة ، وطولها كذا متر ، ومن حكمة تكرينها الربانية بعدما تلفت على بعضها ، ولذلك اسمها « الحوايا » ، وهي ما سميته « الممبار » . وكذلك حلل لهم ما اختلط معظم في القوائم والجنب والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط معظم منه الآلية ، لأن الآلية تمسك بعقب الذئب . أي أصله ، وهو الجريء في أصل الذئب عند رأس العُصْصُص ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها ابرحمة فيبيح له شئنا ويحرم شئنا آخر .

يردّل الحق الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم بيغيهم وإنّا لصادقون ﴾ .

وليس هذا التحريم تعدياً عليهم ، أو تمتاً بى معاملتهم ، بل لأنهم بَغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حظه من الجزاء ؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يفارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدّوا عن سبيل الله ، وأخذوا دياراً ليسوا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال . وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى فكان لتحريم عقوبة لهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ  
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ مِنَ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يجعل الله لهم بالعذاب ؛ لكن الحق لم يجعل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة

﴿ قُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

( من الآية ١٤٧ سورة الأنعام )

ولكن يراكم أن تصمموا فى الرحمة الدائمة ؛ إنها رحمة تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا يحسنهم أيضاً فيقول سبحانه : « ربكم ذو رحمة واسعة » وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يفرنكم أنه رب ، خلق من عَمَ وأمد من عُدَم ، وتولى التربية ، لكنه من يرد ويمنع بأسه وعذابه من القوم المجرمين منكم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا  
وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسَنَّا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ  
مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ  
إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

وكلما تقرأ آية فيها «سيقول» فاعلم أنها تنطوي على سرٍّ عجزي للقرآن ،  
والذي يعطى هذا السر هو الخصم حتى نعرف كيف يؤدي عذو الله الدليل على  
صدق الله ، مما يدل على أنه في غملة . ومن قبل قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

(س الآية ١١٢ سورة البقرة)

و «سيقول» معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ،  
ولم ينهي ريس القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرناً  
يقرأ ويصلي به . ولو أن عندهم شيئاً من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يظهروا  
المتكلم بالقرآن بظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه  
يقول : «سيقول السفهاء» ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم  
يقولون القول السفه برغم أن الآية قد سبقتهم بالنبؤ بما سوف يقولون : لأن الذي  
أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجرى احتياط من خلق الله ليستدرك به على صدق الله .  
هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سيقثم ألسنتهم إليها ليزيدوا القرآن .

وكل مسرف على نفسه في عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذي يهدي  
وهو الذي يضل ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل  
المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرم  
الله . وقد جاء المشركون بفضيتين : قضية في العقيدة ، وقضية في التكليف ؛ قالوا



## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٣٩٧﴾

في قضية العقيدة: «لو شاء الله ما أشركنا» ، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله . وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضاً ؛ ليوجدوا لأنفسهم مبرراً ، وهذا القول ليس قضية عقلية ؛ لأنها لو كانت وقعة عقلية لكانت في الملحقين : الخير والشر ، فالراحد منهم يقول : كتب ربي عليا - والعياذ بالله - الشر ، لماذا يعذبني إذن ؟! ولا يقول هذا الإنسان « وكتب الله لي الخير » . هذا ما كان يفرضه ويفتضيه المنطق لكنهم تحدتوا عن الشر وسكتوا عما يعطى لهم من خير .

وقولهم «لو شاء الله ما أشركنا» صحيح أصح ؛ لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهتدين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لك اختياراً ، وفي إضمار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية . بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعي . وعلمنا من قبل أن هناك فرقاً بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس غصياً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صانع للاختيار بين البديلات .

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۚ ﴾ (٢٦١)

[ سورة الكهف ]

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة الموهوبة له من الله الصالحة للخير أو الشر . إذن فأختيار الإنسان إما أن يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدعون أن كفرهم كان بمشيئة الله :

﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَافُوا بِأْسَانِهِمْ ۚ ﴾ (٢٦٨)

[ سورة الأنعام ]

والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب ؛ وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد ، ولذلك يأمر الحق محمداً ﷺ :

﴿ .. قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا تَسْمِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

[ سورة الأنعام ]

نَحْرُصُونَ ﴿٢٦٨﴾

ويسألهم محمد ﷺ من علم يؤكدون به صحة ما يدعون به . ويزعمونه أى هل  
عندكم ملاغ من الله ، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل ، إنهم يتبعون الظن ،  
ويخرصون ، أى أن كلامهم غير راصح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين  
وظن وكذب

لذلك يقول سبحانه

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ  
أَجْمَعِينَ ﴾ (١٦٩)

نعم فلو شاء سبحانه لمسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج  
عن الهداية ، ولكه لم يشأ ذلك ، بن أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع  
التكاليف أمراً داخلياً فى اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم  
ويعصون ما يؤمرون؟ ألم يخلق الكون كله مؤمراً بأمره؟!

﴿ قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ . ﴾ (١٦٩) [سورة الأنعام]

والحجة هى الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى جلدل ، ولذلك سمي  
عقوداً حجة على الملكة . أو الحجة البالغة أى التى لا يفد منها شيء أبداً  
يعطل امراد منها

ويقول الحق بعد ذلك ،

﴿ قُلْ هَلْ مِمَّنْ شَهِدَ آتَمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ  
حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا

## تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الدِّينِ كَذَبُوا بِبَايِعَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥﴾

وما دمتم لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون .  
والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و « هلم » يستوى فيها المفرد  
والمفردة والمثنى مذكراً كان أو مؤنثاً ، والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فتقول : هلم  
باريد إني ، وهلم يا همد إني ، وهلم أيضاً للجماعة الذكور والجماعة  
الإناث ، وهذه لغة لحجاريين . وتختلف عن لغة بني تميم التي يزيدون عليها  
ليقال : « هلم يا رجل » ، و « هلمى يا امرأة » ، و « هلمنا » و « هلموا »  
و « هلمن » . والقرآن نزل بلغة قريش « المجازيين » ، والحق يقول : « هلم  
شهداءكم » . أي هاتوا واحضروا شهداءكم أن الله حرم هذا ، إنكم بلا علم ،  
وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ، فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء  
الشهود .

وماذا إن احضروا شهود زور ؟ إنه - سبحانه - يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى  
ولو احضروا شهداء إليك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكان الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً  
قضيتين اثنتين : سبحانه يذفض ويطل حجتهم ، ويفضح اشهود الدين جاءوا  
بهم . فكانه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفي ذلك فضيحة  
لن لقنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الدين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » ، جمع  
هوى ، وهو ما يختلج في ذهن ليلوى الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة نود على  
الذهن فتجمله بعمل عن الحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الدِّينِ كَذَبُوا بِبَايِعَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾

( من الآية ١٥٠ سورة الأنعام )

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالأحرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿إِنَّهُمْ يَرِيضُونَ يَعْتَلُونَ﴾

(من الآية ٦٥٠ سورة الأنعام)

ونعهم من كلمة « يعطل » أنها من العطل بمعنى القسط ، إذا قيل : عدل في كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل في الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عدلاً ومساوياً . وجاءت بهذا المعنى في آية أخرى هي قوله الحق

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْتَلُونَ﴾

(سورة الأنعام)

أي يجعلون ما لا يصح أن يكون مساوياً لله ، مساوياً وعدلاً لله . وهذا نحل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعطل عن ربه عدلاً ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوى به غيره . ويجب أن نلاحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهي : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : ( لا إله ) لأن ذلك يعنى إنكار ونفى وجود إله وهذا والعباد بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : ( لا إله إلا الله ) أو نكون عند طعنا بلفظ ( لا إله ) قد اعتقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له . ثعابت عظمته . من صفات الجلال والكمال ، ومعنى ( لا إله إلا الله ) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين يبطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك

وكلمة « يريضون » نفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعطل ويميل ويعبد عن الاعتراف به إلهاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ  
 أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا  
 وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ  
 وَإِنَّهَا لَهُمْ وَإِلَيْكُمْ وَلَاقْتُلُوا الْمُوَحِّشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا  
 وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ  
 إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَعَكُمْ مِنْ عِلَاقِكُمْ

نَعْلُونَ ﴿١٥١﴾

نظري هذه الآية فلا نجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التي بها قوام الحياة ، ولكن نجد فيها المحرمات التي إن اتبعناها نهلك القيم المعنوية التي هي مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ .

والأداء القرآني هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أحق من مجرد الإقبال ، فكان الحق يقول : أقبل على إقبال من يريد التعالي في تنقي الأوامر . فانت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ، فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ، لأن الشرط الواجب في التشريع ألا يكون مساوياً لمن شرع له ، وألا يكون متفعلاً ببعض ما شرع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شيء والتشريع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

التراسمالي - مثلاً - يشرع ليمتد ، والعالموكسي يشرع ليمتد . وكل واحد

يُشرع وفي نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا معنى ولا تعطى أمور الحياة . فكان المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فصيحها المجتمع حين برزت القضايا ، فظهر في قانونه فلم يجد شيئاً يغطي هذه القضايا ، فيقول : تعدل القانون ، ويستدرك ومعنى استدراك القانون أى أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط في المقتن ألا يكون مسارياً للمقتن له ، وألا تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُستدرك عليه ، وألا يكون مستفهماً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك في بشر أبدأ ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشرى وارفعوا إلى السماء لتأخذوا تقييكم منها ؛ فحين ينادى الله « تعالوا » فمعناها ارفعوا عن حضيض تقيي بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقيياتكم التى تحكم حركة حياتكم ، فهو لا يتنزع بما شرع ، بل أنتم الذين تتنعمون ، ولأنه لا يغب عنه شيء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأنعام )

« أتل » من التلاوة وهى القراءة ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ أى ما جعله حراماً . .  
أى يمنع عبيهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَلَا تُشْرِكُونَ شَيْئاً ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأنعام )

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوى يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فأتت ساعة نأتى لتلقى أوامر لمن نراسه تقول له : استمع إلى ما أمرك منه فاتبعه ثم تبدأ في التفصيل ، والحق هنا جاء يلول بتد من المحرمات والمحظورات هو ألا تشرك به شيء . أى اتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن بوحد الله ، فكل من شىء أمر بمقابله وكل أمر شىء من عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهياً ، وكل نهى يستلزم أمراً فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهي . أو تكون ( عليكم ) مقطوعة عما قبلها ، أى عليكم ترك الشرك ، وعلينا إحساناً بالوالدين ، وألا تقتلوا أولادكم ، وألا تقربوا

الفواحش . . أى ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بوسيطات ويستلزم نهياً عن مقابله وهو حقوق الوالدين ، أى لاتعقوهم فعلم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرم الله . ثم يقول سبحانه .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاسٍ مِمَّنْ بَوْزُقُكُمْ وَأَيَّهُمْ ۖ ﴾ [سورة الأنعام]

أى استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهى فقل هو نهى عن قتل الأولاد ، وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل . استبقوا الحياة . وقول : ﴿ مِمَّنْ إِمْلَاسٍ ﴾ أى من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان بربق نفسه يسبى الانشغال بربق من يأتى بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يربحكم ويرزق من سيأتى زيادة وهم الأولاد . ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ۖ ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا نهى عن القرب ، أى نهى عن الملايسات التى قد تؤدى إلى الفعل لانهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ ۖ ﴾ [سورة الأعراف]

لأن القرب قد يعمرى بالأكل ، وكذلك : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْمَوَاحِشَ ﴾ أى لا تأتى إلى مقدمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحديق النظر إلى محرمات خيرك ، وكذلك المرأة التى تبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات المباحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمتت الفسنة والزلل ؛ لأن رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات لا يعنهما كثير من الناس فمن امتنقى المشبهات فقد استهترأ لدينه

وعرضه ومن وقع في المشبهات وقع في الحرام كراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يواقع ، ألا لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت كله ألا وهي القلب <sup>(١)</sup> .

ويمعك الحق . ألا تقرب ، أى أبعاد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل «اجتنب» تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَرْسَى .. ﴾ (٢)

[ سورة الحج ]

ويقول : ﴿ .. وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٣)

[ سورة الحج ]

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْمَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

وكل ما ظهر من المواحش هو من أفعال الجوارح التى ترتكب الموبقات وهوما بطن ، هو من أفعال اسرائير مثل الحقد ، والعل ، والحسد .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. ﴾ (٤)

[ سورة الأنعام ]

وكلمة «النفس» يختلف الناس في معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح في ذاتها خيرة ، والمادة في ذاتها خيرة مسبحة عابدة .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . ﴾ (٥)

[ سورة الإسراء ]

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن تفصل الروح عن المادة بهدم السية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذى يميت النمر ، أما الإنسان به فى الآية فستجد لتعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد حتم خلق الخمسة الأشياء

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير



فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذي وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك بشرع الله لنا أن سبب الحياة قصاصاً ، أولئزنا من الثيب المحصن رجلاً أو امرأة ، أو للردة ، فهذا قتل بحق ، لكن سبحانه وتعالى يلين من يهدم نيران الله بغير الحق ، والإنسان نيران الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنه يشجو منزه ويسم .

هكذا يأمر الحق بأن تقتل الثيب ، ولثيب الزاني يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجة رفاق كل منهما عسيلة الآخر وأوصى إليه ، وكذلك المرتد ، فمنح محرم على حرية الاعتقاد ، دليل أننا لا نقتل الكافر الأصلي لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضي أن يدرسه دراسة مستوفية مفعلة . وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلي يدخله إلا وهو مفتتح تمام الاقتناع ونحن نحمي بالاختيار ، فعلنا لكل من يقبل على الإسلام وبحلوه : إليك أن تدخل بعد هذا القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، ومادام الشيء ثمة الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث في الأدلة سيقنع بأن له إلهاً حقاً ، ولكنا لا نقتل الكافر الأصلي

إذن تقتل المرتد حماية لحرم الاختيار ، فربما أن تدخل بدون روية : لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق لمسألة تصفية لارمة بأن يمرض من يقبل على الإسلام جميع الجميع عن نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففي أي عقد يحاول الإنسان أن يبرم التزاماته وأن تتصح أمامه هذه الالتزامات ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهرج ، أو الدخول الأرض ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتزودة وروية

وفي الزواح يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضاً هي : « أنت طلق » ، ولذلك نحتط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعبها أن تحرم ألا تضع هذا الحق إلا في يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ، لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية إذن فعلى المرأة أن تدرك فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة

ومع ذلك فهناك احتياط للفقعة ، فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ، كرسيد للفقعة ، فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زوجتك نفسى أو يزوجها ولها ويكون لقول من الزوج بهذا يتم الزواج » لكن فى الطلاق أباح الله لفقعة الرجل ولزوجه أن يطلق مرة ، ثم يرجع هو من غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التسبب من الحق ، لقد احتفظنا لك برصيد من غملتك . ولكن عندما تريد أن تزوجاً لك فلا يتم ذلك إلا أن تتزوج عبرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحتفظ جيداً للأمر الذى يدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالردة ؟ إنما يقتل المرتد ، ولا يفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيفشل . وهكذا يصعب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى لوقت نفسه

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ، نَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأنعام )

و « لوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التى لا نستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نعملها . ولذلك حين ننظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع ورتل كل صائدٍ لدين فى قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

و « وصاكم » غير شرع ، فشرع تأق بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، ولوصية تصم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعمت عقلك فى كل منتهى حته ، أو فى كل مأمور

به في الآية فسجد التعقل يعطيت التوازن في لقرار ، وقد غنم بحق الخمسة الأشياء التي ذكرها في هذه الآية ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ وهذه الأمور متفق عليها في جميع لرسالات وفي جميع الأديان ، ويسمونها "الوصايا العشر".

والأشياء الخمسة التي أوصى بها سبحانه هي :

• ألا تشركوا به شيئاً .

• وبالوالدين إحساناً

• ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .

• ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

• ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم به ، لكنه قال : ﴿وصاكم به﴾ ، فكان أوامر الله وبواحيه أمر واحد متلزم تتمثل كلها في "النزوم" ما أمر الله به ، واجتنب ما نهى الله عنه .

وقوله سبحانه ﴿لعلكم تعقلون﴾ فكان العقل لو خُلّي لبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعصم من أهوائنا لتصارية بعضها مع بعض ؟ لابد أن يكون الإله واحداً حتى لا يتبع كل واحد ما هو له إنا يعرف أن الأصل في الإنسان هو لأب والأم . لذلك وصى بالأصل في ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، ويعد ذلك لابد أن تكون الحياة بطيئة ، طهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة اندس أنداء ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : ما ظهر منها وما بطن ؛ لابد نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهمَلون ؛ فالخز سبحانه (تعالى يريه طهرة الأمسال في الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية سبله . ويكون محسوراً عليه أمام المجتمع ، ويحذروا سبحانه من أن تقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة

ثم يحىء الحق بعد ذلك فى الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ  
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ  
لَا تَكْلِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا  
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ  
وَصَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا فى الإنسان ، أما  
اليتيم فى الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ﴾ [سورة الأنعام]

ما يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل لا تأكل مال اليتيم . بل أمرت  
ألا تقترب منه ولو بالخطأ ، ولر بالتفكير ، وعليك أن تتبعد عن هذه المسألة وإذا  
كان قد قال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ لا ؛ لأنه  
أصاف وقال بعد ذلك ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بأن تُسَمِّرَ له ماله تُسَمِّرُ يسع  
حيثه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال فى موضع آخر :

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ۖ ۝٥٠﴾

[سورة النساء]

فلا يأخذ أحد من ليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءاً حتى إذا بلغ  
الرشد يجد المال من نقص أوصاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال :  
﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أى ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها فمآلهم ظروية للرزق ، ولا يتأتى  
هذا إلا بأن تنموها لليتيم ، ولا تحرم الوصية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ ٣٩٩١ ﴾

الكهات في إدارة الأعمال والأساء ، وقد يرجد الكهات في إدارة العمل ، والأمر فيه لكن حاله لا يهتس بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامه بإدارة أموال اليتيم ؟ فقال - سبحانه - في ذلك :

﴿ وَمَنْ كَانَ عَنِيًّا فَلْيَسْتَعِذْ ﴾ (٦) [سورة النساء]

أى أن يهب الوصى تلك الرعاية الله ، وحين يهب تلك لرعاية الله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وجد في طريقه إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعونه حبة الله وتطوعاً منه مدخراً أجره عند الله . والحق هو القائل .

﴿ وَلْيَنْشِ الْأَدْيِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَلَفُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٦) [سورة النساء]

وحيم يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يعاضف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أداس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جرع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالتاس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغاراً ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وجد اليتيم مكرماً ، ووجد آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم في رعاية المجتمع ، ولكن لا تتطرح حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تعلم على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيماني كل يتيم ستجد الناس لا تصيق ذراعاً بقدر الله في خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولاداً . والمثل واضح في سورة الكهف بين العبد الصالح وسبلنا موسى حينما مرأ على قرية :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَنشَأَ أَهْلُ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمُوا أَهْلَهَا .. ﴾ (٧٧) [سورة الكهف]

فلم طلبوا نقوداً ليدحراها ، ولكنهم طلبوا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة مُدَّة . ومع أنهما استعصما أهل القرية أى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك

أنها قرية لثيمة الأهل . وعلى الرغم من العبد الصالح وجد رفقهم عليه وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جدار ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ، وكان الجدار له إدارة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطبقاً مع نفسه ، فقد طسب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام مرفضاً ، فكيف ترد عليهم بأن نبني لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجره ، فهم قوم ثام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه بنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذي تحته وهو لثيم ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيه . وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار لثيمين يمين في المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يُلْغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْهُمَا . ﴾ (٨٧) [ سورة الكهف ]

فكان استخراج الكنز مقارن بلوغ الرشد ، وكان العبد الصالح قد بنى الجدار بناء مؤقتاً ، بحيث لا ينهار . لا حين يبلغ العلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندما يستخرج العلامان كنههما . وبعد ذلك جاء لنا بالحقيقة لكل ذلك ، فقال سبحانه .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا . ﴾ (٨٨) [ سورة الكهف ]

فكان صلاح الأب هو الذي أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتي العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللثام ، ويظنان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فيس العبد الصالح الجدار الموثق الذي يصون الكنز من اللثام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . ﴾ (١٠٢) [ سورة الأنعام ]

من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتي هي أحسن فليبتعد عنه .

وحسنى لا يشحز ويتوفى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿وَمَنْ كَانَ عَجِيًّا فَلْيَسْتَعِذْ<sup>١</sup> وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

( من الآية ٦ سورة النساء )

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أى لا يكثر ولا بدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسب ما يستر جسمه . ونعريف أن اليتيم لم يتفجع عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ، لذلك قال الحق فى أدائه البياني حيث يؤدى النمط ما يوصى بالمانى الواسعة :

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ

( من الآية ٥ سورة النساء )

وجعل الحق مال السفيه فى مرتبة مال الولي ، لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿فَإِنَّمَا أَنتُمْ مَنِمٌ رُّشْدًا فَادْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ

( من الآية ٦ سورة النساء )

إنه أداء قرأى عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون حسارة للمجتمع كله ، فمدام هو رشده فننظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أمينا عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :

﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فمادام اليتيم الذى لا مال له ؟ هل تكون اوصيه أقوى ، من سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » ( وأشار بالسبابة ولوسطى وفرح بينهما )<sup>(١)</sup> .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود

وَالسَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسَاكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَتَرَمَّ  
الَّيْلَ (١) .

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس ليتيم لله ، فمس الجائر أن تكون لليتيم أم  
جيلة ، ويريد الولي أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه مضاعف  
أن يسط الله ويغيبه فهو غصة ولؤم وبذالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

( من الآية ١٥٢ سورة الأنعام )

لم يقل الله - سبحانه - مالتى هي حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ لتشديد  
الحرم على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعنى أن اليتيم صارت له  
ذاتية مستقلة ، وما المعيار في الساية المستقلة ؟ ، أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ،  
وهذا معيار النصح مثله مثل لشجرة حين تنصح ، أى صارت البذرة التى فيها  
صالحة لأن نصعها في الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطعت الشجرة قبل أن تنصح  
لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستفيج مداها إلا حين تستوى البذرة وتنصح

وه الأشد ، أى أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما سمي به البلوغ ،  
ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف في المال وفي كل شيء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِاتِّقَاطٍ ﴾

( من الآية ١٥٣ سورة الأنعام )

والكيل هي المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هي المعايير لما يُقنَر كثافة ، فهناك  
معيار للحجم ومعيار للكثافة معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ،  
وهناك أيضاً التقديرات المعادلة في القياس ، للأقمشة مثلاً ، المقياس فيها هو المتر ،  
إذن كل شيء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلا بد أن يكن بالنسب ، أى بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نقاسة  
الأشياء . فحون تزن الفول أو العدس أو البطاطس أو الفلفل ، فنحن نزنه بميزان



كبير، لأن فرق الميراث قد يكون حول الكيلو جرام، فالأمر حيث يكون معمولاً وحسب نون أشياء أئمن قليلاً، تأتي بالميراث اندقيق. فإن كان لشيء المرزوق دهاً يحيط الميراث بجدرا ن رجالية لأن لفحة الهواء قد تنقل أو تزيد الوزن.

إس نحاول أن نضع تأثير تيارات الهواء عليها. وحسب نون المواد اسكيمياوية تأتي بميران يحمل بالذرة. إذن كل موروث يأخذ درجة ميزانه بمقدار نقاسته وتأثيره لأن تحقيق العدالة في الميراث مسألة صعبة، وكذلك الأمر في الكيل. فحين يكس الإنسان كيلاً بمسك إناء الكينة ويهره حتى يأتي الميكال دقيقاً محمراً، وإن أراد أن يلعب ضمير، ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ الكيل بأكثر مما يحتمل ويسند الريادة يده حتى لا تقع وربما يقول:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكْتُمُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَفْهِنُونَ ۝﴾ وإذا كألوهم أو ورموهم يخسرون ﴿٢﴾ [سورة المطففين]

فحين يكتال يستوفي ويعطى أي يريد ماسوف يأخذ شراء، وحسب يبيع يفل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن ما يرون أو يكيل. وأصل المبادلات عاناً بين طرفين، ويعص المتطعين يقول، كيف يقول الحق: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝﴾ والتطع في أي مسألة يكون بالريادة، لا ينقص، ويقول، انته إلى أن المتحدث هو الله، والتضيق يزيد طرفاً وينقص من طرف، وكل صفة بين اثنين هيها بيع وشراء. فإن أود واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفي لنفسه فهو مطفف. ولذلك تأتي دقة الأداء القرآني من ريب.

﴿وَأَوْفُوا لَكِيلَ وَالْمِيرَانَ بِالْقِسْطِ لَا يَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۝﴾ (١٥٢)

[سورة الأنعام]

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميراث بالعدل أمر متعذر؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أوسع رحمته في التشريع ل لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل في الاستطاعة؛ ففي ضبط المكيال والميراث قال: ﴿لَا يَكْلَفُ نَفْسًا

نفساً إلا وسعها ﴿ لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل في نطاق الإنسان ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التي نعلمها إن كانت من الأشياء التي ليست فيها لماسة فوزنها له كفة . وإن كانت في المتوسط فوزنها له آلة ، وإن كان في الأشياء النفيسة الدقيقة التي للقدس الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصبوبة من عوامل الخوص حتى لا تتأثر بهمة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا مكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إياحة للأشياء الزائلة أو الناقصة التي لا تدخل في الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى . . (١٥٢) ﴾ [سورة الأنعام]

نعلم أن القول بسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، يفعل للمطلوب فيها خيراً أو إنشاءً ، ويقول مقابلة الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجراحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمس كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى ﴾

وهل العدل مقصور على القول ؟ أو العدل أيضاً يكون في الفعل ؟ إن العدل قد يكون في خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت لعدل في قولك ، ألقت وأنت به وأحسنته حتى في أمثالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن نقر على شيء في نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة قلها بالحق ، والحكم قلها بالحق . والوصية قلها بالحق . والمعتري قلها بالحق . إذن فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرفات ؛ لأني إذا قلت بالحق أمكنت أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يحتمل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لو أحد بشيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يرهق في الحركة ، لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إحد يقول  
العدل هو موطأ حركة الحياة الكثة المستقيمة الرتيبة الرشيدة ﴿ وإدا قنتم فاعذبوا  
ولو كان ذا قربي ﴾

والذي يؤثر في العدل هو الموى ، وحين يوجد الموى فهو يحاول أن يميلك إلى  
ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقراءة لك ، وقد  
تريد إن حكمت - والعياذ بالله - باطلا ، أن تعد ذ قرياك ، وأنت بذلك م تؤد حق  
القراءة ، لأن حق القراءة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شيء محرم وتحصى عرضه ،  
وتحصى دينه قبل أن تحصى مصلحته في النعمة الرائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول  
الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربي ، لأنك حين تحكم بالباطل فأنت  
في الواقع حكمت عليه لا به

﴿ وَيَعْهَدُ اللَّهُ لَأَوْفُوا ﴾

( من الآية ١٥٦ سورة الأنعام )

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة اليهود هو  
الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن تنلقى منه التكليف ، فكل تكليف من  
تكليف الله خلقه يعتبر عهداً داخلاً في إطار الإيمان ، لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه  
لكلف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾

( من الآية ١ سورة المائدة )

أي يا من آمنت بالعهد الأصيل في القيم وهو العقيدة ، وآمنت بر إلها : حدد  
التكليف مني ، لأنك قد دخلت مني في عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾  
ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا نبحث عن  
في كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذي أمرك أن تفعل كذا ، فعمله كل  
هي الحكم .

وبذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

( من الآية ١٥٢ سورة الأنعام )

و « ذنكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأنعام )

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأنعام )

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جداً ، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عبود التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخن شيء من جميع الكتب ، وقبل إسن أم الكتاب من عمل بين دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جلد يسخ واحدة من هذه الرصايا ، ولذلك يقول اليهودي الذي أسلم وهو كعب الأحبار : « والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة » ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ » . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هي جامعة لكل شيء ؛ نجد تسع وصايا قد مرت ؛ سماً منها قال فيها : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، وهذه الوصية لعاشرة هي الجامعة لكل أنواع المضائل التكليفية إنها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ شَرِّكُمْ وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَكُفِّرْ بَشَرَهُ أَكْبَرًا ﴾

تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ دَلِيلَكُمْ  
وَصَبَّحَكُمْ يَوْمَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

أى أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن انصراف المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وقلت : إنما يلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، والأربع التى بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة للجامعة لكل شيء قال تذييلاً لها ﴿ لعلكم تتقون ﴾

فما الفرق بين التعلل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التى قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبُّكُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾  
﴿ وَلَا تَقْسُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَنْ يَبْغِ الْفِتْنَةَ يَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾  
﴿ وَلَا تَقْسُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَنْ يَبْغِ الْفِتْنَةَ يَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾  
﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موحدة في بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويفارقون الصواحيش ويقتنون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تعملوها ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بجمعكم من هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم لئلا يحدث في الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتماخرون بها . ففى التى كانوا يعملونها من القيم على أمر مال النعيم والوفاء فى الكيل والجزان والعدل فى القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تعملوها ، فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ، فافعلوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوجب كل الأحكام إيجاباً وسلباً ، نهياً وأمرأ ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتعوا الصراط المستقيم - لتقوا أنفسكم آثار صفات المهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المبد ، ويأخذون منه صراط الأنقرة ، وهو - كما يقال - « أدق من الشعرة ، وأحد من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ، لأنه لوراح يمنة يجرى في النار ، ولوراح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمر بدقة ويس طريقاً واسعاً ، بل - كما قلنا - « أدق من الشعرة وأحد من السيف » هل تمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ، لأن الليل - كما قلنا - يهلك عن العاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم انحلت توازيك فيه قدر مليمتر مكلما سرت يتسع للخلل ، وأى انحراف قليل في نقطة البداية يؤدي إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما تلتقى فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير في الطريق المستقيم ، وكما ابتعدنا عن الشريح تفرق بنا السبل .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، جل بالحركة العملية منطوق النبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه ونخط خطاً . وقال هذا سبيل الله . ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال هذه سبل وعمل كل سبيل منها شيطان ، يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كما اقتربوا من المركز كن الانتفاء ، وهذا الالتواء يطل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير انكل إلى نقطة واحدة

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه في ديثه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يعش نفسه ، والذي يعمل ويمشي فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بسجوة وبعد عنه ، ولو غشاكم جميعاً لا يعش نفسه ، وهذا هو صراطه الذي يسير فيه

والسبيل هذا معروف أنه إلى الله فكان سبيل الله هو طريق محمد ﷺ . ونسب الفعل واحدث لله وحده ، ففي البداية قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ ، ثم قال : أسبيله ، فاصراط لم يعمل محمد لنفسه ، ولكن أراد الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذي يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التي تأتي بين الدنابات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَذَاتِ الْيَهُودِ يُسِتُّ الْنَصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ الْنَصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ . ﴾ (١١٣)

[سورة البقرة]

والمشركون قالوا : لا هؤلاء على شيء ، ولا هؤلاء على شيء .

﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . . ﴾ (١١٤)

[سورة الشورى]

أي أنا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصراني على شيء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شيء ، وقال الذين لا يعلمون - وهم أهل مكة - مثل قولهم ، ثم نجد الذين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شيء تتعصب له . وتري أن الذي تقول به هو الحق ، والذي يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والنزيلات الإلهية على الرسل واحدة ؟ إن

أفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة لرمنية ، وكل إنسان يريد أن يكون له مكانه وصود وحلافة . وهذا يريد أن يشرع مريقاً ، وذلك يريد أن يشرع مريقاً ، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لما كانوا افرقاء .

ونجده ﷺ يقول . « افرقت ايهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وافرقت أمى على ثلاث وسبعين فرقة »<sup>(١)</sup> .

وفى رواية «كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » ، ولجماعة هم أهل السنة والجماعة ، وفى روايه : « ما أنا عليه وأصحابى » .

وبلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لا تسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الدين كانوا يتمصبون لها ، والدين كانوا يريدون أن يعيشوا فى جلالها .

إذن الأفة تأتى حير منظر حين إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحداً رأياً ، ويأتى الآخر يرى فيه رأياً آخر ، لاثنى . إلا للاختلاف ، ونقول لهم انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحَكَّم ، وحكم بركة الله مناهلاً للاجتهاد فيه ، فالحكم الذى أراد الله محكماً جاء فيه ينص لا يحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يحبه الله من المكلفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومعنى النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إيدن بالاجتهاد فيه ، لأنه لو أراد محكماً لا يختلف فيه لجاء به محكماً .

واشال المسمر ما تركه لنا رسول الله ﷺ فى سنته الشريفة ، فحيماً أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال ﷺ « لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا هِىَ بِنِى قَرْيَظَةَ »<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه أبو داود والترمذى والسنائى وابن ماجة عن أبى هريرة

(٢) رواه البخارى فى الممارى ، والبيهقى فى الدلائل والنس



فذهب الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة ، وأذنت الشمس بالمغرب وهم في الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلي العصر قبل أن تغرب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلي العصر إلا في بني قريظة فصلى قوم العصر قبل مغرب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بني قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأنقذ هذا ، وأقر هذا ، لأن النص محتمل

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولا بد أن نصلي العصر قبل مغربها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلي إلا في بني قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلّم أقر هؤلاء وأقر هؤلاء .

إذن فالمحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتي لنا بالنص غير المحكم . ومن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، وللملك بقي لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض نجد الواحد منهم يقول : الذي ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذي ذهب إليه مقابلي خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذي أبقي مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفي ولا تدرون بها ، والحمد لله أنكم لا تدرون بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

ثُمَّ أَنبَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ  
يُلَقِّعُ رَبُّهُمْ يُؤْمِنُونَ

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف

كثيره ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتي قوله : ﴿ قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ، فالتوراة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبرة هنا به ؟ ﴿ ثم ﴾ . مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل محي ، قوله خلق : ﴿ قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

وبقول لأصحاب هذا الصهم : أنت أخذت ﴿ ثم ﴾ لترتيب أفعال وأحداث ، وسيت أن ﴿ ثم ﴾ قد تأتي لترتيب أخبار . فقد يأتي من يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدى الحق لواجب عليك له ، كحق القراءة مثلا ، فنقول : كيف ، لقد فعلت معه كذا ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع حذو كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وترقى ، ولذلك قال الشاعر العري :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

فالسيدة جاءت أولاً للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للأب . وه ثم في هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخبارى أى يكون وقوع المعطوف بها بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقى فى الإخبار بالأحداث

وننظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول :

﴿ وَلَقَدْ سَخَّرْنَاكُمْ لِمُورِسَ ثُمَّ مَوْرِسَ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

( من الآية ١١ سورة الأعراف )

ويعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من ابداية فسبحانه فى هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالتا ، إنه - سبحانه - خلق بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

ولله المثل الأعلى ، تعبد من يقول لابنه لقد اعتيت بك فى التعليم العالى ،



ثم لاتنس أنى قد اعتنيت بك فى التعليم النابوى ، ثم لاتنس أنى قد اعتنيت بك فى التعليم لإعدادية ، ثم لاتنس أسى قد اعتنيت بك من قبل كل ذلك فى التعليم الاشتائى وأنت بذلك تترقى إحسارياً لا أحداثياً فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . (١٥١) ﴾ [سورة الانعام]

طبعاً مادام جاء بسيرة موسى والكتاب هو لشورة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ، فإنه يصرف لى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، والمهيمن على كل ما فى الكتب أما لو قيل مثلاً أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوراة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ بِقَاءِ نَبِهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٥) ﴾ [سورة الانعام]

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق .

﴿ قُلْ هُوَ أَكْمَلُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . . (٣) ﴾ [سورة المائدة]

وهـ أكملت فلا نقصان ، وأتممتها فلا استدراك . ولما جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام ؟ . جاء ذلك لأن الذى تصدوا للجهاد والجدل مع الله هم اليهود

وأنتم تعلمون أنهم صوروا فى مصر ها فيما سيمائياً اسمه « الوصايا العشر » من قصة سيدنا موسى عليه السلام . والوصايا العشر هى التى أقرها كتب لأحبارها أنها موجودة فى التوراة وجاءت فى الآيات السابقة التى تناولناها وشرحناها . فمن المناسب أن يأتى هنا ذكر موسى عليه السلام .

وحينما جاء موسى عليه السلام بالنسرة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس أموا  
بما في التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا أما الذين استمرت حياتهم إلى أن  
جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم في  
التوراة أن هناك رسولا قديما ، ولا بد أن تؤمنوا حتى يتم نعمه الإحسان عليكم ،  
لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجه فلا بد من الإيمان بمحمد عليه السلام  
والسابقون لكم أحسوا في زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد  
بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والسعة ، فلا بد أن  
تعلوا الإيمان بمحمد عليه السلام ، منكم بر أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وأمو بمحمد  
فتم بهم الحسن ﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُقَالُونَ ﴾

وتفصيلاً لكل شيء أي أنه مناسب لزمته ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون  
لذك ولد صغير السن فنقول أنا فصلت له ملابسه ، أي فصلت له الملابس التي  
تناسبه . وحين يكرن تطل ملابسه القديمة صالحة لأن يرتدنها . وتفصيلاً لكل  
شيء أي القيم التي تناسب الوقت الذي يعيشونه ، فإذا ما جئنا بتفصيل جديد في  
القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول : هنا تفصيل ، وهذا تفصيل ، فما الفرق  
بين تفصيل وتفصيل ؟ نقول : إن كل تفصيل مناسب لزمته ، وأبنت القرآن  
مفصلة جاهرة ومعدة لكل زمن وللناس جميعا إلى أن تقوم الساعة .

والآفة - دائما - في القائلين على أمر التشريع ، حينما تأتيهم حالة لدى جاء  
وسلطان يعاولون إصداق وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول لنش هذا الرجل أنت  
تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهرة ومعدة وظاهرة ، إننا نجد القوالب استغنية  
تختلف فيها التفصيلات للملابس سيما اقوالب المعنوية نجد فيها التساوي بين  
الس كنها ، فالصدق عند المطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند  
الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند  
الناجر . وليس نكل منهم صدق خاص ، وكذلك الأمانة . ورحمنا الإسلام بالقضية  
العهدية ، كذلك بالقضية الحكمية الجاهرة المناسبة لكل بشر ، وليست هناك آية على  
مقاس واحد تطلق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع .

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٤٠٠٧﴾

﴿وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ وهدى ورحمةً ..﴾ (٦٠٤) [سورة الأنعام]

والهَدْي هو ما يدل على العايات ، لأن دين العطرة قد انطمس بعدم تبليغ الأمانه إلى الأولاد منهج السماء في أمور اخبية ومتعلقاتها والقيم التي يجب أن تسود والأفع أن الأب يعلم ولده كيف يأكل ويشرب ، وينسى أن يعلمه أمور القيم ، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ، فشرع وأرسل لكل زمان رسولا جديداً ، وهدى جديداً ليذكرنا .

﴿.. لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ بِؤْتُونَ﴾ [سورة الأنعام]

إن كن آفة تسع من العزوب عن تشريعات الله ، وهم يسون أن يصنعوا في أدهانهم لعاء الله ، لكن لو أن لقاء الله متضح في أدهانهم لاسعدو لذلك ، لأن العايات هي التي تجعل الإنسان يقل على الوسائل ولشاعر يقول

ألا من يرى غيبى قبل مذهبي ومن أين والغايات هي بعد المذهب

ويقول لهذا الشاعر قولك . ألا من يرى غايتي قبل مذهبي كلام صحيح ، أما قولك : ومن أين والغايات بعد المذهب ، هذا كلام غير دقيق ، الغايه هي التي تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله العايات أولاً ، بعد ذلك جعل لها السبيل . وقد شرع الله لكل شيء ما تقضيه ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لا استندرك عليه لأن فيه تفصيلاً لكل شيء .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾

لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

وهذه إشارة وعادة مائتي وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن لاسم

الإشارة متقدم أو حاضرة يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لا ينصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهني بدون تفكير لوضوحه وكلمة «كتاب» تدل على أنه بلغ من نفسه أنه يجب أن يكتب ويسجل ، لأن الإنسان لا يسجل ولا يكتب إلا الشيء المانع ، بما النغور لا يسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه «كتاب» ، ومرة قال فيه : «قرآن» فهو «قرآن» يتلى من الصدور ، «كتاب» يحفظ في السطور ولذلك حينما جاءوا ليجمعوه أتوا بالمسطور ليطابقوه على ما في الصدور .

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ . (١٥٥)

[سورة الأنعام]

و«أولئك» أي أمرؤ بالمرأله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من «اسرى» أي أنه يعطى من الخير والثمرة فوق ما يُظن فيه ، وقد تقول فلان رآته مائتاً جنيه ، ويرى أولاده جيداً ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هي البركة كأن الرتب لا يؤدي هذه المسؤوليات أبداً . وكلمة «البركة» تدل على أن يد الله ممدودة في الأسباب ، ويعلم أن الناس ينظرون دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتي لك بما تتي جبه ، ورزق السلب يسب عليك مصارف لا تعرف قدرها . فمحد من يبلغ مرتبه الصا من الجسيهات ، لكن بعصر والده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى ما وقفها

إذن فحين يسلب الحق المصارف ويعرق المال في المعصية أو المرض فهذه هي بركة الرزق ، ويحد الرجل الذي يأتي ماله من حلال ويعرق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شيء يحتاج إليه ، ويحلج الله على المال القليل صفة القبول ، وتجد آخر يأتي ماله حرام فحلج الله على ماله صفة العصب فينفقه في المصائب والبلايا ويحتاج إلى ما هو أكثر منه

وأت حين نقدر القرآن بانتوراة في الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التي فيه فستجدها بركة لا تنتهي ، فكل يوم يعطى انقران عطاء الجديدي ولا تنفسي عجائبه ، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديداً وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع في الشيء العليل الفائدة الكثيرة ،

وهذا هو معنى ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً . والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح الشرقيات ، وحضارتها وارتقاءاتها في العقول ؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له سبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكذلك يعلم أن لقرآن قد نزل على رجل أمي ، وفي أمة أمية ؛ ولذلك حكمة بالغة لأن معنى « أمي » أي أنه لم يأخذ علماً من الشر ، بل هو كما ولدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء .

إذن فالأمة فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له . ونزل القرآن في أمة أمية ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت في هذه الأمة المشددة المتثقلة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب المصيبة عظم ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية فهي ذلك الدليل على أن الكتاب الذي يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلونزل القرآن على أمة متحضرة لقليل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوايين مثل التي كانت تحكم بها الفرس أو الروم

ومادام الكتاب له هذه الأوصاف التي تريح الخلق من عباء التسريع لأنفسهم ويصم كل أحمق ، لذلك يأتي الأمر من الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الأنعام )

وساعة تأتي « لعل » فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلاناً يعطي كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومن يفهم العمل المرجو لإنسان آخر ، وقد يعمل الآخر هذا العمل ، وقد يعضب فلا يظلمه ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يسرى أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإد قلت : « لعلني أفعل لك كذا » ، وهذا تكون أنت لراعي والمرجو في أن واحد ، ولكذك أيضاً ابن

للأعيار ، فأنت تنفع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تيسر لك مثل هذه القدرة

ولمّاذا أنزل لحق هذا الكتاب ؟ . يأتي الحق هنا بالتميز بلأمة التي أراد لها أن يرسل فيها القرآن فيقول

﴿ أَنْ يَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾

فالكاتب يهمل العفائد السابقة التي نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد علمتم عن دراسة التوراة والإنجيل ، لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عدواً وتقولوا : إن أميتنا معتنا من دراسة الكتاب الذي أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكان الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم

﴿ أَوْ يَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايِنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من



ليهود وانصارى ، ومعنى هذا القول ما يعنى أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. ﴾ (١٥٧) [سورة الأنعام]

و«صدف» من الأفعال التي تُستعمل متعنية وتُستعمل لازمة ، ومعنى «لازمة» أنها تكتفى بالماعن ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان معهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئاً آخر . لكنك إن قيل لك : ضرب زيد ، فلا بد أنك تتنظر من محدثك أن يبس لك من الذى ضرب ، أى أنت جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل وهذا اسمه فعل «متعدي» أى يتعدى به الماعل إلى مفعول به .

و«صدف» فيها الخاصتان وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وإن تكون متعنية ليصيب الأسلوب غرضين : الغرض الأول : أن تكون «صدف» بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أى صل نى ذاته ، والأمرا الثانى أن تكون صدف متعنية فهى تدل على أنه انصرف غيره عن الإيمان ، أى بفسل غيره ، ويقع عليه الورد : الضلال نفسه أو لآثم عليه وزر من أصل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه بالنمط الذى يصلح للالتين «صدف عنها» أى انصرف ، ضللاً لنفسه ، وصدف غيره أى جعل غيره يصدف ويعرض فأصل غيره ، ولذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿ . . . مَن جَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (١٥٧)

[سورة الأنعام]

فكان مسأنة يرتكبها . الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ، وصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا فى ذلك فصرفوا عيهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقروا الوجود الذى يعايشونه بوجود الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقه رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب يحكمه ،

ولا الموص أو العافية لحكمه ، فالموت أمر شائع في الوجود. ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يتقرب بهائنه ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدمون ؟ وماذا ينتظرون من الكون ؟ أراهم خلوداً في الكون لموجود معهم ؟

ويقول مبيحاته من بعد ذلك .

﴿ هَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا حَرًّا قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّمَا تُنْتَظِرُونَ ﴾ (١٥٨)

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم ، لا أن تأتيهم الملائكة التي تقهر الروح ؟ والملائكة تأتي هنا مجمله وهي آيات أخرى يقول :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ .. ﴾ (٢٨) [سورة النحل]

ولن ينأى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلفون بهم السلم وتنتهي المسألة .

ويتبع مبيحاته .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا حَرًّا قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّمَا تُنْتَظِرُونَ ﴾ (١٥٨)

ورف العطاء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يصيروا الإتيان من الرب على صوء الأتيان ما ، والأتيان هنا يقتضي انحلافاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه . وهذا الأمر لا يصلح مع الله ويقول. أفسرت كل معنى على

صوت المحيى بالنسبة لك ؟ بالله قل لى . ما رايت فى قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾

( من الآية ١٩ سورة ق )

كيف جاءت سكرة الموت وهى اسمخونة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجرى الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجرى الله ؟ عليكم أن تفسروا كل شيء بالنسبة لله بما يلقى بذات الله فى إطاره ليس كمثله شيء ، ولنأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ونجعل كل شيء منسوبا لله بما يناسب ذات الله ، لأن المجيى يختلف بأقدار الجائين ، فمجيى الطفل غير مجيى الشاب ، غير مجيى الرجل المعجور ، غير مجيى القارس ، فما بالنا بمجيى الله سبحانه !! إيدك - إذن - أن تفهم المجيى على ضوء مجيى البشر . وأكررها دائما : عليك أن تأخذ كل شيء بالنسبة له سبحانه لا بقانونيت أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يحصه فى إطاره ليس كمثله شيء ، ولذلك قل : له سمع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، فى إطاره ليس كمثله شيء . ورياكم أن تسمعوا مناقشة فى قوله : « يأتى ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كعمل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شيء » ﴿ أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هى العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم . « يَأْتِرُوا بِالْأَعْمَالِ بَيْنَا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَالْجِبَالُ ، وَخُورُصَةُ أُخْرِكُمْ وَأَمْرُ الْعَامَّةِ »<sup>(١)</sup>

و « خُورُصَةُ أُخْرِكُمْ » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت لتي تخص الإنسان ، وصغرت لاستصغارها فى جنب سائر العظام من بحث وحساب وغيرهما وقيل . هى ما يخص الإنسان من الشواغل المعلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامة » . أى القيامة ؛ لأنها تعم الحلائق ، أو الفتنة التى تعمى

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة .

وتصم ، أو لأمر الذي يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا وَلَا كُفْرُهَا مِمَّا قَبْلُ ﴾

( من الآية ١٥٨ سورة الأنعام )

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبي ؛ فكل أمر مشهدي مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ، فأت لا تقول : أنا أؤمن بأمر أقرأ الآن في كتاب خواطر الشيخ الشعراوي حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالعمل تقرأ هذه الخواطر الآن وأنت لا تقول أنا أؤمن بأن النور يضيء الحجارة ؛ لأن هذا أمر مشهدي ، وليس أمراً غيبياً والإيمان يكون دائماً بأمر غيبي ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا نتقل من الإيمان بالأمر الغيبي إلى الإيمان بالأمر الحسي ، وحيث لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والمير بعد أن تبغ الروح الحلقوم وتقول : أفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مآلك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذي لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التي قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدي الساعة أو قبل مجيء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لم يقبل منك أن تقول - امت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر لغيبي ، وظهور الآيات هو أمر مشهدي فلن يقبل بعده إعلان الإيمان ، والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا وَلَا كُفْرُهَا مِمَّا قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا سَعِيرًا ﴾

( من الآية ١٥٨ سورة الأنعام )

أي أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وألا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان - والعياد باقة - مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجيء العلامة ، أو لم يبلغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من يفقه الإيمان

وقد عرّص الحق لنا من هذه الصور ما حدث في التاريخ السابق ، فهو القائل .

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿٤٠٦﴾

﴿وَجَنُودُ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَهُمُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذْ أَفْرَكَهُ  
الْفَرَقُ قَالَ أَمْتُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٠٦﴾﴾

[سورة يونس]

ومادا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

[سورة يونس]

﴿... وَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ... ﴿١٠١﴾﴾

إذن : إذا بدعت الروح الخلقوم ، وهذه مقدمات اسوت فلا يتبع حيثشذ إعلاتك  
الإيمان .

وبذبل الحق الآية بقوله :

[سورة الأنعام]

﴿... انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

هم منتظرون الحية ونحن منتظرون لفلاح .

ويعزل الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيَنَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ  
فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا  
يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

هذه الآية تشرح الآية التي سبقت نحو اطرن عها ، وهي قوله الحق :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ  
وَصَّيَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام]

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليمرق ، والذين جاء ليوحد مصدر الأمر وانتهى في الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون في المباحات فقط ، إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، ومالم يرد فيه أمع ولا تفعل ؛ فهو مباح

إذن الذين يهرقون في الدين إنما ياقضون مهج السماء الذي جاء ليجمع الناس على شيء واحد لتتساند حركات الحياة في الناس ولا تتعاند ، وإذا كان ذلك هو ، وهذا له هو ، وذلك له هو مسرف تتعاند الطاقات ، والمطلوب واضرب أن الطاقات تتساند وتتعاقد .

والشيء هم الجماعة التي تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان صلاً وهناك شيع لمعنى مانع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجمّع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شراً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَنتَ مَنَّهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ ﴾ (٦٤٩)

[سورة الأنعام]

إذن هم بعيدون عن منهجك يا محمد ، ولا يصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لا يأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو بمقد قيمته كماء صاف ، وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ، فهذا أمر بصر الدين ، وعيت أن تعلم أن الإسلام لون واحد

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦٥٣) [سورة الأنعام]

إن شاء سبحانه عاقلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء آجلهم إلى يوم القيامة

ويقول لحق بعد ذلك :

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ  
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا  
يُظْلَمُونَ﴾ ١٦

هناك « حسن » ، و « حنة » ولا تقل : إن حنة هي مؤنث حسن ، لأن فيها  
تاء . كأنها تاء التانيث ، ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتي على اللفظ الذي للذكر ،  
مثلاً تقول : « فلان علامة » ، و « فلان راوية للشعر » و « فلان نسابة » هذه هي تاء  
المبالغة .

و الحسنه هي الخبر الذي يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت  
الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ  
أَمْثَالِهَا ﴾ .

فـ « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود  
مذكراً تأتي له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً تحذف التاء . لأن أصل الأعداد مبني على  
التاء ، لأبك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبني  
على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت  
العدد مع الأصل وهو لمذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » .  
وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول :  
﴿ فله عشر أمثالها ﴾ ، و « مثل » - كما قلنا - مذكر . والحق لم يجعل الأصل في  
العطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنه .

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والعفو . ولذلك ورد الحديث القلبي .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى - « إن ركنكم عر وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو بمحوها الله عر وجل ولا يهلك على الله إلا هالك » (١) .

وتعرف أن الحق يجزى المحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص في معاده ، فكان الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالية المحسنة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وصح الحق هذا النظم ؛ لأنه جل وعلا يريد للمحسنة أن تُفعل ، ويستمتع الغير بها ، فإذا كان فعلها حريصاً على الأجر الرائد فهو يقسمها بية محلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَالَّذِي يُقْرِضُ وَيُضَاعِفُ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحمد هذا جزاء الحسنه بأن ثوابها عشر أمثالها ، وثية معطى الحسنه هي التي يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة لو أزيد . ولحق سبحانه وتعالى يعطى مثلاً لذلك في قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ صَبْعًا سَاوِيًّا فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)



وإذا كانت الأرض وهي مشوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعائة فماداً يعطى خالق الأرض ؟ إن عطائه غير محدود ولا ينعد ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَأَلَهُ يُصْنَعُ لِمَنْ بَشَاءُ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة الفرة)

ويتابع الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا بِشَأْنِهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

و «ديناً قِيماً» أى تقوم عليه مسائل الحياة ، وهو قائم بها ، و «قِيماً» مأخوذة من «القيمة» أو من «القيام» على الأمر ، وقدم على الأمر أى باشرو مباشرة من يصححه ، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم ، وهو قائم عليهم أيضاً : ﴿ديناً قِيماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ .

وفي كل أمر مهم له خطره ومركته يأتى لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه لقدر المشترك الذى يجمع كفار مكة ، وأهل الكتاب الذين يتحكمون به . وقالت اليهود : إبراهيم كان يهودياً ، وقالت النصارى : إن إبراهيم كان نصرانياً ، وربنا يقول لهم ولنا :

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففي بيتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجارهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾

( من الآية ٢٧ سورة إبراهيم )

فسيدنا إبراهيم هو الذي رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذي عمل لهم مهانة جعلت تجارتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالورق اوعبر . وحين يقول الحق :

﴿دِينًا مِمَّا مَلَئَتْ أَيْمَانُهُمْ حَافِيًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

( من الآية ١٦١ سورة الأنعام )

المقصود هو الدين الذي يعيشون في كتب حبراته آثاره ، و« الحنف » هو احوجاج في القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً على الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ويعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَذُكِّرْتُ وَمَحَبَّاتٍ وَمَمَاقِفَ اللَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾

و« صلاتي » مقصود بها العبادة والركن الثاني في الإسلام الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهي الركن الذي لا يسقط أبداً ، لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - كما قلنا سابقاً - يكفي أن تقولها مرة في العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تتركى لأنه ليس لك مال ، وقد لا نستطيع

الحج ، وتبقى الصلاة التي لا تستطع أبداً عن العبد . وهي - كما نعلم - قد أخذت التكليف حظه من الركنية .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحي إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . ونحن نقول الحق : « إن صلاتي » ، فهو يذكر لنا صفة لأركان والتي اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً في مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يحطر أصابع الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكى ﴾ . و « النسك » يصلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ يَكُلُّ أُمَّةٌ جَمَعَتَا مَفْكَاهُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

( من الآية ٦٧ سورة الحج )

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرة في الحج ، مثل سك الطواف ونسك السعى ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمي ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « السبيكة » وهي السبيكة من الفضة التي تصهر صهراً يخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية في النقاء . فسميت العبادة بسكاً لهذا ، أي يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التي تختلط بها . ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل في قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لا يدخل أي منهما في قانون الاختيار ، إنهما في يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصل إلا لأنك آمنت بالأمر بالصلاة ، أو أن الحواجز ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تعمل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المحلقة لله لتأدية المهج الذي أنزله الله إذ إن أردت نسخة كل نص فانسبه إلى الله

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختياري ؟ ، لأنه إن كان في ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذي وضع

امنّهم فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتي لله وسكنى الله ، أى أن تحصل فيها ، ولاشرك فيها ، ولا تصلى مرثاً ، ولا تصنع سكاً مرثياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك : «الحاج فلان» أبداً ، بل اجعلها كلها لله : لأنك إن جعلتها لغيره فلس لغيره من القدرة على الجزاء ما يجاريك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد احترت الحيلة في الصفة : لذلك اجعل الصلاة والسك للذى يعطيك الأجر

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

والحياة هبة الله ، وربك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة فى غير ما يرضى الله ، فبمضى أن يكون حيتك لله لالشهوتك ، ومماتك لله لالتورثك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّكَ أَكْبَرُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا القول يدل على أن بعض خلق قد يجعل لله شريكاً فى عبادة فيجعل صلاته ظاهرة رياء ، ومنامكه ظاهرة رياء ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللدنية : لذلك عيب أن تذكر أن الله لا شريك له .

﴿ .. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته ﷺ ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لأهلك أنت ، فسيحانه أهل لأن يحب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأما لأدعيه لنفسى من هو عطاء من ربكم وربى الذى أمر . وبذلك ما الحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله ﷺ مشغول بأمر أمته أبلغنا .

﴿عَمْرِئَ عَلَيْهِ سَاعَتُهُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

وفي كل شيء كان صلى الله عليه وسلم يقول : أمتي أمتي أمتي ، وأره الحق سبحانه وتعالى أن يطمش رسوله عن محبوبة أمته فقال له : « إنا سترصيت في أمتك ولا نسوذك »<sup>(١)</sup>

والحديث بتمامه كالآتي :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ رَبِّ إِبْرَاهِيمَ أَصْلَحْ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنَّهُ أَسْلَمَ مِنْهُ ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام . ﴿ إِن تَعْلَمِهِمْ مِنْهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي ، وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم حسنه ما يبكيك ؟ فأنه جبريل عليه الصلاة والسلام ، حسنه وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سترصيت في أمتك ولا نسوذك »<sup>(٢)</sup> ونزل قوله الحق :

﴿وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۚ﴾

(سورة الضحى)

روى عن علي رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إني لا أرضى بواحد من أمتي في النار »<sup>(٣)</sup> .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان

(٣) ضرائب القرآن ورفاه الغافل للشيخ أبي

ويتبيل الحق الآية بقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

وحين يقول ﷺ : وأنا أول المسلمين في أمتي بهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام ، وكل رسول أول المسلمين في أمة ، لكن هناك أناس يقولون لتأخذ العيادة هكذا ، ويقول 'إن الرسول ﷺ له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلى في أنه أخذ العهد على غيره له ، ولم يؤخذ العهد عليه لأحد . فإن كان أول المسلمين في أمتي ، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً ، وإن لم تأخذها حدثاً أحدها للمكانة . وأضرب هذا المثل . هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلاً سنة كذا وعشرين ، لكل سنة لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على ١٠٠ / هذا العام فنقول عنه إنه الأول على كلية الحقوق من يرم أن أنشئت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ظُلْمًا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٦﴾﴾

معنى الرب أنه هو الذي تولى التربية ، وله السيادة ، وكل شيء في الوجود مبروب لله ، فكيف أحد شئنا من الأشياء التي هو ربها وخلقتها يكون شريكاً له؟! إن ذلك لا يصح أبداً . ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا﴾ .

وهذا إنكار يأتي في صورة استعظام من كل سامع . وكأن الحق يقول لكل ما أعرض هذا على فعلك عرضاً غير متحيز ، وأنا سأثبتك على الجواب . ولانقل

ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أى عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقني في أنه لا ينبغي أن يتخذ غير الله رباً .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْبِيَ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

(س الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

و «أبى» أى اطلب ، و «تكسب» مأخوذة من مادة «كسب» ، و «اكتسب» ، و «كسب» دائماً تأتي في الخير - كما علمنا من قبل - ، و «اكتسب» تأتي في الشر . لكن هناك أناس يعتقدون من فعل السيئات ولم تعد تكفهم شيئاً ، فكأنها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً . ومن الحق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ، لأنك حين تنظر إلى اتسعية نفسها تفهم أنها ليست رصيداً لك بل هليك .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(س الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شيء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ، ككلمة «وزير» ، والحق هو الغائل :

﴿ وَأَحْمِلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۚ ۝١ هَرُونَ أَخِي ۚ ۝٢ أَشَدُّ بِهٖ أَدْرَىٰ ۚ ۝٣ ﴾

(سورة طه)

كان موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال له : أعطني أخي يساعدي في هذه المشقة .

والحق هو الغائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۚ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ ۝٢ إِلَيْنِ أُمِّقْ صُلْحَكَ ۚ ۝٣ ﴾

(سورة الشرح)

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في أول استقباله للوحى قد عانى من وقع هذه

الحمية وكان أمرها شاقاً عليه ، لأن المسألة تقتضى التفاءت ملكية بشرية ، ولا بد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذى كان يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : رملون رملون ودثرون ، وإن كان قاعداً وركبته على ركة أحد بجانبه فيشعر جده بالثقل ، وإن كان على دابة تنط وتتن تبعاً ، لأن التفاء الوحي برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين . إما أن يتحول الوحي وهو حامل الرسالة إلى بشرية محاذلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التقوّه بالملكية يتطلب انفعالا وتفاعلا .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحي عرف حلالة استقباله بسى المتاعب ، ولذلك صدمما فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحي من قبل ذلك ينعبه ، ويجهده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى في نفسه حلالة ما أوحى به إليه ، وهذا نفسه وتحتاج ويستلحق إلى الوحي ، فإذا ما استقبل الوحي بشوق فليس يتذكر المتاعب .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَظِيمًا وَلَا تَرْدُّ وَارِدًا وَرَدًّا أُخَرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ قَيِّمُوا كَيْفَ كُنْتُمْ فِيهِ تَحْتَلُونَ ﴾

( من الآية ١٦٤ سورة الأنعام )

إدب مادة الورود هي الثقل بمشقة ، أى لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ، فالمستولية لا تعدى إلا إذا تعدى النفس ، وعرفت من قبل العاروق بين من فعل في ذاته ، ومن أصل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإصلاحهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا ليتنا بما كنا فيه نختلف .

ويقول جل وعلا بعد ذلك .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَيْفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ



بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءٍ آتَيْنَاكُمْ  
إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

وهناك قول كريم في آية أخرى -

﴿مَوَالِدٍ حَقٌّ حَتَّىٰ فِي الْأَرْضِ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

وهنا يقول الحق : ﴿خلقت الأرض﴾ .

ومعنى «خلق» أى الذى يخلق غيره ، ولما أن يخلق زماناً ، ولما أن يخلق مكاناً . وخلق الزمان أن يأتى عصره بعد عصره ، ويوم بعد يومه ، وخلق المكان أى أن يكون جالسا ثم يرحل لىأتى آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده فى شبابه قويا ، ثم يرحل عنه الشاب ليأخذه آخيه ، ويذهب إلى الشيخوخة . وكذلك نجد إنسانا يملك مكدأ ثم يتركه ويأتى وسعد آخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعض لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان فى الأرض ، لأن كل شىء منفعل لله فهرا ، والحق سبحانه وتعالى منح بسطة عطائه ، فجعل بعض الأشياء تنعمل لبعضها هبة منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار - على سبيل المثال - تنفعل لك ، وإذا حرثت فى الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت ترتوى ، وإذا أكلت تشبع من أين أخذت كل ذلك ؟

إنك قد أخذته من أن الحق الذى سخر لك مافى الكون ، وجعل أسابا ومسببات ، فكانك أنت خليفة إرادات ، لكن يشب لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أى إنسان ولو كان كامرا ويريد أن يقوم من مكانه ، وتتصل له جوارحه فيقوم ، فأى جراحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه موجود أنه أراد أن يقوم قد قام . وحتى لا نهمك أنك أحدث كل ذلك بشطارتك فهو يعمل بعضا من الأمور

مشاعاً عالمياً ، مثل الموت والحياة إيهما أمران ، لا يختلف فيهما إلا بحسرى عن  
الفرسى ، عن العربى ، وكذلك الصبح والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة  
إنجليزية ، أو ضحكة شيعية أو ضحكة راسمائية ؟ طبعاً لا ، فكلها ضحك وهو  
لغة عادية ، ولذلك قال

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) [سورة الحنم]

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود فى الدمن كلها ، فأنت تكلم وتعمل على  
الصورة والكيفية ، أنت تريد ، لكنك ماعه تصحك فهو سبحانه الذى يضحك  
وأنت حين تود مجاملة أحد وتضحك له فصاحجاً بأن ضحكك صناعية  
واحق يوضح لك : إن زمام كونى مى يدى ، أجعل القوم مختارين فى أشياء ،  
وأجعلهم مرعمين ومنحدين على رعم أنوفهم فى أشياء ؛ بأن الذى أضحك  
وأبكى ، ولا يوجد بكاء إنجليزية أو بكاء فرسائى أو بكاء الدى ، وكل انشر شركاء  
فى مثل هذه الأمور .

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ . .﴾ (١٦٥) [سورة الانعام]

إن إرادتك على أعاصك ، وعلى جوارحك-أيها الإنسان- موهوبة لك من  
الواهب الأعلى والمريد الأعلى ، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد ، فبأمر  
المح إياك أن ترسل إشارة لتلك الحارحة تتعمل . فيصاف هذا لإنسان بالشلل .  
ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لمقاوم ذلك

أنتم إذ-خلائف لأرض- تنصرون لكم الأشياء بقدر ماأرد الله أن تتعمل  
لكم ، فإذا سلب اتعملها عنكم فلكى يثبت أنكم لم تسحروها بقدرتكم ، بل به  
هو ، إن شاء أخلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة . ﴿وَرَفَعَ  
بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾

كان من الخلافه اننا لانكون متماثلين متطابقين ، بل أرد مسبحانه أن نكون متكاملين في المواهب ، وفي الكماليات ، لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب ، لمسدت الحياة ، فلا بد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحت كلها أصداء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا قصاصة لمسد الأمر ، وكذلك لو كنا مهندسين أو فلاحين ، دون فلا بد من أن تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۖ ﴾ (٦٢٤)

[سورة الانعام]

أي أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عليه ، فمن هو البعض المرفوع ؟ ومن هو البعض المرفوع عليه ؟ إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تعصلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلا بد أن تكون إدارة المصالح من الكون اضطراراً ، وهذه هي هندسه المكون الأعلى سبحانه التي تتجلى في أمث وضعت خريطة لمن دخلوا معك في مرحلة التعليم الابتدائي . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية إليك نجدهم أقل ، ومن درس في المرحلة لثانوية أقل ، ومن تعمم التعميم العالي أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة في الكون لا تحتاج إلا إلى حامس الابتدائية فقط ، أو حامس الإعدادية ، أو إلى حامس شهادة إتمام لدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم في التعليم العالي ، فلن نجد لتلك المهام أحداً لذلك جعل الله التكاتف في الكون احتياجاً لا تفضلاً .

والخطو جيداً أن الإنسان إذا عصه جوع عطشه أو جوع عياله فهو يقبل أي عمل ، وإن رضى بقدرة الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقق على سواء فيتمتع هذا العمل ، ويستعوف فيه وسيرقه الله الرزق الخلال الطيب . ولذلك قال الإمام علي قيمة كل شيء ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح في الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجعلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متميزين متفاوتين ، مرفوع بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع بمهجه ، ومرفوع

عليه فيما لا يجيد ، حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدي له لعمل الذي لا يجيده  
وبذلك يرتبط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل

﴿ وَرَفِعَ بَعْضَكُمْ لَوْلَا يَفْقَهُ دَرَجَاتٍ لِّيَتْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [سورة الأنعام]

كأن هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من المواهب ، ليعلم علم الإبرام  
للعبد ؛ فسبحانه يعلم أن لا كل ما يصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدي  
الععمل ليكون ملتزماً بما فعل . وتكون حجة على العبد . وحسبما يقول الحق :

﴿ لِّيَتْلُوَكُمْ ﴾ فالمقصود ليخبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إختار له .

﴿ لِّيَتْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَوُّرٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام]

وسبحانه «سريع العقاب» ، وبك أن تستطىء الآخرة ؛ فالتواب والعقاب سأتى  
بعد أن تنتهى وغوت . وليس للموت سبب ؛ فكل إنسان فرصة لأن يموت ، وبذلك  
تكون قيامته قد قام ، وإن قامت قيامة الإنسان من يقوم بأى عمل آخر إذن  
فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يعمى بهم حلم الله ويستبطلون  
الآخرة . لذلك يقول أحد العارفين اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل  
طاعتك لمن لا تستغنى عنه . واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فكأن صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها فى المخلوق مية من الله له ،  
فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لا تعرف ما هى العضلات التى تحركها لتقف ؛  
ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول  
له كن ويكون

ومدنا حالات فلا بد أن تكامل ولا تتكرر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص  
من الآخر ، وفى الآخر موهبة تنقص فى غيره ، ليضطر كل مخلوق فى الأرض أن  
يتعاون مع آخر ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطى هو ثمره مواهبه ولا يريد الحق منا  
أن نعطي ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة فأنت تحتاج إلى موهبة  
من لا موهبة لك فيه ، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك

راجع أصبه وخرج حديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا في ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنه فضلت بعضكم على بعض ، لكني لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضلاً عليها ، ولكن كل مفضل في شيء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلاً عليه في شيء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعاً .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب في البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ في موهبة ما تفوق ، وفي الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها ، وفي موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها في جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوي الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضُكَ مَوْقِعَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكَ فِي مَا آتَاكَ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إذن فكل واحد ما يقدر أن يقول : أنا مرفوع ، ولكن عليه ألا يفتر ؛ لأنه مرموع عليه أيضاً . والتوازن يأتي من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك في درجة ، ولا مذلة بانخفاضك في درجة ؛ لأن هذا مراد الله وذلك مراد له - سبحانه - والذي يحترم قدر الله في توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبه ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبداً

ولكن أينجح الناس جميعاً في هذا ؟ لا ، فهلك أنام يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ في الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى قوتك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أضعف منه في أمور كثيرة - غدا الموهبة التي أعطاه الله لك ، واموهبة التي أعطاه لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان ، فالذي ينجح في هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فينجاور له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذي لا يحترم قدر الله في خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح

فله غمران ورحمة ، ومن لا يسبح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابي بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لرقته ، فيبدأ عقابه .

﴿ .. إِنَّ رَيْثَ مُرْيَحِ الْعُقَابِ وَإِنَّهُ لَفَقْرٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام]

وبذلك حتمت سورة الأنعام ، التي استهلها الله بقوله سبحانه - ﴿ الحمد لله ﴾ .

وحتمها بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفَقْرٌ رَحِيمٌ ﴾

فالحمد لله في الأولى .

والحمد لله في الآخرة .

# سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَكِّيَّةٌ





قبل أن نبدأ غواظنا في سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة في كتاب الله ، الله يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مَرِيعٌ آتِيعٌ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

( من الآية ١٦٥ سورة الأنعام )

ونقرأ الكلمة الأخيرة في سورة الأنعام « رحيم » ، ونجدها مبنية على الوصل ، لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك نجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة ويجوارها ميم صغيرة ، لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن نقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، ونصبح القراءة : « غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكان القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوت ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان في بعض الآيات إقلاب ، وفي بعضها إدغام ، وهذا بثنة ، وهذا بعير فنة ، ويقول الحق :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَص

وفي هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « عذ » . وهنا حروف غرقت القاعدة لحكمة ، لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم » ، « حم » ، « طه » ، « يس » ، « ص » ، « ق » ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عبد الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وميمٌ حرف (١) .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبها من تعبها ، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أهدؤ بالله من الشيطان الرجيم » ونطق بعد ذلك بحرف لو يكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فواتح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ اَلَمْۤ آَءَا۟تٰكَ ۙ﴾

( سورة البقرة )

ونقرأ هنا في أول سورة الأعراب :

﴿ اَلَمْۤ آَتٰكَ ۙ﴾

( سورة الأعراب )

وهي حروف مقطعة . نطقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول . كتب ، لا تقول « كاف » « ناء » « ياء » ، بل تنطق بمعنى الكاف كـ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسمها فهو كـ . إذن فكل حرف به معنى ، أى الصوت الذى يقوله الإنسان ، وله اسم ، والامى ينطق بالمسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذى يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وطاء مفتوحة ، وياء مفتوحة ، أما الامى فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو امى لم يتعلم . فمن قال له انطق بمسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

لا بد أنه قد علّمها وتلقاها ، والحق هو القائل :

[ سورة الفيل ]

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١) ﴾

قالذي سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد  
« أَلَمْ » في أول البقرة ، وهي أول سورة آل عمران ، ولكنت تقرأ الآية الأولى من  
سورة الفيل :

[ سورة الفيل ]

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ جَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾

ما الفرق بين الألف واللام والميم في أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران  
وعيرهما ، والحروف نفسها في أول سورة الفيل وغيرها كمسورة الشرح ؟ أنت  
تقرأها في أول سورة البقرة وآل عمران أسماء ، وتقرأها في أول سورة الفيل  
مسميات ، وإندي جعلت تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ في أول البقرة  
وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ في أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ،  
وليس لأحد أن يجترىء ليقرأ القرآن دون سماع من معلم لا ، لا بد أن يسمعه أولاً  
حتى يعرف كيف يقرأ .

ونفساً ( الشمس ) في أول سورة الأعراف ، وهي حروف منقطعة ، ونعرف أن  
الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ولجد نصفها أربعة عشر حرفاً في فواتح  
السر ، وقد يوجد منها في أول السورة حرف واحد مثل :

[ سورة ق ]

﴿ ق وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ (١) ﴾

وكذلك قوله الحق :

[ سورة ص ]

﴿ ص وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾

وكذلك قوله الحق :

﴿ثَنِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١)

[سورة القلم]

ومرة يأتي من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

﴿حَمَّ﴾ (١)

[سورة الأحقاف]

ومرة تأتي ثلاثة حروف مقطعة مثل :

﴿آلَمَ﴾ (١)

[سورة البقرة]

ومرة يأتي الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿الْقَصَصَ﴾ (١)

[سورة الأعراف]

ومرة يأتي بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿كَهَيِّضٍ﴾ (١)

[سورة مريم]

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدت بها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فمعضها منشور ، أو مهموس ، أو معجم ، أو مستعمل ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعمل ، أو معجم ، أو مرفق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذي قاله بعلم ما ينتهي إليه خلقه في هذه الحروف المقطعة وله في ذلك حكمة ، وكان رسول الله ﷺ أمياً ، ولم يحلّس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم ؟ أهو إذن قد تدفنتها ، وإن تعلم أن القرآن جاء متحدثاً بالعرب ، ليكون معجزة لسيد الخلق ، ولا يُحَدِّثُ إلا من كان نارعاً في هذه الصفة . وكان العرب مشهورين بالبلاغة ، والخطابة

ولشعر، والسجع وبالأمثال؛ فهم أمة كلام، وفصاحة، وبلاغة، فجاء لهم القرآن من جنس نوعهم، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسن قرأناً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، فائدة اخام - وهي لدعه - واحدة، ومن حروف اللغة نفسها التي برع العرب فيها. وبالكلمات نفسها التي يستعملونها، لكنهم عمزوا أن يأتوا بمثله؛ لأنه جاء من رب قادر، وكلام العرب وبلاعتهم هي من صنعة الإنسان المخلوق العاجز.

وهكذا نعلم سر الحروف المقطعة التي جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملائكة الأسمى لأنه أسمى لم يتعلم شيئاً، لكنه عرف أسماء الحروف، ومعرفة أسماء الحروف لا يعرفها - كما قلت - إلا المتعلم، وقد عممه الذي علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم، ويمكن للعقل البشري أن يحوم حول هذه الآيات، وفي هذه الحروف معان كثيرة، ولجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا في معان جلال وجمال القرآن لكثير، فتجد متصوفاً يقول إن «المصر» جاءت هنا للحكمة، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهي الهمزة من الخلق، واللام تنطقها من اللسان، والميم تنطقها من الشفة، وبذلك يستوعب مخارج الحروف من الخلق واللسان والشفة

فإن المتصوف ذلك ليدللك على أن هذه السورة تتكلم في أمور الحياة بدءاً للمخلوق من آدم - إشارة إلى أولية خلق الإنسان، ووسطاً وهو المعاش، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة في الدار الآخرة، وجاءت «العهد» لأن في هذه السورة نصص أغلب الأنبياء

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها، أردتها عليه؟ لا أردتها بطبيعة الحال، ولكن نقول له - أدلت هو كل علم الله فيها؟ لا؛ لأن علينا أن نتعرف على المعاني التي فيها وأن نأخذها على قدر بشرتنا، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها هل يستوعب كل آفاق مرادات الله؛ لأن أهمانا قاصرة .

وبحق الشرنصب كلمات لا معنى لها لكي تدل على أشياء تخدم الحياة، فمثلاً نجد في الجيوش من يصع «كلمة سر» لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة من يعرف الكلمة السرية يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها .

### ﴿ الْقَمَر ١ ﴾

[ سورة الأعراف ]

ونجد بعد هذه الحراف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه :

﴿ كَتَبْنَا نُزْلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ

لِنُنْذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

وساعة تسبح «أول» فأنهم أنه جاء من جهة العلو أي أن التشريع من أعلى وقال بعض العلماء : «هل يوجد في صدر رسول الله حرج ؟» . لنتبين أنه ساعة يأتي أمر من ربه ويوضح فيه ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ، فاللهي ليس لرسول الله (ﷺ) وإما لنهي للمخرج أو الفسيق أن يدخل برسول الله ، وكأنه سبحانه يقول يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال . لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ، لأن الحق يعلم أن محمداً قد يصيب صدره ببشريته ، ويحزن ، لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومحول . وإذا ما جاء حصصك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ، لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ قد جاء لأمر من الله . إما أن يكون الأمر للمخرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر لرسول طمأنة له وتسكيناً ، أي لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصح منهج خلفه وصراطاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سعادة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاعلمن تماماً

﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِنُنْذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [ سورة الأعراف ]

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ، لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل في سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسائل تقتضى مُرسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرسِلاً وهو الرسول ، ومُرسِلاً إليه وهم الأمة ، والمرسل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول ﴿ كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسل ، وإليك ، لأنك رسول والمرسل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خاطعوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .  
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ  
أُولِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ﴾

ومادام العباد سيتقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذي جاء به إلى من يقل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

( من الآية ٣ سورة الاعراف )

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية يقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أُولِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ﴾

( من الآية ٣ سورة الاعراف )

وحينما يأتي الحق سبحانه في مثل هذه الآيات ويقول : « وذكري » ، أو « وذكركم » ، إنما يلفتنا إلى أن العطرة المعبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتشتت إيمان جليداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذي أخذ علينا أيام كنا في عالم اللز ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختياري :

﴿وَأَذِّنْ أَخَاهُ رِبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُحُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ الْيَوْمَ بِرَبِّكُمْ فَالْوَايِلَى الَّذِينَ شَهِدُوا...﴾ (١٧٢)

[سورة الاحزاب]

هذا هو الامر في عالم الدر ، ذن فحين يقول الحق . ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ نحن نلتفت الى ما نسي الآباء ان يلعنوا للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب ان يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التي تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزل إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ...﴾ (١٧٣)

[سورة طه]

وهكذا تعلم أن هناك هدى قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم ان يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب ان يظل هذا «الهدى» منقولا في سلسلة الحياة كما وصلت كل أفضية الحياة . وبأني سبحانه لنا بحديثات الاتباع

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ (١٧٤)

[سورة الاحزاب]

فالمهح الذي يأتي من الرب الأعلى هو الذي يصلح الحياة ، ولا غصاصة على أحد منكم في أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربي القادر . الذي وصى ، وحلق من عدم ، وأمد من عدم ، وهو المتولى للتربية ، ولا يمكن أن يرى أجسادا بالطعام والشراب والهواء ولا يرى قيمنا بالأحلاق . ﴿وَلَا تُبْعَثُوا مِنْ قَوْلِهِ أَرْيَاءُ﴾ .

ومدام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتي من دون وتأخذ منه . مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قولتين من دون الله ومن هوى الشر فهذا يحب الرأسمالية فيعرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيعرضها بالسيف . وكل واحد يعرض سبيله القوايس التي تلائمهم وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذلك أن تأخذ مما لا يسكف أن يكون عيدا به



﴿ .. وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَن تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤٣)

[سورة الأنعام]

وبذكر أيها المؤمن أن عرتك في اتبع مسيح الله تتجلى في انك لا تخلص  
للساؤل لك ، وهذه ميرة الدين الذي يجعل الإنسان يحيا في الكون وكرامته  
محفوظة ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب  
الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذي  
ليس له رب فساعة أن تأتي له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد يتسحر

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت  
العممة على البشر أرسل الله رسولا يسهلهم . ويوظف القيم والمدة الدينية التي توجد  
في الذات ، بحيث إذ مالت الذات إلى شيء انحراف في تنه الذات نفسها وتقول :  
لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هي انفس اللوامة . فإذا ما سكنت النفس اللوامة  
واستمر الإنسان الخطأ ، وصارت بعينه أماراة بالسوء طوال الوقت ، فالمجتمع  
الذي حوله يعمل .

وهذه فائدة التواصي بالحق والصبر ، لكل واحد يوصى في طرف ، ويوصى في  
طرف آخر ؛ فحين يصعب نفسه أمام شهوة يأتي شخص آخر لم يصعب في هذه  
الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبدل الإنسان لنصح مع غيره ، هذا هو معنى  
التواصي ؛ فالوصية لا تأتي من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان  
موصياً فيما هو فيه قوي ، ويوصى فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ،  
تبدل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديدة ، لكن الله آمن أمة  
محمد على هذا الأمر فلم يجرى رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخيرية  
تتجلى في أننا بأمر بالمعروف ونهوى عن المنكر ، فالتواصي بأي إلى أن تقوم الساعة

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ (٤٤)

[سورة الأنعام]

وهذه حاصية لن تنتهي أبداً ، فمن رأيت مكرراً فلا بد من خلية حبر تذكره .  
وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً حاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمرته أنها  
أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الدائنية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع  
منها أبداً المناعة الاجتماعية فمن يأتي رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا

أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤٤﴾

وساعة تسمع «كم» فاعرف أن المسألة خرجت عن العدد بحيث تستوجب أن  
تستهمم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً  
فلا يستفهم عنه ، بل يعرف . والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصاً لمعيشة  
الناس فيه . وهل القرى هي التي تهلك أم يهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها  
تأتي مرة ويروا منها المكان والمكين . أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك  
قوله الحق في سورة يوسف :

﴿ وَاسْأَلْ لِقَرْيَةِ النَّبِيِّ كَمَا فِيهَا وَنَعِير .. (٨٢) ﴾ [سورة يوسف]

وطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المبنى ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل  
الحق . اسأل أهل القرية ؛ لأن المستول عنه هو أمر يبلغ من الصدق أن المكان يشهد  
مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية سكانها ومبانيها .

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا ﴾ .

وأيها يأتي أولاً الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك ؟ الذي يأتي أولاً هو  
البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات في الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها  
مسبق أولاً ، وكأن الحق يقول هن . وكم من قرية حكماً أن تهلكها فجاءها بأس  
ينسحق ما قبله أولاً ، أي أن تأتي الأحداث على وفق المراتب ؛ حتى ولو كان  
هناك اختيار للذي يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هي المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم ألا أنه سيعمل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتي به في قرآن يثلى ؛ يأتي السلوك موافق ما أخبر به الله .

﴿وَمِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤١﴾﴾

(سورة الأعراف)

والبأس هو القوة التي لا ترد ولا تقهر ، و«بياتاً» أى بالليل ، «أو هم قائلون» أى في القيلولة . ولماذا يأتي البأس في البيات أو في القيلولة ؟ . ونجد في خبر عَنْ أَهْلِكُوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقرم شبيب حدث لهم الهلاك في القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستمعوا .

﴿فَإِذَا زُلْزِلَتْ سَاحَتُهُمْ نَسَاءً مَبْأَحُ السُّنْدَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

(سورة المعالق)

أى يأتيهم الدمار في وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس .

﴿فَجَاءَهُمْ بَأْسًا يَبِيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

وإذا قال سبحانه: ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون لوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هي الوقت الذي ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة ولكن كيف استقبلوا ساعة مجيء البأس الذي سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا

إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

بهذا القول اتفصحت المسألة ، ومن قول ﴿ دَعَوَاهُمْ ﴾ نفهم أن المسألة دعاء ونحن نقول : فلان ادعى دعوى على فلان ، وإما أن يفهم بينة ليثبت دعواه ، وإما ألا يفهم

والدعوى تنطق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَإِذْ دَعَوْهُمْ أَنْ آخِذُوا بِالْحَبْلِ الَّيْئِلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

( من الآية ١٠ سورة يونس )

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَمَّا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ دَعَاَهُمْ بِأَسْنٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

( سورة الأعراف )

ويشرح ربنا هذا الأمر في آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقتراحهم الظلم وقيامهم عليه ، فسبحانه الغافل :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ لَا أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

( سورة الملك )

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ فَلَنَنْسَأَنَّ الَّذِينَ أَزِيلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ

الْمُرْسَلِينَ

والحق يسأل المرسل بعد أن يجمعهم من مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال إنما يأتي للإقرار ، ومسألة السؤال وردت في القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منغكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١)

( سورة المؤمنون )

ويقول سبحانه ايضاً :

﴿ وَلَا يَسْأَلُ عَمِّمْ حَبِيبًا ﴾ (٢)

( سورة الماعارج )

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُحَرِّمُونَ ﴾ (٣)

( من الآية ٧٨ سورة القصص )

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٤)

( سورة الرحمن )

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥)

( سورة الاحراف )

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن - والعياذ بالله - متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان في اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد سبقه قوم لسانهم عربي ، وهم باقون على كبرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وحدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أليكون القرآن معجزاً وهو متعارض ١؟ لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريد قائل القرآن . وهي أعرافنا نورد السؤال مرتين ، فمرة يسأل التلميذ لستاه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليفرو .

إذن فالسؤال يأتي لشئين اثنين : إما أن تسأل لتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمستول ، فإذا كان الله يسأله ، أي يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ في الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠١ ﴾ فَأَعْتَرَوْهُ بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِبَ

لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠٢ ﴿

(سورة الملك)

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيذا الأدلة ، لأن كلام للفاعل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذ ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فلما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ، لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قُلُوا أَنْطَقَا اللَّهُ الَّذِي أَطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة ص)

والحق هنا يقول : ﴿ فليستلن الذين أرسل إليهم وليستلن المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَهْذَا أَجْتُمُ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة المائدة)

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد ألقوا رسالتهم فيكون ذلك تقريراً للمرسل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

## ﴿ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُونَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ (٧)

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يعب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذرات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع ﴿ وما كنا غائبين ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس معائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون ، إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول . حدث ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيب لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين نحدث عن معنى الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شيء ، وما كان عائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك

## ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨)

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فإله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يحافون النار ، ولم يردوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وما نول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَبُذِيعُ الْمُوزِنِينَ الْقِسْطُ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ . ﴾ (٤٧) [سورة الأبيات]

هذه الموازين هي عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عدل في ذاتها . وهما يقول الحق : ﴿ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ نعم ، الميزان في هذا اليوم حق ودقيق ، ولندكر أنه قال من قبل :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ مِثْرُ عَشْرٍ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالنَّسِيَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦)

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذي قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شيء فيه موزون ، وسبحانه هو الذي يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التي يؤدي بها كل كائن المطلوب منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (٧)

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قذفت وألقت عليها أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون به نظام دقيق . والوزن في يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففي هذا اليوم تبطل موازين الأرض التي كانت تعاني إما خدلاً في الآلة التي يوزن بها ، وإما خدلاً في الوزن ، وإما أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجري فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ .

فكان الميزان في الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك الملك أيضاً ، لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثاني يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان في هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظُلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتي اليوم الآخر فلا ملك لأحد .

﴿ يَوْمَئِذٍ أَمْلَأْتُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهْلُ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك في الدنيا قد استحلف فيه الحق



عبده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ عَٰمَآءٌ مَّنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ ۝١ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢ وَأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٣ فَأُمُّهُ هَوِيَةٌ ۝٤ وَمَا أَدرَاكَ رَبِّكَ يَلْبِثُ ۝٥ نَارُ حَمِيمَةٍ ۝٦ ﴾

( سورة القارعة )

إذن فالمرآن يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلاحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن ومورون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، وأن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الدين نخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ ۝١ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن المصعب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه - سبحانه - يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شيء فيه ، فحينما يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينما يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم في الجنة ولا هم في النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العظيمة في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾

( من الآية ٤٦ سورة الأعراف )

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض ائمة عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التي أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موارد ، فهل لكل واحد ميزان لولكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . . إلخ ، وهل سيحاسب ربنا ناعاً . أو أن هناك موارد متعددة ، يدلل أن سيدنا الإمام علياً عندما سأله : أيحاسب الله خلقه جميعاً في وقت واحد ؟ فقال : وأى عجب في هذا ؟ أليس هو رازقهم في وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جداً . وهيبة فسبحانه لا يتأني عليه شيء .

﴿وَمَنْ حَقَّ مَوْزِنُهُ قَالُوا لَيْسَ بِاللَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ﴾

( من الآية ٩ سورة الأعراف )

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يتمتع بها نفسه ، ويأتي اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسرت كل شيء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتي الإجابة من الحق : ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

## سورة الاحقاف

٤٠٥٢

المُمكن هو الذي يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مكنتك من كل . أي أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكنتنا سبحانه في الأرض وجعل لنا فيها وسائل استيفاء الحياة ، ونوف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تغيب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها . ما في الدنيا يؤدي مهمته ، ولم تمكن في الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذي خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمكن ، وكل شيء مستجيب لك . بتسخير الله له .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكَ فِيهَا مَعَيشَةً ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٥٢﴾

(سورة الاحقاف)

و : معاش ، جمع معيشة ، والمعيشة هي الحياة ، فالمعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سموا الخبز في القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوم أساسي في الحياة .

ونقول الحق : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصاً عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراً خاصاً لا عند كل نعمة ، ولكن عند جرثيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ في الأكل يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويقول بعد الأكل : « الحمد لله » ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : « بسم الله » وعندما يعضنها ويلعنها يقول : « الحمد لله » لأنها لم تغيب في حلقه ، وأيضاً حين شرب عينا أن تشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : « بسم الله » . وننتهي منها فنقول : « الحمد لله » وكذلك في الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تتأني منه معصية ، مادامت آثار شربة الماء هذه في جسمه ؛ لأنها كلها بسم الله . فتحرره من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نهما كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تصيقلون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم

لو شكرتموه على النعم لرادت النعم عليكم ، ﴿ فإني شكركم لأزيدكم ﴾ ومن لحق  
الانشكر

ويعول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ  
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَرِيكُنْ مِنْ  
السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ومسألة خلق سبق أن تقدمت في سورة البقرة : خلق آدم ، وإشيطان ، والفضية  
تنورع على سبع سور ، في سبعة مواضع موجودة في سورة البقرة ، وسورة  
الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طه ، وسورة ص ،  
إلا أن العصاة في كل موضع لها لقطات متعددة ، فهذه لفظة : وهماك لفظة ثانية ،  
وتلك لفظة ثالثة ، وهكذا ، لأن هذه بحسب ما لا بد أن يكررها الله ، لتستقر في أذهان  
عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تسي ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من  
مرة ، وإذا أراد الله استحضار النعم والتسبيح عليها في أشياء ، فهو يكررها كما كررها  
في استحضار النعم في سورة واحدة في قوله سبحانه : ﴿ قَبْأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

إنه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ لَهْجَانُ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ (١٥) قَبْأَى  
آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) قَبْأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
(١٨) مَرْجَ الْبَحْرِ يَنْتَقِينَ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) قَبْأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)  
يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالزَّيْتُونَ (٢٢) قَبْأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) ﴾

[سورة النحر]

## سورة الاحقاف

﴿ ١٠٥٥ ﴾

وله الجوار المُشآت في البحر كالأعلام ﴿٢٤﴾ فيأبى آلاء ربكما تكذبان ﴿٢٥﴾  
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ يبقى رحمته ربك ذو الجلال والإكرام ﴿٢٧﴾ فيأبى آلاء ربكما  
تكذبان ﴿٢٨﴾ ﴿سورة الرحمن﴾

وكن نعمة يقول بعده ﴿فيأبى آلاء ربكما تكذبان﴾

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الآذان لتستقر في القلوب حتى  
في الآذان الضمائم؟ غمرة يأتي بها في شيء طاهره أنه ليس نعمة، مثل قوله :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ﴿٣٥﴾ فيأبى آلاء ربكما  
تكذبان ﴿٣٦﴾ ﴿سورة الرحمن﴾

وحاء الحق بذكر كل ذلك؛ لأنه ساعة يحل لنا لأمر على حقائقه وحق في دار  
التكليف بهذه رحمة ونعمة منه عيب، لأن ذلك يدعو إلى اتقاء المحظورات والمعد  
والتنحي عن المخالفات .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد، فحين يدخل الإنسان إلى المدرسة يقول له : إن  
قصرت في كذا فسوف ترسب ، وأنت بهذا القول ترحمه بالتهيئة ، فلم تتركه دون  
أن تنصره بعواقب الأمور ، وأيضاً ساعة ترى شرّاً يعيق بالكافرين ، فإن هذا الأمر  
سرك ، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فصل أو ميزة ، فالعذاب  
نقمة على الكافر ، ونعمة على المقابل وهو المؤمن .

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل حوسبه في القرآن سبع مرات ، لأنها قصة بدء  
الخلق ، وهي التي تحيى من السؤال لدى بحث عن إجابته الإنسان ، لأنه تلقت  
ليحدد نفسه في كون معده على أحسن ما يكون . ولم يعجز الكون من بعد  
الإنسان ، بل طرأ الإنسان على الكون ، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق .

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان في الكون ، فأنت تستقرى أجاساً في لكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب في خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكي يغذى الحيوان ، والحيوان يعضك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب في خدمتك . أما أنت أيها الإنسان فما عملك في هذا لكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإنسان على مهمته وأراد الحق سبحانه أن يُعرف الإنسان مهمته ؛ لأنه جل وعلا هو الصانع ، وسين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله في كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقل الإنسان خبيراً من الخالق . إنه - سبحانه - ينزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول بحبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بأية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة في سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لابد أن نبحث لتثبت من صدق البلاغ من الله بالتعقل في دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هي من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تنضج عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لأننا نعم أن العبقريات تأتي في آخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجدته يتكلم كل الكلام البلاغي المعجز . وليس من المعقول أن يأتي بأخبار الكون وهو الأمي الذي مات أبوه وهو في بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو في السلاسة ، وكذلك مات جده ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذي أدراه - إذن - أنه سيمهل ويمد في أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليبلغنا بمعجزته ؟ .

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، يقول :

﴿ وَإِذَا نُفِخَ فِي سُرَّةِ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ لَقَاءَ مَا كُنتُمْ بِمُفْرَقِيهَا ۖ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ فَرَجِعَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَلْمَنِ ۖ ﴾

أَوْ يَدَّبُّهُ قُلٌّ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَيِّنَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِذَا تَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ وَلِيَّ  
رَبِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَصِيبٍ ﴿٥٧﴾

( سورة يونس )

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يوحى إليه ، وثناكد ذلك مرة ثانية في قوله الحق :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ ۚ قَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ  
نَسِيَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾

( سورة يونس )

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبين لهم . هل علمتم عنى لخلال عمري أني قلت شعراً أو حكماً أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَبَقَدَّ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُنْبًا لِمَسْبِكِ أَعْمَدُوا لِأَدَمَ فَصَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ  
لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿٥٩﴾

( سورة الأعراف )

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشري أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته في الوجود . ونحن يبحث فيها ليعلم مهمته في الوجود يجب عليه أن يترك كل تخمين وظن ، لأن هذه المسألة لا يمكن أن تأتي فيها بمقدمات موجهة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لاي شيء ومهمة خلقنا فكيفية الخلق كانت أمراً غيبياً وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله في قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإنسان ، وقد حكم سبحانه في هاتين القضيتين ، ولا مصلر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشري في هذا المجال بأنهم ضالون مضلون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية ويحسمها ، ويريج العقول من أن تبحث فيها ، قال :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَانُوا مُتَعِدِّينَ أَنْ يُصْنِيَ عَصْدًا ۝ ﴾

( سورة الكهف )

فكان الذي يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضيل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عصداً لله ولا سنداً ولا شريكاً له .

وقص سبحانه عليّ قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائياً ويرجع إلى الوراثة فلا بد أن يجد أن الأمر منطقي ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرئي ، وليس التكاثر في البشر فقط ، بل فيمن يخدمون الشر من الأجاس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالي وهو خمسة آلاف مليون ، وكما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضي يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتي من اثنين ، وحلّ الله لنا المعز فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝ ﴾

( من الآية ١ سورة النساء )

وهذا كلام صحيح يشته الإحصاء ويقتنه ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلاً

﴿ وَثَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۝ ﴾

( من الآية ١ سورة النساء )

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ كُلِّ نَسْتٍ خَلَقْنَا رَوْجَيْنِ ۝ ﴾

( من الآية ١٩ سورة الذاريات )



وأبغنا سبحانه بنعمة خلق آدم ، وكيفية خلق حواء ، فمن أخذ جزءاً من آدم وخلق منه حواء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضاً ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حواء ، وأعطانا النموذج في واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾

و ﴿ منها ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبيضية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ ورسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمداً صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم عن يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

( من الآية ٣٠ سورة البقرة )

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ١٦ ﴾

( سورة الحجر )

إذن فقبل النفخ في الروح ستوجد تسوية ، فلن تحدث التسوية ، ومن هو « المسوى منه » ؟ إن التسوية لأدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسون ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طيناً احتمر فتعيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن هي مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ .

وهكذا نكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول العلماء . إن الماد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذي نمره ، وأن آدم كان كالقنبل مثله الكعبة التي نتجه إليها عند الصلاة . ولكن لها ملاحظة ، ونقول : إنما لا نسجد إلا لله ، وما دام ربا قد قال . اسجدوا فبالسجود لها هو امتثال لأمر حلال آدم . ولست أدري لم تكن عبادة آدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله : لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مدبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هريس يدي الله ، فلم يكن السجود للملائكة محصوفاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكن الملائكة المقربون لا يذرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لا ييسر :

﴿ .. أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥)

[سورة ص]

والمقصود بالعالمين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالمين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر من لهم عمل مع آدم وورثته والذين يقون فيهم الحق سبحانه .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن يَمِينِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ .. ﴾ (١١)

[سورة الرعد]

وهناك الرقيب ، والعقيد والقعيد . وفي كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك ملك مخصوص به . ويبلغ الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا ترتيب اختارى ، وليس ترتيباً بالأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طهر خلق جميعاً في خلق آدم ، ولعلم الحديث بعطيا أيضاً مؤثرات على ذلك ، حين يأبى بذر ويكتشفون فيها كل مقومات الثمر ، وكذلك الحيوان المسمى توحده فيه كل صفات الإنسان . ولذلك يحدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، مات من ميكروب أبك ، وقد نزل من والدك وهو حي ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حي ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

كائن الآن فيه جزىء حتى من لدن آدم، لم يطراً عليه موث فى أى حلقة من الحلقات  
إذن فكذلك كما مضمورين هي جريئات آدم، وقال ربنا سبحانه

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ۖ ﴾ (١٧٢)

[سورة الأعراف]

ونقول ' صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرج من ظهر آدم، وهكذا كان  
الخلق أولاً والتصوير أولاً، وكل ذلك فى ترتيب طبيعى، وهو سبحانه له أمور بيديها  
ولا يتنديها، أى أنه سبحانه يظهرها فقط، فإذا خاطب آدم وحاطب دريشه فكأنه  
يخاطبها جميعاً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
إِبْلِيسَ ۖ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١٧٣)

وعرفنا من هم الملائكة من قبل، وماهى حلة السجود . ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن  
من الساجدين ﴾

والحق سبحانه يستثيه بأنه لم يكن من الساجدين وهذا دليل على أنه دخل فى  
الأمر بالسجود، ولكن هل إبليس من الملائكة؟ لا؛ لأنك إذا جئت فى القرآن  
ووجدت نصاً يدل بالالتزام، ونصاً يدل بالمطابقة والقطع فاحص نص الالتزام على  
النص المحكم الذى يقطع بالحكم. وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ۖ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ۖ عَنْ  
أَمْرِ رَبِّهِ ۖ ﴾ (٥٥)

[سورة الكهف]

وفى هذا إحراج لإبليس من جس الملائكية، وتحرير أنه من الجن، والجن كالإنس  
مخلوق على الاختيار، يمكنه أن يعصى يمكنه أن يطيع أو أن يعصى، إذن فقول  
الحق : ﴿ ففسق عن أمره ﴾ .

يعنى أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم  
ويعملون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن  
الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختبراً من الإنس أو من الجن التزم  
بمنهج الله كما يريد الله ، فإطاع الله كما يجب ولم يعص . أليس منزله مثل  
الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار ولذلك كانوا يسمون إبليس  
طاووس الملائكة ، أى الذى يزهرى محضر الملائكة لأنه أنزم نفسه بمنهج الله ،  
وترك اختياره ، وأخذ موادات الله ففعلها ، فصار لا يعصى الله ما أمره وفعل  
ما يؤمر ، وصار يزهر على الملائكة لأنهم مجبرون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً  
لأن يطع ، وصالحاً - أيضاً - لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأنشد منزلة متميزة من  
بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة فلما حضر مع  
الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم في أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة :  
﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استكف ذلك وهب أنه  
دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر  
به وهو الأدنى أن يستزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد علبت عليه  
طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ

خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ أَتَعْبُدُ بَيْنَ خَلْقَتَيْنِ ﴾

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً وقوله الحق .

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾

( من الآية ٧٥ سورة ص )

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله ﴿ ما منعك ﴾ أى ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعنى أن الأسلوب الأول جاء به « لا » النافية ، والأسلوب الثانى جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعنى : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هى التى تحتاج لوقفه ، لذلك قال العلماء ، إن « لا » هنا زائدة ، ومن أحسن الأدب منهم قال : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يتناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفتل إلى ملادة « منع » ولأى أمر تأتى ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنه كان عبده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتى « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممنوع ؛ فممنوع هو فى ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممنوع تعنى أنه امتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلى وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

( من الآية ٦٢ سورة الاحقاف )

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلية ، وعلى أى وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال فى لرد على ربه :

﴿ . أَدْحِيزُ مِنْهُ خَلْقَتِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٦) [سورة الاحزاب]

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم أن لا أن إبليس قد امتنع باقتناع لا شهير ، ولذلك قال إبليس . أنا خير منه ، فكان المسألة دارت في ذهني لوجود حبيبة لعدم السجود . ولا يصح في عرويه الإبلوس أن يسجد الأعلى للأدنى ، فما دام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لساذا ؟ لأنه قال : ﴿ خَلَقْتِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فكان النار لها علو ، وهو في ذلك محطىء تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تغتر أن تزدى مهمة الطين ، فلا يمكن أن تفرح في النار

إذن فالخيرية تنسأني في الأمرين معاً ما دام كل منهما يؤدي مهمته ، ولذلك لا نقل . إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شيء في الوجود حين يوضع في منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا نقل من عود الحديد إنه عود مستقيم ، ونقول عن الخطاف . إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضي أن يكون أعوج ، وهو وجه هو الذي جعله يؤدي مهمته ، لأن الخيرية إنما تنسأني في متساوي المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ .. ﴾ (١٧) [الاحزاب]

قلنا للمعاهدة ، للكبر ، للكبر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله في أمره ، وكأنه يخطيء الحق في أمره ، ويرد الأمر على الأمر . فما كان جبراً الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَأَخِيطُ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٨)

والهبوط يستدعى لا تتغال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التي وصفتها الله بأنها عالية هي في السماء ، ونقول ، لا ، فالهبوط لا يستدعى أن يكون هبوطاً مكانياً ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لروح عليه السلام :

﴿ قِيلَ يَسُوحُ أَهْبِطْ بِسُلْسُلٍ مِنَّا وَبِرَكْنَتِ عَلِيكَ وَعَلَى أَمْرٍ مِمَّنْ مَعَكَ . . (٤٨) ﴾

[سورة هود]

أى اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تعيد الزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا ﴾ .

وهذا تنزيه من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون في محضر الملائكة ، فقد كان في محضر الملائكة ، لأنه الرم نفسه بالصناعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختاراً أب يطيع أو أن يعصى ، فلم تحت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون في هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يحصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا لَمَّا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ . . (١٧) ﴾ [سورة الأعراف]

أى ما ينبغي لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الأمر ، والملائكة جماعة لا يحصون الله ما أمرهم ويعصون ما يؤمرون ، فمادت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فست أهلاً بها ، فكان العمل هو الذي أهله أن يكون في العلو ، فلم زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون في الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفي هذا هبوط لقيمة كلامه في أنه من نار و آدم من طين ، لأن المقياس الذي توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنسان ، مثل السرعة ، واحترق الخواجز ، والتعذب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجنار أو من الجسم ، وكما قال ابرمبول عليه السلام .

« إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم » (١).

وهو ذلك مثل ايكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهي المادة التي حُقق منها . وهي تتعدى الخواجز واجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن يتقدم من أي شيء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن . لا تعتقد أن عنصرينك هي التي أعطتك هذا التمييز ، وإنما هي إرادة المخلص ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه سبحانه - يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان محدوماً لك أيها الحسي ، إنه يسحرك ويجعلك تخلفه . وأنه في مجلس سليمان ، جعل احدى عنده علم من الكتاب ، يأتي بقوة أعلى من قوة « عفریت » من اجن . فالجن هو انقاتل .

﴿ قال عفریت من الجن .. ﴾ (٣٩)

[ سورة المل ]

وهذا يدل على أن هناك أذكباء وأعبياء من عالم الجن أيضاً وجاء الذي عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفریت الجن في الرمن ، فقد قال هذا العفریت .

﴿ أأنتك به قبل أن تقوم من مقامك .. ﴾ (٤٠)

[ سورة المل ]

والمقام هو الفترة الرسمية التي قد يقعد بها سليمان في مجلسه ، فنادا قال الذي عنده علم من الكتاب - وهو إنسان - ؟

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك .. ﴾ (٤١)

[ سورة المل ]

(١) رواه البخاري في الأدب ، ومسلم في السلام ، وأبو داود في السنة ، وابن ماجه في الصوم ، ورواه أحمد ١٥٦/٣ ، ٢٨٥ ، ٣٢٧



كانه سيأتي بعرش بلقيس قبل أن يتنه سليمان من رده طرفه الذي أرسله ليهر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك سجد عبادة القرآن معبرة :

﴿ قَلَّارَةٌ أَوْ مُتَقَرِّرَةٌ عِنْدَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

كان المسألة لا تتحمل . بل تم تضيدها فوراً ، إذن فالحق يوضح للمعلوقين من العاصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بمناصركم ، إنني أقدر بطلاقة قدرتي أن أجعل الأدنى يتحكم في الأعلى ، لأنها راحة من غنصر العاصر .

﴿ قَالَ فَاقْبِطْ مِنْهَا مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ

الصَّغِيرِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاقبِط ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معوي ، أي أنك لست أهلاً لهذه المتولة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاقبِط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغِير هو الذل والهوان ، لأنه قَابِل الأمر باستكبار ، فلا بد أن يجازى بالصغار . وبذلك يكون قد عومل بعدد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتعذيب والتعليم ، مثلما يقرر الشرع أن الذي يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليعجل الإرث به ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ، فلو تكتابه القتل صار محجوباً عن الميراث ويقرب الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

ومعنى ﴿ أنظرني ﴾ أسهلني أي لا تمتني بسرعة ، ولا تجعل اجلي قريباً ، بدليل قوله سبحانه :

## ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (١٥)

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم استعجيل الموت ، وقد طلبه إبليس لكي يشقى عليه من بنى آدم وادم ؛ لأنه جاء له بالصغار والدلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد في أن يخرى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكان إبليس في هذا الطيب أراد أن يتخذ من الموت رآن يبقى حياً إلى يوم البعث الذي يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾

( من الآية ١٨٥ سورة آل عمران )

فأوضح الحق : أن تأجيل موته هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصى من يعلمه مدة طويلة ثم يقرم بالعمل الصالح قبل مياد الأجل ، ولكن الله أراد بإيهام زمان الموت أن يشيع زمانه في كل وقت . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٢٨)

( سورة الحجر )

والوقت المعلوم هو النسخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ بِهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (٥٨)

( سورة الزمر )

وكان إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النسخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لا بد أن يكون قبل النسخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ﴾

### الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦٩﴾

والإعواء . إعواء بالمعصية ، ومن الإعواء العتي وهو الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

[ سورة مريم ]

﴿ فَمَنْ يَلْقَوْنَ عَذَابَ ﴾

وحين نقرأ ﴿ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي ﴾ أى فيما غوايتك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وينتلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهذى ؟ . إن الله يهذى دلالة وتمكياً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكن ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يحيفه مرغماً ومسحراً كالملائكة ، ولأنه قد خلق مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان ولم يُلغِثْ إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا لغواية فقط ، ولكه فرصة للهداية أيضاً وأب أيها الشيطان الذى احترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي ﴾ إنما يريد به الشيطان أن يدخل بمعصيته على الله ، ويقول له : لا ، إن ربنا لم يعو ، لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهذى ، لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يحتر كذا ؛ فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» ، واختار هو ألا يفعلن إلا المعصية

[ سورة الاعراف ]

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لكون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضجعا نائما ، وأريح الحالات أن يكون نائما مصجعا ، لأن الجسم في هذه الحالة يكون مستريحاً ، فعلى الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف هوبلاً على قدميه « اقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان مستعساً فقال له « مصجع قليلاً لترتاح »

ولماذا اختار الشيطان أن يقول « ﴿ لَا قُعْدَنُ ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يشعب من انوافة ، أيضاً وهو في حالة القعود يكون منها متبسطاً ، والحق يقول -

﴿ وَالْقُعْدُوْا لَهُمْ كُلُّ مَرْصَدٍ ۚ ﴾

[سورة النجم]

ولم يقل « اقفروا » حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فحبيبهم بالهرض ، والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضجع أقرب إلى التراسى والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذى يحفظ له قوته ، ريثقى له انتباهه ﴿ لَا قُعْدَنُ لَهُمْ صَرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ ﴾ .

ومادام الشيطان مبعوث ، وسبيل الخير ، فسيختار للعناية من يكون في طريق الهداية ، إنما من عوى بختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريد ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدرن ويحسبون في الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايبه ليصرفه عن الصلاة والطاعة ، لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب ، إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة في كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتى له الوسواس ، ويشكك في الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية في الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقعت للصلاة دون وضوء ، ما حادك الوسواس لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله -

﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ ۝٢٠﴾ [سورة الأعراف]

لماذا ؟ لأن الله خلقك وحلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يحرق منك مجرى الدم في العروق ويعد إليك يا خفاطر وأبوا حيد التي لا تصبها ؛ ويأتي إليك بمهام الأشياء في وقت الصلاة ؛ تتذكر الأشياء التي سم تكتن تذكرها ، ويأتي لك بأعقد المسائل وأنت تصلي ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المحرف ، ولن يجلس الشيطان في مجلس تخمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو في المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماد نفعل في هذه الحال ؟ يدنس الحق سبحانه أن نستعبد . ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾

فمعى ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أى فالتجىء به إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أن يتسلغل فيث ، وفى دمك ، وفى خواطره ، هو القادر على منعه ، وحين نقول : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» نمرع والتجاء إليه سبحانه فإنه جل شأنه - يصدك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء بك الخفاطر من الشيطان فقل : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وإذا قلت هذا فكأنك بيته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزعة . مرة واثنين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق بطل وحذر لا أستطيع خوائنه ، ولا بحث عن غيره

ولذلك رأب الإمام أبو حنيفة ، وقد شهر عنه الغتيا ، وذهب إليه سائل يقول ضاع منى مال فى أرض كنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه دلى عليه أبها الشبح ؟ وبطبيعة الحال كان هذا السؤال فى غير لعلم ، فقال أبو حنيفة : يا سى ليس فى ذلك شيء من العيم ، ونكنى احتشال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصلي هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبحث لك جداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

ويسما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل صاحكاً مبتسماً قائلاً يا إمام لقد وجدت المال ، فصحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتي ليحبرك ، فهلاً اتمعتها شكراً لله .  
هيا قم إلى الصلاة .

إذن نقد عرف الشيطان كيف يقعد . وكيف يقسم ، لأنه في آية أخرى يقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤١)

(سورة ص)

لقد استعاض أن يأتي بالقسم الذي يعيه على مهته ؛ فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ أي بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت العالب الذي لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعت أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يحتار :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْمِرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فالقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان . ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٢)

(سورة ص)

لأن الذي يريد الله مهنياً لا يستطيع الشيطان أن يعويه ؛ لأنه لا يناهض رينا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع رينا في معركة ، إنما يدخل مع خلقه في معركة ليس له فيها حجة ولا قوة ؛ لأن الذي يعلب في المعارك إما أن يرحمك على الفعل ، وإما أن يفسدك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ لا ، ولعلك سيأتي في الآخرة يقول

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان فسمان : سلطان يقهر ، وسفطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١٧)

قالذي بين اليد هو ما كان إلى الامام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوداء ، و ﴿ عن أيمانهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار . والشئ الذى أمام العالم كله ، وتسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى الشيطان من الامام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى ليث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على مسج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بقاء الله ، ويشككون فى وجود دار أخرى سيجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَوَدَّا مِثْنًا وَكَأَنَّا زَاكِرًا وَأَعْلَمْنَا أَوْنَا نَجْمُونُونَ ﴾ (١٨) أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٩)

( سورة الصافات )

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادةنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه - سبحانه - عندما يبين للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلا فافهم - جن شأنه - تستوى لدى طلاقة قدرته كل لأعمال فليس لديه شئ سهل وميسر وآخر صعب وشاق ويبلغنا - سبحانه - بنصام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَصِيطٌ ﴾ (٢٠)

( سورة ق )

أى أن لكل واحد كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجراته .

والشيطان أيضاً - يأتي من الحلف ، وحلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتي من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتي حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سنه ، ويقف على الله بشر ، ويظن أنه يترك حياته بخير . لكن إن كنت نحاف عليهم حقاً فأمن عليهم في يد ربهم ، ولا تؤمن حياتهم في جهة ثانية

﴿وَلَبِشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا سَاءَ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَفِرُّوا اللَّهَ وَلِيَفْرُوا  
قَوْلًا سَبِيحًا ۝﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هي الجهة التي يسجأ إليها مستعينا ومستنجرا بربه ، والناحية هي جهة العبودية الخاصة - فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو في هاتين الحاتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ، لأن الله تعالى يقول : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ . ويقول تعالى .

﴿ثُمَّ لَا يَنْبَغُ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ  
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝﴾

(سورة الأعراف)

ويأتى للشيطان من اليمين ليرصد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ، لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمالهم ليمرهم بشهوات المعصية . ونلاحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿عن أيمنهم﴾ و﴿عن شمالهم﴾ ولم يأت بـ «على» لأن «على» فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ، لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقع . ولأن أكثر الناس لا تذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غرايتهم . ولذلك يقول الحق تليلاً للآية :



[سورة الأعراف]

﴿.. وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْكَ مِنْهُمْ  
لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾

لقد بلغ الغرور بالشيطان أن تحيل أنه دكي ، وشرح لنا خطئته ومنهجه عدلنا  
على أن حكم الله فيه قد نعد بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

[سورة النساء]

﴿.. إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٢٦)﴾

لقد بيها الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحناط ، وبأخذ المناعة  
ضد انتزاع الشيطاني . وهنا يقول الحق :

[سورة الأعراف]

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا .. (١٨)﴾

وقال له الحق من قبل

﴿قَالَ لَمَّا قَبِطُ مِنْهَا هُمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٦)﴾

[سورة الأعراف]

إذن فهناك هبوط وخروج بصغر ومجاورة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيداً به في  
حالة الخروج سيكون مصحوباً لئلا والصغار والطرد واللحن ويقول الحق  
سبحانه

﴿... لَمَنْ نَبَعَثْ مِنْهُمْ لَأَعْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨) [سورة الاحزاب]

وفي هذا الخبر لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعد لها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعد الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده صيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه - جل شأنه - قد أعد الجنة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعد النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٥) الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآخِرَةَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٦)

[سورة المؤمن]

وقوله الحق :

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٦٨) [سورة الأنبياء]

وبهذا نكون قد شرعنا مسألة إبليس الذي امتنع عن طاعة أمر الأمر الأعلى بالسجود لآدم

ويقول نحو بعد ذلك :

﴿وَيَتَّكِدُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١١)

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هي جنة الآخرة والحلود .  
واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل ، وليس جنة الحلود ؟ . وكيف يخرج  
منها ؟ وهل الذي يدخل الجنة يخرج منها ؟ ، وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن  
الجنة هي جنة الآخرة ، لم يفتنوا إلى مدلول كلمة «جنة» ؛ فساعة تطلق كلمة  
جنة ، تأخذ ما يسمى في اللغة «غلبة الاستعمال» ، أي تأخذ اللفظ من معانيه  
المتعددة إلى معنى واحد يستقر به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف ذهنك إليه ،  
فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هي  
التي تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتي اللفظ في القرآن والمكتلم هو الله ، فلا بد  
أولاً أن تدرس اللفظ واستعمالاته في اللغة ؛ لأن القرن جاء بلسان عربي مبين ،  
فمن الجائز أن يوجد اللفظ في اللغة وله معاني متعددة ، وعندما يتعلق الأمر بالدين  
والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوي ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعي  
الاصطلاحي

مثال ذلك كلمة «الحج» ، فأنت ساعة تسمع كلمة «الحج» تقول هو قصد  
بيت الله الحرام للسك والعبادة في أشهر معلومة ، على الرغم من أن «الحج» في  
اللغة هو القصد ، وإذا قصدت أي شيء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام  
أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله في الحج بالمعنى الشرعي ، وهو قصد البيت  
الحرام للسك ، وكذلك كلمة «لصلاة» إنها في اللغة الدعاء ، فقوله تعالى :  
﴿ واصل عليهم ﴾ أي ادع لهم ، ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة ، وجعلها  
تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهي الأقوال  
والأفعال المخصوصة ، المسبوقة بالتكبير المحتومة بالتسليم شرائطها الخاصة

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنى اصطلاحياً أن  
هذا يكون تركاً لمعناه الأصلي ؟ لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله في معناه  
الأصلي فلك ذلك ، ولكك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة  
الشرعية لأن كلمة «صلاة» أصبحت هي الأصوات الخمس المعروفة لك ، مع أن  
معناها الأصلي كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة  
«الجنة» ساعة تطلق ينصرف الذهن إلى جنة الحلود ونقول : المعنى اللغوي  
للجنة أنها المكان الذي فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعموها فتستر

الإنسان وتُجَنِّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الشر والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خوارجها ويكتفى بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجرى باحثة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُتَابٌ ﴾

( من الآية ٢٦٦ سورة البقرة )

وكذلك يقول سبحانه .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّبَّيْنِ حَصْنًا لِأَحَدِهِمَا حَصْنٌ مِّنْ أَعْيُنٍ وَحَفَّتَ بِهَا بَحْلٌ وَحَصْنًا بَيْنَهُمَا زَرْعٌ ﴾

( سورة الكهف )

وقوله الحق

﴿ فَقَدْ كَانَ لِمِثْلَا فِي مَسْكِهِمْ آيَةٌ حَتَّىٰ عَنَّا عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوْا مِمَّا رَزَقَ رَبُّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾

( سورة مآ )

وأقول : إن علينا أن نبحث في آفاق مرادات الله حين يُتَلَمَّنَا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إنا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة في الأرض :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

( من الآية ٣٠ سورة المائدة )

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق لمجة ، وكما سنعيش فيها لكنه عصي وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله في الأرض خليفة . والذي كان يجب أن نسأل

عنه . مادام قد جعله الله خليفة في الأرض فما الذي جاء بحكاية الجنة هذه ؟

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله النكايف محصورة في « افعل » و « لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمثل سيظهر الفساد في المجتمع ، أما الذي لا يظهر منه فساد فسبحانه بتركه مباح ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ « افعل » و « لا تفعل » هي مقياس ضمان الصلاح في الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه منهج الله ؟ لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأعوى ؛ فيزين لك في « افعل » ، و « لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فيترغى الشيطان حتى لا تصلى ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو في مجال « لا تفعل » فترتك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداءاً يسعد الإنسان فيها في الدنيا وينعم في الآخرة ؛ لذلك كان لابد أن يدرب الحق سبحانه خلخته في الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقياً نظرياً ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألا يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة في « افعل » و « لا تفعل » . وحذره من العقبات التي تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجر في منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات في منطقة « لا تفعل » حتى لا تجر في منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب في أي شيء أبداً في أثناء التمرين ، وأوضح له أن هذه هي الجنة وهي ستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : « كل من كل شيء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و « لا تقرب » هذا هو النهي . وأوضح سبحانه لآدم أن الذي سيحكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذي ثبتت هداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأنسم وقال .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغَيِّرُهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾

(سورة ص)

كان الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل منومات الحياة لأدم يصنع الله - سبحانه - وإعداد ، وأعطي له منها القدر الذي يعطى المقوم بلا فصلات تنبه ، ولا يتنمخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة إلخ ، لأنه سبحانه يعطى لأدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شيء بدليل أنه يرضى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ، لأن الغذاء الذى يلدخه الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فجنة التى وُجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجراء ، لأن جنة الجراء لا بد أن تأتى بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم - كى علمنا - محبوق للأرض ، إذن وجود الجنة ها يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة أمراً متمثلاً فى ﴿ فَكَلَّا ﴾ ، ونهياً متمثلاً فى ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ ، لم يقل لها : لا تأكلا ، بل قال : ﴿ لَا تَقْرَبَا ﴾ لأن القربان مظنة أنه يؤدى إلى العوادة ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكان الله جعل لأدم فى جنة التدريب والتعريف ومزين : الرمز الأول : لـ « افعل » ، والرمز الثانى لـ « لا تفعل » ، ويحد أن الذى نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أبدعه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيعمل المؤمن ما يؤمر به ، ولا يحرم حول ما حرمه الله ، لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بنأى منظر . ولذلك فى كثير من الأشياء التى يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفى قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتباب ، فسبحانه هو المقاتل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : « لا تعبدوا الأوثان » ، بل قال : « فاجتنبوا » ، والشأن في « الحمر » أيضاً جاء بالاجتناب لكن بعضاً من السطوحيين يقولون : لم يرد في الحمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الحمر لكن الاجتناب يقتضي ألا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد في المكان الذي توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها .

﴿ .. وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٩) [سورة الاعراف]

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقاً في أن تقربا ناحيه هذه الشجرة ، فإني قربها أي مكما ، فهو قد خالف ما شرعته لكما ، « فتكونا من الظالمين » أي تدخلنا في إطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك أعطى نفسك شهوة قلبية في زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً في زمن طويل وبشكل أشد وهذا ظلم لنفسك ، كما أنه دليل على أنك غير مأمون عليها

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا  
مِنْ سَوَاءٍ تَبَهُمَا وَقَالَ مَا هَبَّكُمْ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ  
إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (١١٠)

كلمة « وسوس » تدل على الهمس في الإغواء ، ويعرف أن الذي يتكلم في خير لا يهمه أن يسمعه الناس لكن من يتكلم في شر فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لابد أن يأتي همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحي منه ، ولا يحب أن يعرف للجشع عنه هذا الشيء ،

و « وسوس » مأخوذة من الصوت المعرى ، لأن الوسوسة هي صوت رنين الذهب والحلى ، إذن فما قاله الشيطان لأدم وروجه هو كلام معرٍ ليلفتنهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق : ﴿ فوسوس لهما ﴾ يعطينا حيثيات البراءة لحواء ، لأن الشائع أن حواء هي التي ألحقت على آدم لياكلًا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لأدم وحواء معاً

﴿ فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾

( من الآية ٢٠ سورة الاعراف )

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدى لهما ما وورى من سوءاتهما ، لو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشئء الذى حرمه ربك ستظهر سوءاتهما ، و « السوءة » هي ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على السوءة ، والفطرة تستكشف أن يرى الإنسان امكتمل الإنسانية السوءة . وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ﴾

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكان كل إنسان منهما لا يرى سوءته ، وكذلك لا يرى سوءته الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها من الرؤية ، وهذا كلام معقول جدا . ألم تقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - : « ما رأيت ولا رأى منى » ، وفى هذا القول تتجلى قمة الأدب لأنها لم تجس حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبني على لستر . وذلك حين حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » (١) ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : « الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد » .



﴿لِيُذَيِّقَهُمَا مَأْوَدِيَّ عَنْهُمَا مِنْ سَوءِ تَبِعِهِمَا﴾

(من الآية ٢٠ سورة الاعراف)

ويمذا ويرى ؟ . لا بد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء لكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذي كان موجوداً عند آدم وحواء ، وهو ما كان يوارى السوءات ، ويقال : إن أى إنسان يكون في غاية الضحك والانسباط ، ويريد أن يكتم نفسه ، ويمنعها ويحول بينها وبين الضحك به يحدث له ذلك لو نظر إلى أظفاره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة . وحربها في نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإله .

أو أن الستار الذي كان يوارى السوءة هو النور الإلهي الذي كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد حتى على الأنبياء فلحقها فلا تراها ، لأن أى أمر إذا زاد حتى حده انقلب إلى صلبه ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإلهي الذي كان يعضاهما ويوارى السوءة ، وقد سميت «سوءة» و«عورة» ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء ؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة في الفم ، وفتحة في العورة ؟ .

إن فتحة العورة سوء باعتبار ما يخرج منها . وحسبما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا - كما قلنا - في حاجة إلى إخراج فضلات ، لأن إعداد الله يعطى كلا منهما على القدر الكافي للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله في الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بها من راحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمشيئة الله سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات أم في الأمور المادية ؟ .

نعم ، لأن كل شيء يُخالَف فيه منهج الله لا بد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أى عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل وينقل القرآن ما قامه لهما الشيطان من رسوسة :

﴿ وَقَالَ مَأْتِكُمْ رَبُّكُمُ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونُوا مِنْ الْخَالِدِينَ ﴾

( من الآية ٢٠ سورة الأعراف )

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد ألا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير ملكاً ، أو خالداً . ولم يمحض أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيداً كان ضميماً واهياً وغيباً ؛ لأنه ما دام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يمتنى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله ملكاً أو خالداً ؟ وفى هذا درس يبين لنا أن من يُزَيَّن له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحض إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ (١١)

( من الآية ١٤ سورة الأعراف )

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وينتهى المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١٢)

« قاسم » مادة فاعل ، تاتى للمشاركة ، أى أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل فى ناحية ومفعول فى ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمرا ، وهى تعنى أيضاً أن عمر شارك زيدا ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفى المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولاً ، إذن « قاسم » تحتاج إلى عاملين اثنين . فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ؛ لأنها تأتى مرة لغير المفاعلة ، أو للمفاعلة الملزومية ، والمفاعلة الملزومية تنطبع فى قوله الحق

﴿وَرَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الاحزاب)

وراعدنا ، مثلها مثل قاعل ، من الذي واعد ؟ . إنه الله الذي واعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى في الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .  
إذن «قاسمهما» أي قبلا القسم ودخلا فيه .

﴿وَقَاتَمَهُمَا إِلَى لَمَّا لَمِنَ الثَّانِيَيْنِ ۖ﴾

(سورة الاحزاب)

و «قاسم» ، أي أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح سبحانه :  
أنا قلت إنه عدوك ولزوركك ، ولنسوف يخرجكما من الجنة لتتقى ، فقال  
آدم : يا ربى ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقت يقسم بك على الباطل . ولم يأت  
على الباطل أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديعة في الخلق .  
ولذلك نجد قتادة - رضى الله عنه - يقول : «المؤمن بالله يُخدع» .

والسبب عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء ومن  
زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وقد ضمن أن يشغف بها حباً ، فقلن لها : إن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فتقولها :  
قولى . «أعوذ بالله منك» ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له :  
«أعوذ بالله منك» . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يفرها الرسول ، وهذا  
ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وما هوذا سيدنا عبدالله بن عمر كان يعتق  
من العبيد من يحسن الصلاة ويصنها ويؤدبها في مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ،  
وحين عرف العبيد ذلك احترفوا إقامة الصلاة أمام المكان الذى يجلس فيه وكانوا  
يؤدونها بخشوع ، وكان رضى الله عنه يعاقبهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد  
يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك خفلة من  
آدم ، وكان لابد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالاكل ، وبين أمر  
الحق سبحانه الذى قال له ولزوجه : لا تقربا لكنه لم يفعل .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَذَلَّلْنَاهَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا  
سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ  
وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ  
وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

﴿ فذللاهما بغرور ﴾ أى فانزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما فرهما به وخدعهما من القسم . و « ذلأ » مأخوذة من ذلّى رجله فى البئر أى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو ذلّى جبل الدلو لينزله فى البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشيء مرة فمرة ، و « بغرور » أى بغيراء لكى يوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصيح وأبطن لهما الخس .

وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والبطل فى النفس ، ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرا أن التزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذهما فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة الاعراف )

و « الخصف » أى تاتى بشيء ونلذه على شيء لتدارى شيئاً . وقد هما حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإسكانى يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه

وهكذا فعل آدم وحواء ، أخذوا من ورق الجنة ووضعا ورقة على ورقة لتدارى السوءة . وقوله الحق ﴿ وطفقا ﴾ يعنى وجعلا من ورق اشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق :

﴿وَمَذَّيْنَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا  
عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

لقد كان التكليف هنا في أمر واحد ، والإباحة في أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ؛ لذلك لم يكن من اللائق أن يتوها عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سنبعثنا هذا الموقف في المهم في لمعة للنص في سورة غير هذه وهو قوله الحق :

﴿وَصَوَّبَ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَّى﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما .

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لا يجرم إلا بنص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة في أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إن أحدهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو لمعادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما وكان لابد أن يكون الجواب نعم يارب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتي بالإخبار ، وقد يأتي بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى بوجاه بالاستفهام بالنفي .

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبح يعلم أن العدو هو الخصم الذي يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك، و«مبين» أي محيط، وهذا دليل يظهر عدواة الشيطان وإحاطتها؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتي من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيما نهم وعن شمائلهم. أو يس العداوة وشديد الخصومة .

ويأتي الإقرار بالذنب من آدم وحواء :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٢٣]

وتلك هي الكلمات التي قال الله عنها في سياق آخر :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة]

فكان الحق سبحانه وتعالى قدّر غفلة خلقه عن المنهج، فشرع لهم وسائل التوبة إليه، ووسائل التوبة ثلاث مراحل: تشريعها رحمة، ثم لإقبال عليها من المذنب اعترافاً وإثابة، وقبولها منه سبحانه رحمة، والتشريع يطلب منك أن تفعل، وحين تتوب يتوب الله عليك .

تشريع التوبة - إذن - رحمة، لا بالمذهب فقط، بل وبعمره أيضاً؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة، كان الذي يعمل معصية، ولا يجد مغفرة، يستشري في المعاصي، وإذا استشرى في المعاصي تمب المجتمع كله .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٢٣]

[سورة الأعراف]

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة

﴿ قَالَ ءَاتِجِدُّ لِمَنْ خَلَقْتَ بِنَا ﴾

(من الآية ٩١ سورة الإسراء)

فماذا قال آدم وحواء ؟ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

ولذلك كان جزاء إبليس - وهو الشاقي على أوامر الله وحكمه - أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : « هذه هي ظروفي » ، ويرر ويحفل ما يفعله من المعاصي ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من منطقة الرحمة ، وعليه أن يقول : « ما أفعله حرام ، لكن لا أقدر على نسي » ، وبذلك لا يكون قد رد الحكم ، بل اتهم نفسه بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلاً للتوبة .

وهنا نأل : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . ونقول : إبليس عصي وجاء بحجة رفض الأمر ، لكن آدم عصي وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ معاً وفي نفس واحد ، ونعمة حريئة نادرة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماهما ؟ . إن كلا منهما لو اعتلر الله بمفرده لاختلفا في أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا .

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

وهما قد قالوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَا ﴾ ، وأنفسنا جمع نفس ، ولم يقلوا « نفسينا » ، بل قالوا ﴿ أَنْفُسَا ﴾ أي أن قلوبهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل في نفوس فرينهما .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي  
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ٤١

ونلتفت لنجد أن هناك أمراً قد سبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ، وبما لو كانت جنة الخلود هي محل إقامتهما ، وأدم مخلوق لها ثم عصى ثم قاب لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التي جعله خليفة فيها ، لياثر مهمة الخلافة في إطار التجربة التي وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر الله في كل تكليف ، وأن يحترم بهي الله في كل تكليف ، وليحذر عداوة الشيطان فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فليترنل مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر من بعد ذلك . ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ، ولم يقل لهما اهبطا . وفي آية ثانية قال

﴿ قَالَ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

( من الآية ١٢٣ سورة طه )

وذلك لتعرف أن ورود القصة في أماكن متعددة جاء لتعطي لقطات كثيرة . والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهْبِطُوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة : آدم وحواء ، وإبليس . والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان في طرف هما آدم وحواء ، وواحد في طرف هو إبليس . ويريب الحق لنا بيان الحقائق وأن المتكلم إليه ، إن كل حور عنده بميزان ؛ ولذلك نجد سبحانه يقول لنا :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانِ ﴾

( من الآية ٨٢ سورة النساء )

أي إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث في خلفيات النص ، ولا تأخذ واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء اللفظ



﴿ ذَلْ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ يَبْغِي عَدُوًّا وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢٤)

(سورة الأعراف)

وكلمة «عدو» تعني وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين أولاد آدم بعضهم مع بعض ، أو تقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنهم لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ ولکم فی الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

أي أن لكم استقراراً في الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق في الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع في الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالِ فِيهَا تُحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٢٥)

كأنه قال: ﴿ ولکم فی الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فأحب أن يعطيا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التي قال فيها :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فقد ربطنا بالأرض . لإيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخبرات وثمرات ، ثم نموت لنعود لها ونبحث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ويرجعه ، إلى الأم الأرض ، فهي تكلمته ونظمه وتأخذه في حضنها فهي الحانية عليه وبخاصة في وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان في حالته الطيبة ، وله أخ حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هي التي تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتداري

رائحته ، أما أحبابه في الدنيا وإخوانه ، فقد ساء عوا بمواراته التراب تصادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنسَى هو اسمه ؛ فيقولون : «أين الجثة» ، ولا يقولون «أين فلان» . وبعد الكفن يوضع الجثمان في النعش ، يوارى في التراب ويدمدم اللحد عليه برجليه .

ويقتل الحق بعد ذلك بالخطاب إلى أبناء آدم يقول :

﴿يَبْنَىٰ آدَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْآتِكُمْ  
وَرِيشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ  
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٦﴾﴾

وكلمة ﴿يَا بَنَىٰ آدَمَ﴾ نفث إلى أن تتذكروا ماضى أبيكم مع هذوكم المحبين ، إبليس ، أنتم أولاد آدم ، وأنشيطن موجود ، فانتبهوا . لقد أنزل الحق عليكم لباس يوارى سوءاتكم ؛ لأن أول محاولة حدثت كتمت السوءة ، والإنزال يقتضى حجة علو لمهم أن كل حير في الأرض يهبط ملته من السماء ، ومبجانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذى أنزل المطر ، والمطر روى بسور النبات مخرجت النباتات التى عرلناها فصارت ملابس ، وكأنك لو نلت كل خير لوجدته هابطاً من السماء ولذلك يمت الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول :

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَرِيهَ أَزْوَاجَ ۖ ۞﴾ [سورة الزمر]

نعم هو الذى أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية في النبات من مرحلة أولى ، والسببية في الحيوان من مرحلة ثانية ، وهو الذى جعل انبات بحرج من الأرض ليتغذى فيه الحيوان ، ريقون سبحانه أيضاً :

## سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿٩٣﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ  
وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . (٩٥)﴾ [سورة الحديد]

نعم قسبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ، لأننا بأخذه من الأرض التي خلقها الله ،  
ومذا دليل على أن التنزيلات إلى أراد الله أن يحمي بها كل منتهج

﴿بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سُوءَ نَفْسِكُمْ . . (٩٦)﴾ [سورة الأعراف]

فهذا كن قد أنزل اللباس الذي يورى سوءات النفس وسوءات المصداة ، كذلك  
أنزل اللباس الذي يورى سوءات القيم . فكلما أنكم تحسّون وتذكرون أن اللباس  
المادى يدارى ويورى السوءة السمادية الخسية فيجب أن تعلموا أيضاً أن اللباس  
الذى ينزله الله من القيم [ثما يورى ويستوره سوءاتكم المعنوية . ولباس الحياة  
المادية لم يقف عند مرارة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً  
لذلك قال الحق :

﴿ . . قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سُوءَ نَفْسِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْعَفْوِ ذَلِكَ حَيْرٌ ذَلِكَ  
مِنْ يَسْتَبِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَذْكُرُونَ (٩٦)﴾ [سورة الأعراف]

والريش كساء الطير ، وقد تمأ كانوا يأخذون ريش الطير ليربوا به ملابس .  
وكنوا يضعون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكمة وقلوا : فلان  
مريش أى لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكان هذا  
القول المكرم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك فى حل . وقبل أن ينعنا  
الحق سبحانه وتعالى ، لم يقرر مت الحياة لقب إلى الخيال فى الحياة ، فقال سبحانه .

﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَرَبَّةَ . . (٩٨)﴾ [سورة الحبل]

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجمال .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الاحراف )

بل سبحانه طلب زينتنا في الفناء له في بيته فيقول :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

( من الآية ٣١ سورة الاحراف )

إذن فهذا أمر بالزينة ، وها في الآية التي نحن بصدد شواطرنها عنها يقول سبحانه :

﴿ وَرِبَاسًا وَليْسَ اتَّقَوِيْ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

( من الآية ٢٦ سورة الاحراف )

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادي يستر العورة المادية ، وقصاره أن يكون فيه مواراة وستر لفصوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يوارى عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذي تتقون به أهوال الحروب ؛ إنه خير من لباس الزينة والرياض لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلّ اللباس - لباس التقوى - خير من اللباس المادي وهو من آيات الله ، أي من هباته ، وهو من الأشياء الثلاثة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ، وهناك أمور قيمة لا تتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به في السلم والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزاج . فخذ الآيات مما تعلم وما تحس لتستبسط منها ما يضيئ عنك مما لا تحس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿يَبْنَىءْ أَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ  
أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا  
سَوْءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ غُورَ قُلُوبِكُمْ وَهُوَ خَبِيرٌ  
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رقب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإخوانه له .

والفتنة في الأصل هي الاختبار ، وتطلق - أحياناً - على الأثر السيئ حيث تكون أشد من العزل ، لكن هل يسقط الإنسان في كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هي الاختبار ، وفي الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإما أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطله شراً .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة في الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة في الأرض ، فله منهج يحكمه في كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه في كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعي على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف في الأرض ، وحلوه من الشيطان الذي أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة في التكليف . وكل تكليف محصور في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له في الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشرة مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : « أَنْ كُلَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ » ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و « كُلْ » أمر ، و « لا تقرب » نهى . وكل تكليف شرعي هو بين « لا تفعل » وبين « افعل »

وبعد ذلك حذر من الشيطان الذي يضع ويجعل له العذبات في تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله في ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لا بد أن ينشأ عنها هوة تظهر في الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر هورات الأرض وهورات المجتمع ، فأمره الله : أن امض إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه في قوله : ﴿ولا تقربا﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتشبه فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتذكره الغفلة ، وقد يخالف منهج الله في شيء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبياً ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى في تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نقتل إلى النص القرآني .

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

(من الآية ١٢٩ سورة طه)

إن هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولا بد أن نقتل أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ثم اجتبه ربه﴾ .

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ؛ لأن عصيانه كان أمراً طبعياً لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتبه الله ليكون نبياً ورسولاً ، ومادام قد صار نبياً ورسولاً فالعصمة تأتي له ؛

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَقَتَلَ عَلَيْهِ وَهْدًى﴾ (١٣٠)

(سورة طه)

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبي ؟! نقول : تنبه إلى أن

النبوة سم تائه الا بعد أن عصى وناب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلغون عن الله ، وأنبياء يبلغون عن الله ، فله في البشرية أنه عصى ، وله في النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهده .  
والذين يقولون : إن آدم كان محبوقاً بلجنة ، نقول لهم : لا . افهموا من الله ، لأنه يقول : ﴿ بنى جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

ب. أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . انها كانت تدريجاً على المهمة التي سيقيم بها في الأرض ، والافلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجه ، الا أن الله قد قبل منه توبته ، وما دام قبل توبته فكان يجب أن يقبضه في الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض . وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلق علينا لتجربة لآدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألا تقع في الفتنة كما وقع آدم .

﴿ بَنَى آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ (٢٧)  
[سورة الاعراف]

وهذا هو لبنى آدم وليس مهياً للشيطان ، وهذا في مكة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل ، سبحانه لا ينهى لإنسان عن شيء ليس في مكنته ، بل ينهيه عما في مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يعته ويسمحل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ فلماذا أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ، لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب نجرته مع أبيكم عبيكم فلا يفتنكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ونسأل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتنكم الشيطان كما فتن أبويكم ، وقال : ﴿ لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ؟ ﴾ . ويقول : هذا هو السمو والافتتان الراقى في الأداء البياني للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يعرجنا من جنة التكليف . فما فتى أبوين فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال من هذا الأسلوب إنه أسلوب احتياك ،

وهو أن يجعل الكلام شطرين وتحدد من كل مهما بطر ما أتت في الآخر قصد الاختصار. وهذا هو الأسلوب الذي يؤدي المعنى ينتهي الإيجاز لينه ذهن السامع لكلام الله قبلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء ، وعدم لفصول في الأساليب.

﴿ لَا يَفْتَنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبْرِيكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ۖ ﴾ (٢٧) [سورة الاحزاب]

ولعنته - كما عينا هي في الأصل الاحتيال حتى تبقى الشيء من الشوائب التي تحتفظ به ، فقد كذبت الشوائب في ذهب فبحر نعلم أن اذهب مسخروط تنحاس أو معدن آخر ، وحين تريد أن تأخذ الذهب خالصاً نفسه على النار حتى يعض ويريل عنه ما خلق به . كذلك لعنته بالنسبة للناس ، بها تأتي تحتبراً للإنسان لينقى نفسه من شوائب هذه المسألة ، وليتذكر ما صنع ، ليس بآدم وحواء . فإذا جاء يمسكك لإياك أن تعثر : لأن الفتنة مستضرك كما سبق أن لحقت الضرر بأبيك آدم وأمتك حواء . والشيطان هو المتمرد على مهيح الله من الحسن ، والحسن جس من المؤمنين ومنه الكفار . وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَا مَتَّ الشَّاسِحُونَ وَمِنَّا دُونُ ذَلِكَ ۖ ﴾ (١) [سورة احزاب]

والشيطان المتمرد من هذا الحسن عني مهيح الله ليس واحداً ، واقراً قول الحق سبحانه .

﴿ أَفَتَعْدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۖ ﴾ (٥) [سورة الكهف]

وهنا يقول الحق سبحانه .

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۖ ﴾ (٢٧) [سورة الاحزاب]

وقبيله هم حموده وذريته الذين يشركهم في يكون ليحقق قسمة .



﴿ قَالَ نَبِيْرُكَ لَا غَرْيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴾

(سورة ص)

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان في قمة الطاعة صار عاصياً لأمر الله معصية أذنه وأوصيته إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أضر صدره وأحقته ، وجعله يوزل ويسرف في عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعه كان بسبب آدم وحرية .

﴿ إِنَّمَا يَرْتَكِرْ هُوَ وَفِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهنا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فوكان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجْوَىٰ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

وَتَعْرِفُ الْفَوَاحِشَ عَرُورًا ﴾

(من الآية ١١٧ سورة الأنعام)

وكلمة « زخرف القول » تعنى الاستمالة التي تجعل الإنسان يرتكب المعصية ويتفعل لها ، ويتأثر بزخارف لقول . وكل معصية في الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعاته ، ومروجوه ، ومعلوه ، إنهم يربنون للإنسان بعض شهواته التي تصرفه عن منهج الله ، ويلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان في البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان في نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرّموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرّموا الناس من نفحة لموسم فقد حَقَقُوا

غرضهم في العداوة للإسلام . ﴿إِنَّهُمْ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ﴾

إن الشيطان يراكم أي المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ، فقال قوم : ﴿إِنَّهُمْ جُنُودُهُ وَذُرِّيَّتُهُ﴾ . ويفصلون جوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق ﴿مَنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فلا بد أن يكون المراد بالقبيل هنا القرية ، لأننا نرى البشر ، وفي قوله الحق تغليب لشدة الحذر والتنبه ، لأن العدو الذي تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذي يراك ولا تراه عداوته شديدة وكبده أشد ، والجن يراونا ولا نراه ، وبعض من العلماء حلل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهي شفافة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر في الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيتنا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر في الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفرد الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يرى ، ولكن إذا كان ثبت في الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئي وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاتقان كل منهما جنس خفي مستور ، وقد تشكل الملك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : «هذا جبريل جاء ليعلم لناس دينهم»<sup>(١)</sup> .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : «إن عفريتا من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع على الصلاة ، وإن الله أمكنني منه فذعته فلقد هممت أن أربعه إلى جنب سارية من سوازي المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجسمون»<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه مسلم في الإيمان

(٢) رواه مسلم في المساجد ، والبخاري في الصلاة ، وأحمد ، ومعي : «فَذَعْتُهُ» - أي عَفَيْتُهُ .

وذلك من أدب النبوة . إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أردت أن تراه . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مرادته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لابد أن نقول : إننا لن نراه

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجنى فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية ينشكّل بها ، وهذه الصورة تنشق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجنى لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لنقدنا الرئوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذي نعرفه أو هو شيطان قد عُثِلَ به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضروري لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؟  
لأنك لا تعطف على ابنك لا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق في  
صديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك . ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن  
الشیطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهما ميشكك هذا الشيطان ويسمح لك  
الوثوق بالشخص الذي يتمش في صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين  
يصرون بمنهج الله وهم العلماء ، هم الذين يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم  
موثوق في علمه ، ثم يقول كلاماً منقظاً لمنهج الله ؟ .

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ويقول لهم . أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا هو يتمثل ثمث الصورة الموضحة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمت الصورة التي انتقل إليها ، وإذا حكمت الصورة التي انتقل إليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، أنه يخاف منا أكثر من تخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثيل كوموضحة ، ثم يحتمس ، والإنسان إذا تأمل الجني المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمش - مثلاً - هي هيئة رجل له ساق عرة لتلتصق إليه كوموضحة ويختفى ؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التي يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرمه .

ويشبع الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧) [سورة الأعراف]

والشياطين من جعل الله ، وسبحانه على بينهم وبين الذين يريدون أن يفتوهم  
والا لو أراد الله معهم من أن يفتوهم - لفعل . إذن فشكل شيء في الوجود ،  
أو كل حدث في الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداع لفعل الفعل .  
نسباً ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، ولداعى إلى الفعل ، ليراز  
الفعل في الصورة النهائية تستمد من عطاء الله من الطاقة التي منحها الله للإنسان .  
أنت تقول : العامل النسيج نسج قطعة من القماش هي غاية الدقة ، ويقول : إن  
العامل لم يسح ، وإنما سحت الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذي صنعها  
أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها إلا بالعالم الذي ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجه الطاقة المخلوقة للمهندس في أن تعمل ، واعتمد على طاقة  
المهندس الذي صنعها في المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم  
الذي ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفي مادة خلقها الله .

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ، لأنه خالق الطاقة ، وحائق من يستعمل  
الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا  
قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذي نسج صح  
قولك . إذن فالمسألة كلها مردها إلى العمل إلى الله . وأنت وجهت الطاقة المخلوقة  
له بالقدر المخلوق له في فعل أمر من الأمور فإذا قال الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ ﴾  
أي خلين بينهم وبينهم انفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا إلا يفتنوا أحداً لم فتنوه .  
وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ .. لِأَعْرَبْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٦) ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾ (٨٧) [سورة من]

إذن من يريد الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يخرجه، وتعمم الشياطين أن الله حلّى بينهم في الاختيار، وهذه اسمها تحلية، ولذلك لا معركة بين العلماء فمبهمهم أن الطاقة مخلوقة لله، ونسب كل فعل إلى الله، ومنهم من رأى أن موجة الطاقة من الشر فينسب الفعل لبيشر، ومنهم من رأى طاقة قدرة الله في أنه الماعل لكل شيء، ومنهم من قال: إن الإنسان هو الذي فعل المعصية. أي أنه رجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له، فربما يعذبه على توجيه الطاقة للعمل الضار ولا خلاف بينهم جميعاً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (من الآية ٢٧ سورة الاحزاب)

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن، ولكن الذي آمن لا يتخذ الشيطان ولياً

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا  
وَاللَّهُ أَسْرَفًا بِهِمْ قُلُوبًا فَلْيَسْأَلِ اللَّهُ لَا يَأْخُذُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ  
حَلَّ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

والفحشة مأخوذة من التعحش أي التزبد في الفحش، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب، وهو الزماء، لأن هذا تزبد في الفحش، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنهى بآثرها، لكن الرنا يخلف آثاراً. فلما أن يواد المولود، وإما أن تجهض المرأة، وما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً، ويعيش طريداً في المجتمع لا يجد مستولاً عنه، وهكذا تصبح المسألة ممتدداً أكثر من أي معصية أخرى. وتصنع هذه المعصية الشك في المجتمع. ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك في أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه، وهذه بسوى

كسيرة للغاية. والذين قالوا : إن العا حشرة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه :

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّسَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٢٤﴾ [سورة الإسراء]

أو النباحشة هي ما فيه حد ، أو العا حشرة هي الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزبد في القبح على أى لون من الألوان

فما هي العا حشرة المقصودة هنا ؟. إنها القوا حش التي تقدمت في قوله .

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ .. ١٢﴾ [سورة المائدة]

وكذلك ما جاء في قوله تعالى .

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكَبِيرٍ مِّنْ لُّمُشْرِكِينَ قُتِلَ أَوْلَادُهُمْ شُرَكَائِهِمْ .. ١٣٧﴾

[سورة الأحكام]

وكذلك في قوله الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا .. ١٣٦﴾ [سورة الأنعام]

أو أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت حرة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والساء يطفن ليلاً ، لماذا ؟. لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : يريد أن يطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا يطوف بيت الله في ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم «وجدن عليها آباءنا» تقليد ، والتقليد لا يعطى حكماً تكليفياً ، وإن

أعطى علماً لتدريسا ، بأن ندرب الأولاد على مصلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . وما يدل على أن التقيد لا يعطى حقيقة ، أنك تجد للذهين المتناقضين - الشيوعية والرأسمالية مثلاً - مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم - كما يقولون - الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقل في إعطال التقليد . ولذلك نلاحظ في أسلوب القرآن أنه أداه دقيق جداً ؛ فالله يتكلم به .

﴿ وَإِذَا قُلُوا فَاحْشَ قَالُوا رَجَدْنَا عَلَىٰ آبَاءِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

( من الآية ٦٨ سورة الاعراف )

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت في مسألة التقليد برّد لأنه بداهة لا يؤدي إلى حقيقة ، بل قال :

﴿ قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّفَقُوا عَلَىٰ آلِهَةٍ مَا لَا تَعْبُرُونَ ﴾

( من الآية ٦٨ سورة الاعراف )

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ ؟ .

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطري ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لوضوح بطلان عند لعقل الفطري ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أمر أمر مباشر ؛ بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تنبهوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِمَنْ يُكَيِّمُ اللَّهُ إِلَهًا وَحِيدًا أَنْ يَنْزِلَ فِي سُلْطَانٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾

( من الآية ٥١ سورة الشورى )

أم بلمكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبي فكيف ذلك وأنتم تكذبون محيىء الرسول ؟ وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهنم : الجهة الأولى : إنه لا طريق

إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلاً للمخاطب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم :

﴿ اُنْغُولُوا عَلَىٰ آلِهَةٍ مَا لَا تَعْبُدُونَ ﴾

( من الآية ٢٨ سورة الأعراف )

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : « لا » فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : « نعم » ، فإذا قالوا : نعم فنقول على الله ما لا تعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢٩)

والقسط هو العدل من قسط قسماً ، وأما قاسط فهي اسم فاعل من قسط قسماً وقسوطاً أى سجد وعذل من الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والمائنون عن الحق والظالمون ، وكلمة العدل هي التسوية ، لأن ملت إلى الحق ، فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أمر مكروه ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ . وهذه جملة خبرية .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

( من الآية ٢٩ سورة الأعراف )

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من عطف الأمر على الخبر ، ولكن لانتقلت إلى الحق بمطئنها على « قل » ، فكان المقصود هو أن يقول : « قل أمر ربي بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » .



والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لم تعرفه إلا إن كان له لباس مميز لا يرتديه الا هو . ولوجه أشرف شيء في التكوين الجسمي ، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه في الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شيء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد .

﴿ أَمَّا قَرَأَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. ﴾ (١٨)

والشجر يسجد وهو نبات ، والدواب تسجد وهي من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجهاد وهي أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال :

﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨)

لأن الإنسان له خاصية لاختيار ، وبقيّة الكائنات ليس له اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذي وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائفة وكلها تسبح ربه ، فإذا كان السيد الذي تخدمه كل هذه لأجناس حيراناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد

﴿ وَاقْبُوا وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴾ (٢٩)

والإقامة أن تضع الشيء فيما هي له وتخلق وتطلب منه ، وبن وجهته لناحية ثابتة تكون قد ثبته وأملته وحببته ، وعوّجته . إذن إقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذي سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك في الأرض من أجله ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تحتار الاخرجك لوجهك ، واعلم أن

هذا المخصوص والمفروض والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجسام الأخرى التي تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جهنك ووجهك على الأرض يعطيك البركة في العمل ويعطيك خير لأخرة أيضاً . والعاقل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيثقل العبودية لله ، فيأخذ خيري الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيها النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أما في الدنيا فأنت تقبل عليها باستحلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة في حركة لاستحلاف .

﴿وَأَقِيمُوا رُجُومَكُمْ حَيْثُ كُلٌّ مَّسْجِدٌ...﴾ (٢٦) [سورة الأعراف]

وللمسجد مكان السجود ، وقال الرسول ﷺ : «وصلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لي الخنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي البين» (١) .

إذن فكل موضع في الأرض مسجد ؛ فإن دخلت معبداً لتصلي فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك . يصبح أن تسجد وتصلّي فيها . وتزاول فيها عملك أيضاً ، ففي المصنع تراول صمعتك فيه ، وحين يأتي وقت الصلاة تصلّي ، وكذلك الحقل تصلّي فيه ، لكن المسجد الاصطلاحي هو المكان الذي حُبر على المسجدية وقصر عليها ، ولا يراول فيه شيء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿وَأَقِيمُوا رُجُومَكُمْ﴾ في جميع أنحاء الأرض وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة في المكان المخصوص ، وله منجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلّي في أي مكان . والمساجد نسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبنى مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومتوجهاً لجميع بيوت الله .

(١) رواه مسلم والترمذي من أبي هريرة

## سورة الاحزاب

﴿١٠٩﴾

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ،  
أى على الوجه الذى تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم فى صلاتكم إلى  
الكعبة فهى بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل فى أى مسجد ، أو <sup>١</sup> وأقيموا رجوعكم عند كل  
مسجد <sup>٢</sup> يقصد بها التوجه للصلاة فى المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء  
لصلاة وإقامتها فى المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية  
قالوا حتماً . ونقول : الحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة فى المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفس بيده لقد هممت أن أمر بحطب فيه حطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لما ثم  
أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أختلف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم <sup>(١)</sup> .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أو لم يفعل ؟ لم يفعل  
رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التعليق ليشجعنا على الصلاة فى المساجد عند  
أى أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَأَذِّنْ لَهُ تَحِيصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الاحزاب)

والدعاء . طلب من عاجز ينتج به لئلا يدرى فى فعل يحبه الداعى . وحين تدعو  
ريك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لا يكون فى بالك الأسباب ، لأن الأسباب إن  
كانت فى بالك فانت لم تخلص الدين ، لأن معنى الإخلاص هو تصفية أى شئ  
من الشوائب التى فيه ، والشوائب هى العقائد وفى الأعمال تفسد الإتقان  
والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله صلى  
الله عليه وسلم يقول :

« إِنِّي لِيَعَانُ عَلَى قَلْبِي وَلَئِي لَأَسْتَغْفِرَ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ » (١).

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن يقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فلهت للمسبب ، ومادمت مضطراً مسجوب رينا دعوتك ، لأنك استغفرت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله من ترف ، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقني ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدور بأشياء الله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحلى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

وبذيل الحق الآية لكرامة بقوله :

﴿ كَذَلِكَ تَعُودُونَ ﴾

( من الآية ٢٩ سورة الاحزاب )

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحننه ، مذكراً إياه بـ « افعل كذا » و « اعمل كذا » و « افعل كذا » . وسبحانه قادر أن يخلق مرفعاً على أن يفعل ، لكنه - جل وعلا - شاء أن يجعل الإنسان سيداً وجعله مختاراً ، ونهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعلة لما يريد . وأثبت لنفسه - سبحانه - صفة القلعة ، ولا شيء يخرج من قلوته ، فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصى ولكنك تطيع ، وهذه هي عظمة الإيمان إنها تثبت صفة المحبوبة لله ، فإذا ما غر الإنسان بالأسباب ويخضع الكون كله ، ويمافيه من عافية ، ويمافيه من قوة ، ويمافيه من مال ، تهجد الحق يلته . لاحظ أنك لن تعلت مني : أنا أعطيت لك الاختيار في الذنب ، لكنك ترجع لي في الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تهجد إلا المسبب ، ولذلك اقرأ :

﴿ لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

( من الآية ١٦ سورة هود )

( ١ ) رواه مسلم في الذكر والدعاء باب استجاب الاستغفار ، وأبو داود في الصلاة ، والترمذي في عمل اليوم ، والإمام أحمد ٢١١/٤ . ومعنى ( لَيَذَانُ ) : ما يتغشى القلب ، وقبل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمه فيستغفر لها ، وقال المنذري : هو عين أنوار لا غير الأضواء ولا حجب ولا غفلة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

كَانَ الْمُتَكَبِّرُ قُلُوبَ ذُنُوبٍ - أَيُ فِي الدُّنْيَا - كَانَ لِلشَّرِّ فِيهِ شَيْءٌ ، بِمَبَاشَرَتِهِمُ الْأَسْبَابَ  
هَذَا يَمْنُوكَ ، وَذَلِكَ يَمْلِكُ ، وَحَرِيْطُوكَ ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَا مَالِكَ ، وَلَا عَيْدٍ إِلَّا  
اللَّهُ ، فَوَيْلَاكُمْ أَنْ تَعْتَرُوا مَا لَأَسْبَابَ ، وَأَنْهَا دَاثَ لَكُمْ ، وَأَنْكُمْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَحْكُمُوا  
فِيهَا ؛ لِأَنْ مَرَجَعَكُمْ إِلَى اللَّهِ .

وَيَقُولُ الْحَقُّ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ  
اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ  
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

اذْكُرُوا أَنَا قُلْنَا مِنْ قَبْلِ - إِنَّ اللَّهَ هَدَى الْكَلْبَ بِمَعْنَى 'لَهُ قَدْ بَلَغَهُمْ بِمَهَجِهِ عِبَرِ  
مَوْكِبِ الرِّسَالِ ، وَحِينَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ - ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾  
فَالْمَقْصُودُ هَاهُنَا لَيْسَ هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ ، لَكِنْ دَلَالَةُ الْمَعْوَةِ . وَقَدْ فَرَّقْنَا بَيْنَ هِدَايَةِ الدَّلَالَةِ  
وَهِدَايَةِ الْمَعْوَةِ

وَقَوْلُهُ لِحَقِّ ﴿ فَرِيقًا هَدَى ﴾ أَيُ هِدَايَةُ الْمَعْوَةِ ، لِأَنَّ هَذَا الْفَرِيقَ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ  
بِإِيمَانٍ مُخَفَّفٍ اللَّهُ عَلَيْهِ مَزُومَةُ الْعُدَاةِ ، وَبَعْضُهُ فِي الْمَعْصِيَةِ ، وَأَعَانَهُ عَلَى مَهْمَتِهِ  
أَمَّا الَّذِي تَأْتِي عَلَى اللَّهِ ، وَبِمِ يَسْتَجِبُ لِهِدَايَةِ الدَّلَالَةِ أَيْعِيْنَهُ اللَّهُ ؟ لَا - إِنَّهُ يَتْرُكُهُ فِي  
مَيْهِ وَيَحُلِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الضَّلَالَةِ ، وَلَوْ أَرَادَهُ مَهْدِيًّا لَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَمِيرَ مِنْ ذَلِكَ .  
وَسُبْحَانَهُ مَتَرَهُ عَنْ التَّجَسُّسِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَكَفَى الدِّينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ  
حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا فَعَلُوا

﴿ إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

( مِنْ آيَةِ ٣٠ سُورَةِ الْأَعْرَافِ )

إِنْ مِنْ يَتْرُكُكَ الْمَعْصِيَةِ وَيَعْتَرِفُ بِمَعْصِيَتِهِ فَهَذِهِ تُكَوِّنُ مَعْصِيَةً ، أَمَّا مَنْ يَقُولُ إِنَّهَا

هذاية بهذا تبحح وكفر ، لأنه يرد الحكم على الله . وحير لئدين يرتكون المعاصي  
أن يقولوا : حكم الله صحيح ونكت لم نقدر على أعب ، أما أن يرد العاصي حكم  
الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ، لأنه يتفلسف من مرتبة عاصي إلى مرتبة  
كافر والعباد بالله

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾

( من الآية ٢٠ سورة الاعراف )

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، ولينهم فعلوه على أنه محرم ، وأنهم لم يقدروا على  
أنفسهم ، ولكمهم فعلوه وطبوا أن الهداية في الفعل . وهذا الأمر يشيع في معاصي  
كثيرة مثل الربا ، فتجد من يقول : إنه حلال ، ويقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر  
على نفسي ، فتدخل في ذممة المعصية ، ولا تدخل في ذممة الكفر والعباد بالله  
ويمكنك أن تستعمر فبمعرك دينا ، وتوب عيبك ، ونكر أن ترد الحكم على الله  
وتقول إنه حلال !! بهذا هو الخطر ، لأنك تستعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى  
وتقع في الكفر ، أربأ بمسك عن أن تكون كذلك وعدم أن كل ابن آدم خطاء ،  
وما شرع الله التوبة لمبادء إلا لأنه قدر أن عبده يحفظون ويصيرون ، ومن رحمته أنه  
شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يمل هذه التوبة ، فليدنا تخرج من حير يمكن  
أن تخرج منه إلى حير يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟

ويقول لحق سبحانه بعد ذلك

﴿يُنَبِّئُكَ آدَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا  
وَشَرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

والرينة إذ سمعتها نصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وقوله سبحانه  
وتعالى

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾

( من الآية ٣١ سورة الاعراف )

هذا يعنى أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ حدوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد عنى حاة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر لمورة أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، وإذا كان المراد بها اللباس لطيف الجميل اللطيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متوحدون فى مهمات حياتهم ، وكل مهمة فى الحياة لها ريبها ولها هدمها ، فالذى يجلس على مكتب لمقابلة لئاس له ملابس ، ومن يعمل فى « الحذافة » له رى شاسى مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبت إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أياى كل واحد بلباس مهته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يضائق غيره ، فإن كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تتيق ، فاجعل للمسجد ملابس نعلية حتى لا يؤذى أحد بانوجود بجانبك ، لأنك مذهب إلى المسجد لعمل مشترك بحكم الجميع وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلا بد أن نحتفى بهذا اللقاء .

﴿ وَكُفُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

( من الآية ٣١ سورة الاعراف )

والمأكول والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب هلى قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك لأكثر وحرم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذى أحل لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم نجد إلا الميتة ، فهى حلال لك بشرط ألا تسرف ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك فى الحلال ما يفيك عن المحرم ، فإذا لم يوجد ما يفيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمُسرفون هم المتجاوزون الحدود ولا سرف فى حل ، إما السرف يكون فى الشيء المحرم ، ولذلك جاء فى الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً فى جُلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً فى محرم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤدي بك ذلك إلى البطر، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون، وقد أراد أن يترهب، وينسك، ويسبح في الكعب، وقال لرسول الله ﷺ يا رسول الله، إنني أردت أن اختص أي يقطع خصيتيه؛ كي لا تبتني له غريزة جنسية، فقال ﷺ يا عثمان حصاء أمسى الصوم لذلك قال ﷺ في شأن من لم يستطع الزواج: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أعصر للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»<sup>(١)</sup>

وقد روى أن رسول الله ﷺ ذكر الناس وحوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم: أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد وسليمان وعبد الله بن عمرو بن اعاص ومعل بن مقرن في بيت عثمان بن مظعون فانصفوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يفرحوا النساء ويحبوا مذاكيرهم<sup>(٢)</sup>. فكان التوجيه النبوي أن حمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال: «مبال أقوام قالوا كذا وكذا وبكنى أصلى وأنام وأصوم وأهبط وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(٣)</sup>.

ويسامع الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِمُ الطَّيِّبَاتِ  
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَالِصَةٌ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>

ومادام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم، وما يسمع منها للإناث جعلتها السنة

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) فتح الباري

(٣) رواه مسلم.



للإيمان ، وما يصحح بها لندكور أحسنها السنة لهم ، وكذلك الطيب من الرق  
حلل للمؤمنين وللمؤمنات وسليط دقة لأسلوب ما في قوله تعالى

﴿فَمَنْ فِي يَدَيْنَا مَسْئُورٌ خَيْرٌ مِمَّا يَشْتَبِي﴾

( من الآية ٣٢ سورة الأعراف )

ثم يتبع سبحانه

﴿حَبِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الأعراف )

فكانت أمم حاسين اثنين حاد في يد ، وأخرى في يوم القيامة ، معنى ذلك  
أن الرية هي الحياة الدية غير حافظة ، لأن بكفار يشاركهم فيها فهي من عطية  
الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمنين وبكفار ، وربما كان الكفر أكثر حظ في الدنيا  
من المؤمن ، ويكر في الآخرة نكرت الرية حافظة للمؤمنين لا يشاركهم فيها  
الكافرون

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطي بفضله الإيمان في المؤمن بوجود  
الأعير فيه ، ومعنى وجود الأعير أنه قد يتعرض الإنسان لتصبب بين الصفة  
ولحرص ولعمى وعمر والقوة وبصعف وهكذا يكون الإنسان في يد : فهي  
دار الأعير ، ويصيب لإنسان فيها ألمية قد يكرهها ، لذلك فالدي ليست حافظة  
العلم لما فيها من أعير تأنيك فتسوءك-إنها تسوءك عند عية شحة الإيمان منك ،  
لأنك إن استصحبك شحة الإيمان عند كل حدث آخر ، الله عليك نفقت الله إلى  
حكمته

﴿فَمَنْ فِي يَدَيْنَا مَسْئُورٌ خَيْرٌ مِمَّا يَشْتَبِي حَبِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الأعراف )

ويمكن أن نقرأ كلمة « حافظة » مصبوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها من  
قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى أنها غير حافظة للمؤمنين  
في الدب لمشاركة بكفار لهم فيها ، وغير حافظة أيضاً من شربت الأعير ولكنها

في الآخرة حاصه لمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا نأتى لهم فيها الأعيار  
وبدّل الحق الاله بقوله .

﴿كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ بِقَوْمٍ يُفَصِّلُ﴾

( من الآية ٣٢ سورة الأعراف )

معنى « نقصل آيات » أى لانأتى بالآيات محصلة بن نقصل الآيات لكل  
مؤمن ، فلا يترك حلالاً ، ونأتى فيها بكل ما تنطه أفضيه الحياة ، بتفصيل يمهما  
قضاياهما بهما لالس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ  
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِإِلَهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ  
سُلْطَانٌ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾

ولحق سبحانه - قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر . أى ما حرم ربي إلا  
هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ،  
والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها  
حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ  
اللَّهِ ﴾ هو على صيغة استعظام لكن يبيها هم . ولن يجلدوا سباً لتحريم ربة الله  
لأن الحق قد وصح وبين ما حرم فقال .

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ  
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾

( سورة الأعراف )

وتتأمل الخمسة المحرمات التي جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة في الأرض يبقى الإنسان حليقة فيها نرى أنه لابد من حياته أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شيء أن يسلم بالمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أى الإيجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ، لأن الإنسان حين يثق أن أبه هذا به فهو يحرص عليه لأنه محبوب إليه ، ويرعاه ويريه . أما إذا تشككت في هذه المسألة فإنه يهمله ويلغظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يريه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأفعال المشردين مع وجود أنائهم حدث من أن شكاً طراً على الأب في أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالي إن رثه أم لم يره . ولا يبالي أهو في البيت أم شرد ، لا يبالي أكل أم جاع ، لا يبالي تعرى أم لا

إذن عظمارة الأنساب صمدان لسلامة المجتمع ، لأن المجتمع سيكون بين مرت يقوم على شأن وصغير مربى ، المربى قادر على أن يعمل ، والعربى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش . ولنفحش - كما قلنا - ما زاد قبحة ، وانتهوا على أنه هو الزنا ، لأن أثره لا يتوقف فقط عند ادب والاستمتاع بل يتعدى إلى الأنسال وما يتعدى إلى الأنسال فهو تعدى إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملًا لا راعى له

والإثم أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ لقد انتهى العمد على أن الإثم هو الحمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿وَالْإِثْمُ كِبْرٌ مِنْ تَعْيِبَةٍ﴾

( من الآية ٢١٩ سورة الشرة )

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة في الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله يواجه به أمور الحياة مواجهة تبقى المصالح على صلاحه أو تريبه صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان، فإذا ماستر العقل بالخمر فسد واختل، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة. والذين يأتون ويشربون ويقولون: يريد أن ينسى همومنا نقول لهم، ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهمه؛ لأنه إن نسي كل واحد ما أهمه فلن يحتاج أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التي تضمن السلامة

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التي تعامى منها مصاعف لتزيلها. أما أن تستر العقل فانت قد هربت من المشكلة، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبمفكيرك. فإن كانت المشكلة، قد نشأت من أنك أهملت في واجب سبب أي له أسباب وقد قصرت في الأُحد بها فأنت ملوم. وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس في قدرتك، أي هبطت عليك قضاء وقدر، فعلم أن مجريها عليك له به حكمة.

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها، لأن كل ذي نعمة محسود، وحتى لا تتم النعمة عليك؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها، وأنت ابن الأصيل وفي دنيا الأغيار، وإن تمت لك فقد تغير النعمة بالضمحان

إذن فالتفكير في ملافة الأسباب الضارة وتجنبها يأتي بالعقل الكامل، والتفكير في الأشياء التي ليس لها سبب يأتي من الإيمان، والإيمان يطلب منك أن ترد كل شيء إلى حكمة الحكيم. إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر؛ لأن العقل يدير حركة الحياة.

الشيء الذي نريد أنه مجاوزة الحد ظلماً أو أكبر، أو بخلاً، والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيرهد في العمل؛ لذلك يحرم الحق أن يبغى أحد على أحد، لا في عرضه، ولا في نفسه، ولا في ماله. ويجب أن تصون العرض من الصواحش؛ لأن كل فاحشة قد تأتي بأولاد من حرام. وإن لم تأت فهي تهتر تعرض، والمطلوب صيافته، كذلك لا يبغى أحد على محرم أحد، وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمه بالقتل

ويصمون الحق المال فيمنع منه النفي فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً، ومظاهر البغي كثيرة . ومن البغي أن يأخذ سلطة فسرأ بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة فسرأ وفهرأ بحق، وإن كنت . على سبيل المثال - تركب سميكة، ثم قامت الريح والزواجع، وأنت أسهر في قيادتها أتترك الربان بقوده وربما غرقت بين فيها أم تضرب على يده وتحسك باللفة وتديرها لتقذه ومن فيها، إنك في هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحس صيانة أرواح الناس، وهذا بغي بحق، وهو يختلف عن البغي بغير الحق وحتى تعرف بين البغي البغي بحق والبغي بغير الحق تقول إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفينة منه بالمحفاظ عليه وصيانتها وتسميره له، سيكون قد أخذنا من صاحبه رعاية لهذا الحق، وهو وإن كان في ظاهره بغي على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغي بحق أو أنه مسمى بغيًا لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً، ويسمى هذا في علم البلاغة مشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صفة ذلك الغير، ونقرأ أيضاً قول الله:

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۚ ۝٤٠ ﴾ [سورة الشورى]

فهل جزاء السيئة يكون سيئة لا؟ وإنما هي سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه؛ لأنه لما عمل سيئة واختلس مالا - مثلاً - وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتممت ولذلك فالحق يقول:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلْعَصَابِينَ ۝٤١ ﴾

[سورة النحل]

ومن بغي بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه، أن يتوقع أن يناله بغي ممن هو أكثر قدرة منه .

ويسبها الحق إلى العمل الذي لا عفران له ﴿ وَإِنْ تَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾

ومحال أن يزل الحق الذي نعبد شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ؛ لأن من حصائص الإيمان أنه سبحانه ينهى هذا الشرك بأدته العقيدة وأدته السلفية .  
وإذا كان الحق قد قال لنا في هذه الآية .

﴿ نُلَاقِ حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّمَى بِبَرِّ الْحَقِّ وَأَنْ  
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَا يُشْرِكُ بِهِ سُلْطَانًا رَأَى تَقْوُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، في إطار إيجازي ومع المستقبل  
أيضاً ، بقول الحق :

﴿ إِنْ أَلَّهَ يَأْمُرُ بِالنَّعْدِ وَالْإِحْسَانِ وَإِشْأَى دَى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْمَحْشَاءِ  
وَالْمَكْرِ وَالنَّمَى ﴾

(سورة الأعراف ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالمحشاء في هذه الآية ليؤكد صهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم  
المكر والنمى ، وزاد في الآية التي نحن بصدد خوارطها عنها الإثم فقط . وكان  
الإثم في آية الأمر بالعدل والإحسان والنهى عن المحشاء والمكر والنمى ، مطمور  
في « المنكر » ، والمكر ليس محرماً بشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع  
السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه مكر إذا كانت المعاصى تعود  
عليه بالضرورة ، هذا يقول : أعوذ بالله منها . وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد  
أنها غير مكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيع لنفسه أن يفتح أعينه على  
عورات الناس ويتلفذ بهذه المسألة لكنه ساحة يرى إنساناً آخر يفتح عينه على  
عورته أو على ابنته مثلاً إنه يرى في ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن نجعل  
للمنكر حذاً يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذي تكلف به أنت وحدك ،  
ولننظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حديد بصرى من  
أن يتمنع بجسم يسير أمامى ، إنه - سبحانه - كما حرم بظرك إلى ذلك ، حرم أنصار  
الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفي هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيبات والزينة ، وحرم المواحش والمنكر والبلى والإثم يقول سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ  
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾

نحن هنا أمام نص قرآني تشته قضايا الوجود الواقعي : فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم في طيعاتهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجري الحق هذا الانتقام من الطمعة لصيانة سلامة المحتج . بل رأيت مصاداً أو طمعياً إياك أن تياس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلاً ، بداية ونهاية ، هي أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاعية يجب أن يتسل هذه الآية :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عصاة تجعلهم يصرحون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه . والآلم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعي ، وعلى ذلك فالمسائل التي تحدث في الكون وهذه الأسم التي تظلم . وتضطهد . ولها حبروت وطمعان إنما تعمل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تياس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جانب الله فتد به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحدة الإيمان بالله ؛ فصرخوا إلى بيته حجاجاً وإلى مساجده عمارة وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وبسطر إلى هذه الأمور ويقول : إن الطاغية انعجز مهما فعل فلاند أن يسخره الله لحكمة ديه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأحس عليهم كان سلط عليهم ظالماً لما هموا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن في واقع حياتنا يعرف كل ما أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يعلى ولا يصوم ولا يذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلبجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائداً به ملجئاً إليه ، ولذلك نقول للصلام : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لدمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبية ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتي به ظغياك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعتته أنت ، إن لكل أمة أملاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

واضطر إلى التاريخ نجد بعض الدول أخذت في عنفوانها وشدها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن نحل بها الحية وتأتي السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل . إن الحق يعنى بصائرهم في تصرف ، يظنون أنه يصنع لهم التوفيق فلذا به يجعل الضعيف يغيبهم وسيطر عليهم وإدعاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيرها ؛ لأن التوقيت في يد قديم الكون ، وهم أيها لا يستقدمون هذا الأجل ، ويلاحظ هنا وجود كلمة «ساعة» ، والساعة لها اصطلاح عصرى الآن من حيث إنها معيار رمى لضبط المواقيت ، ويعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكثر من الساعة هو اليوم ومن يدري فقد يخترع الشر آلات لضبط الجرم من الثانية

وكذلك تعلق الساعة على نيام الصيامة .

ويقول الحق بعد ذلك

يٰٓبَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ  
عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾

ها يهادي الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أن أهل لهم الطيبات والبرية وحرم



عليهم المسائل الخمسة من افحشة والمكر وابغى والإثم والشرك، ووضع لهم نغماً يضمن سلامة المجتمع، وطمأنهم بأنه منتقم من أى أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً، فعليكم يا بنى آدم أن تأخذوا أمور حياتكم فى إطار هذه المقدمات .

﴿ يٰٓأَيُّهَا آدَمُ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَفْضَحُ عَلَيْكُمْ سِرَّهُمْ ﴾ [سورة الاحزاب]

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال المهرج المشرف المتطعم إلى ما يحبه وإلى ما يكرهه، لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملازمها، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً .

كان المظنون أن ساعة يأتى الرسول نجد المجتمع يحرض على ملازمته وصلى تلقى البلاغ منه، لا أن يظل لرسول يدعو بالدين يسما المجتمع يتأبى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبى المجتمع ويلجج الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كى يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدى إلى الصراط المستقيم، وأنت إذا ما أصبت فى عاقبة تلج على الطيب وتبحث عنه، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول سلماً مهيج الله فى إدارة حركة الحياة أن تشوق إليه وتنطلق، لا أن نماديه، وعادة ما يسعد بالرسول أهل المفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : أنه رسول ومعه آية صدقه . ويقبض أهل المفطرة السليمة قول الرسول بما فيه معهم، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة]

فلم يأت لكم إنسان لاتعرفونه بسل لكم معه تاريخ واضح وجلى، لندنت نجد الدين أموا برسول الله أول الأمر لم يتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن، لكنهم آمنوا به بسوايق معرفتهم له، لأنهم عيشوه، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثل ذلك . عندما أحبر محمد ﷺ سيدتنا حديجة . رضوان الله عليها . ببأ

رسالتك وأسرها بخوفه من أن يكون ما يراد إليه هو من أمور الحزن أو مسها ،  
أسرعت إلى ورقة من يوفى ، لأنه هذه علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق  
وتكسب المعدوم »

وكل هذه المقدمات تدل على أنك - يا رسول الله - هي حفظ الله ووعيته ، لأنك  
كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنبأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقون أن  
من يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟! وكذبت مجد مبدا أب بكر الصديق  
بمجرد ما أن قال رسول الله : أن رسولاً ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شيء ، إنما يدل على صدق المطرود ، وهذه هي فائدة ﴿ رسول  
من أنفسكم ﴾ أو من جسمكم البشري حتى يجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لما  
رسول من الملائكة وقال لما : هذا هو المصحح ولكم أسوة بي ، كما سترد عليه الرد  
المقع لسهل السير . وهل يقدر أن يعص مشك وأن ملك مطرود على أخير ؟ .  
لكن حين يأتي رسول من جسدنا البشري ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ،  
وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموحدة ، وبذلك كان من عباء الكافرين أن  
قالوا ما جاء به القرآن على الستم .

﴿ وَمَا مَعَ آتَانِ أَنْ يُؤْمِرُوا إِذْ حُلَّتْ لَهُمْ أَهْدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه العباء وقصر النظر والمضب ، لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل  
كانوا يريدون ملكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طابع  
البشر ؟ . ولذلك يرد الحق لرد المظني .

﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُوتُنَا مَطْمَئِنِّينَ نَتْلُوَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا

رَسُولًا ۖ ﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى تتحقق بنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يفتحكم وحوذكم التكليف ، ولم يدخلكم في أمر يشتد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه ولم يأت به من جس آخر

﴿ يٰٓيٰٓنَبِيَّ ۚ اٰدَمَ ۙ اِمَّا يٰٓتِيْكُمْ رُّسُلٌ مِّمَّكَ يَفْضُوْنَ عَلَيْكَ اٰيٰتِيْ ﴾

( من الآية ٣٥ سورة الاعراف )

وانظر قوله : ﴿ يَفْضُوْنَ عَلَيْكَ اٰيٰتِيْ ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يَفْضُوْنَ » لأن الفصص مأخوذة من مادة « انفا » و « الصاد المصعقة » ؛ وهذا مأخوذ من « قص الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرق جماله أو اعتامه يسير ليرى أثر الأقدام إذن ﴿ يَفْضُوْنَ عَلَيْكَ اٰيٰتِيْ ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا يحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثر فى الأثر

﴿ فَمِنْ اٰتٰى وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴾

( من الآية ٣٥ سورة الاعراف )

و « اتقوا » هو أن تجعل بينك وبين شيء يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بعمل لصالح لهيب النار . وإذا قيل ﴿ اتقوا الله ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الحبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بعمل الأوامر وتلتزموا أيضا بشرك الوهى . والأمر بالثقوى هنا يعنى ألا تنكر ونحصد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإيقاد البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمسح الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فَمِنْ اٰتٰى وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴾

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئا غير صالح نجعله صالحا ، أو حافظ على صلاح الصالح ورفق صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود شر نشرب منه ، فإن كانت الشر تؤذى مهمتها لا نردمها ، ولا تلقى فيها قاذورات ، وبذلك يبقى الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نريد من صلاح الشر بأن نبني حول مخرجها سورا ، أو أن نقرح بتركيب مضخة تنصن الماء من الشر لصحة إلى لبوت . وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآفة في الدين هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ عَمَلًا ۚ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُبْتَلَوْنَ مِنْهُ ۖ شَتَّىٰ مَقَرًّا ۖ وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين يقدم على عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماد استطاعته تلك المقدمات ، وماد سوف تجده منه ، وألق الصالح في الكون على صلاحه أو رده إصلاحاً ، وهنا لا حرف عندك ولن تحرب على شيء فانتك لتحقق قول الحق

﴿ يَكْفُرْ أَتَسْتَأْذِنُ ۚ فَمَا تُفَرِّقُ ۚ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْبَحْرِ ۚ فَكُفُّوا عَنْهُ ۚ سَاءَ الَّذِي يَفْعَلُونَ ۚ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقدس بس لا حوب عليهم ولا هم يحربون ، أي هؤلاء الذين أصبحوا واتفقوا ؟ لمقابل هو ما يأتي في قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ ﴾

ولمادا يكون مصير المكذبين بالآيات و المستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكوبوا فيها خالدين ؟ لأنهم لم تيسرت لهم أسباب الحياة لم يصنعوا في حسابهم أن يكون لهم نصيب في الآخرة وهم يلتمسوا إلى المعية ، وعاب عنهم لإيمان بقول الحق :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ لَعَلَّ فِي هَرَبِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ ۚ ﴾

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة النور)

وهب أن اتردد منهم قد أخذ ما أخذ في الدنيا ، فلماذا سئ أنها موقوفة العمر ؟ ولماذا لم يمتد إلى الرمن في الآخرة ؟ عليك أن تعلم أنك في هذه الدنيا ، خليفة في الأرض ، ومما حميت أباها حسن واحد ومحفوظ فيها والسيادة لى على لأجاس ملايد أن تكون لنا عاية متحدة ؛ لأن كل شيء يختلف فيه لا يعتبر عاية ، فلغاية الآخرة هي لقاء الله ؛ لأن الهية العساوية في الكون هي الموت يسلمت لحياة ثانية ، ولدى يستكر عن آيات الله هو من دخل في صفة حاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن رمن الإنسان في الدنيا قليل وزمن لأخرة لا نهاية له وعمر الإنسان في الدنيا مطوون عبر متيقن ، والنعمة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متقنه ، وبهم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْرِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

( من آية ٣٦ سورة الأعراف )

وأصحاب النار يعنى أن يصاحب ويلزم المذب النار كما يصاحب ويلزم الإنسان ما صاحبه ؛ لأن النار على ألف بالعاصين ، وهى التى تتساءل هل من مرید ؟

ويكون الحق بعد ذلك

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ  
أُولَئِكَ يَنَازِعُ فِيهِمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ حَتَّىٰ دَاجَاَهُمْ  
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْهُمْ تَدْعُونَنَا مِن دُونِ

## اَللّٰهُمَّ قُلُوْا ضَلُّوْا عَنَّا وَشَهِدُوْا عَلٰى اَنفُسِهِمْ اَنَّهُمْ كَانُوْا كَافِرِيْنَ ﴿٣٧﴾

﴿ من اظلم ﴾ تأتي على صيغة السؤال الذي لي تكون دجائه إلا الإقرار ولا أحد اظلم ممن افترى على الله الكذب ، لأنه أولاً ظلم نفسه ، وطمع أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة رائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فإنه سياحت أوزار ما يفعلون ، لأنه قد افترى على الله كذباً ﴿ وكذب بآياته ﴾

أي قور الله ما لم يقله ، أو كذب ما فاته الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للاحر والآية - كما معلوم - هي الأمر للعجيب ، والآيات أظنعت في نقرآن على معاني متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كُنْتَ فُضِّلْتَ ءَايَتُهُ ﴾

( من الآية ٣ سورة فصلت )

وكذلك أظنعت على المعجرات التي يرسلها الله تأييداً لرسوله

﴿ وَمَا مَعَهُ أَنْ يُرْسِلَ بِأَيِّ آيَةٍ يُنَزِّلُ ۚ لَا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

( من الآية ٥٩ سورة الإسراء )

فالآيات ما هي المعجرات أي الأمور العجيبة

وحدث القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أُنْزُلُ السَّحَابَ وَأَنۢنِجُ السَّيۜفَ وَأَنۢنِجُ السَّيۜفَ وَأَنۢنِجُ السَّيۜفَ وَأَنۢنِجُ السَّيۜفَ ﴾

( من الآية ٣٧ سورة فصلت )

فالآية إذن هي الشيء العجيب وهي تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استبعادها إلى حقائق الوجود وإلى استغنائها لقضايا الكون

كله تقوى لنفسك . هذا شيء عجيب ؛ لأن الذي جاءت على لسانه هذه الآيات نبي أمي ، ما عرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً أوله رياضة في كلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ للأمم حتى يستبطن القوانين التي أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهب بمهجتها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجيء الرسالة مع سيد رسول الله ﷺ يتخلص في نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته ﷺ جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم يجمع في إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وحجبة .

وكذلك الآيات الكونية التي نحتها تميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل في فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب

إذن فالعجائب في الآيات هي آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ ألا ينظرون إلى الكون وما فيه من دقة صنع وهندسة ما تكويى لا تضارب فيه ؟ وهي آيات تنطق بدقة الخلق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون ' إنه ساحر ، وحين تنجلي عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا في آيات الكون ليستبطلوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يفتنوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التي جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وأحرقوا وسموا آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المصيبة ، تساءل كيف تقولون . إنه سحر الناس فمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنت ؟ . وحينما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١٠٣)

قال الحق :

﴿.. لِسَانُ الَّذِي يُلْحِقُونَ إِلَهَهُ أُعْجِمِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿٦٣﴾﴾

[سورة النحل]

وقالوا :

﴿وَقَالُوا أَأُطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبُ فِيْهَا نَعْمَى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٥٥﴾﴾

[سورة الفرقان]

فيعلم الحق رساله أن يقول :

﴿.. فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

[سورة يونس]

وهن يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل هرب عنه أنه يقول أو يتكلم بشيء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ أنهم خلق الله ، والله استعدها لهم إلى الوجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب لكون أن تكون خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هي في خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب قلن يأخذوا نتائجها ، ومن هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه حق فلا بد أن يورق ، والنواميس الكونية تخدم الصانع وتخدم العاصي ، لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لثة الله تبغيلاً .

إذن فكفرهم لن يجمع عنهم نصيبهم من الكتاب الذي قدر لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطور في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿أَوَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كُتِبَ . ﴿٣٧﴾﴾

[سورة الأعراف]



أو يذنبهم ، أي يصيبهم عذاب مما هو مبين في الكتاب الذي أرسله ليوضح أن الطائع له الثواب ، ونعاصي له العقاب ، فيقول الحق هنا

﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَأَلْتَهُمْ مَنْ رَبُّكَ قَالُوا لَا نَعْلَمُ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلُوا لَهُمْ صُورُهُمْ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة سمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنهى ، وتنعص الروح عن الحسد فهذا هو « لتوبى » ، مرة يسبب لي الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة يسب إلى الملت ، ومرة يراد منه أناع اسمك أي حموه بقول - سبحانه - ﴿ حتى يد جاء أحدهم الموت فوعته رسله وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة متبعة ، لأن ملث لموت لم يأت بالموت من عبده ، بل بعد التلقى من فقه ، فالأمر لأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التبعيد للرسول

و « لتوفى » على إصلاقه هو سيفه لأجل قدر كذب أجل الحياة فهو توفيه بالموت ، وإن كان لأجل الروح وهو حدة لنس بين القبر والحساب ، أي ن يحس مياد دحوهم النار فهذا هو توفى أحدهم شئى ، لأن كل إنسان به أحلال أحل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البروح إنى أن يحس الحساب وهذا لا يمنع أن يقال ، إن قيامة كل إنسان تأنى معونه ، لأن لقيامة من حل مداه من القمر وبهاية بالحلود فى الجنة أو فى النار

وحين تسألهم الملائكة

﴿ تَنْ . كَسَمْتُمْ دَعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلُوا صُورُهُمْ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعرفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد عاصوا واحتسوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم - إدى - يقرون عياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن في دار قهر لكل ما يريد الله ، ففي دار التكليف كان الإنسان حراً أن يفعل أو ألا يفعل ، ولكن في الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الحزاء الذي يهيبهم ، ولي يتأبوا على الجزء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ  
الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَحْنَتْ أَصْحَابُهَا  
حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ  
لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا  
مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿كن﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذي يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقي كله في الحزاء .

إن الاقتداء بالأمم التي سبقت هو الذي قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التي سبقت كانت أسوة في الضلال للأمة التي لحقت ، فإذا ما دخلوا بهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لحرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يعمره بالجحرم . ومن كان يري له . ومن اقتضى به . بالله ساعة يلتقيان في السجن  
ألا يلعن الأول الثاني ؟

﴿ كُنْما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أذكروا فيها جميعاً قالت أخرجهم  
لأولئهم ربنا هنؤلاء أصلونا فأتهم عذاباً صعباً من النار قال لئلا يصعب وتسكن لأ  
تعلمون ﴾ (٢٨)

[سورة الأعراف]

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :  
﴿ قالت أخرجهم لأولئهم ربنا هنؤلاء أصلونا فأتهم عذاباً صعباً من النار .. ﴾ (٢٨)  
[سورة الأعراف]

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القليلة فى  
الصلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قالت أخرجهم لأولئهم ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة  
الذين أصلوا ، والطائفة الأخرى هم الاتباع الذين قبلوا . ﴿ قالت أخرجهم لأولئهم ربنا  
هنؤلاء أصلونا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا . ﴿ ربنا هنؤلاء أصلونا ﴾

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخرجهم لأولئهم أنتم  
أصلتمون لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أصلوا غيرهم أهون من أن يخاصبوا ؛  
لأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هنؤلاء أصلونا ﴾  
فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكان القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة  
لإضلالهم وهم يقولون ربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الصعف من النار مصداقاً لقوله  
الحق :

﴿ فسأتهم عذاباً صعباً من النار .. ﴾ (٢٨)

[سورة الأعراف]

فقال الله لهم جميعاً . ﴿ لئلا يصعب وتسكن لا تعلمون .. ﴾ (٢٩) .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما فعلت وأهملت . ومعهم أن الضعف معناه  
«شئ مساوٍ لثله» ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتكم سواكم بالأسوة أيضاً ؛  
لأنكم كثرتهم عددهم وقويتهم شوكتهم وأغريتكم الناس بأنواعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتهم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من  
يحاسبكم دقيق في الحساب ، ويعطي كل إنسان حقه تماماً .

وماذا نقول أولاهم لأخوهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَهُمْ لَئِنْهُمْ لَأَجْرُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا  
مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (٣٦)

أي مادمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلاً فقد تساوت الرءوس «وذوقوا العذاب  
بما كنتم تكسبون» كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له :  
اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك نجياً من الله ، ولا بسلطة المهر لعاده ، ولكن  
بعذالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كنتم

ومعلوم أن التذوق في الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ لا ، إن الحق قد جعل  
كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، والحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل  
عصو في الجسم حساسية الذوق كالتي في اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُزِبَ اللَّهُ مَثَلًا قُرْيَةً كَانَتْ أُمَّةً مُطْمَئِنَّةً بِأَتْيِهَا رِزْقُهَا رِعْدًا مِّنْ كَثِيرٍ مَّكَانٍ فُكِّحَتْ  
بِأَنعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْتَعُونَ ﴾ (١٦٦) [سورة النحل]

وهذه هي الإداقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل اجسد كله ، والإداقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد . (علو قوا العذاب بما كنتم تكسبون) .

وسم بقل الحق : بما كنتم تكسبون ، لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبعي في النكوتين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنع ، وهي السيئات يجاهد نفسه ، لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من شرط إيمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتصرب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبعي ، وهذا هو الخطر الذي يحقق بالمسرفين على أنفسهم ، لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْلِحُ  
هُمْ آيَاتُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْحِصَّةَ حَتَّى يُلَاحَظَ أَجْمَلُ فِي سَيْرِ  
الْحَيَاطِ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُجْرِمِينَ ٤١٣ ﴾

والحق يريد أن يعطي حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليعرف بجريمته ، وهي جريمة غير معروفة على سابقة لها ، ويعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقي حكماً وحقيقاً . (إن الذين كفروا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأي إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون ناسأاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، وهذا الإنسان يستحق العقاب الشديد فصحيح أن محمداً ﷺ لم يكن له من الجاه ولا سلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الزخرف)

إنهم يعترفون بعبودية القرآن ، لكنهم تمسوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازناتهم المادية .

ومن يكذب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له الأبواب السماء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَأَ الْجِمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الاحزاب] ويدل ذلك يعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تحمد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علم سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) .

و«سم الخياط» هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأد تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوفة وأطرافها مستوية يهى لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين تأتى بالجمل ونقول به . ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل

بعض الناس قالوا . وما علاقة الجمل سم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الخفيف المنسوج من حمال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشعاله بالحبيب وشوقه إليه وصناته به حتى يهزل ويستمد به الضعيف فيقول :

ولم أرَ ما يسى من جوى وصاية  
على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والعبادة التي يعانى منها هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجسم فلسوف  
يسحب ويحط ويهرول ، إلى أن يدخل فى سم الحياط ، وهنا يوضح ربنا أن دخل  
الجمل فى سم الحياط فسوف أدخلهم الجنة

﴿ حَتَّى يَلْعَجَ الْحَمَلُ فِي سَمِّ الْحَيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

( من الآية ٤٠ سورة الأعراف )

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أحرموا .  
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ مِمَّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝١٤﴾

لمهاد هو الفراش ، ومنه مهد اضلل ، ولعاشية هي العطاء ، أى أن فرض هذا المهاد  
وعطاء جهنم وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ ثُمَّ مِمَّنْ فَوْقَهُمْ ظُلُلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلٌ ۝١٥﴾

( من الآية ١٦ سورة الزمر )

إذن الظلل والغواشي تغطي جهنم من التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى :  
الأمم والحلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ،  
والغواشي تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم  
تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَعَدَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا حَاطًا بِهِمْ سُرَادِقًا ۝١٦﴾

( من الآية ٢٩ سورة الكهف )

وهذا يعني شمول العذاب لجميع اتجهت الظالمين  
وجهم مأخوذة من الجهرمة وهي الشيء المخوف العاس الكريه الوجه ، ثم يأتي  
بالمقابل ليشرح النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحب إلى النفس المقابل لمثل هذا  
الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَفِّ  
نَفْسًا إِلَّا رُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ﴾

وبهذا يحيرا الحق أن الدين آموا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها  
خالدون ، ويصح له الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكاف نفساً إلا رُسْعَهَا » ،  
لأنهم أن المصنفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات ثم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن  
حبس النفس عن كثير من شهواتها هو في مقدور النفس وليس فوق طاقتها ، لذلك أوضح  
لنا سبحانه أنه كف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك في حدود وسع المكف

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقدرة والمواربة بين أهل النار وأهل الجنة نجد  
الحق قد قال في أهل النار .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ  
حَتَّى يَرْجِعَ الْجَحْمُ فِي سَمِّ الْجَبَابِطِ وَكَذَلِكَ نُجَذِّبُ الْمُجْرِمِينَ﴾

(سورة الاعراف)

فهم من يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نعماً ، ولا يتوقف الأمر على  
ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فيها أمران سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه  
سبعانه حرهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إصرارهم . وبعد ذلك كان إدخالهم  
النار ، وهذا جزاء آخر ، فقال الحق .



## سورة الاحزاب

﴿٤١٣٩﴾

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الاحزاب]

فى الاولى قال :- سبحانه - (وكذلك نجزي المجرمين)

وفى الثانية قل : (وكذلك نجزي الظالمين) .

فكان الاجرام كان سبباً فى الا يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من عوقبهم غواش ، لهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة اننى تكرهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلموا به أولاً ، ومبب بشاعة جرائمهم ثانياً ؛ أن نثلهف على المقابل . فقال سبحانه .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَكُلِفُ نَفْسًا إِلَّا رُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة الاحزاب]

وقول الحق سبحانه ونعمائى : **«لا تكلف نفساً إلا وسعها»** مع بين ابتداء والخبر . ككلام اعتراضى ؛ لأن أسلوب يقتضى إبلاها أن الدين أموا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت **«لا تكلف نفساً إلا وسعها»** بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع **«والذين آمنوا»** فهذا حمل قلبى ، ونسمع بعده **«وعملوا الصالحات»** وهذا عمل الخوارج ، وبذلك أى يعمل القلب مع عمل الخوارج يتحقق من اسلوكم ما يمتق مع العقيدة والاعتقاد هو يسهل دائماً السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : **«إياكم أن تطغوا»** أى قد كنتمكم فوق طاقتكم ، لا ، فأنا لا أكلف إلا ما فى الرسع ، وإياكم أن تفهموا قرولى **«والذين آمنوا وعملوا الصالحات»** هو رغبة فى إرهاب نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأسى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها ولا تمسك . وإذا كان الصانع من أبشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ما تنطق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ معان أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نرصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحملوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق بالحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن غلق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فأحكم بأن ذلك في الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الإفلات من احكم هو محارسته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أن غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لا يشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمنع عن الرن أو أكل لربا ؛ فهذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب للصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بفعل «ولا لاتعمل» وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا إذا كان قادراً على أن يؤدي مطلوبات الشرع ، لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، لذلك أوصح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تقولوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذي يضع في موضع الشطط فقال :

﴿ وَمَنْ قَدَرِ عَلَيْهِ رِزْقَهُ .. (٧) ﴾

[سورة الطلاق]

اقدر على رقه، أى صبق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ نَفِثْنِي مِمَّا ءَاتَىٰ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآءُئْتَهَا .. (٧) ﴾ [سورة الطلاق]

إذن لا تفرح وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إحصاء ورداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش في حبر وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروحك يساوى دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما أتاك .

ولنتطرق لى ما أتانا الله ، لذلك لا تدخل في حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق

ولا تنهب ولا تختلس ولا تترش ثم نقول : هذا ما أتاني الله ، لا ، عليك إلا تأخذ ولا تسمع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت في نطاق ما أحل الله بعينك الله على كل أمرك وكل حساباتك ، لأنك تحيا بسبح الله ، فبصرف عنك الحق مهمات الحياة التي تتطلب أن تزيد على ما أتاك الله ، فلا تحظر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك - على سبيل المثال - وأنت تدخل السوق وأتاك الله قسراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا في حدود ما في طاعتك ، وكذلك يحسن لك الله ما في طاعتك ويعد عنك ما غرق طاعتك ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما أتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا في حدود ذلك ولديك قلل الحق :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَكْفِي نُفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا أَوْسَعُكُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤١)

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يصدقونها مثلما يحب صاحب صاحب : فالجنة تتطلبهم ، وهم يطلبون الجنة ، والحياة فيها بحلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن به خلود ، وأنت في الدنيا تخاف أن تموت وتغتر لعمرة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أعيار ، وفي ذلك لمت لقضايا الله في كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والنفى قد صار فقيراً ، فلا شيء لذاتية الإنسان وبهد يعطيك الله مبرن الناس فيأتي إلى الحالة الاقتصادية ويزعها على الحق ، وبعد الذي لا يتأني على قدر الله من رزقه وفي حمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفي الجنة يحلى الله أهلها من الأعيار . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَرَعَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَنَا اللَّهُ لَفَدَّ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

## وَنُودُوا أَنْ يَتَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله الحق : ونزعنا ما في صدورهم من غل ، ينطبق - أيضاً - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم في الدنيا ، واحتنعوا ، هؤلاء يمشون يوم القيامة وليس في صدر احدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام عتيباً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول : اللهم اجعلني أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء ، لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف في مسألة ايجلاعه ، وكل منهم صحابي ومشير بالجنة ، فإن كانت العروس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأعيار سوف تصحبكم في دار الجزاء في الآخرة ؛ لأن الله يقول : ( وبرها ما في صدورهم من غل ) .

إن الخلاف كان حلقاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك في أغيار الدنيا شيء من عمل القلب ، وأوضح سبحانه : إياكم أن تمهسوا أن ذلك سرف يستمر معهم في الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما احتلعوا كانوا يعيشون بلجتهادات الله ، وفي الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله في لزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، لو لأن والدها له جاء أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه ولدها الغنى شيئاً من ماله يقول : عشتى وزوجى ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقي فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهاها ، ونقول لمثل هذا الرجل : ملامت لم تأخذها بمقاييس الله فعيك أن تنال جراء الاختيار

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبيحاً ، فلن يصحبه هذا القبح في الآخرة ، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها في الأساء أو في البسات ، بل في الروح والروجة لأنهما عماد الأسرة . ليس للرجل : إياك أن تتحمل أن المرأة التي غاظتكَ أو أتعبتكَ أو كدرت عليك بحصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الحصلة السيئة متصاحبا في الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

## ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التي كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

## ﴿وَتَزَحَّوْنَ مَا فِي سُودِهِمْ مِنْ غُلٍّ يَحْجَرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجري تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجري من تحتهم الأنهار » ، ونجد « من » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر في قصر ونجد الماء ساباً حوله وتحت يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء في الدنيا مسر به أضعاف ذلك في الآخرة . وقد تجري المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويعلمن للحق عباده الصالحين : ستجري من تحت حناياكم الأنهار وكل المياه ستكون دانيتهما من مولى كل مكنون أنت فيه ولن يتحكم بك أحد ، ولن يمس أحد عنك ميع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ، لأن كل شيء ممسوك لا بالأسباب كما في الدنيا ، ولكن بـ « كن » التي هي الله . ولذلك يقول العباد في جنة الآخرة :

## ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم وذلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هي عبادة يقولها المؤمنون في الآخرة ، لأنهم أدوا حق الله في تكاليفه في الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون في الآخرة . ونعيم الآخرة لا يبد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما في الجنة ، لأن الشيء يتحقق لك من فور أن يحطر ببالك ( وقالوا الحمد لله ) .

وهذا الحمد لله كان في الدنيا عبادة تكليف ، أما في الآخرة فهو عبادة خبطة وسرور وقلند ( وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ) .

يقولها المؤمن ، لأن الله لو لم ينزل منهاجاً سماوياً يحدد به حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصي لما وصل إلى الجنة . والهداية - كما قلنا - هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تصعب الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معرجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوبلن تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوصيها لهم خلقهم بمنهج الممرل على رسوله .

وملأمت الهداية من الله فسبحانه لن يحاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه يتوزر الرسل بشون صليآ آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتي الحق في الآية نفسها بقوله المكيم :

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رِسَالًا حَقِّقَةً وَوُودُوا أَنْ تَتْلُوَ آيَاتِ اللَّهِ أَوْ يَرْشِدُوهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

( من الآية ٤٣ سورة الأعراف )

أنت في الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأن أنصحك أن تمش إلى المكان العلاني وتذهب إليه عن الطريق الغلابى ، وتستجلك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدفته وعلقت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالآيات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : ( لقد جاءت رسل ربنا بالحق ) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم . ( وودوا أن تذكروهم الجنة ) .

وكان الحق يوصح لنا ونحن في دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من مهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا - جراحهم الله خيراً - وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَوُودُوا أَنْ تَتْلُوَ آيَاتِ اللَّهِ أَوْ يَرْشِدُوهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

( من الآية ٤٣ سورة الأعراف )

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا هَمَّةُ الْجَنَّةِ

قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ تَفَضُّلاً وَرَحْمَةً<sup>(١)</sup> .

وأقول: ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق عليه السلام الذي بلغ عن الله سبحانه، بل بينهما تأكيد؛ فالحق صراحة ما شرع أو ضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه، بل هو الذي يعطيه لنا فضلاً منه؛ فليس لأحد حق على الله؛ لأنه لا يوجد عمن يعود بفائدة على الله، واتساع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالمفضل من الله. وينتهي القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثي ونص قرآني. يقول:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

[سورة يونس]

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنه يأخذ مكافأته على فعله، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء العمل فهي من الفضل؛ لأن الحق هو القائل:

﴿... كُلُّ شَيْءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١)

[سورة الطور]

وسبحانه أيضاً هو القائل:

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٥)

[سورة النجم]

إن فهمت اللمة وكنت صاحب ملكة شاهدة تقول: هذه «اللام» للملك. ونفيد أنه لاحق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله، وأن هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل.

(١) رواه البخاري في الرقاق والدرهمي ومسلم في صفات المنافقين والترمذي في الجهاد وأبو داود في الجهاد، والنسائي في الجهاد، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده ١٢٥ / ٦

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا... ﴾ (٥٨) [سورة يونس]

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يجاوز عن سيئاته . فهو تضييف هذه الصلاة إلى الميت شيئاً زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن صلاة تضييف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهي صلاة على ميت مسلم ، وأسلامه من عمه ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ... ﴾ (٢١) [سورة الطور]

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، قوله تعالى :

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ... ﴾ (٢١) [سورة الطور]

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكن قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان لأباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناءه جاره يبيسون الملابس الماخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويمشيون عيش الكفاف مع هذا لأب ملتزم بالعمل الصالح والأحر الحلال ، وبما الآباء الحنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وريادة .

﴿ .. وَتَوَدُّوا أَنْ قَلْبُكُمْ لُجَّةٌ أَوْ دُشْمٌ هِيَ بَيْنَكُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٣) [سورة الاعراف]

وهذه الآية من «الإرث» وتدل على أن هناك شيئاً آلى إلى الغير ونعلم أن الله ، علم ألا كيف سيسلث كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكن واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل



واحد من خلقه مكاناً في النار على أساس أنه مكفر  
إذن فقد أعد سبحانه جناً بعدد خلقه ، وأعد أماكن في السموات بعددهم ، فليست  
هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن أما كلما فلن يهيق بها واسع الجنة ، و... والعباد  
بالله - إن كثر الخلق جميعاً على تضييق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون  
الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق يفصل مه يمتحنها المؤمنين .  
إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام في الجنة والنار وفي حمد اللذذ والسرور والقطعة وفي عهد الجنة ،  
بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل  
النار ؟ فيقول سبحانه .

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا  
مَا وَعَدَنَّاكُمْ حَقًّا فَمَهْلُ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا  
نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ أَتَوْا اللَّهَ عَلَىٰ أَظْلُمِ الْأَعْيُنِ ﴿٤١﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لك الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا الترائي  
من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن يسبح الله من عذاب  
وقهره وآذاه وهو في النار فهذا من تمام اللذة والأحر حين يرى مخالفه في الجنة فهذا  
أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادي أصحاب  
الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وإن الحق قد  
رهبهم هذه الجنة فهل - يا أهل النار - وجدتم ما وعدهم ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المصطفى واحد ، فأهل الجنة  
يقولون . « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يكف بالكاف في كلمة ما وعد ( الثانية )  
بل قال . « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : ( ما وعدنا ) لأن المراد أن يلتزم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله فأهل الجنة يلبسونهم وأعمالهم في الجنة فضلا من الله ، وأهل النار في النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله وهذا يجيب أهل النار : ( قالوا نعم )

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدي الذي عاشوه واقعاً بعد أن كان وعياً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين في غير مشهود ، وهم في الدنيا قيل أن يوجد المشهود كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم في النار .

﴿ مَا ذَنْبُهُمْ أَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

( من الآية ٤٤ سورة الاعراف )

أي فليأذى من الملائكة يُسمع أهل الجنة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسْعَوْنَهَا إِعْوَجَاءً وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ٤٥ ﴾

والذي يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أي صل في ذاته ثم أصل غيره . وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويلتموه ولا يؤمنون به فيترصون على إقامة الحدود والمصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ ليسصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صلوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله ليهتفروا الناس عما شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كالفرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن به مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك .

﴿ وَيَبْنِيهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا  
بِئْسِمَنَّهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ  
لَمَّا رَأَوْهُمُ كَانُوا هُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يترامون من خلاله ، وبينه  
الحق سبحانه فقال .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُسْمِعُونَ وَالْمُسْمِعَتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ  
ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَصُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِإِذْنِهِ فَرِحَ الرَّحْمَةُ  
وَعَلَّيْهِمْ مِنْ قَبْلِهَا الْعَذَابُ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النار  
العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ، لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل  
النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم  
في أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتسمون الهدى في غير موطن الهدى ،  
فمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرعب في نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله في  
الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق مخلوق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به  
وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس في مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من  
نور أهل الجنة فالعطاء حيث الله .

﴿ وَيَبْنِيهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِئْسِمَنَّهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

ودكلاً المصير بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقسم عندنا فرقتان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ،  
والأعراف جمع «عُرف» مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك  
عرف النرس . كأن بين الجنة مكاناً مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب  
النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم فكان من ضمن السمات  
والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلاً لاستقبال  
سمات الإيمان ، وكلما دخل في منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية  
تصير أصيلة فيه تلامحه ولا تمارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم  
سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشاعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى  
مزية - أصحاب الأعراف - يقول بالأعلى - أصحاب الجنة - سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم في ميزان العدل لإلهي  
الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٥٠﴾ نَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٥١﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٥٢﴾ فَأَمَّا هَٰؤُلَاءِ ﴿٥٣﴾ ﴾  
[سورة الفدرعا]

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت للموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين  
اثنين فريق ثقلت موازينه ، وفريقاً خفت موازينه ، ومتنبهى للطن في القياس  
الموازيني أن يوجد فريق ثالث هم الذين الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم  
تتقن موازينهم فدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فدخلوا النار ، وهؤلاء هم من  
تعرض أعمالهم هي « الجنة الرحمة » فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم  
حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوا ،  
لكنهم يطعمون في أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿.. وَتَنَادُوا أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[سورة الأعراف]

وبطبيعة الحال ليس في هذا مكان فحش ولا حداد.

وماذا حين يظفرون إلى أهل النار ؟

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا

لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

انظر إلى التعبير القرآني « صرفت أبصارهم » أي لم يصفروا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن يظفروا لهم لأنهم ملعونون ، وكان في «صرفت أبصارهم» نونا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاه » أي جهة أصحاب النار يقولون : (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف يارب جنبنا أن نكون معهم (إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعبدون به ألا يدعهم معهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَا لَا يَمُرُّونَهُمْ مُسِيِّمَةً

قَالُوا مَا لَاقَيْنَا بَعْضُكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ فَتَسْتَكْبِرُونَ

وكان أصحاب الأعراف قد صرعت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعدنين ، فهذا أبو جهن ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيدتهم على غيرهم تعطيههم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسحرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وحباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

وكانهم يقولون لهم : إن اجتماعكم على الصلابة في الدنيا لم ينفعكم بشيء . شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟ لا . لم ينغن عنكم شيئاً . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبْأَلُهُمْ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ ﴾

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (١٩)

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وحباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبي جهن والوليد بن المعيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن يبالوا رحمة الله ؟ هم إذن أهل الأعراف قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكانهم نسوا حالهم أن يقفوا في انتظار القرب وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشعروا حالهم أن يقفوا موقف العصل في هذه المسألة ، وهنا يدخل الحق سبحانه أصحاب الأعراف جنته بمرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (١٩) [سورة الأعراف]

وهؤلاء - كما قلنا - هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، هي الطائفة التي جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، لم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْصَحُوا  
عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ  
اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغشين طالبين أن يعطوهم ويمسحوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم في الجنة ، فيقول أهل الجنة نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لك الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أي شيء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، هي ما أحاطت بهم مرادفها وإن يستميتوا يفتأو بماء كالمليل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ  
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ  
يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية من هم الكافرون الذين حرم عنهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة يمر على الإنسان هي اللعب ثم تأتي له مرحلة اللهو . ويعلم أن كل فعل توجه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن توجه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا المعنى على المعنى كى يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ، إما أن يجلب له نعماً ، وإما أن يدفع عنه ضرراً . ولكن مقصد لا يجلب نعماً ولا يدفع ضرراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به مقصداً صحيحاً لدفع ضرر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بالعبه ، فالطفل ساعه يمسك بالملعع النعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح لوجه طاقته له ؟ لا ، لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لعبه . والطفل عالياً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مصرة . ولكن حين تُوجه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئاً وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذي يعاقب به الله هو اللهو أما اللعب فلا

ولذلك نجد النبي ﷺ يذهب من الأهل أن يدرّبوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرمية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر في زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجدل ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقب ؛ لأن المحكم يرقب المباراة ، وإدراكه ما تسمى المحكم أمر أو أخطأ صاح الجهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجدل إلى اللعب ، فلماذا تركتم لجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة الرد وهي الطاولة ويترك الشغل الذي يتح له الرزق ، ويبت هذا اللهو مقصور على اللاهي ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهي ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذي كان يجب أن يستغل في طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إما يأتي من أن بعض من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على دواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن فاللهو طاقة معطلة ( اتحدوا دينهم لهواً ولعباً وغرثهم الحياة الدنيا )

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتي من الأسباب التي خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرثهم الحياة الدنيا نسوا الجدل الذي يوصيهم إلى العداة النافعة الحالية ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ فَأَلْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نُسُوا نِعْمَةَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِفَاعِلِينَ يَجْعَلُونَ ﴾

( من الآية ٥١ سورة الأعراف )

فهو يعني قوله عز وجل : « نساهم » أنه يتركهم لما يصنعون ؟ لا ، بل تأخذهم



## سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤١٥٥ ﴾

جهنم اتشويهم ، وسيانهم هنا هو أنه - سبحانه - لا يشملهم بظواهر فضله ولطفه ورحمته  
ويتركهم للنار تلمح وجوههم وتنضج جنودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هي المكان الذي يعد فيه الإنسان مكانه في الآخرة ،  
فإن أراد مكاناً من عيسى فعليه أن يزدى لتكليف الذي يعطيه مكانه من عيسى . وإذا أراد  
مكانه أقل من ذلك فعليه أن يزدى العمل الأقل . كان الإنسان بعمله هو الذي يحدد مكانه  
في الآخرة ؛ لأن الحق لا يجزى لمخلق استبداداً بهم واختياراً أو ظملاً ، ولكنه يجزى  
الإنسان حسب العمل ؛ لذلك هناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك  
أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذي يُتره لنا الحق قرناً ينلونا ويشرنا هو دليل لكل  
مسلم حتى تتنافس على أن تكون موافعنا في الآخرة موافع مشرفة .

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حُكُومًا وَلِغَايَةِ حَرِّهِمْ أَجَلٌ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ فَتَبْلُغُ أَرْضُ كَوْثَرٍ وَسِعْتِ السَّجْدُوتُ وَالنَّجْمُ الْمُبِينُ ﴾

(سورة الأعراف)

وحين يقول الحق سبحانه . « وما كانوا بآياتنا يجمعدون » فالآيات إما آيات كونية .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه :

﴿ كَتَبَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾

(من الآية ٢ سورة فصلت)

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه .

﴿ وَمَا مَنَعَهُ أَنْ يُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

هم إذن جمعوا الآيات كلها ، وكان أول جمود هو جمود بالآيات الكونية التي

شاهدوها قبل أن يأتي التكليف، فهم عاشوا الليل والنهار، وتعمسوا الهواء، واستمتعوا بدفء الشمس، وروى المطر أراصبهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطى الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة، وكان يجب أن تلمتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الخلق الأعلى، وحين جاء بهم المركب الرسالي جحدوا آيات المعجزات التي تدل على صدق الرسل، وحين جاء القرآن معجراً جحدوا الآيات التمهيلية التي تحمل المنهج إذن علا عذر لهم في شيء من ذلك لأن الحق يقول:

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ هُدًى  
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أى لا عذر لهم في شيء من هذا الجحود؛ لأن الكتاب مفصل، وقد يقولون، إن الكتاب طارىء علينا، وكذلك الرسل لدى جاء به إذن فما موقعهم من الآيات الكونية الثابتة؟ لقد جحدوها أيضاً، (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم).

وقد فصلناه أى أنه سبحانه لم ينزل كلاماً مجعلاً أو سهماً، لا، بل فيه تفصيل العلم بالحكم، أنه فصل أحكامه ومعانيه ومواظبه وفصله حتى جاء فيما عيردى عوج، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان.

إنه حينما يأتي إلينا من يستمعينا في أي أمر ويحاول أن يلوى في الكلام لسأني له فتوى تبرر له ما يفعله، فمن نقول له، ليس لدينا فتوى مفصلة؛ لأن المناوي التي عندنا كلها جاهزة، ولك أن تدخل بمسألتك في أي فتوى

﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف)

وهناك أساس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واعتدوا، فلماذا اعتدى هؤلاء وحمل هؤلاء؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا في سورة البقرة:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ لَهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٧) [سورة البقرة]

إذن لقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع . وأيضاً هناك من لا يدمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا .. ﴾ (١٦) [سورة محمد]

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تمجد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ .. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَتَبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٦) [سورة محمد]

ويقول سبحانه

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آيَاتِهِمْ وَقُرْآنِهِمْ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴾ (٤٤) [سورة فصلت]

سبق أن ضربنا المثل بأن العمل في بعض الحالات واحد ، لكن القابيل للعمل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال . إذا كنت في لشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً ، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد ، فتضم قبضتيك معاً وتنمخ فيهم ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة من كل تدفئ يديك . وكذلك حين يأتي لك كوب من الشاي الساخن جداً ، ونحب أن نشرب منه ، فأنت تنمخ فيه لتأتي له بالبرودة . والنمحة من فمك واحدة ؛ تأتي بحرارة ليديك ، وتأتي بالبرودة لكوب الشاي ، وهكذا فالعمل واحد لكن القابيل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان هذه استعداد للإيمان فهو يهتدى به ، ومن لا يملك الاستعداد بقلبه علف عن الإيمان .

ومرقت هؤلاء العاجزين عن استيفان الرحمة موثب غير طيعي، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر، وبعد الامتات وبعد الاستنكار وبعد التأني وبعد اتحاد الدين لهواً ولعباً، ماذا ينتظرون؟

ما هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُمْ يَقُولُ  
الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّهِمْ بِالْحَقِّ  
فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ  
الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَخَسَلَ عَنْهُمُ  
مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ ﴿٤٢﴾

وما معنى التأويل ؟ . . التأويل هو ما يؤول إليه الشيء ، هو العاقبة التي بعدها الحق ، فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويسكت قوله لأن الكون كله بيده .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : ( هل ينتظرون إلا تأويله ) .

أي هل ينتظرون إلا المرجع الذي يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتي تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتي يوم القيامة ويتصح لحق ويظهر صبق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون ثوبهم ؟ . سيعملون ما أوردته سبحانه على أنفسهم ' ( يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق )

أي أنهم سيعملون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا في دار التكذيب ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَمَنْ لَنَا مِنْ شُعَّةٍ  
فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقولون بأن الرسل حملت المصحح الحق وتساءلون عن الشفيع . وعدم أن  
الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن في الدنيا نجد من يبحث لنفسه  
عن من يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيراً وعزيز لديه ، أو يكون له كلمة ومفضل عليه  
فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتي يوم القيامة بالشفاعة هؤلاء ؟ . لا أحد ، وسنجدهم  
يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله . وسيعمل هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ،  
ولو مكبهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ هي الدنيا كان هؤلاء  
مؤتمرين بأمر لنشر وصلاتهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى  
المجروح لا تحضه لإرادة صاحبها ، بل هي حاصصة لدنق الأعلى وهي الآخرة  
لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من نمل المثل وقلنا هب أن سرية في جيش ما وعليها قائد صغير برتبة  
صابط ، ومفروض في حدود السرية أن ينعثوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الصابط  
الصغير أوامر حافظة بما له من فرض فآذنه عليهم فعملوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا  
ويحاسبهم القائد الأعلى فيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الصابط المكلّف بقيادتنا ،  
وكذلك ستأتي الجوارح من الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألستهم  
وجلوهم

إذن فالأبغض سرفع شكوه إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملكك سواء ، ويومئذ  
سيقول المكذبون الصديق الذي من بينهم

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يحثون عن شفاعة . لكنهم لن يجلدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا  
غير الله هم المعبودون أنفسهم

ولذلك نجد قوة الحق سبحانه

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَكْثَرُ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَنْتَهُونَ﴾

(سورة الأنعام)

وما ذنب المعبود ؟ إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن ينضم نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعصوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التي عبدت يقول عبدوها ونحن أعبد الله من دونه ، لا سحر ، لأن القائم في الأسحر من لأعداد قد حصر أمراً غير هذا ، ولكن كما مذهبهم على الطاعة ، وقد انحدروا صحتنا علينا دليلاً

إن الاحجار تعلق أنها هم تملك قدره رفض أن يعيدها أحد أو أن يعيده عنها وتعلق له غشاه

والشاعر يقول

قد سموا جهلاً كما قد تجروا على ابن مريم والحساري  
للسفالي جزاؤه واسمالي فبه تجيه رحمة العمار  
وهكذا يأتهم الحق وصحاً يوم القيامة .

يهم سيصلون بمرده إلى الدنيا ، وهذا من ناحية ؛ لأن مثل هذا لإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالعيب لا في العشهد وحتى ولو عدوا ، فمن يؤمنوا  
والحق هر لقاتل

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا يَسَاءُ مَا أَتَوْا بِهِمْ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

ركبهم منو لحظة إقرارهم أنهم من الأعداء ، وأتى فيهم القول المصن من الله

﴿فَقَدْ حَسِرُوا بِهِمْ وَاصْبِرْ لَهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنعام)

لقد جاء لهم الحسرة بعد أن عاب عنهم ما كانوا يفترون على الله في الدنيا ، وهم



ومن قبل فصل الحق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويمصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود لإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتي له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف نخلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألان يشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انصلبت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول - هذا حكم منكم لا يقبل ، لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا من خلق الخلق يقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمُسْلِمِينَ (٥٤)﴾  
[سورة الأعراف]

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض - كما أوضحت - وهو الطرف الوجودي للإنسان الخليفة وطراً الإنسان على هذا الكون بكل ما فيه من قوى ونواميس ، فكان الله أحد الكون للخليفة قبل أن يخلق الخليفة ليحيى الخليفة فيجد كوناً مسحراً له ، ولا يستطيع أى كائن منه أن يحرج عن مراد الله فى شيء (إن ربكم الله الذى خلق) .

ومعنى «خلق» أى أوجد شيئاً كان معدوماً وبراء على غير مثال سبقه فربنا سبحانه قدر كل شيء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة «الخلق» مادياً الفاعلة هى حائق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد ويقول :

﴿... تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾  
[سورة المريم]

ذن هناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضاً أشرك خالقاً غيره معه فقال



جل وعلا . ( فتبورك الله أحسن الحالفين ) . كيف ؟ . لأن الخلق إيجاد شيء معلوم ، والذي صنع الميكروفون يقال خنقه ، والذي صنع الكوب يقال حلقه ، والذي صنع المصباح يقال حنقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن المارق أن الخلق من الشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتي بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة في الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود

لكن الخالق هو خير الحالفين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجده شيء معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شيء ، وأيضاً فإنكم حين تخلقون أي صنعة تظل جامدة على هيئة صاغتكم ، فمن صنع الكوب من الرمل لمصهور يظل الكوب هكذا . ولا يستطيع - كما سبق أن قلت قديماً - أن تأتي بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، وضمهما معاً في مكان ونقول لهما أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلقه ربنا يعطى به سر الحياة ويجمعه بالقانون بتبع غيره ويسمو ويكبر إذن فهو أحسن الحالفين -

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جمعت مجموعة أما الأرض فجاء بها مفردة لكنه حين راعى قال في آية أخرى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْنَهُنَّ ﴾

( من الآية ١٢ سورة الطلاق )

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضي ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وبرك لفظ الأرض مفرداً ؟ . لماذا لم يقل : سبع أراضي ؟ ؛ لأن كلمة « أراضي » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعته لسهولة نطقها

والسماء هي كل ما علاك فأظنك ، هذا معنى السمع في اللغة لكن هل السماء التي يريدنا الله هي كل ما علاك ؟ . إن اللحم هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس عنتك ، والقمر علانا جميعاً . وبلغت الانتباه ما نقول نلتبس الذين أحوا أن يحملوا

السموات هي الكواكب إنها ليست دائماً ماعلاتنا ، فالشمس تعلو وقتاً وتسبح وقتاً  
آخر . وكذلك القمر

إذن فالوصف منحصر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أي  
مهما بأنه سماء دائماً . وشيء آخر وهو أنهم حينما كانوا على الكواكب التي كانت معروفة  
بأنها كواكب سبعة وقادوا . إن هذه هي السماء ، إنهم يقولون هذا قد وقموا في خطأ  
وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى . فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة  
تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انتهت فكرة أن التوابع هي السماء ، وبقيت  
السماء هي ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۖ ﴾

(سورة الصافات)

هذه - إذن - زينة للسماء الدنيا ، والسماء التي يفصلها ربا يست هي التي يقولون  
عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجحى قديماً يفتنون منها  
مفاعيل للسمع . فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وحدث هذا بعد بعثته ﷺ  
والحق هو من قال لنا ذلك . ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أي أن ربنا  
يريد لمقولنا أن نفهم هذا القدر بحسب ، وصيحاته حائق اسماء التي قولنا ، وهو جل  
وعلا خالق أراضين وأين هي هذه الأراضين ؟ أهي أراضين مبعثرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرة من المجرات هيها مليون مجموعة شمسية ، وكل  
مجموعة شمسية هيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلاحظ أن الحق سبحانه حين  
يتكلم عن لأرض فكل مخاطب بالأرض التي هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء إن  
هي هذا العالم العلى توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً  
والحق هو القائل

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا

بَسَّاءٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾

(سورة الشورى)

ويعني العلم كل يوم سريراً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هي كل ما حلاك والأرض كل ما أنفك . ومادامت سبع سموات والسماء الأولى فراع كبير وقضاء ، وتأتي بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلمين بهذا ، نحن مكلمون بأن نعلم أن الأرض التي نحن عليها مخلوقة لله .

والحق يقول :

﴿ حَقَّقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ۖ ۝٥٤ ﴾ [سورة الاحزاب]

وقوله ٥٤ في ستة أيام هو حرف للمخلق . واليوم يعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لابد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِينَ ۝١٨ ﴾ [سورة نبا]

أي هناك ليل وهناك يوم ، إذن فالיום صد الحق خير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم في المعروف المتكفي : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِينَ ﴾ .

يعني أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن رجعت الشمس ؟ . وإذا كانت الشمس هي التي تحدد اليوم فكيف عرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ .. وَنَهْمُ رَرْقَهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَشِيٌّ ۝١٧ ﴾ [سورة مريم]

وليس في لأخرة بكرة ولا عشي ، إذن سبحانه قد قدر المكرة والعشي

العشى ، وكذلك ، فى ستة أيام ، وبذلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق ، ستة أيام ، ولكن آية التمهيد للخلق ، جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام افرامى :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَنَا كُفْرًا بِلَدِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩) وجعل فيها رزقى من فوقها وبشرى فيها وقدر فيها أقرتها فى أربعة أيام سواء لبسائلين (١٠) ثم استوى إلى السماء وهى دحان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين (١١) ففضلهن سبع سموات فى يومين (١٢) [سورة فصل]

والظاهر من آية التمهيد أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول ، إنها أيام ، ومن النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا روراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحنوا أن يجعلوها ضجة عالية ويقول إنه - سبحانه - خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تسعة أيام ويضم إليها خلق السموات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المعمل على المجمل ، فحين يقول الحق .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . ﴾ (٥١)

[سورة الأعراف]

مهمل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب امر من المستد ؟ . إن ربنا يخلق به كبر ، ونحن البشر نعالج على حسب قدرتنا لمخلق شيئاً ، وكل عمية نقوم بها مأخذ مننا ، لكن من يخلق بكلمة (كن) فالأمر بالنسبة له هين جداً - سبحانه وتعالى - لكن لماذا جاء بخبر الخلق فى ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشيء وبين تهيئته للميلاد . وكنت قد صرنا المثل سابقاً - ولله المثل الأعلى - بصانع الزيدى ، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافئ ، ثم يصع

فى كل منها جزء من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الحو المناسب . فهل يردى هذا الرجل عملاً لمدة اثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمير الكوب ؟ . . طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل مداتها إلى أن تنضج

ولننظر إلى خلق الجبين من تراوح بويضة وحيوان منوى وبأخذ الأمر تسعة شهور وسبحانه جل جلاله لا يعمل فى خلق الجبين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن السنة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : «كن» وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومرحلتها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام وفى القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمِنْ مَسْئَةٍ مِنْ لَيْلٍ﴾ (٣٨) ﴿

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لا يعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر «كن» فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول (فأصاب على ما يقولون) .

وكان قومه سبحانه هنا جاء لتسليية الرسول ﷺ موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن يأخذهم أحد عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كتاب ربنا هو الصادر على أن ينجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر «بكن» وترك المواد تتفاعل لسته أيام . ولماذا لا نقول جاء بكل ذلك ليعلمنا التأنى ، ولأن تتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، لذلك قال سبحانه :

[سورة ق]

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. ﴾ (٣٩)

أى لا ترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يؤخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حسماً .

وهناك من يتساءل كيف خلق الكون بما فيه من انوارامى والكائنات ؟ . ويقول 'إنه الإنجاز الذى أخر به سبحانه مرة واحدة ، وانفصلت الكائنات للقعدة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقعدة الله ، فى كل جزئية من جزئيات العمل ، وأحد الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول ' .

[سورة الاحزاب]

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴾ (٤٤)

ولابد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

[سورة النمل]

﴿ .. وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٢)

فالعرش إدى هو سرير الملك ، لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد أن تستقر الأمور

فكان قوله : «استوى على العرش» كناية عن تمام الأمور ، وخلقها وانتهت المسألة لكن العناء حين جاء ، فى «استوى» ، اختلفوا فى فهمها ، لأن العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تمييز لله ووضعته وضعه فى جرم ما وسبحانه منزّه عن أن يحميه شيء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة «استوى» منهم من قال إن معناها هو قصد إليها بحلقه واحتراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استولى وأرغم أمره ، ومنهم من قال : «صعد» أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق .

[فصلت]

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. ﴾ (١١)

وكلها معانٍ متقاربة . وجماعة من العلماء أراحوا أن يخرجوا من التشبيهات ، فقالوا . المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا يدخل في منتهات التشبيهات ، أو منتهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شيء منسوب إلى الله في إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

( من الآية ١١ سورة الشورى )

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ يَدَيْهِمْ ﴾

( من الآية ٦٠ سورة الممتح )

ونحن نفهم أن اليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يحاطبها بها سبحانه ، فاقول أن الله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدم الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة والإنسان عليه أن يأخذ كل شيء منسوب إلى الله مما يوجد مثله في البشر ، في إطار « ليس كمثله شيء » ، فنقول سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما مثل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سألته : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سوء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بـ في منتهات التشبيه ومنتهات التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ . لا ، لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلن شيء من معانيها في أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بعطرتهم التي طهرهم الله عليها في إطار ما يليق بحلال الله وكمال .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ إن كان يعلم لأحبرنا بها ، وإن لم يحبرنا فقد أراد أن يكتفها . وإن لم يكن قد علم الأمر فهل تطلب لديك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

ألا أنه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن في إطار « ليس كمثله شيء » ، والدين

يَمْعُونَ التَّائِيلَ يَقُولُونَ : إِيَّاكَ أَدْ تَزُولُ الْيَدُ بِالْقُدْرَةِ ؛ لَأَنَّهُ إِنْ هَالُ : إِنْ لَهُ بَدْأُ ، فَقُلْ  
لَيْسَتْ كَأَيْدِيهَا فِي إِعَارٍ ؛ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؛ لَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَهُ حَيَاةٌ ، وَأَنْتَ لَكَ حَيَاةٌ ،  
أَحْيَايَتُهُ كَحَيَاتِكَ ؟ لَا ، فَلَمَّا دَا إِدَادُ تَجْعَلُ يَدَهُ مِثْلَ يَدِكَ ؟ . إِدَادُ لَا يَدُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى  
كُلِّ صَعَةٍ لَّهُ فَنَتْنَى عَنْهَا التَّعْطِيلُ وَنَتْنَى عَنْهَا التَّشْبِيهُ . ثُمَّ إِنْ مِنْ يَمْعُونَ التَّائِيلَ فَقُولْ لِكُلِّ  
مِهِم - أَنْتَ سَتَصْطَرُ أَحْيَرًا إِلَى أَنْ تَزُولَ ؛ لَأَنَّ الْحَقَّ يَقُولُ

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

( من الآية ٨٨ سورة الأنعام )

وَمَادَامَ ؟ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ؟ فَكُلُّ مَا يَطْلُقُ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَهْلِكُ ، وَيَقْبَى وَجْهَهُ  
سَبَّحَانَهُ فَقَطْ ، فَلَوْ أَنْتَ مِلْتَ لَوَجْهَهُ هُوَ هَذَا الرَّجُلُ . فَكُلُّ يَدٍ تَهْلِكُ وَرَجُلُهُ تَهْلِكُ وَصَلْبُهُ  
يَهْلِكُ ، وَحَافُّ لَّهُ أَنْ يَحْدِثَ ذَلِكَ . وَتَكُونُ قَدْ دَخَلْتَ فِي مَتَاهَةٍ مَا لَهَا مِنْ آخِرٍ . بِذَلِكَ  
يَقُولُ : لِأَنَّ الْخَلْقَ وَنَدْخُلُهُ فِي إِطَارٍ ؛ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . وَآيَةُ الْاِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ  
هَذِهِ الْمَذْكُورَةُ فِي سُورٍ كَثِيرَةٍ ، وَهِيَ مَحْدِيدُهَا فِي « سَبْعَةِ مَوَاصِعَ » ؛ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ  
الَّتِي نَحْنُ بِصَلْبِهَا ، وَسُورَةِ يُونُسَ ، وَسُورَةِ الرِّعْدِ ، وَسُورَةِ طه ، وَسُورَةِ الْفُرْقَانِ ،  
وَسُورَةِ السَّجْدَةِ ، وَسُورَةِ الْحَدِيدِ

وَهِيَ يَقُولُ الْحَقُّ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْاِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ ( يَعْشَى اللَّيْلُ الْبَهَارُ )

اللَّهُ - سَبَّحَانَهُ - قَدْ حَقَّقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لِلْخَلْقَةِ فِي الْأَرْضِ وَهِيَ لَهُ فِيهَا أَصُولُ الْحَيَاةِ  
الْمُرَرَّرِيَّةِ وَذَلِكَ عَلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَمَاذَا سَيَعْمَلُ هَذَا الْحَيَاةُ ؟ . لَا يَدُ أَنْ يَقُومَ بِكُلِّ  
مَقُومَاتِ الْحَيَاةِ ، وَإِذَا مَا عَمِلَ فَسَيَدُلُّ جَهْدًا ، وَالْجَهْدُ يَقْتَضِي رَاحَةً . وَمَنْ يَشْتَغِلُ سَاعَةً  
لَا يَدُ أَنْ يَرْتَاحَ سَاعَةً ، وَإِنْ شَغِلَ سَاعَتَيْنِ وَلَمْ يَسْتَرَحْ سَاعَةً غَلَبَ عَلَى نَفْسِهِ .

وَنَحْنُ نَرَى فِي الْأَلَةِ الَّتِي تَعْمَلُ ثَلَاثَ رَرَدِيَّاتٍ يَوْمِيًّا أَيُّ الَّتِي تَعْمَلُ لِمُدَّةِ الْأَرْبَعِ  
وَالْعَشْرِينَ سَاعَةً دُونَ تَوَقُّفِ أَنَّهَا تَسْتَهْلِكُ أَكْثَرَ مِنَ الْأَلَةِ الَّتِي تَعْمَلُ وَرَهْنِيَّ ، وَالْأَلَةُ الَّتِي  
تَعْمَلُ وَرَدِيَّةً وَاحِدَةً أَيُّ لِمُدَّةِ ثَمَانِي سَاعَاتٍ بِطَوَّلِ عَمَلِهَا أَكْثَرَ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَحْتَاجُ إِلَى  
الرَّاحَةِ . لِشَاءَ الْحَقِّ سَبَّحَهُ وَنَعْمَالِي أَنْ يَبَيِّنَ لَنَا أَنَّ اللَّيْلَ وَالْيَوْمَ مَتَاعَانِ مِنْ أَحْلَى هَذَا  
الْهَدَفِ :



﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ ۝ (٧٧) ﴾

[ سورة القصص ]

أى لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا الفضل في النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فليس تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة في الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل لذلك أوضح سبحانه لنا: أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا:

﴿ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ ۝ (٥٤) ﴾ [ سورة الأعراف ]

ويكون المعنى هنا أن النهار يعشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تنابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۚ ۝ (٦٦) ﴾

[ سورة العنكبوت ]

والليل يحلف النهار ، والنهار يحلف الليل ، وفي مصر تكون في نهار مثلاً ، ويكون هذا الوقت في بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذي كان خلفه للثاني ؟ فلن نجد ، لأن كلا الاثنين خلقاً معاً ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيع وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت عير مواجهة لسطح كان الليل سيأتي أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليجود النهار. والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفاً للأخرة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة. كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليعشى النهار الجرم المواجه للشمس ، وليعشى الليل الجرم غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتي النهار حلقة ليل ، ويكون الليل خلفه للنهار .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۚ ۝ (٦٦) ﴾

[ سورة الفرقان ]

(يمشي الليل النهار) ويمشي النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التي فيها قول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. (١٠)﴾ [سورة يس]

أي أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما مخلقا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : (والشمس والقمر والحجرات مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجدد النواميس الكونية التي لا دخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل في أمورها تسير بنظام دقيق ، ففي الوقت لفلاسي ستأتي الأرض بين الشمس والقمر ، وفي الوقت الفلاسي سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿يُغَشِّي اللَّيْلُ أَشْهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُسَخَّرَتَا بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ .. (٥٤)﴾ [سورة الاحقاف]

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل - سبحانه - له الأمر بعد ذلك وقهره ، لأنه لم يزل سلطانه في ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فيأمره يُعزل النواميس أحياء ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجرات الأشياء لتعطيل النواميس ، لنفهم أن الكون لا يسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة «الأمر» تجد الحق يقول :

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ .. (٥٠)﴾ [سورة آل عمران]

والمقصود هو الأمر الكوني ، أم الأمور الاختيارية فله فيها أمر يتمثل في المنهج ،

وانت لك فيها امر إيمان تطيع وإيمان تعصى ، وأنت حر

﴿الْأَلَاةُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

( من الآية ٥٤ سورة الأعراف )

وحين يقول سبحانه « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الحالفين » ، فكل لفظ له معنى ، معنى خلقه من البشر موهب تخلق ولكن من موجود وأوصحننا ذلك .  
وفى قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيرِينَ﴾

( من الآية ٦٤ سورة الأنعام )

والذي تعلم الحساب وحلقرا آلات حاسبة ، وهي آلات تتم « برمجتها » وإعدادها ونهيتها للجمع والطرح والنسب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة يكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ، لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد متعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل يتفق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل على كرم الله وجهه  
— أباحسب الله خلقه في وقت واحد ؟

قال وما العجب في ذلك ألم يورقهم في وقت واحد ؟

وانظر إلى القرآن نجد الحق : أسرع الحاسبين ، و « أحسن الحالفين » ، و « أرحم الراحمين » ، و « خير الوارثين » . وهذه هي الأنعام التي وودت ، والله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائما في إطار « ليس كمثله شيء » . ( تبارك الله رب العالمين ) .

و « تبارك الله » أي أنه - تعالى - تنزه ، لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة - وهي قدرة الله - والأفعال لبقدرته المصطفة بالإرادة وبه « كن » وهذا هو الانفعال والانتفاء والانعقاد والإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ﴾ ٥٥

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يحمي عليه  
وعندما نشعر أنك عاجز فأنت تتركز إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن  
لأن كنت بطيء أو تتكبر فأعرف مكانتك ومكانتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرس  
رائل ، والدعاء هو نصير ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك  
المعونة والعون . واستحضر عجزك وقدرتك وبك تمثل بك اسداعة اليقين الإيماني  
وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل  
له ، ويشكر ويخترع فقد يأخذ العز ، فيأتي له بحاجة تعجز عنها الأسباب ، فيقف  
يدعو . ومن كان منكراً وعنده صنف وخطرة يذهب إلى رجل « عليل » راقد تحرد من  
الجهنم والسندان منقطع لعبادة الله ويقول له . أستحلفك بوصول الله أن تدعولي لأني في  
أزمة والذي يسأل العليلان الراقد هو رجل عرير في قومه لكنه يظن أن العليلان الراقد أقرب  
إلى الله منه .

إذن للدعاء هو الصراحة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكي يستديم اليقين الإيماني

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾

( من الآية ٥٥ سورة الاعراف )

وإياك أن تدعوني بالك أن تقصى حاجتك بالدعاء ، عيبك بالدعاء لفظ لقصد إظهار  
الصراحة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فمفسير أمورك كما قدر لها ، والدعاء هو  
إظهار للخشوع ، وإياك أن نعلم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه مبره أن  
يكون موطئاً عندك ، وهلاك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من  
يطلب بالدعاء أشياء خاسرة .

﴿وَبَدَعَ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُمُ بِالْإِنْسَانِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مُجْمُولًا﴾ ٥٦

( سورة الإسراء )

والإنسان قد يتعلق قلبه بأمانى عد تضره ؛ لذلك نقول . لا تتعجل بالدعاء طلباً

لأميات قد تكون شراً عليك ، والحق العظيم يظلم لنا أمورنا ، ورباك أهباً أن يأس حين لا تجاب دعوتك التي هي بآلك ، لأن الله يحقق الحير لعلمه ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتي منها الشر ، ويترك الله لأفصنتك أمراً تيسر لك هذا ، وتقول إن الشيء الملامى الذي كنت أنصاه بتحقيق وحاء شراً على . مثال ذلك قد تحجر لظانره لكك لا تلحق بها فقد أفلعت قبل أن تصل إليها وحررت لأن بعضاً من مصاحك قد فانتك ولم يتحقق وتفاعلاً بأن هذه الصائرة سقطت في البحر

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الحشوع والتدبيل والضراعة به سبحانه لا إيجبتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الحير ، فذع لحق بقيومته وعلمه يحقق لك الخير . وسمع قول الله

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسُ بِالنِّيرِ دُعَاءَهُمْ بِالنِّيرِ وَكَذَلِكَ الْإِنْسُ غَوًى ﴾

(سورة الإسراء)

إذن حين يقول الحق « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » فسيحانه بطلب ما أن تدعوه لأننا سنواجه لحظات متعلقة بمعجز فيها من أشياء ، فبدلاً من أن نظل مقهوراً بصفة العجز عن الشيء ، اذكر أن لك رباً قوياً مقتدرأ ، وصاعة تذكر ذلك لن نأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان . وقتنا من قبل من له أب لا يحمل همأ للحياة ، فإذا كان الذي له أب لا يحمل همأ لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستجى ويعرف أن ربه سيوفر له الحير ، لذلك بوضح سبحانه ، إذا أعجزتكم الأسباب فادكروا أن لكم ربأ . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا يظن أن حظك من الدعاء أن تجلب إلى ما طلب ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار الدليل والحشوع لله ، فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اعتررت بعسك . وقد سبق « قارون » إلى العرور ، فماداً حدث له ؟ . لقد حرمة الحق وأتزل به شر العقاب . وقد يجعل الحق من تأتي الأسباب وامساعها عليك معرى لتلتفت إلى الله ، لكن لعلك الله لا يصح أن تكون بغرض أن يقتضى حاجتك ، بل اجعل أساس لعلك الله أن يظهر لعجز أمانه والخضوع والحشوع ، ليحيطك ما لم يكن في بآلك حين تدعو

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

حُصَّة لها معى وهو أن يكون الدِّعاء دعاءً مستوراً محتجباً ، ولها معى آخر وهو أن تكون من المحبوب أى أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبّار والقهار أو خوفاً من أن يردّها الله عليك فلا يقبلها منك

ادعوا ربكم تضرعاً بدلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجمله عملك الوحيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم علّمنا حينما كان فى غرّة هراما فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهللين والتكبير ، فقال :

(أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصم ولا غلماً ، إنكم تدعون سميماً قريباً وهو محكم)<sup>(١)</sup>.

ولدعاء إلى الله خُفية يعتمد بك عن الرياء وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك لأنه حين يوضح لك : ادعنى فى سرّك لأنى سمع عليهم ، أعلم كل ما ظهر منك وما بطن ، ادع بالحصوع والخشوع وانتدلل لتكسر فبك شهوة الكبرياء ، وشهوة العطرسة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :  
— نعرف قوماً يقرأون القرآن فى محضرتنا وما عرفنا لشفاهم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأينا منهم انفعالاً يصرفهم عنه . إذن فالمسألة تعبر عن شغل باطنى داخلى

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعد عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحق أن يسمعه آخر

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الاعراف)

ولو نظرت إلى هذه الآية لرجحت أن كثيراً من الناس يعالفتونها محالمة جماعية ؛ فى

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه البخارى . ومعنى ( اربعوا ) ارفقوا بأنفسكم واحصوا أصواتكم

الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون في مكبرات الصوت التي أصعبهم عن صعود المآذن، ويكون الواحد من هؤلاء نائم طول النهار لأن رفع الأذان هو عمله ليس غير، وبعد ذلك يظل يصرح ويستغيث ويقول: «أن هذه إبتهالات» بينما من الناس من هو دائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدي عمله نهاراً، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه وإذا جاء العجر يستيقظ ويؤدي الصلاة. فلماذا يقلق الناس بهذا؟ إننا لا بد أن نشبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤدي أحداً فسبحانه بقول: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية).

والنصرع والخفية تفتنسى ألا أقلق الناس، أو أن أعلن الأمور التي أريدها لنفسي خاصة بصوت عال مثل من يأتي في ختام الصلاة ويقول دعاء بصوت عال وهو رافع يديه، ولعل هنا أقول إن الله سبحانه وتعالى جعل لك الصوت لدعو فيه، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفع له. وأنت حين تدعو في ختام الصلاة قد يوجد مُصل مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته. وتشغله بمطرق من عندك وبكلام من عندك عن شيء وجب عليه. ومن يعمل ذلك إنما يفعله عن حسن نية، لكنه يسيء إلى عادة آخر.

إذن فلا بد أن نتبّه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مصلوبات، هذه المظلمات قد تحالفها النفس لغرض ترى أنه حسن، لكن خلها في إطار:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِ أَغْضًا ۖ الَّذِينَ هُمْ سَعْيُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝﴾ [سورة الكهف]

فلا بد أن نتبّه إلى مثل هذه المسائل، وعليت أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلي الصبح ويذهب إلى عمله؛ لذلك لا داعي أن يفتح إنسان الميكروفون أو يعلو صوته بالدعاء، ومن يعمل ذلك يظن أنه يحرر من على أمر مطلوب فيزعج الناس، بل يزعج من يصلي بالدليل أو «يشوش» على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم. إن على من

يُفْعَلُ ذَلِكَ أَنْ يَتْرَكَ كُلُّ إِنْسَانٍ لَانْفَعَالَاتِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ مَلِكٌ نَفْسُهُ وَمَلِكٌ اخْتِيَارُهُ .  
وَيُعْطِينَا الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَوْرُهُ كَهَذِهِ فَيَقُولُ :

﴿ يَدْنَادُنِي رَبُّكَ بِكَلِمَةٍ خَفِيَّةٍ ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَيْتُ الْعَظُمَ سَيِّئًا وَاسْتَمَعْتَ أَرْأْسُ  
خَفِيَّةً ﴾

( الآية ٢ ومن الآية ٤ سورة مريم )

إِنَّ كَلِمَةَ « خَفِيَّةٌ » موجودة في القرآن ، ولابد أن تنبه إلى الدعاء الخفي .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿٢﴾

( من الآية ٥٥ سورة الأعراف )

إِنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً فَهُوَ اعْتِدَاءٌ فِي الدَّعَاءِ ؛ لِأَنَّكَ مَكْتُفٍ وَاللَّهُ هُوَ الْمُكْتَفِ ،  
وَهُوَ يَقُولُ لَكَ : ادْعُونِي تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . فَإِنْ فَعَلْتَ غَيْرَ هَذَا تَكُنْ مُعْتَدِيًا ، وَعَلَى كُلِّ  
هَؤُلَاءِ أَنْ يَتَهَمُوا أَنَّهُمْ مُعْتَدُونَ فَإِذَا أَنْ يَكُونَ الْاعْتِدَاءُ هِيَ أَسْلُوبُ الطَّلِبِ وَإِنْ أَنْ يَكُونَ  
لِلْاعْتِدَاءِ فِي الْمَطْلُوبِ

لِأَنَّ الْحَقَّ حَدَّدَ أَسْلُوبَ الطَّلِبِ فَأَوْصَحَ : ادْعُونِي بِحَمْدِهِ ؛ فَإِنْ دَعَوْتُ فِي غَيْرِ الْحَمْدِ  
تَكُنْ مُعْتَدِيًا عَلَى مَسْجِدِ اللَّهِ . وَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ الْاعْتِدَاءُ فِي الْمَطْلُوبِ فَلَا يَصِحُّ مَثَلًا أَنْ  
تَقُولَ : إِيَّاهُ أَدْعُوكَ يَا رَبُّ أَنْ تَحْمِلَنِي نَبِيًّا . إِنْ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ وَرَبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِلْمُهُ  
بِمَا سَرَّهُ مِنْ نُوحٍ . فَقَالَ

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ آتِيَ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٣﴾  
﴿ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَادِقٍ فَلَا تُسْمِعْ مَالِيْسَ لَكَ بِهِ  
عِلْمٌ إِنْ أَعْطُوكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰتِلِينَ ﴾ ﴿٤﴾

( سورة هود )

وَمَا بِهِ الْحَقُّ نُوْحًا إِلَى الْاعْتِدَاءِ فِي الْمَطْلُوبِ فَقَالَ الْحَقُّ :

﴿ فَلَا تُسْمِعْ مَالِيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

( من الآية ٤٦ سورة هود )



## سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

○ ٤١٧٩ ○

ولذلك نجد نوحاً يستعير لآله سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف دسه استعفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا يَتَّبِعُنِي بِهِ عِلْمٌ ﴾

( من الآية ٤٧ سورة هود )

وقال له الحق سبحانه :

﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَنْ أَمْرِ تَحْتِمْ مَعَكَ ﴾

( من الآية ٤٨ سورة هود )

إذن فالذي لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه في الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا  
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ  
الْمُحْسِنِينَ ﴾

الأرض هي مكان الحليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصلية لاسبغاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كل مسخر لك ولا نحتاج إلى تكليف فيه . فلا أنت تقوى . « يا شمس أشرقى » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك وأنت مطالب ألا تفسد فيه ، لك فيه اختيار ، لأنك لا تستطيع أن تصد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الرياح ، وأنت لن تستطيع إصلاح ما لا يمكن أن تقترب من إصلاحه ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه وإنما يأتي الإنسان من ملكات الاختيار الموجودة فيه ، ولم يترك الله أحراراً فيه ، بل حدد لها بمنهج يحمي حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآن ،

والعوض فيه منهج يحمي اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك

﴿وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ تَعَدَّ إِصْرُهَا وَأَذْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

( من الآية ٥٦ سورة الأعراف )

وهنا يعود الحق مرة أخرى لتحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء  
تضرعاً وخمية ، وهنا يوضح الحق سبباً ثانياً للدعاء ( وادعوه خوفاً وطمعاً )  
خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعاً في صفات غفرانه ورحمته ، لأن الله صفات  
جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعفات صفات الجلال ، وطمعاً في متعفات  
صفات الجمال أرخوفاً من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو

﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

( من الآية ٥٦ سورة الأعراف )

إذن من الذي يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحس قربت منه الرحمة  
والرمام هي يد الإنسان ، لأن الله لا يمتد ولا يستبد بأحد فإن كنت تريد أن تقرب منك  
رحمة الله فعليك بالإحسان ( إن رحمة الله قريب من المحسنين ) .  
ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول .  
( لا أمل حتى تملأوا ) .

( من حديث قنسي )

وأت ندخل بيوت الله نصلي في أي وقت ، ونقف في أي مكان لتودى الصلاة ، إذن  
فاستحضرك أمام ربك في يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية  
الأوقات كلها هي يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدي الله في أي لحظة . وسبحانه يقول .  
( ومن جاء من يمشي آتية هرولة ) .

( من حديث قنسي )

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت رسأتي لك أنا ؛ لأن الجري قد يتعبك لكنني  
لا يعثرني تعب ولا عي ولا عجز . وكان الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً  
بأنه يريد لقاء ربه إذن فالمسألة كلها هي يدك ، ويقول سبحانه :  
( من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ خيرته )  
( من حديث قنسي )

وهكذا يؤكد لث سبحانه أن رحمته في يدك أنت وقد أعطاها لث ، وعندما تسألها  
تجدها تفضلاً من الله ، ولكن في يدك أنت ( إن رحمة الله قريب من المحسنين )

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات ( الله ) وهو واجب الوجود ، وله كل  
صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ، الرحمة لها متعلق ، والبحث له متعلق فمن أسمائه  
سبحانه « الباعث » ؛ وذاك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبباً لذاته العلية  
دائماً وقد تقول : يارب أريد أن ترحمني في كذا ، وقد لا يمتد لك ما طلبت ، لكن  
ذلك لا يبعثك تشدد عن التيسير للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو في مصلحتك  
وحير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سر عدم مجيء تاء  
التأنيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ  
يستوى فيها التذكير والتأنيث ، وما يقال للمذكر مثلاً يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل  
صبور » ، و « امرأة صبور » ، ولا نقول « صبورة » فنقول « رجل معطر » أي يكثر  
استخدام المطر ، و « امرأة معطر » أي تكثر استخدام المطر ونقول « قريب مثلاً  
نقول : قتل سمعى مثول . فيقال : « رجل قتل » و « امرأة قتل » ، ولا يقال :  
« قتيلة » إلا إذ لم يذكر معها كلمة امرأة أو ما يدل على التأنيث ، لأن القتل بلذكر  
واللأش .

هذه هي ألفاظ صحيح البعة . وقد صعب البعة ذلك بأمايد ، فأتت حين نقول .  
« رجل صبور » أو « امرأة صبور » فالصبر يقتضي الجند والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول .  
« امرأة صبورة » بل نأتي بالوصف المناسب للجند والشدة . وذاك أن تضعها بحكاية  
التأنيث ، وكذلك « رجل معطر » و « امرأة معطر » ، والرجل المعطر هو من نحره  
الناس من مفاد رائحة عطره ، و « امرأة مينة على السر » فإن تعطرت فهي قد تشبهت  
بالرجل ويقال لها : « امرأة معطر » ، وحين نطرق إلى كلمة « قريب » فهي من صيغة  
« قميل » التي يستوى فيها المذكر والمؤنث . بدليل أن الله قال

﴿ وَإِنْ تَطَهَّرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْسَىٰ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ

ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

والملائكة لفظها لفظ مؤنث، ولم يقل الحق «ظهريرة»، لأن «ظهريرة» بمعنى  
مُعِين، والمعوية تتطلب القوة والعزم والمدة؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذي يدل  
على القوة وهو «ظهريرة». وكذلك قوله الحق:

﴿... إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [سورة الأعراف]

و«قريب» وزن «مفعل» بمعنى مفعول، ولعل بعض الناس يفهم أن «قريب» بمعنى  
فاعل أى قارب مثل رحيم ورحم. أى أن رحمة الله هي التي تقرب من  
المحسين، و الأمر ليس كذلك، فإن الرحمة هي المقروبة، والإحسان هو الذي يقرب  
إليها فيكون مفعول هنا بمعنى مفعول الذي يستوى فيه الذكر والمؤنث، أن يكون جاءت  
كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة لموصوف محدود أي  
شيء قريب، أو لأن تأنيث الرحمة عبر حقيقى، أو أن الرحمة مصدر، وحق المصدر  
التذكير

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَاتٍ يَدْفِقُ  
رَحْمَتَهُ حَقًّا إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِلْبَلَدِ  
مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ أَمْطًا فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ  
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ



و تصريح الرياح إهاجة للهواء في الكون، وإهاجة للهواء في الكون تأتي منها  
فوائد كثيرة للغاية، ونحن حين نجلس في مكان مكتظ ومغلق بالأنفاس نقول لمن  
يجلس بجوار النافذة: الهوى العرفة قليلاً. وإن لم يكن هواء النافذة تأت بمروحة

لأن أحد من طغيات أخو طغية هواء جديدة فيها أو كسجين كثير إذن فالرياح ضرورة حتى لا يظن الهواء ركاماً ويتنوث أخو بهذا الركود، ولو أن كل إنسان سيمتفر في مكان مكتوم الهواء لأملاً مكان ثبات أكسيد الكربون الخارج من تنفسه، ثم لا يلبث أن يحترق، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة في كل شيء، وهي أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعبت بمهمات الحياة من نفس وماء وطعام، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذي تنفسه، وكذلك تكوين الماء، لأنه سبحانه لقاتل عن الرياح

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سُحَابًا ثِقَالًا سُقِّسَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ۚ ﴾ (سورة الاحقاف)

والرياح هي التي تساعد في تكوين الأمطار التي تنزل على الأرض فتروي التربة التي نحرثها، هكذا تكون لرياح مشرى في ثلاثة أشياء: الأولى تحريك طبقات الهواء ولا لفسد أخو في الماء، لأن الرياح هي التي تحمل السحاب وتحركه وتنزل به هناك برفاً بين مشرى، وبشراً؟ هالبشرى مفرد، وقد وردت في قوله الحق:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ (سورة هود)

أي التبشير لكن بشراً جمع بشير وهي كلمة محممة، والأصل فيها بشر والحق يقول: ﴿ لَمَّا أَتَىٰ الْبَشِيرَ ﴾.

وجمع البشير «بُشْر» مثل: «نُشْر» و«نُكْر»، يضم الشين فسكنت تحفيظاً، فتتعلق بُشْرًا وَبُشْرًا. (بشراً بين يدي رحمة)

هي بين يدي رحمة لأنها متأتية من الماء، وهو الرحمة في ذاته، وبواسطته يعطى رى الأرض، ونحن نرى منه مباشرة أيضاً. وللمحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهي تأتي للحير، أما حين يكون فيها شرهاتى بكلمة «رياح» مفردة، مثل قوله:

﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ ﴾ (سورة احاد)

فإذن عندما يرى كلمة « رياح » فاعلم أنها حبر ، أما كلمة « ربيع » فاعلم أنها شر  
لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً في حجرة فيها فتحة نافذة يأتي منها الهواء ، ويتسلط النيار  
على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتي من مكان واحد ، لكن حين  
تجس في الحلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعب ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتي  
كلصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدي رحمته ؛ حتى إذا أقمت أي حملت يمان « أقل  
فلان الحمل » أي دفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من  
طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته  
وبالنسبة لجهده ، أقلت أي حملت . وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا  
كان الجهد أقل من الذي حملته لا بد أن يبرل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أي حملت  
سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصلب  
إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف  
للسحاب فيبرل المطر ؛ ويرى ذلك في الماء لمقطر الذي يصحونه في الصيدلية ؛ فيأتي  
الصيدلي بموقد وهو فيه ماء ويغلي الماء فيخرج البخار ليسير في الأنبوب التي نمر  
في تيار بارد فيتكثف السحاب ليصير ماء ( حتى إذا أهت سحاباً ثقالاً سقاء لبلد ميت ) .

وقال الحق : « سقاء » ضمير لمذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب في اسم جنسه ،  
لو نظر إلى لفظه ، وجاء موصوف مجموعاً فقال : « ثقالاً » نظراً إلى أن السحاب جمع  
سحابة مرق بين وبين واحدة بالهاء ، وما دامت السحب كلها داخلة في الشوق فليس لها  
تعددات فكأنها شيء واحد

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتْهُ لِيَلْدَ مَيْتٌ ﴾

( من الآية ٥٧ سورة الأعراف )

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه  
السحاب الثقال لأكثر من مكان لكن الحق سبحانه وتعالى يقول ( سقاء لبلد  
ميت )

والميت هو الذي لا حراك فيه وانتهى اختياره في الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء ،

ينزل من السماء على الأرض وهي هامدة ليس بها حركة حياة أى أن الله يرسل السحاب ويرحمه إلى البلد الميت فى أى مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْسَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِجٌ ﴾

( من الآية ٥٠ سورة الحج )

إذن فالأرض التى لا يأتها الماء تظل هامدة أى يس بها حركة حياة مثل الميت

﴿ مَقْنَهُ لِبَاسٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾

( من الآية ٥٧ سورة الأعراف )

وأرد الحى سبحانه وعالى أن يلعنا ويسها إلى العصية اليومية التى تراها دائما فى صور شتى ، وهى أن الأرض تكون فى بعض الأحيان جرداً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الحبل ، وبعد يومين من برول المطر يجد الحبل فى اليوم الثالث وهو محضر ، فمن الذى بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن غالباً كان يتظر هذه لمياه . وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة من الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

( من الآية ٥٧ سورة الأعراف )

فالماء الذى ينزل على الأرض الميتة يحيى الأرض ، لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، ونحن يوضح لنا سبحانه أنه سبحانه من جديد فليس فى هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله العصية الكونية مربية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ، لأنها أمر حسى مشاهد ، ومنها يستطيع صدق العصية وصدق الرب . ويقول لحق بعد ذلك :

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي

خَبِيثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا فَاكِدًا كَذَلِكَ تُصَرِّفُ الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إذ الآية السابقة عالجت قضية العث بصرب المثل بالآية الكريمة الموجودة ؛ فالريح التي تحمل الحطب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به البرع . والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية ديبية ، ويأتي في هذه الآية بقضية ديبية أيضا ؛ ( البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي حيث لا يخرج إلا فكدا ) .

والبلد الطيب هو البلد الحبيب الذي لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه البرع ، أما الذي حيث ، فمهما نزل عليه الماء قلن يخرج نباته إلا بعد عناء ومشقة وهم مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يحتمل الحق قضية ديبية مثلما حسم القصيدة الديبية في البيت أولاً . رقد النبي صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ فلبت الماء وأنبت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها للناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ؛ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »<sup>١</sup>

إذن فالمنهج يرس إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ، قسم يسمع فونفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فینفع غيره مثل الأرض المحسنة شربت الماء وقبلة ، وأنبت البرع ، وقسم يحملون المنهج ويلعبونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق

﴿ يَرْتَفُلُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

( من الآية ٢ سورة النحل )



صحيح يستمتع اساس من المصنع ، ولذلك قال الشاعر :  
خذ بعصى ولا تركز إلى عملى ونحن الثمار وحبل يعود للبر

ويوم صلى الله عليه وسلم ( من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة )<sup>(١)</sup>

فستر المؤمن على المؤمن مطبوع وسنن المؤمن على العالم أكد وأشد حبا ، لأن  
لعالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى رثته وسقطته لا تدعها لأن ليس يستمعون  
بعضه فلا تشككهم فيه ، والقسم لثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسهيه لغيره أى  
الذى لا يتسمع هو ، ولا يسمع غيره .

﴿ إِنَّا بَلَلْنَا السَّمَاءَ مَطَرًا بِرُؤُوسِ رَبِّنَا الَّذِي خُفِّىَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا سَكْرًا كَذَلِكَ  
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ يَشْكُرُ ﴾

( الآية ٥٨ سورة الأعراف )

وجد مصنع الله مثله مثل لمطر سما ، فالملطر ينزل على الأرض ليرويها ويخرج السمت  
وهناك أرض أخرى لا تتسمع منه ولكنها تمسكه فيسمع غيره ، وهناك من لا يسمع  
ولا يسمع ، فكذلك نعم الله على من لا يسمع رسوله ( ولذى خفى لا يخرج  
إلا سكرًا كذلك نصرف الآيات )

قلنا من قبل إن الآيات تتعلق على معاني ثلاثة آيات الكوبة نرى نورها واقعة في  
الكود مثل قوله الحق .

﴿ وَمِنْ أَنْبَاءِ آبَائِكُمْ وَآبَاءِ آبَائِكُمْ وَآبَاءِ آبَائِكُمْ ﴾

( من الآية ٣٧ سورة هود )

وآباء هي آيات القرون ، وآيات اسى تكون هي لمحركات للأسباب

﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾

( من الآية ٥٨ سورة الأعراف )

( ١ ) روى مسلم وأبو داود والترمذي والبيهقي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح  
على شرطهما .

الآيات هنا في الكوفة كما في الذي ينزل ، إنه مثل المتبع من أحذبه فاز ولجا ،  
ومن تركه وخرى وكل آيات الله تنقضي أن نشكر الله عليها ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَهُ مَالٌ لَّكُمْ مِنَّ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ  
يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥١)

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن المعاصين في الدنيا ، وتكلم  
عن مواقف الآخرة الجرائية من أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والاعراف أراد أن  
يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه أهل الأرض لابد أن تلقى عتقا  
وتضييقا ، وتلقى إعرافا ، وتلقى إيذاء ، إنه سبحانه يريد أن يعطي الجماعة لرسوله  
ﷺ ، فيوضح به : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل  
بالاضطهاد ، وقوبل بالكذب ، وقوبل بالنكرات ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل  
رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدداً ، ومكاناً محصوراً فأنت  
يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهها لمصاعب  
تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت في قمة الرسل ، وستكون الإبداعات التي تنالك  
وتصيبك قمة في الإبداء ، فلست بدعاً من الرسل ، موطن نفسك على ذلك ،  
وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمان في الله ،  
ونص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قصص القصص بقول :

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ - (١٢٥)﴾ (سورة هود)

فكنا القصص تثبت لؤاده ﷺ ، فكلم أحاجه نكران ، أو كلما أحاجه  
جمود ، قص عليه الحق سبحانه قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجمود ليثبت  
به فؤاده ﷺ وفؤاد أتباعه لعلمهم يعرفون كل شيء ويوطنون أنفسهم

عن هذا العت ؛ فلم يفل الحق لأنواع محمد ، بكم مفسون على أمر و لأرض بعروشة  
لكم بالورود ، لا إنما هي ماعب لتحدهوا شر الشيطان في الأرض ، وانقصص له أكثر  
من هدى يشته به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم وبين له أنه ليس بدها من الرسل ،  
ويقوى موسى أنعه ، لأنهم عيبت يرون أن أهل الحق مع لأسباب تنصرون ، وهم الجمع  
وربى الدبر ، وأنهم منصورون دائما عهد يقوى يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى  
موسى الكافرين مشا فاب لحق عن واحد من أكبر قریش ( سسعه على المحرطوم )

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكبر قریش وهم لا يفهمون حيث أنه يدعوا  
أوبسودوا عن أنفسهم ، ودهنوا وهاجروا إلى الحشنة حميدة لأنفسهم من بطش هؤلاء  
الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عن يحمية ، ويرى قوه الحق بعد ذلك في الوليد بن  
المغيرة ، سسعه على المحرطوم ، والوليد بن المغيرة سيد في قومه ، ويأتى يوم بدر  
فيوجد أنه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله

﴿ سَسْعُهُ عَلَى أَخْرَطَوْمٍ ﴾

( سورة القم )

فمن - إذن - يحدد صبره فقال بسيف في يد صفات قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددما  
الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأبضا فتقصص الرسل إنما هي بها لبثت لسماعصين له أنه تنقلى القرآن من الله ،  
لأنه رسول أمي ، والأمة أمية ، ومن مدح أحد من حصومه أنه جيس رلى معهم ، أو قرأ  
كتاباً ، فمن أين جالته هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى من ، لايات التى يأتى فيها : « ما كنت » مثل قوه  
الحق .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِخَبِيرِ الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْتَ أَنْ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة القصص )

ومثل قوله الحق .

﴿وَمَا كُنْتَ تَتَوَاتَرًا مِنْ قَبْلِهِ، مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِصْرِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُسْتَطُونَ ۝﴾

(سورة المكيث)

ومثل قوله

﴿وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْمُلُ حَرَمٌ ۝﴾

(من الآية ١٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته

وقصة سيدنا نوح من القصص التي وردت كثيراً في القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر في بعض السور ، لكن السورة التي سميت بسورة نوح ليس فيها من اسواق التي تعتبر من عيون القصة ، (إها تعالج لقطات أخرى : تعالج التحلة في دعوة نوح ، وأنه ما قصر في دعوتهم ليلاً ونهاراً ، ورسلاً وعلائية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب في سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها في سورة هود .

إذ كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح في سورة « نوح » وقد خلقت من عناصر مهمة في القصة ، وجاءت هذه العناصر في سورة « هود » أو في سورة « الأعراف » التي تتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص انقرآني نجد لها قد جاءت نخدم فكرة ، ومجموعها يعطي كل القصة ، لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتي بلفظة في سورة لنخدم موقفاً ، ولفظة أخرى نخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يرسل لنا قصة محوكة تمداً ، جاء بقصة « يوسف » في سورة يوسف ولم يكررها في القرآن ، لأنها مستوفية في سورة يوسف ، اللهم إلا في آية واحدة :

﴿وَلَقَدْ جَاءَ ذُو يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ ذِكْرِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ سَخَىٰ إِذَا هَلَكَ ۝﴾

(من الآية ٣٤ سورة يوسف)

راجع أصله وخرج أحسنه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد وردت في سورة يوسف حبة يوسف منذ أن كان طفلاً حتى أصبح عزيز مصر ،  
وهكذا نرى أن الحق حين يشاء أن يأتى بالقصة كتاريخ يأتى بها محبوبكة ، ونحن نريد أن  
يلفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظات ، يوزع لقطات القصة على مواقع متعلقة تناسب  
وتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِهِ نُوحًا فَقَالَ يَنْقُومُ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وساعة ترى «اللام» و«قد» فأعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول . وعزنى  
وجلالى لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم حافة هم المواجهون للرسالة ،  
والمرأة محتجبة ، نسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء  
للنبي : خلبا عليك الرجال .

أى أننا لا نجد رسالة لنقدم معك وسألك ، فاجعل لك يوماً من أيامك تعظما فيه ،  
نجعل له يوماً ، لأن الممرض أن تكون المرأة فى ستر ، وبعد ذلك ينقل لها الزوج  
المنهج إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابنته ، والأخ يقول لأخته

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا . وفيه  
على كذا . ولذلك الشاعر العربى يقول :

وما أدرى ولت أحال أدرى أقوم آل حصر أم نساء  
وجله هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول :

﴿لَا يَتَسَخَّرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَشَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَشَىٰ أَنْ

يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن فالنساء لا تدخل فى القوم ، فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم ثلث المتعصب  
والتصلب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسبب ما نوح عليه السلام دعا نومه ونبيههم إلى ثلاثة أشياء . عبادة الله ، فقال : « يا قوم اعبدوا الله » ، ويريى لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : « ما لكم من إله غيره » ، وأظهر لهم حرصه وشعاقه عليهم إذا خالفوا وحصوا فقال : « إن أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

وهكذا تكلم عن العقيدة في الإله الواحد المستحق لعبادة ، وليس آلهة متعددة ، وتعبده أى نطيع أمره ونهى ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . لو أن الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم لى يوم الإعراف ، ود الخوف ، مسألة تنصب تفكير من يستقبلها ويخاف أن يلقاها . فمن الذى يفرع بهذا ؟

إن الذى يفرع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ورجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذى يباح بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهى لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطنتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا مرقف هؤلاء من الدعوة حين يقول

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

مُبِينٌ ﴿٦٠﴾

والملا هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو اللذين : يملأون ، العين هيئة وملأون الغلوب هيئة ، وملأون صدور المجالس بشية

إنهم يخائفون أن تكون دعوة نوح هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ، فبمعنوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق . ( إنا لنراك فى ضلال مبين )

أى عيبة عن الحق ، أو هى تبه عن الحق ، و«مبين» أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ

مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

هم قالوا له : «إنا لنراك فى ضلال مبين» ، المتبادر أن يكون الرد : ليس فى أمرى ضلال ، لكنه قال هنا «ليس بى ضلالة» ، أقول ذلك بتعرف أن كل حرف فى القرآن موزون لموصفه . هم قالوا له : إنا لنراك فى «ضلال» ، ويرد عليهم : ليس بى ضلالة ، لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفى الأقل يلزم منه نفى الأكثر ، مثلاً عندما يقول لك صديق : عندك ثمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندي ولا ثمرة واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفى للأكثر (قال يا قوم ليس بى ضلالة)

وحين ينفى نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فلذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لأتهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكى يرسل من عند إله حق .

﴿ .. وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الاعراف]

وقوله . «ولكنى» استدراك فلا تقولوا . أنا فى ضلال ، فليس فى ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، والله لا يعطى غير الهدى .

(رسول من رب العالمين) أى من سيد العالمين ومن متولى تربية العالم ، ومن يتولى التربية لا يُترك متهجاً يضل به من يريهم ، بل يتزل متهجاً ليصلح من يريهم ، وسبحانه قل أن يأتى بهم إلى اوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول .

﴿ أَبْلَعَكُمْ رَسُولَاتِي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ  
مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

والبلاغ هو إيهام الأمر إلى صاحبه ، يقال : بلغت المكان العلاء أي انتهيت إليه  
وه البلاغة ، هي النهاية في أداء العبارة الجميلة ، وقد أبلغكم أي أنهى إليكم ما حمله  
الحق من مسج هداية لحركة حياتكم ( أبلغكم رسالاتي )

وكان يكفي أن يقول : « رسالة ربي » ، إلا أنه قال : ( رسالات ربي ) لأن أي رسول يأتي  
بالمسج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد : إنه جاء ليأفص ما جاء  
به الرسل السابقون ، فيقاله وجاء به أي رسول سابق بقوله ، وسلم أنه كانت هناك  
صحف شيت ولانريس . فقال : إنه يلع رسالت التضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة  
لادريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيت وغيره من الرسل .

أي أبلغكم كل ما جعده الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلاً قال  
سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

( من الآية ١٢ سورة الشورى )

وهو الأمور المستقرة لثابت العقيدة ، والأحكام التي لا تتغير أو رسالات ربي ، لأنه  
كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ، فالיום جاءت له رسالة يعلمها ، وعداً تأتي له  
رسالة يعلمها ، ولو قال : « الرسالة » لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له  
ثم يقولها ، ولكن نوح كان يبلغ كل رسالة تأتيه في وقت إبلاغه بها ، لذلك فهي  
« رسالات » . أولاد موصوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من  
مصالح ، هناك رسالة للأوامر ، ورسالة للمواهي ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ،



ورسالة للتبشير ، ورسالة للإلذار ، ورسالة ليقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نعم - أى جزء من القرآن ونسط منه - يعتبر رسالة ، فما يرسله الله فى يوم هو رسالة للناس ، وهذا له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله : « أنصح لكم » لأن البلاغ يقتضى أن يقول هم مبعث الله ، ثم يدعو القوم لاسماع هذا المنهج بأن يوفق قلوبهم ويحاط بهم بالأسلوب الهادى وينصحهم ، وأنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولمعت إلى فهم العبارة القرآنية . ( وأنصح لكم )  
والنصح أن توضح للإنسان المصلحة فى العمل ، وتجرد نيتك عما يشوبه . وهل أنت تنصح آخر بأمر يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة مشبهة ، وإن نصحت بأمر يعود عليه وعلبك فهذه نصيحة لك وله ، وكفى حينما تقول « نصحت لك » أى أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقد ، وبذلك يتضح المارق بين « نصحت » و « نصحت بك »

﴿ وَأَنْصَحُكُمْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

( من الآية ٦٢ سورة الاعراف )

وكأن سيدنا نوحاً مخاطب قومه : إياكم أن تعلموا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله . ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمى الله ، بل أنا عبدى مسائل أخرى سوف أقوما لكم إن اتقيتم الله وامتدكنم الاستعداد الإيماني ، وما سأعطيكم منها جرعات . وقوله : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعنى أنه سيحدث لكم أمر فى الدنيا لم يحص بالأمم السابقة عليكم وهو أن من يكذب الرسول بأعنه الله بنبيه . وثلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إفرس

﴿ فَكَلَّا أَحَدَنَا بِذَنبِهِ قَتَلَهُمُ مِنْ أَوْسَلَا عَلَيْهِ حَاسِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَحَدَهُ أَنْصِيحَةً وَمِنْهُمْ مَنْ

خَسَفَ بِهِ الْأَرْضُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾

( من الآية ١٠ سورة العنكبوت )

ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يكذب سبحانه أحد عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أي أن الله أعلمني لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمني أن لكل إخبار بالخير ميلاً وميلاً . ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ  
مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٣

« أوعَيْبْتُمْ » وكان من الممكن أن يقول « أعجبتم » ، لكن ساحة أن يحى بهمة الاستفهام ويأتى بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة : أي أنه يقول . « كذبتُمْ » ، وعجبتم من أن الله أرسل عن لسان « ذكر من ربكم » . والذكر ضد السبان ، وأن الشيء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويمر على اللسان .

وقد وردت معاني كثيرة للذكر في القرآن ، وأول هذه المعاني وقعها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ ظَهْرَكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي الْحَكِيمُ ﴾ ١٤

(سورة آل عمران)

وكذلك في قوله الحق :

﴿ إِنْ تَحْنُ تَرْتَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنْ لَمْ تَحْنُ فَطَوَّلَ ﴾ ١٥

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن .

﴿وَأَنزَلْنَاكَ ذِكْرًا لِّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

( من الآية ١٤ سورة الزخرف )

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صبيلاً إلى يوم القيامة ، لأن الناس سترى في القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن ( العرب ) ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطة بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفاً جديداً  
أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿بَقَدْ أَتَرْنَاكَ بِالْكِتَابِ فِيهِ ذِكْرُكَ﴾

( من الآية ١٠ سورة الأنبياء )

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تدرجكم ، ويأتى الإسلام الذى يسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كأسد اسط .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

( من الآية ١٣ سورة المجرات )

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

( لا فضل لعرب على أعجمى إلا بالتقوى ) .

وسيط القرآن عربياً ، وهو معجزة في لغة العرب ، وبه منتظر كلمة العرب موحدة في هذه الدنيا . إذن فشراف القوم يحى . من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿أَمْ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ۝١﴾

( سورة ص )

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سيق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى في القرآن ، ويجد خبر المسلمين يعشون بالقرآن ويطلبونه في صفحة واحدة ، وعلى ورق فاحر قد لا يستعملونه في كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين يتحرفون قليلاً عن المنهج . وقد يتناساه بعضهم ، لكن في

مسألة القرآن تحداً لكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد نجد امرأة كاشمة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد نجد من لا يصلي ويركب سيده يصعب فيها المصحف ، وكل هذا ذكر . ونجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، وممجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرف أن (الذكر) قد ورد أولاً بمعنى القرآن ، وورد باسم العصية والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل : فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرِبْ لِنَاسٍ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا سَتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْعَنُونَ ﴾ (٢) [سورة الأنبياء]

أي أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٨) [سورة الأنبياء]

إذن فالمراد بالذكر - أيضاً - كل ما نزل على الرسل من منهج الله

ومرة يطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار ، والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْسَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَجْتَبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٩) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَلِيَقْصَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . ﴾ (١٠) [سورة المائدة]

والمراد هنا بالذكر الاعتبار والتذكير وأن يعيش كمنهم من منهج الله . ومرة يراد بالذكر ، التسميح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هِيَ بَيِّنَاتٌ لِّدِينِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٢٦)

وَحَلَّ لَا تُنْفِهِمْ حِجْرَةً وَلَا يَتَّبِعْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقِمِ لصلَاةٍ وَإِيَاءِ الزُّكُوةِ . ﴿٣٧﴾

[مسودة الورق]

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالعدو والأصنام وهم رجال موصوفون بأنهم لا تليهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد بَطَّقَ مذكر ويراد منه خير الله عني عادة ويردنه كذلك ذكر عبادتهم له  
بالطاعة ؛ فسيحبه يذكروهم بخير وهم يذكرويه بالطاعة . هرأى من شئت قول الحق  
سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَهَيِّئْ عَمَىٰ الْفَحْشَاءِ وَالْمُسْكَرِ وَالْبَهِيِّ بِعُظْمِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿سورة الحديد﴾

وفي آية أخرى :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْمَغْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (١٥)

[سورة العنكبوت]

وما دام قد قرأ حل وحلا : « ولذكر الله أكبر » أى ذكر الله لهم ناسعهم والخيرات :  
مذكوره فصل وحسد وهو الكبير المتعل ، فهناك إذن ذكر ثاب ، ذكر أقل منه ، وهو  
العبادة لربهم بالطاعة ، هنا يقول الحق :

﴿أَوْ عَصِيتُمْ إِنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُذِركُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٩٣) ﴿

ما وجه العجيب هذا ؟ نعم أن العجيب هو إظهار الدهشة وإثبات النفس من حصول شيء على غير ما تقصيه موقع لأمر ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة وتتساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبعياً ورتيباً ، حدثت تلك الدهشة ودلت العجب

وعجبتكم ماذا؟ اقرأ - إذن - قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿٦﴾ نَّحْمَدُكَ أَنْ حَمَدُكُمْ مُبْدِيهِمْ ۖ﴾ [سورة]

موصع العجب هنا أن جاء لهم مبعور رسول من جنسهم ؛ فمن أى جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من عبائهم أنهم أولادو الرسول ملكاً .

﴿ نَلَّ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (١)

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً فى البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبوا وغيبوا لى الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يبعث البعث مرة ثانية ١٩

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات

العجب عندهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنها هنا لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا فى الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضى أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطراً عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون مسقفاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان هم خلق هذا الكون وأن يفتح فى أن يعرف من صنع الكون ، وحين باقى الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تصعبون ١٩

كان القياس أن تتلفوا على من يحرككم بهذه الحفيفة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى صميمك أيا الإنسان . لا يقولك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام من الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وثقت قديماً . حب أن إنساناً وقمت به حائرة فى مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شيء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، قام ، ثم أدق من هذه الإغصاة ؛ وغويىء بمائدة أمامه عليها أطياب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً فى المكان . بالله نبل أن يأكل ألا يتساءل من أحضرها ١١٩ كان الواجب يقتضى ذلك

إذن أنتم تصعبون من شيء تقتضى العطرة أن سمحت عنه ، وأن يؤمن به وهو الإله

الذى لا يتنفع بطاعتنا أو معاداتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشيء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتغفل وتمنع من المعاصي والمحرمات ، ولكن يُقابل ذلك الثواب في الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون معصية التكليف ؟ لماذا لا يستغيد إن العقل كاف ليدلنا - دون منهج - على ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه فهو حسن أم سيئ . ونضطر له نفعله ، وإن لم تكن في حاجة له لا نفعله .

ويقول لهذا القائل لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسن بك وحده أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك في الكون . ولنتعرض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها ، لكن الحس الحقيقي أن يفصل في مسألة ملكية هذه القطعة من القماش من بعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألا يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيئ ، لأن الحسن بالمعنى البشرى سنصطدم فيها أهوائنا

ومثال آخر : افترض أننا دخلنا مدينة ما ، وأبنا مسك جيلاً قاحراً وكل ما يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ، لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير . فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبائها أو زوجها ؟ لا .

إن الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطيبى المعطى الذى تستلزمه المنعمات فقد جاءكم البلاغ عن لسان رجل منكم ولما ظن بقل الحق . لسان وجس ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق

﴿ رَبَّنَا وَهَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾

( من الآية ١٩٤ سورة آل عمران )

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذي رخصه الحق لكم قد جاء لكم بالمسيح الذي نزل عن الرسل . ومهمة الرسل صعبة ، فليست مقصورة على التبسيط باللسان لأن مشاقها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم - كما نعلمون - لم يشع من حير شعير قط ، وأرلاده وأهله - على سبيل المثال - لا يأخذون من الركاة ، والرسل لا تورث فجميع ماتركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة عن الرسول ، وهذه هي العنيدة في أنه لم يعمل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما على رجل منكم . تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾

( من الآية ٦٢ سورة الأعراف )

ما هو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردى الألوهية والنبوة . وبمضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة انبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ، لأن الملائكة لم تعص وطا هيبة ولا يعرف عنها الكذب . لكن كيف يصح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المواجهة ، ولا بد أن يراه القوم ويكلموه ، وأملك أنت لى تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل هيئة رجل . إذن أنتم تستمعون من شيء كان المنطق يقتضى ألا يكون .

﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمَرُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾

( سورة الإسراء )

وقولهم هذا في قمة الغباء . فقد كان عليهم أن ينهاتوا ويقلوا على الإيمان ، لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماهيه من قبل ، وكذبت أسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً خذى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . وما دام هو منكم ويعرفون تاريخه وسبوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن يقولوا لأنفسكم إنه لم يكذب في أمور الدنيا فكيف يكذب في أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلا بد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق

﴿ رَأَوْا حَسَنَةً مِّمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ وَكَانَ عَلَيْهِمْ مَا يَفْعَلُونَ ﴾

( سورة الأنعام )



وهي الآية التي نحن بصددھا يقول الحق: (على رجل منكم ليلدرككم ولسقو ولعلكم ترحمون).

إذن فمهمته أن ينذر ، والأذار لقصد استفوى ، والتفوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل الإنذار وهو إخبار بما يسوءك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف لأنه سيسببك وبها يفتك ، واليشارة عند الإنذار ، لأنها تحذر شيء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يحند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم وأن يتعد عن الشيء الضعيف .

وهكذا يكون التنبيه والإذار لتتقى الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان في التقوى التي تؤدي إلى الرحمة .

إذن فمواظب تعجبهم من أن يجيبهم رسول مردودة ؛ لأن مواظب التعجب هذه كان يجب أن يلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس ليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول ولم يأت ملكاً ليكون قدوة

وكذلك لم يرسله الله من أهل الحياه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بغير العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين حتى الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال ، إن كل تشريع من الله أرده المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدي الدين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الحياه والسلطان . ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ ﴾ [سورة الزحرف]

ولقد كان قبيحهم أن يترن القرآن على رجل عظيم معاييرهم ، وهذه شهادة مهم بأن القرآن في ذاته منهج ومعجزة . ولم يتساءلوا وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذي يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ مَا مَرَكِ الْإِبْرَءِيَّةُ وَمَا مَرَكِ الْإِبْرَءِيَّةُ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْنَى الرَّأْيِ ﴾ [سورة هود]

وهذه هي العظيمة ؛ لأن أتباع محمد ﷺ لم يكونوا من الدين يفرص عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبقتولهم ، وفرصوا الدين بقرة سلطانهم ، لا ، بل يجر على أتباع رسول الله فترة صعاف مضطهدون ، ويؤذون ويهاجرون ، فلهمة في البلاغ عن الله تأتي لئذ الرسول ، ويتنق الأتباع لتألمهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتعوى جاءت نتيجة الإيذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ  
وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا  
قَوْمًا غَمِيرًا ۝ ٦٤ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإجماء ، ونعلم المقدمة الطويلة التي سبقت إعداد سيدنا نوح ﷺ للرسالة ، فقد أراد له الله أن يعلم التجارة ، وأن يصنع السفينة

﴿ رَكَّلْنَا مَوْئِدَ مَنْ قَوْمُهُ خِيفُوا مِنْهُ ۝ ٦٣ ﴾ [سورة هود]

ولم يخف الخس هنا بسيرة الطوفان التي قال فيها في موضع آخر من القرآن :

﴿ لَفَتْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ ١١ ﴾ [سورة القمر]

وجاء الحق هنا بالتيمة وهي أنهم كذبوه

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۝ ٦٤ ﴾

[سورة الأعراف]

وكانت هذه أول حدث حقابي في تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح ﷺ هي أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم السلام فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا في حرب أو صراع ، والسماء هي التي

تذهب ، فحينها علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستلغ  
لإنسانية رسلها صار أتباع محمد مأمورين من أن يؤدبوا الكافرين  
ول تكذيب نوح عليه السلام يأتي الحق هنا بالنتيجة .

( فأنجباه والذين معه ) ولم يقتل الحق . كيف أنجاه ولم يأت بسيرة العتق ، بل أخير  
بصير من كذبوه ، ويأتى بالعقاب من جنس الطوفان

﴿وَأَمْرًا الَّذِينَ كَذَبُوا بَعَائِنَتَنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

( من الآية ٦٤ سورة الاحزاب )

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عيبه كليهما ، وهناك أيضا عيه  
وأعمته ، والعمّة في البصيرة كالعمى في البصر أى ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى  
خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسوة فيه  
أيضا . بعد أن جاء بنوح يأتى يهود

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ مَا عَبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَسْقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

وساعة ماتممع : ( وإلى عاد أخاهم هوداً ) أى أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ،  
وه أخاهم « موقعها الإعراب « معقول به « ويدلنا على ذلك قوله في الآية السابقة ( أرسلنا  
موحاً ) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً . وكلمة « أخاهم » تُشعرُ بأشياء كثيرة : إنه من  
جنسهم ، ولعته لعنتهم ، وأنهم به ، ويعرفون كل شيء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك  
إشارات تعطى الأسس بالرسول : فم يأت لهم برسول أجيب عايش بعيداً عنهم حتى  
لا يقولوا . لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة عليا . بل جاء هم بواحد منهم وأرسل إليهم  
« أخاهم » وهذا الكلام من « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأى يقول . إن هودا لم يكن من قوم عاد ، ولأن

الأخوة بوعال أخوة في الأب القريب ، أو أخوة في الأب البعيد ، أى من أحسبكم ، من آدم ، فهو إما ح من الأب القريب ، وإما أخ من الأب البعيد . وقد قلت من قبل إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دحل عليه الحاجب فقال يا أمير المؤمنين ، رجى بالدب يقول إنه أخوك ، فتساءلت علامح معاوية وتعجب وكأنه يقول حاجبه لا تعرف إحدرة أمير المؤمنين ؟ وقال له أدخله ، فادخله . قل معاوية للرجل : أى إحقق أنت ؟

قال له - أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقصودة - أى أن الناس لا تشبه إلى هذه الأخوة - والله لأكون أول من وصلها

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْتَظِرُونَ أَفْعَدُ اللَّهُ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١٥)

(سورة الأنعام)

ونلاحظ أن الحق قال هل لسان سيدنا نوح لقومه

﴿ فَقَالَ يَنْتَظِرُونَ أَفْعَدُ اللَّهُ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١٥)

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد بأن (هل يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غير الله أتأتون) .

وهك : قال : فقط من غير الماء : وجاء في قول نوح : عدل : وهذه دقة لأناء لسته : لأن الذى يتكلم إله ورس : فأتى مرة : فاء : وثانى مرة بعير : فاء : رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد ورسول رسول ، ولجماعة هم قوم الرسول . ويعلم أن : فاء : تفنص العقيق ، وتفيد لإحاح عليهم ، وهذا توصحه سورة نوح : لأن الحق يقول فيها

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاً وَهَبْهُمُ ۖ ثُمَّ بَرَدْتُهُمْ دُعَاوَىٰ إِلَّا مِرَدًا ۖ وَإِنِّي

كَلَّمْتُ دَعْوَاهُمْ لِنَعْرِضَهُمْ جَعَلُوا صِبْغَهُمْ فِي آدَانِهِمْ وَأُشْجَعُوا لِيَهُمْ وَأَصْرُوا

وَأَسْكَبُوا أُسْكَرًا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ ذَمِّهِمْ حَبْرًا ۚ ثُمَّ بَيْنَ أُعْلُنُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۖ فَقَتُّ أَسْغَرُوا رَبَّكَ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا ۝

(سورة نوح)

إذن فالعلم مناسبة هنا ، لكن في مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أو ثلاث مرات ، لكن بلا استمرار والحاج ، وهذا يوضح لنا أن إلخاخ نوح على قومه يقتضى أن يأتي في سياق الحديث عنه بـ . لا فقال : « وألا نأني في الحديث عن دعوة سيدنا هود » وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإصحاح نؤمن رساله سيدنا نوح في قوله الحق .

﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ مَنَّةٍ ۖ لَا يَمْلِكِينَ نَجْدًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة المكيوت)

ظل سيدنا نوح قرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرّاً وعلاية ، لكنهم كانوا يفرّون من الإيمان ، لذلك يأتي الحق في أمر دعوة نوح بالعلم الى تدل على المناهضة أما قوم عاد فلم يكن لهم « بالعلم » بل جاء به « قال » :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۖ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل .

﴿ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفي مسألة قوم عاد قال : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون »

ومع أن الأسلوب واحد والمعان واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإنداز ، لكن لم يقل الحق ذلك ، لأن روحاً كان عنده علم بالعذاب الذى سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب

العملية التي حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ، والله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

أي أن العذاب قد يتظركم ويهلككم مثل قوم نوح .  
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ أَنْتَ نَارُكَ فِي  
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَمُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِ ﴾

في هذه الآية جاء قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ ، وفي قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكنتم إيمانهم وأسماء ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكنتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى في شأنهم ﴿ الذين كفروا ﴾ قد جاء مناسباً للمقام ، لأن فيهم مؤمناً لم يقل ما قالوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَمُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِ ﴾

( من الآية ٦٦ سورة الأعراف )

أما قوم نوح فقد قالوا

﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾

( من الآية ٦٠ سورة الأعراف )

فقال لهم نوح عليه السلام .

﴿قَالَ يَنْقُومَ لَيْسَ فِي سَلَّةٍ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبية حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ، وأصافت عاد  
اتهاماً آخر لسيدنا هود . ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك رجح ، ومرجوح ، أو أن الظن ما هو  
التيقن . على حد قوله سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَضُرُّوهُمْ أَنَّهُمْ مَلَائِقُهُمْ رَأَيْتُمْ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

أى يبينون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

وفي هذا القول نفي للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبع من الله بصح  
تؤيده الآية التالية وهي قوله الحق :

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنَاقِلُكُمْ فَاجِئٌ آمِينُ ﴿٦٨﴾﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال في قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ، وقال هنا في عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

قد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ في قوم نوح لأن العمل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلح على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسراً ، لذلك جاء الحق بالعمل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليعيد التجدد ، ولكن في حالة قوم هود جاء سبحانه بما يعيد الثبوت وهو قوله . ﴿ ناصح أمين ﴾ ، لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه في دعوتهم إلى الإيمان كما كان يفعل نوح عليه السلام

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود

﴿ أَوْعِظْهُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَنْ رَجُلٍ  
فِيكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ  
مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً  
فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال ﴿ ليذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال في قوم نوح : ﴿ ولستموا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل ليرتدع وينتقى ، لكن نوح ، إذن فحين يأتي بأول الحلقة وأول الحيط وهو الإنذار فمنه يستنتج الساقى وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ رادكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد : لأن قوم نوح هم أول قوم عُذِّبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يعلمهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :



﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَوَادَّكُمْ فِي الْخَلْقِ بَغْضَةً قَدْ كُرُوا  
إِلَّا آلَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْسِحُونَ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ،  
ويقال : إن الطويل منهم كان يسع طوله مائة ذراع ، ولقصير منهم كان يبلغ طوله  
ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أي نعمه عليهم ، وأول  
الحسم أن أرسل إليهم رسولا يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير  
فماذا كان ردهم ؟

يقول الحق :

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ  
مَا كُنَّا يَعْبُدُ أَاءِئْنَا فإِنَّا بِمَا نَعْبُدُونَ كُنتَ  
مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعوهم  
ولا يضرهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على  
الصسم ، فيميل الصسم ويرفع على الأرض وتكسر رقبتة ، فيذهب إلى الحداد ليحيد  
تركيب رأس حديد للصسم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود .  
نحن نقتل آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن  
كن إلهك ينزلنا بعباد فأتنا به إن كنت من الصادقين وهكذا وضع أنه لا أمل  
في اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجيء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ  
وَعَصَبٌ أَنْتَجِدُ لَوْثِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيئَتُوهَا  
أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ  
فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴾ ٢١

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قلوا له : اثنا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وعصب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ فقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . وقد وقع ، فعل ماضٍ ، نكنا معلم أن كلام الله مجرد عن لزمان ماضياً كان أو حاضراً ، لو مستقبلاً ، لقد قال سيدنا هود : وقع ، والعذاب لم يقع بعد ، نكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنه يؤكد وقوع العذاب حتماً ، لأن الذي أخبر به قادر على إنفاذه في أي وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك والذي وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أي التقدير ، ضد الترقية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لا بد أن له شكلاً سيفع به

ويسالهم هو ماخرأ : ﴿ أتجدلوني في أسماء سميئتها وأنتم وآباؤكم ﴾ ، وكل اسم يكون له معنى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الأئمة ، وهل لها سميات حقيقية يُتحد ؟ لا ، بل أنتم خلصتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا سميات ، وأنتم في حقيفة الأمر مقلدون لأبائكم . وما تعبدوه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾

( من الآية ٢١ سورة الاعراف )

أي ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون في الجاهلية إلهاً باسم « العزى » وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ، لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وتُبرأ على غيره ؟ وكذلك سموا « اللات » أي الله ومضاب له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب

﴿ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فانظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضي ، ولكن لنقرأ قوله الحق :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

ودأبى فعل ماضٍ ، وفي الظاهر أنه يناقض قوله : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أن الحدث لم يأت رمنه بعد ، ولكن لنا أن نعلم أن الذي أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا

وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

ونلاحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾

لما هنا في مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله . ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا  
هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان  
العرب قديماً إذا حاربهم أمر ، أودعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم  
يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضربوا إلى الله أن يخصهم به ، حتى الكفرة منهم كانوا  
يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هوداً نبياً فكذبوه  
وآرادوا عتواً وتجبراً فأصابهم جلب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن مزعوا  
إلى الكعبة لكي يدعوا ربهم أن يخفف عنهم المذاب ، وذهب واحد منهم اسمه  
« قيل بن عزة » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذي كان يكتنم لإسلامه على رأس  
جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من لعمالين ، من أولاد عمليق بن  
لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة في هذا الوقت ، وعلى  
رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فنزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقه  
الحرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ،  
فاستمرأوا الأمر ، وظلوا شهر ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقلوا قومهم من  
الجلب ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة ، ولافكروا في أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول  
لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبة في . وأخذ يعكر في الأمر . وكان عنده  
معيّتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغيّتان : قل هي فلك شعر ، ونحن  
نغنيهم ، فقال معاوية :

ألا يا قبل ويحك قم فهينم لعل الله يمطرنا غماماً  
فيسقى أرض عاد إن عاداً قد أمسوا لا ييسرون الكلاماً

فلما غتا ، والغاء فيه تردد وخصوصاً إذا كان غناء موحهاً « ألا يا قبل ويحك  
قم فهينم ، وهينم أي ادعوا الله ، ألم نحصر من أحل الدعاء لعل الله يمطرنا  
الغمام على أرض عاد ، وينتهي الحذب ، وقد بلغ منهم لجهد أنهم لا ييسرون  
الكلام ، فتنبه القيل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نوى إلى علم « القيل » أن  
مرثد بن سعد مؤمن يهود عليه لسلام ، فرفض أن يصحب معه ، وبالفعل ذهب قيل  
ولم يأت معه الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء  
وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين  
الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

## سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ ٤٢١٥ ﴾

اختار الصحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء فقد لهم : أما اختارت السحابة السوداء لأنها توحى بماء كثير منهمر ، وقال الحق في هذا الأمر :

﴿ قَدْ رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّعْطِرٌ نَّآءٌ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة الأحقاف )

أى أن هذه هي السحابة التى قال عليها « قليل » سوف تعطينا المطر

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٥ تَدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْحَوْا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾

( من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف )

إذن فنولهم السابق لسيدنا هود الذى أوردته الحق هنا في سورة الأعراف :

﴿ قَاتِلْنَا بِمَا نَمُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾

( من الآية ٧٠ سورة الأعراف )

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا في سورة الأعراف : ﴿ قد رقع عليكم من ربكم رجس وعضب ﴾

ولم يفلت من المذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْتَ دَآئِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ٧١ ﴾

( سورة الأعراف )

لقد يشر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتماً يؤكد له أن في هذا لسحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظنموا أنهم ينجون بكذب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقُوتَ أَعْبُدُوا اللَّهَ  
مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن  
رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ  
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلِيمٍ ﴾ (٧٣)

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار  
ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من له غيره ﴾ .

إذن فالإمدير للتقوى وللوصول إلى اراحة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً . إن  
القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتي به مفصلاً ولكن سياقه يوحى بالمراد منه ،  
ولا يكرر وذلك ليرى فينا ملكة الاستيعاظ إلى استقبال المعاني . والمثال على  
ذلك في قصة الهدد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَعَقَّدَ الظُّمِرَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَافِقِينَ ﴾ (٢٥)

(سورة المل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدد قائلاً :

﴿ لَا أُعْطِيَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أُدْبِحَنَّكَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَلٍ مَّنْ بَيْنَ رِجْلَيْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدد إلى قوم سبا قائلاً .

﴿ أَذْهَبَ بِكُنُوزِي هَذَا فَأَتَيْتُهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْطَرَفَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٢١٧﴾

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْأ إِنَّيَأُنْزِلُ إِلَيْكُم مِّنْ سَمَاءٍ مَّاءٌ فَأَعْلُوا بَنَاتِكُمْ كَزِمٍ ﴾ ﴿٢١٨﴾

(سورة النمل)

وكان الهدد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبا ، وقالت هي الرد مباشرة ، إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً لفهم من السياق .

وكذلك هنا في قوله الحق :

﴿ وَإِنِّيَأُنْزِلُ مَاءً مَّهِينًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « إنا نزل » ما تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مانوساً به عبد ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه في القيم والأخلاق معروفة بهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَلِيلُهُ

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ مِنْ أَرْضِكُمْ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْرَوْفَ أَخَذْتُمْ

عَذَابُ الْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبيئة هي الدليل على الصديق في البلاغ عن الله ، وهي الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل حرج لهم ناقة ونسب من كبتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لابد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بآلهتنا ، وأنت تستنجد بالهك ، وإن غلبت آلهتنا تبعنا ، وإن غلب الهك

فنبعثك ، وجلسوا يمدعون آلهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح . إن كنت صادقاً في دعوتك ، هذه صخرة منفردة أمامك في الجبل اسمها الكائبة ، فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هي عشرة أعشار - أحسن أنواع الإبل - ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، ونشفت الصخرة عن الناقة ، وغروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من لشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم إنها البينة الواضحة لقد انشفت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشرة ، وبراء - أي كثيرة الثبر - يتحرك جبينها بين جنبتيها ثم أحدها المحاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الآية الإلهية دون أن يجزو أحد على التشكيك فيها ، وهي ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾

( من الآية ١٣ سورة الشرح )

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم في الماء لشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قبلاً عندهم في الآبار

﴿ هَا شَرِبَ وَسَكَّرُ يَوْمَ مَعْلُوم ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الشعراء )

أي لا بد من تخصيص يوم لشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وأنكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماء ، وهي كمية من المياه كانت تكفي كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التي شربتها في صرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة صنعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذي يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لا بد أن تأخذ هيكلًا وحجمًا يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعمها وحجمها ، فمادت مسوية لله فلا بد أن فيها مواصفات إحصائية ، وكان الفصيل الذي ولدته معها ، وكان إذا ما جاء البحر في الصيف تسكن الناقة في المشارف العالية ، وبقرة الورق تنزل في الأرض الوطية ، وحين يأتي الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة



والمعروف أن عدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة لو «أبوك» أن يمر عليها .

كانت الباقية حرة في اختيار المكان الذي تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يحسها بسوء . وكانت هناك امرأتان هما نياق . وناقية الله تغلب نياق المرأتين في المراعى والبناء . فاحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه «أخيمر ثمود» واسمه قنار بن سالف «يقتلها» فقتل الناقية ، فلما قتلت الناقية ، طلع ابنها المصيل على جبل يسمى «قارة» وحاد ثلاثة أصوات ، فنادى سيديا صالح : يا قوم أدركوا هذا المصيل ، لعن الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبي أن العذاب قادم ، ففي اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفي اليوم الثاني تكون محمرة ، وفي اليوم الثالث تكون مسودة ، فقد كانت الباقية هي ناقية الله المسوية له سبحانه ، وقد تأكدوا بالامر المشهودي من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة لنشء الموعود به . لكن الغباء أنساهم أنها ناقية الله .

﴿فَلْيَدْعُ نَاقَةُ اللَّهِ إِلَىٰ آيَةٍ تَدْرُوهَ ۚ تَأْكُلُ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا سُوءَ  
قَبْحٍ فَحَدِّثْ عَنْبَاءَ آيَةٍ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أخيمر ثمود الناقية .

ويقر الحق بعد ذلك :

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ  
وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا  
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ

## ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ٧٤

ومن قبل قال الحق لفيلة عاد :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ تَحْتِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وعنا قال الحق ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصبتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهي بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم في الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المبسط الذي لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهلهم مرتين في العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة في لجبل فهي فرصة لأن يتأمل عظمة الحق في تنبيه الخلق إلى ما يبيدهم وهي بانفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿مَآذِرُكُمْ أَتَى اللَّهُ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآلاء الله - كما عرفنا - هي نعمه التي لا تحصى ، ويسبهم إلى عدم نشر الفساد في الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالَ الْحَلَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾

لِلَّذِينَ اسْتَظْعَفُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُونَ  
أَنْ صَلَحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا  
أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

( من الآية ١٦٦ سورة البقرة )

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاء لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فاقبلوا عليها ، أما الملا وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يحملون العيون هية ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين - لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر - قال هؤلاء الملا من المستكبرين لئن آمن من المستضعفين :

﴿ أَنْتَعَمُونَ أَنْ صَلَحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

( من الآية ٧٥ سورة الأنعام )

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فعادا قال الملا المستكبرون ؟

يقول الحق :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

إِذْ فَعَدُّوا كُفْرًا بِالْقَوْلِ وَخَسِرُوا إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ وَهُوَ قَتْلُ النَّاقَةِ ،  
ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ  
وَقَالُوا لَا يَنْصَلِحُ اتِّفَاتِنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ  
الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧٧)

والعقر : هو الذبح بالسنة للوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ .. اتِّفَاتِنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧٧)

[ سورة الأعراف ]

والصادقين : تقول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنى  
مرسل لهم برعم حدوث الآية الواضحة وهي خروج الناقة من الحبل ، لذلك يحل  
عليهم غضب الله المتمثل في قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ  
جُثَّةً ﴾ (٧٨)

والرجمة هي الهزة التي تحدث رجة في المهزوز . ويسمى القرآن مرة بالطاعية .  
في قوله الحق

[سورة الاحزاب]

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغُوتِ﴾

والتي أصبحوا من بعدهم «جاثمين» ، وهو التعبير الدقيق الذي يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه . أو كما نقول «انسخطوا على هيئاتهم» .

«فالجاثم» هو من لزم مكانه فلم يرح أو يصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرحمة يقول الحق :

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنفُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ  
بِمَسْأَلَةِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ  
التَّصْـٰدِيقَ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء للذمة ، مثلما يقع واحد في ورطة فيقول له صديقه لا أمل لك شيئاً الآن فقد صحتك من قبل . أو أن شريراً قد قتل ، فتقول له : (يا صحتك) . وأنت تتكلم لكي تعطي لنفسك براءة العذر ، أو كما فعل ﷺ مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم في قليب بدر ، وقال ﷺ : يا أهل القليب ، يا فلان ، يا فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فقال الصحابة :

أوتكلمهم يا رسول الله وقد جيئوا . قال والله ما أنتم بأسع لـ أقول منهم ولكنهم لا يستطعون أن يحييوني .

وكان سيدها صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنتجه ونصح لهم وتحسن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ، لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد بعصب عليه

ويعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ  
مَا سَأَلَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتي باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف عن من سبقه من أصحاب الرسالات

وما هو رمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال وهي الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة هي أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلغ الرسالة لا يتوانى لحظة في أداء المهمة ، فكان تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له : « بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكان الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾

( من الآية ٨١ سورة الأنعام ) -

وكلمة « قومه » تعني أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيعة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ، معاد كان « هود » من بيئتهم ، و« ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلننمظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبها إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوط وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوط طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أحدهم المقيم معهم في البيعة نفسها . ولكنهم « قومه » ، لأن عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لنتبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربى نهاكم عن هذه العملية الفذرة وهي إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استعمالاً قد يردعهم عن العملية ويقبحها

وكان استعمالهم سبلنا لوط هو استعمال تقريع ، واستنهام إنكار ، فلم يقل هم . إن ربنا يقول لكم امتنعوا من هذا الفعل . بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للمطررة ، واستنكار نظري .

﴿ أَتَأْتُونَ الْمُنْجِثَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(س الآية ٨٠ سورة الاعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكارياً ليجرحهم ، لأن العقل النظري يأتي هذه العملية : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أي أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقلة ؛ لأن الرجل إنما يأتي الرجل في محل القدرة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشبهها النفس غير السوية . ولكنها عملية قلقة تأنها المطررة السيمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التريد في الفح ؛ فهي ليست قبحاً فقط ، بل تريّد وإيغال وتعمق في الفح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أن الرجل أنشى معية لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجاً ، وعندما يتزوجها يصير جلاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزييد في المحش . وإذا كان هذا الأمر محرماً في الأنثى التي ليست حلالاً له وبعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لن هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركب

﴿ .. أَتَأْتُونَ نَفْسَهُ مَا مَنَعَكُمْ بِهِ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨) [سورة الأعراف]

وفما من قبل إن «من» قد تأتي مرة رائدة ، ويمكنك أن تقول إنها رائدة في كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك في كلام ديننا وقوله ﴿ مَا مَنَعَكُمْ بِهِ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾

أي ما منعكم أحد من العالمين ، والأحدهما هي الفاعل ، وجاءت «من» لتوضح له أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، فلما قلنا قديماً ، حين تأتي لوحد لتقول له «ما عصى مال» ، فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يحتد به وقد يكون معك من بداية ما يقال به أنه مال ، وقوله الحق

﴿ .. مَا مَنَعَكُمْ بِهِ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨) [سورة الأعراف]

يعني أنه لم يستقم أي أحد من بداية ما يقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن يعيها أكثر ، واسم «التي» في قوله ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ هي تعيضية أي ما منعكم بها أحد من بعض العالمين ، فما هذا الأمر ؟ لقد سمعنا فاحشة ، وهي يريد في انقح ووصفة لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فطرية لعامة

لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقلياً نجد أن الإنسان محارق كخليفة في الأرض وعنه استثناء نوعه ، لأن كل فرد به عمر محدود ، وبحلف الناس بعضهم بعضاً ، ولا بد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله الإنسان الأقوات التي تبقى ، وحلل له الزواج وسنة لإبقاء النوع ، ومهمة الحكمة تقرر أن يحلف بعضاً بعضاً

وكل خليفة يحتاج إلى أقيان وإلى إيجاب و«لاقتيات» حقه الله في الأرض التي قدر فيها قواها

والسور بشرى جع من سبحانه لذكر ولاشي ومعهما يأتي الإيجاب الخلامي ، مهر محمول ولا في شهر أبيه نطمة ، ثم في أمه جيباً ثم تصعه لترعاء مع والده ويريه الأثبات حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ،



ححمل الأم في الحمل تسعة شهور هو أمر شاق ، لأن الإنسان منذ حمل شيئاً طوّل النهار سيصاب بالنعيب ، لكن لأم تحمل الحين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسياً بمعنى أن الحين في شأنه الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وبطء لمدة تسعة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجرس كان صغيراً في بدء تكويته ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلو جرام في يوم ولادته ، ومن بدء تكويته إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمية يمو فيها هذا الحين تدريجياً ، بشكل اسببى ، فهو لا يزيد في الوزن كل ساعة ، بل يمو في كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يسبب هذا الجزء من الثانية ، وهذا معنى أن الحين يمو انسياً بما ياسب الزمن .

لنحفظ ذلك أيضاً في أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يفرزون اللاعب الشىء على حمل مائة كيلو جرام من أول مرة بل يرمونه على حمل عشرين كيلو جراماً في البداية ، ثم يراد الحمل تدريجاً بما لا يجعل حامل الأثقال في عت ، ويسمى ذلك انسياً للتدريب ، لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى عود ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الرمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأتت إذ نظرت إلى طفلة الوليد ساعة تلده أمه ، ومأقتر حدلاً أنك طفلة تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر في نظرك أبداً ؛ لأنه يتمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو عبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستتدرك نموه ، وهذا النمو الرائد قد تجمع في الرمن العاصل بين حرمرة رأته فيها قبل عيائه وأول مرة سراه بعد عودك .

ومن لطف الله -إذن- في الحمل أن الحين يتمو انسياً ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى لأم حامل ، وهي تسير يوحى وتضىء هي حركتها ، ثم يأتي الميلاد مصحوباً بمساعب الولادة ولامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، وبأحد سنوات إلى أن سق الرشد . وعدم أن أصو الأجسام طمولة هو الإنسان ، ولذلك نحمد لأب الذى يريد الإنجاب بتحصيل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهي أعنف شهوة تأتي من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل يجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذ كان الشهوة هي الطعم الموصوع في المصيدة ليأتي بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لتقبل عليها ، وبعد أن تقبل عليها ، وتتورط فيها تتوفر وتبذل الجهد لتربي الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أحلت وملت عن سعة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت حلقة الأرض ، والشيء الآخر أن الرجل في الجماع يلعب دور الفاعل ، وفي الشذوذ وهو العملية المضادة التي فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً

﴿ وَلَوْ لَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَّكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨)

(سورة الاحراف)

والفاحشة هي العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحدد لها سبحانه من البداية كليل هي أنها أمر معلوم بالمفطرة ، فسأله يقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَّكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون العباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح :

﴿ إِنَّكُمْ لَنَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ  
النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٨١)

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعياً منجبا ، بحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتمليك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتمليك الإنجاب ، وتشركان من بعد ذلك في رعاية الأولاد . وأي خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب لكى يبغى أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإيجاب معا ؛ لبقاء النرع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط ، ﴿ .. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٨١) . ويأتى الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيد لوط :

﴿ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ  
مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظْهَرُونَ ﴾ (٨٢)

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشنود ؛ لذلك قالوا :  
﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ .. ﴾ (٨٢) .

وما هى الحجة التى من أجلها إخراج لوط والذين آمنوا معه من القرية ؟

﴿ .. أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، تَهُمُ أَنْفُسٌ يَظْهَرُونَ ﴾ (٨٢) [ سورة الاحزاب ]

بهل التطهر عيب الا ، لكنهم عاشوا فى انجاسة وألقوا ، ويرفضون الخروج منها ، لئلا يكرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين نجد شاباً يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة فى مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمر ، فتصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يعزلون النساء فحذروهم من معبة الخوض فى أعرض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم لئلا نلوث أنفسنا ، وكأن هذه الصفات صارت سبة فى نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذى يحيا فى القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ

الْقَابِضِينَ ﴾ (٨٣)

وهم حين أرادوا طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازمون .

إنهم بذلك قد تمسكوا بالعقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لا يحتاج فيه سبحانه إلى أحد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أحباهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل الدين والتبعية ؟ إن كان أهله بالنسب فالحق يستثنى منهم « إمرأته » ، وهذا دليل على أن أهل البيت أصوا بما فانه لوط وكذلك الأساع أيضاً . ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْقَابِضِينَ ﴾

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع للإنسان عن الرجس والسوء . ولذلك نجد سيدنا شعبياً حين ينصح قومه :

﴿ فَأَوْقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ (٨٥) [سورة الاحزاب]

ويعتجب القوم سائلين شعبياً :

﴿ أَسَلِّمْتُكَ فَأَمْرُكَ أَنْ تَرْكَ مَا يَعْجُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (٨٧) [سورة هود]

إلهم يتمجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أصمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل شيء . وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون :

﴿ وَقَالُوا يَنْأَىٰ بِالدِّي تَرْكِ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٦) [سورة الحجر]

ومن قولهم يكذب عبيد تكبيرهم ، فمادامو قد قالوا ﴿ نزل عليه الذكر ﴾ فمن الذى نزل هذا الذكر ؟ ، ولذكر هو القرآن ، ولذى برله هو الله . مسجده وبعدي - فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون لرسول بأنه «مجنون» ؟ ، لأنهم ماداموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، ومنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون محبوساً ؟ . زعمهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم بآل هابط .

وهي الآية التي نحن بصدد حو طرب عبيد الحق يقول مسجده .

﴿ فَأَجْبِيْهِ وَأَهْلَ إِلاَ امْرَأَتِهِ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٨٢) [سورة الاحزاب]

إن امرأة سلسل لم تدخل في إلا بعد ، لأن من الغابرين ، و«عبر» تأتي بعد متعددة ، فهي تعنى إقامة ومكث بالمكان ، أو تعنى أى شيء مصى ، كما نك هذا الشيء عبرت أيامه ، أى مضت أيامه ، وليسأل أن يقول كيف تأتي الكلمة الواحدة للمصى ونقيضه ؟ فعبر تعنى بقى ، وعبر أيضاً تعنى مصى وانتهى نقول إن «نمى» ملحق به في هذه الآية ، فمادام «خو» يحويه من العذاب الذى نزل على قوم لوط في القرية فوجد روجه لم تخرج معه ، بل بقيت في المكان الذى نزل فيه العذاب ، وبقيت في مصى ، وهكذا يكون المصى متقياً . فإن قلت مع لبيس الذين أتهم العذاب فهذا صحيح وإن قلت بها صارت تاريخاً مصى فهذا صحيح أيضاً . ﴿ إِلاَ امْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

ونحن لا ندخل في تفاصيل لماذا كانت امراته من الغابرين ؛ لأن لبعض تكلم في حقها بما لا يقال ، وكان الله يدل على نبي من أنبيائه ، لا ، نحن لا أحد لا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجهم وغير مؤمنة به .

ونلاحظ أيضاً أن الحق يتحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط في مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرْبٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحَ وَامْرَأَتُ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

[سورة التحريم]

عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَحَاسَبُهُمَا ... ﴾ (١)

ودقق النظر في كلمة ﴿ تحت عبيد من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض من معنى الحياة وهل المقصود بها الزنا ؟ . ونقول ، ربما لا يدلس على نبي له ، لكن أن تؤمن الروجة أو تكفر ، فهذه مسألة اخلاقية . وكان الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ، فالمسألة هي حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآني : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة نوح بوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيًا منهما كانت متكبرة على زوجها ، لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبيد من عبادنا ﴾ أي أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبيد ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختبار ، وهذا الاختبار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك في مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿إِنَّمَا تَبِيسٌ مِّنْ أَهْلِكَ﴾

(من الآية ١٦ سورة هود)

وحول المحض أن يلمص نعمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم في ذلك يجانبون المصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبها الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط .

﴿كَانَتْ تَحْتِ عَمَدَيْنِ مِّنْ عِجَابٍ﴾

(من الآية ١٠ سورة التهميم)

ولنضربهم أن الاختيار في العقيدة هو الذي جعلهما من الكافرين ، وأن الرسلين نوحاً ولوطاً لم يسعيا إدخال الإيمان في قلوب الزوجتين ، حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه . ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ رِيعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي بِهَذَا حَصْبًا ۖ﴾

وَيُخَيِّمُ مِنْ دُرْعُونَ وَعَمَلَاءَ وَيُخَيِّمُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المشجر ، الذي « ادعى الألوهية » ، لكنه لا يقدر أن يمنم

امراته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد سبباً لا يقدر أن يقع امرأته بالإيمان ، ونجد مدعى الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته ككافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختياري محمي بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وصرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾

( من الآية ١٢ سورة التحريم )

ونلاحظ أن الحق لم يأت باسماء زوجي نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة لوط ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها . فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جداً أن يحصل مثل هذا الأمر لأي امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هي مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِثِينَ ﴾

( سورة الأعراف )

فكلمة « أنجينا » تشير إلى أن عذاباً سيقع في المكان الذي فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلا بد أن يدفع الجماعة التي كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أرادته لهم من يكرمهم ، فقد قالوا

﴿ خَرِّجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ نَاسٌ يَعْظَمُونَ ﴾

( من الآية ٨٢ سورة الأعراف )

لكن ربنا هو الذي أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذي نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإسقاء لوط وأهله بما نزل بهؤلاء النجاة

ويأتي العذاب من الحق :

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ  
عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٨٤

بهل كان ذلك المطر مثل المطر الذي ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول .

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ طِينٍ ۚ مَّثُوَّةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ (٢٤)

[ سورة الذاريات ]

يقول الحق . إنه سيعليهم بالمطر ، فليستبه أنه ليس المطر التقليدي ، بل إنه يعليهم ويستأصهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : « فانظر » أى فاعتبر يا من تسمع هذا النهر ، وهذه القصة تبين وتوضح أن الله لا يهدع الجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب ويقول سبحانه .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوِيهِمُ آتِيتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِهِ هُمْ لَا يَتَّقُونَ ۚ فَاصْبِرْ ۚ لَوْ أَنَّكَ إِذَا مَدَّ يَدَكَ لَأَنجَسْتَهَا ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ ظَنُّهُمُ أَنَّهُ رِيثُهُمْ ۚ إِنَّكُم مَّن كَاذِبِينَ ۚ﴾



و«مدين» هو ابن من ابناء سيدنا ابراهيم جاء واستقر في هذا المكان ، فهر علم على شخصه ، وعدم على المكان الذي اقام فيه وسمى المكان باسمه ، فلما تكاثر اباؤه وصاروا قبيلة اخذت القبيلة اسمه ، ذن ف«مدين» اسم علم على ابن ابراهيم ، وأطلق على المكان الذي استقر فيه من طور سيناء إلى المرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ﴾

الحق سبحانه وتعالى هنا يكرر «أخ» ليبين لك : أنه إن قسا عليهم مرة فسيحتمو عيبتهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوانه ومائوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شيء ، وكان مدين قد تزوج من ربة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقصة المفدية التي يبلغها كل رسول : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ ﴾

والعبادة هي الطاعة للأمر وإطاعة بلهى ، وأنت لا تطيع أمر أمر ولا نهى ناه إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساوياً لك ، فبعد أن يقول لك «افعل كذا» ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شيء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفه : لا تفعل الشيء الصالح ، فالأب لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاته تكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذي سيقدم عليه

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ فَذُجَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ ﴾ (٨٥)

وما دام قد قال لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولا بد أن تكون معجزة يثبثها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبيينة .

﴿ فَذُجَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ قَالُوا هَؤُلَاءِ الْكُفَّاءُ الْمِيزَانُ ۚ ﴾ (٨٥) [سورة الاحزاب]

لأن كل المعاصي والكفر تدفع إلى الإخلال في الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلماذا أن الإخلال في الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتي ليعدلح لأمر الشائع . وهم كانوا يخسون الكيل والميزان .

ويظن الناس في ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاحتلاس فيها هين يسير ، فحين يخس في الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه في آخر الأمر جزءاً كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتظلم فأنت تفعل ذلك في من يشتري . وستذهب أنت بعد ذلك لتشتري من أناس كثيرين سيفعلون مثلكما فعلت ، فإذا ما وبيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ما هو في مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكي بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصلحتك كلها مع الآخرين

إنك حين تباع أى سلعة ولو كانت بلحاً ونقص في الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ما ليس لك ، والقمح والبيع هما بعض من مقومات حياتك ، لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فللسوف يفعلون مثلكما فعلت فيما يمكنك ذلك ، وبذلك تحسر أنت وتصبح الخسران عاماً

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ۖ ﴾ [سورة الاحزاب]

وإذا كانت الخسارة في الكيل والميزان طغيته ومحتمله ، فمن باب أولى ألا تبخس الناس أشياءهم فلا يظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا نسرف لأن السارق يأخذ ما اتصل إليه يده ، ولا نغضب ، ولا نحتلس ، ولا نرتشى ، لأن إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب لله منكم مع أن الخسارة فيه حفيفة ، إذن فبحس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۖ ﴾ [سورة الاحزاب]

وبذلك يكون أمام أكثر من أمر جاء بها سي الله شعيب . ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهذه العبادة تربي فيهم مهابة وتريد لهم حياً واحترام للأمر الأهم ،

وكذلك ليحافظوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يحسوا الناس أشياءهم ، ثم النهي والتحذير من الإفساد في الأرض ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ، ولإصلاح الذي عطبه الله منا أن نستديمه أو نترقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العصر الأول في الحياة المصحرة لك ، بصرفه سبحانه حتى لا يفسد . والحييم الثاني في الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذي يخرجك لك من الأرض والمواشي التي تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح في الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد المصعب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، ففسد كل شيء ، ولا يعدل كل ذلك وقيمه ويجعله سويًا إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع لإفساد في الأرض .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ نَبَأٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَذُوقُوا الْكَيلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْهَسُوا أَشْيَاءَهُمْ

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

( من الآية ٨٤ سورة الأعراف )

إذن فهذه الأشياء التي هي إبقاء الكيل والميزان يأتي الأمر بها ، ثم ينهها بما ينهي عنه وهو ألا يحس الناس أشياءهم وألا تفسد في الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المسجع . أوامر ونواهي ، وقد يبدو في ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، نقول لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمنزل من المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذي تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التي نحتاج إليها هي بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك غير لك ؛ فالذي يقيس بك القماش لا يعيش ، والذي يزن بك ما ليس عندك لا يفك ، والذي يكبل لك الذي ليس عندك لا يشك ، إذن فأنت واحد منهمى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس مهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب

وإذا جئت إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَهْجُرُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ، فانت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألا يحسوك شيئاً ، وإذا أفسدت في الأرض بعد إصلاحها فلناس مأمورون أيضاً ألا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون احظ منهم في كل شيء . ولذلك يجب على كل مكلف حين يستقبل تكليماً فدا يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى ما يؤديه لنفسه : إياك أن تنظر إلى التكليف لك . لا تنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألا ينظر محارمك ، وفي هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألا تضع يدك في جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألا يضعوا أيديهم في جيوبك ليسرقوك ، وبهذا يعيش في أمان

وإذا طلب التكليف منك وأنت غنى أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالي وتعبى وعرفى ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذي خطط مخلوق لله ، والأعمال الذي تفعل لك في الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرص عليك أن تخرج منه زكاة مقدرة . فإياك أن تقول : إنه يأخذ منى . لماذا ؟ لأن عالم الأعيار ياد وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوى ضعف ، ومن ضى افقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطى العنبر وتقويه ، فإن اهتمرت بسيوفك بك ذلك ، وفي ذلك تأمين حياتك ؛ لأبك تعيش في مجتمع فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيمانى لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ (١)

[سورة النساء]

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فدنظر للأيتام في مجتمعك وكن أب لهم ، وحين نصير أنت أباً لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيشعر اليتيم أنه فقد أباً واحداً ، لكنه يعيا في مجتمع إيمانى أو يجد له من كل المؤمنين

أبناء ، فلا يحزن ، وكذلك لن تحاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن عاشرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعيت أيتامى وعشت في مجتمع يرعاهم ، ولكنت تحزن عند ترى يتيماً مضيقاً في مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أيتامى هكذا

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هي تأمياً للحياة ومثال ذلك حين نقول للمرأة تحجبي ، ولا تبدى ريتك تغير محارمتك ، قد تطل المرأة في ظاهراً لأمر أنا صيب على حريتها ، لأنها تسي أن امهح يؤمن لها قبح الشجوخة ، لأنها حين تشروح صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين وينعير شكها من مناعب الخمس وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فدة في العشرين وغير محشمة قد تقنته وتصرفه عن زوجته ، ويصير في روجت نظر غير المكثرت بها ، وغير الرابع فيها فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهي صغيرة ؛ ليصون بها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها ، فإن معها وهي صغيرة فقد منع عنها وهي كبيرة ؛ كن ذلك إذن من تأميات المنهج للحياة .

إذن بإيهاء الكيل ، وعدم يحاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها خير للجميع في الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يدل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٥)

[سورة الأعراف]

وهذا لكم إشارة إلى ما سبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيعام الكسل والميزان ، وألا يحسن الناس أشياءهم ، وألا يفسد في الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك في طار ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتي أيضاً لغير المؤمنين ، وهكذا تكون كلمة الخير شمل خيراً في الدنيا ، وخيراً في الآخرة لمؤمن فقط ، أما كافر مسباح الخير في الدنيا فقط ، ولا خير له في الآخرة ، وقد كنتم مؤمنين فسيضع عب الخير لكم لبصير خيراً دائماً في الدنيا والآخرة

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ بَدِءَ وَتَجْمَعُونَهَا عِوَجًا  
وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قِيَلًا فَكَثُرْكُمْ وَأَنْظُرُوا  
كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

وقوله : ﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد  
على الطريق قد يمنع من يحول الدهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

( من الآية ١٦ سورة الأعراف )

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعباد بدئاً ، لأن  
الشيطان قال لربنا . ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ ، وهما يهوى الحق من  
العود بكل صراط ، لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل ليسى عنها ،  
إمّا لئذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه .  
ولذلك يقول :

﴿فَأْتِ بِهَا وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

( من الآية ١٥٣ سورة الأنعام )

إذد فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة  
غوايات موعة ، فهذا طريق يفوى بالمال ، وذلك يفوى بالمرأة ، وذلك يفوى  
بالجاء . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدهو إليها كل رسول شائعة فى كل ماحوله ، فمن يأتى ناحية  
أى هداية يجد من يصدّه . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ،  
والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿وتبغونها  
عوجاً﴾ .

إنهم ييغنون ويوتون شريعة الله معوجة ومائلة وزائغة عن الاستقامة ، أو نصفونها بأنها غير مستقيمة لتصنعوا الناس عن الدخول فيها ، وينفروا منها ، مثال ذلك السحرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطى النفس اسرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعى أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ، لأن تحريم الربا في رأيهم السقيم المسحوف يضيق على الناس فرصهم . إنهم ييغنون شريعة الله معوجة ليستفيدوا هم من احوالها ، وينفروا الناس منها .

﴿ وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

( من الآية ٨٦ سورة الأعراف )

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين . ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول للتلاميذ . من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ قائلًا للتلاميذ : ومن يقصر في دروسه سنفصله من المدرسة ، وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لمصل الخير ولمصل الشر يحكم الاختيار المنحرف فيهم فلا بد من مواجهتهم بالأمور بالترغيب في الخير والترهيب من الشر .

والحق ها يقول في الترغيب : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَرْتُمْ ﴾

وكانه يطالبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فمن نعلم أن مدين تروج وأنجب عبداً من النرية وكانوا قلة في العدد فكثروهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صبح فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن نطيعوا أوامره . كان عليكم أن نطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحسين .

ونعلم أن شعيباً هو حاس نبي جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . وقد يكون قوم نوح معقودين لأنهم كذبوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هي أن من يكذب الرسل يلقي العذاب ، مصداقاً لقوله الحق :

[ سورة الكافرات ]

﴿ كَلَّا أَحَدًا بِذُنْبِهِ ﴾ (١)

فإذا كان شغيب يندبرهم بأن يظروا كيف كان عاقبة المفسدين ممن سبقوهم فهذا تكبير بمن أعرقهم ومن أخذتهم النصيبة ، ومن كهاً وقلب ودمر ديارهم ، ومن جاء لهم بمطر من سجيل ، فبأن لم يعرفوا واحبيهم بحول الله المدي أنعم عليهم بأن كانوا قبللاً فكثروهم ، فعليهم أن يحاموا صافيه انفسدين إذن فقد جمع لهم بين الترعيب والترهيب

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِآلِئِى  
أَرْسَلْتُ بِهِمْ طَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ  
اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُم مِّثْرُ الْحَكِيمِ ﴾ (٨٢)

وهذا القول يوضح لنا أن صائفه أمنت ، وطائفه لم تؤمن ، ثم جاء الأمر لتدثقتين ، فأمر المؤمنين بالصبر تأيس لهم ، وأمر الكافرين بالصبر تهديد لهم

وهذه دقة القرآن فى الأداء وعظمة البيان والبلاغة إذن ، فكلمة اصبروا تعب فى التعبير عن الأمر بالصبر مدين امرا ، وتمعت فى كشف لمصير الذى ينتظر الدين لم يؤمنوا ، فصبر الكافرين مآله وعاقبه ، إما أن يحجلوا من أنفسهم يؤمنوا ، وإما أن يجدوا العذاب ، وصبر المؤمنين يقودهم إلى الجنة ، وأن الذى يحكم هو الله وهو حير الحاكمين ، لأن المحكوم عندهم بالسنة له ميو ، فلا أحد منهم له أمصية على أحد ولا أحد منهم قريبه ، وإلا قرية القرين ولرلى إليه ، وسبحانه هو لعادل بطلق العدل ، ولا يظلم أحداً .

ويقول الحق بعد ذلك :



﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَخَرَجَنَّكَ بِشُعَيْبٌ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ  
كُنَّا كَرِهِينَ﴾ ٨٨ ﴿

حينئذ من قبل أن يملأهم سداة، والأحيان الذين يملأون العيون هيبة، ويملاؤن  
انقبوب هيبة، ويملاؤن الأماكن تحيراً وقد استكبر الملأ عن قوم شعيب عن لإيمان  
به، وطحوا وهدنوه بأن يخرجه من أرضهم وقالوا مثلث قال من مسقوهم فقد  
مادى بعض من قوم لوط بأن يخرجوا لوطاً ومن آمن معه من قريته. قال تعالى

﴿فَمَا كَانَ حِوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مَنْ أَسْرَبَكُمْ إِلَهُكُمْ أَنْتُمْ  
تُظَاهَرُونَ﴾ ٥٦ ﴿ [سورة النمل]

وكلمة «قرية» مأخذ في حبنا وصعاً عسر وصعها الخفقى، قلقرية الآن هي الموقع  
لأقل من المدينة الصغيرة لكنها كانت قديماً البلد الذي توجد فيه كل متعلبات  
الحياة، بدليل أنهم كانوا يقولون عن مكة «أم قري» وقد وضع الملأ شعياً ومن آمن  
معه يد أمرين: ما أن يخرجوهم حتى لا يمسوا من لم يؤمن هيؤ من، وإما أن يعودوا  
إلى الملة.

وهذا سمته لقضية «أحب أن تنتهوا إليهم في قوله. ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ لِي مَلَّتْ﴾ لأن العود  
يقصى وجوداً مطلقاً حرج منه، ويريد أن يعود إلى لأصل، فهل كان شعيب ولذين  
أمرامه على منتهم ثم امنوا والمطلوب منه الآن أنهم يعودون؟

عند أن نتبه إلى أن الخطاب هنا يضم شعياً والذين معه وقد يصدق أمر  
العودة إلى الملة القديمة على الذين مع شعيب، ولكنها لا تصدق على شعيب  
لأنه بنى مرسلاً، وهنا مثبه أيضاً إلى أن لدى بتكنم هنا هم ملأ من قوم مدين،

ووضعوا شعباً والذين آمنوا معه أمام اختيار . إما العودة إلى المنة ، وإما الحروح ، ونسوا أن الحق قد يشاء تقسيماً آخر غير هذين القسمين . لقد يوجد ويريد سبحانه أمراً ثالثاً لا يخرج فيه شعب والذين آمنوا معه ، وأيضاً لا يعودون إلى ملة الكفر ، كان تاني كارثة تمنع ذلك .

لقد عزل السلا من قوم شعيب أنفسهم عن المقادير العليا ، لأن الله قد يشاء غير هذين الأمرين ، فقد يمنعكم أمر فوق طاعتكم أن تخرجوا ؛ شعباً ومن آمن معه ؛ بأن يصيبكم ضعف لا تستطيعون معه أن تخرجوهم ، أو أن يسلط الله عليكم أمراً يفتيككم وينجي شعباً والذين آمنوا معه . إذن أنت أيها الإنسان الحادث ، العاجز لا تفتت ولا تغترى وتخلق على القوة العليا في أنك تحير بين أمرين قد يكون لله أمر ثالث لا تعلمه ، ويأتي الرد على لسان من آمنوا مع شعيب .

﴿ قَالَ أُولَٰئِكَ أَكْثَرِينَ ﴾

( من الآية ٨٨ سورة الأعراف )

لقد سأل شعيب والذين معه . أيمكن أن يتم قهر أحد على أن يترك الإيمان إلى الكفر ، كان الكافرين قد نلسوا أن الكلفة مطمور في الاختيار ، فالإنسان يحتار بين سبيل الإيمان وسبيل الكفر .

ويتابع القول من شعيب والذين آمنوا معه :

﴿ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْنَحِنَا  
اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ  
رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ  
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاقِينَ ﴾ ٨٩

وقولهم : ﴿ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ أي أنهم يعلمون أن

العودة إلى مثل هذه العلة لون من الكذب المتعمد على الله لأن الكذب أن تقول كلاماً غير واقع ، ونحن قصة غير حقيقية إن أنت قلتها على مقتضى علمك فهذا مطلق كذب . لكن إن كنت عارفاً بالحقيقة ثم قلت غيرها فهذا افتراء واحتلاق وكذب . والدين أصوا مع شعيب عليه السلام يسمون أن العلة القديمة منه ماطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلالة الإيمان بالله ، لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله . ويقولون بعد ذلك :

﴿ بَعْدَ إِذْ أَخْبَأَ اللَّهُ بِهِنَّ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

( من الآية ٨٩ سورة الأعراف )

قد عرفوا أن التكليف اختيار وهم قد اختاروا الإيمان ، وأقروا وأكدوا إيمانهم بأنه سبحانه له طلاقة القدرة ، فقالوا ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ . فمشيئة سبحانه موقر كل مشيئة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصبع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء »<sup>(١)</sup> .

والم يقل سيدنا إبراهيم وهو أبو الأنبياء والرسل .

﴿ وَأَجِبتِي وَتَبَيَّنَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

( من الآية ٣٥ سورة إبراهيم )

لم يقل : وجبتا . بل قالها واضحة ودعا ربّه أن يعبدّه وينأى به وبينه أن يعبدوا الأصنام ، لأنه يعلم طلاقة قدرته سبحانه . إذن فمن آمن مع شعيب احتراموا طلاقة القدرة في الحق ، لذلك قالوا

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾

( من الآية ٨٩ سورة الأعراف )

ولكن الله لا يشاء لمعصوم أن يعود ، وسبحانه يهدي من آمن بهداية الدلالة ويمده بالمزيد من هداية المعونة إلى الطريق المستقيم .

ويتابع أهل الإيمان مع شعيب .

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٨٩)

[سورة الأعراف]

جاء قوله : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لأن خصومهم من الملأ يقرتهم ويجبرونهم قانوا لهم . أنتم بين أمرين انين إما أن تخرجوا من القرية ، وإما أن تعودوا في ملأنا وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب أن المود في الملة لا يكون إلا بلاختيار وقد احترنا الا يعود . إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار ، لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم ، ويحمي عنهم تسط هؤلاء الكافرين

﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٨٩)

[سورة الأعراف]

وساعة نسمع كلمة « افتح » أو « افتح » أو « افتح » نفهم أن هناك شيئاً معلقاً أو مشكلاً ، فإن كان من المُحَسَّنَات يكون الشيء معلقاً والفتح يكون إزالة الأغلاق وهي الأفعال ، وإن كان في المعثرات فيكون الفتح هو إزالة الإشكال ، والفتح الحسي له نظير في القرآن ، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا بَلْآءًا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَاعَتْنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا .. ﴾ (٦٥)

[سورة يوسف]

وكلمة ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ تعني أن المتاع الذي معهم كان معلقاً واحتاج لى فتح حسي ليحدثوا بضاعتهم كما هي . وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ زَيْقُ الدِّينِ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جُمِعُوا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴾ (٧٧)

[سورة الزمر]

ومادم هناك أبواب تفتح لهذا فتح حسي وقد يكون لفتح فتح علم مثلما  
نعلم . ربما فتح علينا بالإيمان والعلم ، ويقول الحق .

﴿ أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ . . ﴾ (٧٦) [ سورة البقرة ]

فما دام ربما قد علمهم من الكتب الكثير لهذا فتح علمي ويكون الفتح بسوق  
الحق والإمداد به . وإشاد على ذلك قوله الحق

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا . . ﴾ (٦) [ سورة طه ]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . ﴾ (٩٦)

[ سورة الاعراف ]

والبركات من السماء كالطر وهو يأتي من أعلى ، وهو سبب فيما يأتي من الأسفل  
أي من الأرض .

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال في قضية بين خصمين ، فهي ليمن حتى  
الآن ، يسمون القاضى الذى يحكم لى قضايا الناس «الفتح» لأنه يزيل الإشكالات بين  
الناس وقد يكون «الفتح» بمعنى «النصر» ، مثل قوله الحق :

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا . . ﴾ (٨٩) [ سورة البقرة ]

لقد كانوا ينتظرون اننى ﷺ ليتصرفوا به على الذين كفروا ، ومن يفتح أيضاً  
المفصل فى الأمر من قوله الحق هـ فى الآية التى نحن بصدد خوارطها عنها

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ . . ﴾ (٨٩) [ سورة الاعراف ]

وهذا القول هو دعاء للحق : احكم يا رب بيننا وبين قوماً بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين فليس لك هوى ضد أحد أو مع أحد من مخلوقاتك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِمٌ شُعْبًا  
إِنْ كُنَّا إِلَّا الْخَاسِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهنا يقول الملا من قوم مدين لس آمنوا ولمن كان لديهم الاستعداد والتهيؤ للإيمان محضين لهم من اتباع شعيب حتى لا يظل الحلا والكبراء وحدهم في الضلال :

وساعة نرى « اللام » في « لن » نعلم أن هنا قسمًا دلت عليه هذه « اللام » . وهنا أيضاً « إن » الشرطية ، والقسم يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج كذلك إلى جواب ، فإذا اجتمع شرط ونسم اكتفينا بالإتيان بجواب المتقدم والسابق منهما ، مثل قولنا : « والله إن فعلت كذا سيكون كذا » : « لن اتبعتم شعبي إنكم إذا لخاسرون » .

وماذا سيخسرون ؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حنهم حين يطفئون الكيل ويخسرون الميراث ، واقوى يأخذ من الضعيف : فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل ويخسرون الميزان بمنهج . وهذه هي الخسرة في نظر المشرك .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ  
جُثَمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

## سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

﴿١٢٤٩﴾

والرجفة هي الهزة العنيفة التي ترج الإنسان رجاً غير اختياري ، وصاروا بها جاثمين أي قاعدين على ركبهم ، ولا حراك بهم ، عتبن ، وهي هيئة الذلة وهذا يدل على أن كلا منهم ساعة أبعد تذكر كل ما فعله من كفر وعصيان ، ولراد استدراك ما فات من محالقاته للرسول ، وأخذ يوبخ نفسه ويتدم على ما فعل ، ولم تأخذه الأبهة والاستكبار ، لأن هناك لحظة تمر على الإنسان لا يقدر فيها أن يكذب على نفسه ، ولذلك نجد أن من ظلم وطني وأخذ حقوق الغير ثم يأتيه الموت يحاول أن يندى على كل من نفى عليه أو ظلمه ليصيه حقه لكنه لا يجده . ولذلك يسمون تلك اللحظة أنها التي يؤمن فيها الفاجر ، لكن هل ينفع إيمانه ؟ طعماً لا . في هذه الحالة لا ينفع نفساً إيمانها ثم تكن أمست من قبل .

ويتابع سبحانه وصف ما حدث لهم إثر الرجفة .

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ

كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٦﴾﴾

وغنى بالمكان : أقام به ، فحين صاروا جاثمين ونجت منهم الديار ، كأنهم لم تكن لهم إقامة إذ استوصلوا وأهلكوا إهلاكاً كاملاً ، وإذا كان هؤلاء المكذبون قد قالوا : ﴿ش اتبعتم شعيباً إنكم دأ لحاسرون﴾ فيكون مآلهم هو ما ذكره ربنا بقوله : ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾

ويتابع قوله الحق عن سيدنا شعيب .

﴿فَنُوحِي عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْغَضَكُمْ

رَبِّي وَإِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ

قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٧﴾﴾

وأتولى عنهم أي تركهم وسار بعيداً عنهم، وحدثهم متخيلاً إياهم ﴿لَقَدْ أَنبَأْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، فكان المظهر العاطفي للإنساني حين رأى كيف أصبحوا، وتعلمت عليهم وأسى من أجلهم، لكن يرد هذا التعاطف متسائلاً متعجباً ﴿كَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ إنهم نوع من الناس لا يحزن عليهم المؤمن، فما بالنا ننبئ ورسول؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول: ما قصرت في مهمتي، بل أبلغتكم رسالاتي التي تلقيتها من الله، والرسالات إذا جمعت فالتقصود منها رسالته ورسالة الرسل السابقين في الأمور التي لم يحدث فيها نسخ ولا تغير، أو رسالاته أي في كل أمر يبع به؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم. أو أن لكن خبر رسالة، ولكن شر رسالة، وقد أبلغهم كل ما وصله من الله، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصيح، والنصح غير البلاغ، فابلاغ أن تقول ما وصلت ويسهي الأمر، والنصح هو الإلحاح عليهم في أن يتوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالنَّاسِئِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ١٤

وعرفنا من قبل أن القرية هي البلد الخاضع لكل مصاح سكانها في دنياهم.

والمقصود هنا أن القرية التي يرسل إليها الحق رسولا ثم تُكذَّب فسبحانه يأخذ أهلها بالناسئ والضراء. والناسئ هي الحمضية تصيب الإنسان في أمر خارج عن ذاته، من مال يضيع، أو فحارة تهور وتهلك، أو بيت يهدم، والضراء هي الحمضية التي تصيب الإنسان في ذاته ونفسه كالموسم، ويصيبهم الحق بالناسئ والضراء لأنهم سوا الله في الرغاء فأصابهم بالناسئ والضراء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتعرفون إليه، ليكون معهم في السراء والضراء. والحق يقول:



﴿ وَإِذَا مِنَ الْإِنْسَانِ لَصُرُّ دَعْنًا لِحَبِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَةَ مَرُ كَان لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ هَرْمَتِهِ .. ﴾ (١٧)

[سورة يونس]

وكان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ما نسيه لصراء أن ينحج إلى حالقه ، وقد جعل الله الصراء وسية تنبيه بتذكر بها الإنسان أن له ربا ، وفي هذه اللحظة يحيب الحق الإنسان المضطر ، وينبئه بمعد قاً لقوله الحق :

﴿ أَسْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴾ (١٧)

[سورة النمل]

وإذ صنع الله مع المضطر هذا فقد بثوب إلى رُسده ويقول : إن الإله الذي لم آجد لي مفرعاً إلا هو ، لا يصح أن أنساه .

وكان الحق سبحانه ونعالي يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَصَرَّعُوا . ﴾ (١٣)

[سورة الأنعام]

وكانه سبحانه يطلب منا حين تجيء البأساء أن نضع إليه ولا نعتمد أن نعيش في الحياة وحده ، بل نعيش في الحياة بالأسباب المحبوبة لله وناسيب وهو الله ، فإذ عرت عليه لأسباب ونعته يروح لنسب ، وذلك يأخذ سبحانه به قرية لا تصدق الرسل بالبأساء والصراء عنهم يضرعون وذلك رحمة بهم

ويقول :

﴿ وَلَسَكِنْ فَسَتَ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (١٤)

[سورة الأنعام]

فهي يتركهم الله في السراء والصراء دائماً ، لا فهو سبحانه يحبهم ويبسبهم بالبأساء والصراء يلفتهم إليه ، فإذ لم يستعرا إلى الله ، فسبحانه يدل مكن السبنة الحسنة ، لذلك يقول :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا  
وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ  
بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ٦٥ ﴾

ويعطى سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ، لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباراً أخذ برير مقتدر فهو يمهله ، ويرضى له العيان ليتجبر - كفرعون - من أجل أن يأخذه بمنة ، وكأنه يسقط من أعلى ، فيعيبه ويعليه من أجل أن يزل به - كما يقولون - على جدران رقبته : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا ﴾ .

( عَفَوْا ) أى كثروا عدداً ومالاً وثروة أى أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلا وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلفتوا ، فيمدحهم ويعطى لهم العافية وما يشرهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بمنة .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ  
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ٦٥ ﴾

( سورة الاعراف )

ونلاحظ أن لحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان في الأرض ، وأنه أمدّه بكل ما تقوم به حياته ، وأمدّه بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبينا ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، فيس لهم الحق أن الذى خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأخذه ، وعانم بما يفسدهم فحرمه ، فليس لكم أن تفتروا على الله حلالاً ، ولا حراماً ، ولكن بعض المشككين في منهج الله قالوا - وما زالوا يقولون - . إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شيء لحكمة قد تكون لغير الطعام ولشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ، فالبرول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشربه .

والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من

الجواهر أن يكون أداء لالفاظ الميكروبات التي تنشأ من عض الأشياء التي يستعملها الناس في حياتهم، إذن فكل شيء محذوق لحكمة، فلا سحر أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها، لأن صانع الصنعة هو الذي يحدد الشيء الذي يوجد ويشيئ الله لها. ونحن نعلم - مثلاً - أن أنواع الوفود كثيرة، فهناك «البسرين» أنقى جداً وهو قصوره برقم (١) وهو محصن بطائرة، ووفود البيرة وهو «السرين» رقم (٢) هذا استخدمت وفود مأكبية وآلة بدل مأكبية أخرى أوسعها كذلك حسب الله الإنسان وسحر له كل لمخلوقات وأوصح هذا يصلح لك مباشرة، وهذا محذوق ليخدمك خدمة غير مباشرة قدعه في مكانه.

وبعد أن عرّف الحق سبحانه وتعالى موقف لجنة، ومواقف الناس، ومواقف أصحاب الأهرام الذين استوت حسانتهم وسيئاتهم، وبعد أن بين المبع كلة أراد أن يبين أن ذلك ليس نظرياً، وإنما هو واقع كسوى أيضاً. ففرق بين الشيء يقال نظراً، وبين شيء يقع واقعاً، فقص عيب قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم، فمن كذب بالرسول أحده الله أحد عزيز مقتدر برقع بشهده الجميع، وذكر برحامهم قومه، وذكر عباداً وأحدهم هوذا، وذكر نمود وأحدهم صاخاً، ومدين وأحدهم شعباً، وقوم لوط وسيدنا لوط، وبين ما حدث للمؤمنين بالجنة، وما حدث للكافرين بالعطب والإدلال، ويوضح الحق سبحانه وتعالى. أنى أحد الناس بالبأساء والبصراء لعلهم يتفهمون، لأن الإنسان مخلوق أعاض الله عليه من صفات حلاله، ومن صفات جماله، الشيء الكثير، فله قوى، وأعطي الإنسان من قوته، والله غنى وأعطي الإنسان من غده، والله حكيم وأعطي الإنسان من حكمته، والله عليم وأعطي الإنسان من علمه.

وإذا أردت أن تستوعب ما يقرئك إلى كمال لعدم نى الله، فاطر ما علمه لكل خلق الله ومع ذلك فهمهم بـ قص ويردون إلى لعدم اداتى في الحق سبحانه وتعالى، وورى عن الإنسان بالأسباب وهي مستحسب له، فهو يحرث ويذر ويرى، وورى بالأرض تعطيه أكلها. وهو يصنع لشيء فيسجيبه له. كن ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لدانيته فذكره الله أن ذكر من دليل لك.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ (٥) أَلَمْ يَرَأَ أَنفَعَى (٦) ﴾ [سورة الفعن]

وصاعه ما يجد الإنسان أن كل الأسباب مواتية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمحرو إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وسجود إرادة أن يصنع أحداً فهو يصنعه ؛ لأن الأبعاد لتى فى الإنسان خاصصة لمراده ، فإذا كنت أبعاصك خاصصة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً لمحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالمحق يلفته إليه فالعادر الذى كان بمقتوته يفس . يلب الله منه القلوة بالمرض ؛ فبعد يده ليساعده إسان على القيام والذى اعتر بشيء يده الله بأشياء . لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبب ، فلا يُغنى بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى فى كونه عجائب ، وسجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائياً واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكشف من أسرار كون الله ما شاء . ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تغلبهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل بهم صاعه الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ وحدا يفسد الآلة ويحطسها ، وتهب زوينة أو إحصار يدمر كل شيء ، أو يشتعل حريق مائل فهل يريد الله بكونه فسداً وقد خلقه بالصالح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نفتر بما أوتينا من أسباب . فالثنين عملوا « الردار » لكى يبين لهم الحدث قبل أن يقع ، يعاجئهم ربنا - أحياناً - بأشياء تعطل عمل « ارادار » ، فيعزمون أنهم ملزوا ناقصى علم .

إذن فالأخذ بالياساء ، والأخذ بالصراء ، سنة كونه ليضل الإنسان وهما وهالماً أنه خليفه فى الأرض لله . وهساد الإنسان أن يعلم أنه أصل فى الكون ، فلو كنت أصيلاً فى الكون فحفظ على نفسك فى انكون ولا تفارقه بالموت . وإن كنت أصيلاً فى الكون فدلل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع فى الكون تمرر عليك ، ولا تقدر عليها أبداً

وترى أكثر من مفاعل نرى يتفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟ ليدل على طلاقة القدوة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فاحذ الناس بالياساء والصراء ، وبالشئ الذى نقول إنه شر إنما هو مطلب اعتدال للإنسان الخليقة ، حتى إذا اغتر يرد الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبب . وحين يأخذ الله قوماً بالياساء التى تعيب الإنسان فى خير ذاته ؛ مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالصراء

## سورة الأعراف

﴿٢٥٥﴾

وهي الأشياء التي نصيب الإنسان في داته ، فذلك ليسب منهم أبهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يحضروا رب الأرض والسماء ، ولكي ينصروا إلى الله ، ومعنى التصرع - كما عرفنا - إظهار الدلة لله وإذا لم يُخَدِ وينعج فيهم هذا ، وقالوا لا ، إن اليأس والصراء مجرد سنن كربية ، وقد تأتي للناس في أي زمان أو مكان تقول لهم : صحيح ليأساء وصراء سنن كربية من مكنون أعلى من الكون ، فإذا لم يرتدعوا باليأس والصراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه ينالهم الله بالنعماء ، فهو القاتل .

﴿فَبِمَا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَحْدَسَهُمْ

بَعَثَ فِيهِمْ مُبْلُونَ ﴿٢٥٥﴾﴾

( سورة الأنعام )

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق يتقم منهم انتقاماً يناسب حرمهم ، ولو أنه أحذهم على حالهم المتواضع فلي تكون العصرية قوية ، بذلك يوسع عليهم في كل شيء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون العصرية قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريبياً هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطي للمتكبرين الكثير ويمدهم في طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد دلت وفائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار في الأرض والحق يملأ له في العلو ويمد له في هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَمَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الْفُرْآنَ وَالْأَسْرَارَ

فَأَحْذَرَهُمْ نَفْتَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٢٥٦﴾﴾

( سورة الأعراف )

وقد يضبط الإنسان أشياء تعلمه بواقع الشر في مستقبله . مثلها مثل « الرادار » الذي يكشف لنا أي خطر في الأفق قبل أن يأتي ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي ليس عندهم حساب ولا مقاييس ندلهم على أن شراً يحيق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإنسان بعقله وفكره الذي لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير الممهور بمهج الله ، وبسما لا يلتفت الإنسان إلى معنى الكثرة ، ويتساءل . لماذا تجري هذه الحيوانات ؟ ! إنه في هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث في بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إن الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إنما يجد الحمار يجري ليعادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإنسان واقفاً حتى يهين ويحيط به الخطر ، فأى إحساس وأى استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزي خلقه ربه فيه ؛ لأنه سبب منه التعلل فأعطاء حكمة العرائر .

وملأهم الحق فد فيه الإنسان بالبأساء فلم ينتفت ، وبالصراء فلم يتبته إلى المنهج ؛ لذلك يأتي له الحق ويمد له بالطنيين .  
لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفُتَحْنَا عَلَيْهِم  
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم  
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ٦٦

أى أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً وبهياً تسلم آلائهم ، لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات ، يحدد ويؤمن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاص لتؤدي مهمتها ، فمابلنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان في كل حيز ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، ثأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردنها بركات مادية تجدها في المحطر الذي يرل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل لبنات ، وكذلك كورها التي تستببط منها الكماليات المرادة في الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هي أن يعطى الموجود فوق ما يتعلبه حجمه ، كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجمه يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة ، ودرن ضيق ، لغتبادل : كيف يعيش ؟ ويجيبك : إنها البركة . ولبركة تفسير كوني لأن الناس دائماً - كما قلنا سابقاً - يظنون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويعملون رزق السلب . رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه وسلب عك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

إذن فقله : ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ أي أن يعطى الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير في الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا . ولذلك سمي المال الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماء زكاة مع أن الركلة في ظاهرها خمس ، فعين ثلث مائة جنيه ونخرج منها جنيهن ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك في الظاهر وإن أقرعت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمي لنقص في الأولى مائة وركاة ، وسمى الزيادة في الثانية محققاً وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُ أَفْلَحَ الْفُرَيْءَ أَمْوَالُهَا تَفَوَّاهُ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

( سورة الأعراف )

إذن فلو أخذ الإنسان قانون حياته من مخالفه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ ولكن كفوا فإحسناهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هي عدالة منه سبحانه ، لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فمادام يقول غير المفسدين ؟ . سيقول الواحد منهم مادام قد استويوا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً . وذلك يغري غير المفسد بأن يفسد ، ويعطى لنفسه راحتها وشهواتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضرب المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملاً عينه منها ، نكس إن جلس مع أجنبية وأراد أن يفارلها ليتمتع بحسبها ، فهو ينافور ويتحير ، وتتصارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذي تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكن هؤلاء المفسدون تدرسوا على الفساد فصار دربة تقرب من الضلالة فذل بهم الحق . إنهم يكسبون لفساد ، ولا يحدون في ارتكابه عتاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا وَهُمْ  
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا  
 ضُجًى وَهُمْ يُلْمِعُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلاحظ وجود « همزة استفهام » و «فاء تعقيب » في قوله الحق ﴿ أَفَأَمِنْ ﴾ وهذا يعني أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل بينهما الاستفهام ، أي أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابت بيانا أو ضجى كما صبح بمن كان قبهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بعتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والنأس هو الشدة التي يواجهها الحق سبحانه الأمم حين يعزفون عن صهيجه وما الذي جعلهم يأمون على أنفسهم أن تزل بهم أهوال كائى نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما تتطلبه الأحداث من رمان



ومكان ، لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان ها هو القرى التي يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتي فيه البأس ، وهو قد يأتي لهم بيّناً وهم نائمون ، أو يأتي لهم صبحي وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان في مواجهة الشمس فالديا تكون بالسبة له نهائياً والمقابل له يكون الليل وقد يحس البأس على أهل قرية نهار ، أو ليلاً في أي وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما في الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفي كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمر يا صاحب النهار أن يأتي البأس ليلاً أو نهائياً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمر أن يكون البأس نهائياً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم .

﴿وَسَكَنَ كَثِيرٌ قَرْيَتِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

( من الآية ٩٦ سورة الاعراف )

وماداموا قد كذبوا بمعنى ذلك أنهم لم يؤمروا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم بدلالة الفعل ، ولا لا تفعل ،

إذن فنهائهم هو حركة غير مجدية ، وغير ذميمة ، بل هي لعب في الحياة الدنيا ، وليلهم نرم وفقد للحركة ، أو عث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على هير منح الله بقضي ليله نائماً أو لاهياً عاصياً ، ونهاره لاهياً ، لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل في الآخرة من الجزاء الحسن .  
ويقول الحق بعد ذلك .

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ

إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

و الأمن ، هو الاطمئنان إلى قصيه لا نير مخاوف ولا متاع ، ويقال فلان

« آمَن » أي لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ آمَنُوا بِمَكْرِ اللَّهِ ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول وهل يمكن ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . . وهذا يقول . تنبه إلى أن القرآن قد قال .

﴿ وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ النَّبِيَّ إِلَّا بِأَهْلِيهِ ﴾

( من الآية ١٣ سورة ناطر )

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِبِ ﴾

( من الآية ٥٤ سورة آل عمران )

والمكر أصله الالتفاف وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة في أعلى إلى غصن معين ؛ لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض . وكذلك يرى هذا الالتفاف في النباتات المتسلقة ويجد أغصانها مجدولة كالجبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة ولكني تتمكن من خصمك فانت تبيت له أمراً لا يخطر عليه ، وإدراك الإنسان من ابشر حين يبيت لآخيه شراً ، ويفقه فتناً يعمى عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوي ابلى بمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبيت لا يكشفه أحد فهو مكر وتبيت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ؛ لأن الله يحمي الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم .

﴿ آمَسُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٩)

( سورة الأعراف )

وهناك من يسأل : هل آمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد آمنوا بمكر الله باصططاعتهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟

نقول : لقد جاء في منهج الرسل جميعاً أن الذي يأمن مكر الله هو العاقل ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذي أنزل المنهج ليحتار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يحسر طمأنينة الإيمان في الدنيا وإن كسب فيها مالا أوجاهها أو علماً ، ويحسر الآخرة أيضاً

ويتبع سبحانه

﴿ أُولَئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ  
أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنُطْبِغُ  
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

و « يهدى » أى يبين للذين يرتئون الأرض طريق الخير ، ومعنى « يرتئون الأرض من بعد أهلها » أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقوبهم . وحين يستقرى الإنسان الوجود الحضارى فى الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما فى يدك وملكتك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذي يأتى على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، وما كنتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل فى بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فاستألة ذنوب ، ويجب ألا يقتري الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى فى حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويحزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتى آخر من بعده . ولذلك يقال . لو دامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحست الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ، فيجب أن تظن وتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يمز عليك تراقه يوماً

واحذر أن تحسن الدخول فى أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج

واستمع إلى قول الشاعر في هذا المعنى .

إن الأمير هو الذي يُسمى أميراً يوم عزلة  
إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطان فصلة  
وحين يقول الحق . ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ .

نلاحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هناعي وضع المعول ، فلم يقل أو لم يهد للذين ، بل قال « يهد للذين » ، فما الحكمة في ذلك ؟ . نعرف أن « الهداية » هي الدلالة على الطريق لموصل للعاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أي أنك قد هدّيت غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهي الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذي هدّى وعسى المهديّ معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على من هداك ، أتشك في هدايته لك ؟ لا ، إن من حقك أن تشك في الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هدّى ، أو يعود أمرها على الاثنين ؛ ففي ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يهدى ويعود كله لمن يهدى فليس في ذلك لدني شك

ولذلك يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي .

« . . يا عبادي لو أن أولكم وتحركم وإسكم وجكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآحركم وإسكم وجكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآحركم وإسكم وجكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أذجل البحر » (١)

إذن فحين يهديكم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذي يعود عليه سبحانه من صفات الكمال بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلي ينشئ خلقه

## سورة الأعراف

﴿٢٦٣﴾

لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا يرى أن كل هداية راجعة إلى التهديى وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ ﴾ ما هو مصلحتهم .

﴿ وَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَفْسَاسٍ لَوْ شَاءَ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ فُلُوبِهِمْ فَهْمٌ لَأَسْمَعُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لَوْ شَاءَ ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هي أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول .

﴿ إِنْ تَوَلَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

وما الذي يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر اجناس الأرض مسحرة مسبعة ، وذلك بثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعنى صفة المحبوبة للمشرع الأعلى ، ثم إنه - سبحانه - خلق خلقاً لهم اختبار في أن يطيعوا وأن يعصوا

فالمخلوق الذي احتضنه سبحانه بقدرة الاختيار في أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصى ، ثم آمن يكون يمانه دليلاً على إنسان صفات المحبوبة للإله .

إذن المعهودون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبة للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه في الآية نفسها .

﴿ إِنْ تَوَلَّيْنَا أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ فُلُوبِهِمْ فَهْمٌ لَأَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الأعراف)

ولم يحط أن الحق لم يقل أن لو نشاء أصباهم لنسويهم وذلك رحمة به ، بل جعل العقاب بالذنوب التي يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا في أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع » وهو الحتم :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

( من الآية ٧ سورة البقرة )

لأن الملوب وعاء اليقين الإيمانى ؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر ، فهذا يعنى أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له . أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج به من الإيمان المطرى الذى خلق الله الناس عليه . لأنك أمت قد سئقت ووضعت فى قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإيمان أن تخرج ما فى قلبك من أى اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنت تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى حوزة . قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل للإنسان قلباً واحداً ، وقلب الواحد حيز ، والخير - كما قلت - لا تدخل للمحيز فيه ؛ فحين تأتى برجاجة فارغة ويقول - إنها فارغة - فالذى يذل على كذب هذه الكلمة أما حين نضع فيها المياه نخرج منها فقاقيع الهواء ، وخروج فقاقيع الهواء هو الذى يسمح بدخول المياه فيها ؛ لأن الرجاجة ليست فارغة ، بل يحيل لها ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئى لنا . ولو كانت الرجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق فى صانعها لنتك المهمة نكان من الحمى أن تنكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر - وانعياذ بالله - لا يسع الإيمان ، ولعاقب هو من يطرح القصيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مقبلاً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قسى بالكفر فهذه عملية لا تؤدى إلى نتيجة

﴿ أَوْ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِنْ تَوَسَّاتُ أَصْنَانَهُمْ يَذُوبُونَ وَطُغَىٰ

عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبين للمدين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم  
بما فعلوا من المعاصى والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم  
وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلك بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم  
لا يسمعون ﴾ أى السمع المؤدى إلى الاعتناء والانتباه فكأنهم لم يسمعوا

ويقول الحق بعد ذلك

حِجْرٌ يَدُّكَ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ  
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا  
كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ  
الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى  
أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال .

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(سورة هود ١٢٠)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شيء من العباد والإصرار والمكاسرة فاصلم  
أنك لست مدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلك هذه الموجة الإلهادية من  
القوم الذين حاط بهم وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بفقر ما فى رسالته  
من العلو فلا بد أن تأخذ أنت أسلوات تسارى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ نَبِّئْنَا الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ رُسُلِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَدْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ ﴾

بِمَا كَذَبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

(سورة الأعراف)

والطبع - كما قلت - هو الحتم ، لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ، لذلك يعلون التكذيب برسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا يفهم منه ، ولكن لاسيطان الكفر وإغوائه في قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ ﴿١٣٢﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، ورددوا منهج الله انذى أرسله على السنة ومله كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل المخلوق ، وهو العهد الذى أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَأَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ قَالُونَ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد ينفى العقل في أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة في آدم ، لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق حَقًّا ذلك أو لم يعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أى إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك تجد نفسك نسلًا لأبائكم ، وهذا يدل على أن الإنسان وجد من حيوان سوى حى انتقل إلى بويضة حية من أمه فنشأ هذا الإنسان ولو طرأ على الحيوان الخنوى موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء



من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فسنصل لأدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جرىء حتى من آدم . وملام فيه جرىء حتى من آدم فقد شهد الحق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سزال التقرير ويقول . ﴿ أَسْتَبْرِكُمْ ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بَلَى ﴾

وصرنا المثل لنقرب وقتنا إن الذرة الشائعة في شيء ، فتصبح في أضعاف الشيء ، وصق أن قلنا : إما إذا جثا بمادة مبنية حمراء - مثلاً - في حجم ستينتر مكعب ، ثم أدبناها في قارورة ، وبذلك يصح كل جزء في القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيها في برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جرىء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل وألقته في البحر فكل ذرة في البحر الواسع يصير فيها جزء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من دهر كل منا أن في كل إنسان جزءاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزء العهد الأول . ولقائل أن يسأل . كيف يحاطب الله الذر الذي كان موجوداً في ظهر آدم ؟ . نقول : كما يحاطب الأرض رحاطب السماء ، فهو القائل .

﴿ ثُمَّ أَسْرَيْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

أُنْتِيَا طَائِعِينَ ۝ ١١ ﴾

(سورة فصل)

هذه فقدم إدراكنا لكمية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدح في أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذه بالنسبة للعهد الأول ، وبعد العهد الثاني الذي أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّمَا أَنَا رَبُّكُمْ مِنْ كَسْبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي

قَالُوا قَرَرْنَا قَالَ فَوَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ ١٢ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه ونعالى .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرْ كُرِّيًّا فِي الْأَرْضِ وَالسَّحْرِ حَقِّي إِذَا هُمْ كُفُتُمْ فِي آثَانِكُمْ وَحَرِّ بَرٍّ بَرِّحَ طَبَقَةٍ وَقِرْحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رُبُجٌ عَامِصٌ وَجَاءَهُمُ الْفَوْحُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَطَوَّأَتْهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَيْنَ الْمُجِيبِينَ مِنْ هَدِيهِ لَسَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾  
(سورة يونس)

إنهم لا يعلمون أنفسهم للعطب ، ولا يخترون بجهامهم وبالأساب التي عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا ينشئون أنفسهم بل يلجأون صاعرين إلى الله فائلين :  
﴿لَيْنَ الْمُجِيبِينَ مِنْ هَدِيهِ لَسَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد في حادثة ، فلما أتجاءم الله أعرضوا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَأْمُرْ الْإِنْسَانُ الْفَرُّ دَعَا لِحَبِيئِهِ أَزْوَاجًا ثَمَّ كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴿١٢﴾﴾  
كَانَ لَمْ يَدْعَا إِلَى صِرَّةٍ مُسَرَّةٍ ﴿١٣﴾﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصاً

والحق يقول ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَافْسِقِينَ﴾

أي أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد ولخروج عنه ، لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر في أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملتزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باخياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته في إطار هذا العهد ، لأن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل في الفسق

أنه خروج الرطبة من لقشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال: فسفت الرطبة أي خرجت من قشرتها كان ربنا جعل التكليف نغيقاً لحماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة من الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث والميكروبات ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفسق ، لأنه خرج عن الإطار الذي جعله الله له لرحمته من المفسد ، ومن العطب الذي يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ  
وَمَلَائِكَةٍ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِرِينَ ﴿١٢٧﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهود وصالح ولوط وشعب ومادا، بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أريد أن يأتي بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أي من الذين تعرضوا في رسالتهم لأشياء لا يتحملها إلا جلد قوي . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أحد فسطاً وافرأ في القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هي أطول قصص القرآن ، لأن انحرافاتهم وبنزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبيائهم كثيرين ، ولذلك فهم يقتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم . إن كثرة أنبيائكم تدل على قاصد دافكم ، لأن الأطباء لا يكترون إلا حين يصح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولاً واحداً لا يكفيكم ، بل لا بد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ .

وكلمة «بعث» - كما نفهمها - توحى وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة «بعث» للرسالات لأن البعث يقتضى أد شيئاً

كان موجوداً ثم انطمس ثم بعث الحق من جديد ، والإيمان يتمثل في عهد لمطره الأول الذي كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيده خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للنسبة ، وهذه الصورة الأصلية هي التي تضم حقائق الإيمان التي كانت لأدم ، وحين يبعث الله رسولا جديداً ، فهو لا ينشئ شيئاً جديداً ، بل يحيي ما كان موجوداً وانطمس ، وحين يطم المساد يبعث الله الرسول ، فكان الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مفومات الحياة ممن سبوه لظل الإيمان مسألة رتيبة في البشر .

لنا نأخذ الأشياء التي أودعها لنا أجدادنا وتنفعنا في أمور الدنيا نحفظ بها وبحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها في إطارها الصحيح . والإنسان يريد أن ينعت من قيود حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه . « أرسل » الرسل ، وعمره أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجرى شيء جديد ، ولكنه جاء بشيء كان المعروف أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التي ورثها لكم أسلافكم وتنفعون بها ، مثال ذلك : نحن نتفع برغيف الخبز ونتفع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية وسيننا الأشياء لمنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهي تحارب الشهوات

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾

(سورة الاحزاب ١٠٣)

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي ينفذ العقل عنه مشدوهاً . وتطلق الآيات ثلاث إطلاقات ، فهي تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبياً معبرة عن كل كمال يوجد في الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارئ لها يأخذ منها على قدر فهمه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة في خلق الأرض ولسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضي مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضي باعثاً وهو الله ، ومبعوث إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المسحج .

راجع أصله ونرجع أحدث الدكتور أحمد عمر حاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والآيات التي بعث الله بها موسى هي أدلة صدق النبوة ، وهي أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج لشاهدتها وسماع لها فرعون وملؤه ، ولعلنا - كما عرفنا من قبل - هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أي الأشراف والسادة . ولماذا حلد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اعتدى الكبار ، والغالب ولعادة أن الذي يقف أمام منهج الحير هم المتضعون بالشر . وهم الفذة أو من حولهم ، ولا يرغبون في منهج الحير لأنه يصادم أهوائهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف في وجه الذين عضوهم بمطالمهم وعضوهم بظلماتهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المعتد !

﴿ ثُمَّ نَعْنَأْ مِنْ بَعْلِهِمْ مُوسَى بِفَارِسَاتِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾

( من الآية ١٠٣ سورة الأعراف )

وإن كانت الآيات هي الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة في التوراة ، أو كانت الآيات هي المعجزات التي تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضى إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التي أرسلها الحق مع موسى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نَجْعَ آتَيْنَا بِبَيْتٍ ﴾

( من الآية ١٠١ سورة الإسراء )

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها في الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو حلة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتي لفجذب لشديد الذي يستمر لفترة من الزمن بحيث يلمت الناس إلى حدب في زمان ، ولذلك يقول : كانت سنة عصية ، لأن السنة عصاة من الأحداث ، تهدم ثرف الحياة ، ثم تأتي لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصيبهم بنقص الثمرات ، وهر الجذب والفتح ، وسمى الجذب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شيء يؤرخ به ، فماداً كان استبدال فرعون ومكة للآيات التي مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فظلموا بها ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتي ؟

نقد طعموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظنوا على سادهم ، والمفسدون - كما نعلم - هم الذين يعمدون إلى الصالح في ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان في الأشياء التي بها مقومات الحياة ، مما لا يدخل في اختياره يمجدها على منتهى الاستقامة

إننا نجد الإنسان لا يتحكم في حركة الشمس أو حركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريد الله ، ولا يأتي الفساد إلا في الأمر الذي للإنسان مدخل فيه ، واللمس لا تشكو من أزمة هواء - على سبيل المثال - لأنه لا دخل في حركة الهواء لأحد ، لكنهم يشكون من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ويجد شكواهم من أزمة المياه أقل ، لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذي يدير حركتك الرقودية لك فيه بعض من الدخّل ، فيجعل من جسمك - على سبيل المثال - محترناً للدهون لمعطيك لحظة الجوع ما كثرته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هي مادة واحدة وساعة محتاج إلى التغذية بها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التي نحتاج إليها

تحتاج مثلاً إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، نحتاج إلى كربون ، يعطى لك الدهن الكربون ، نحتاج إلى هوسمور يعطيك موسفورا ، نحتاج إلى منسيوم يعطيك الدهن استنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المحزون في أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المحزون في هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهييق وزفير ، وبوأك إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمتنعه منك لحظة العصب ، لمت قل أن يرضى عنك ، لكن إن منع عنك الماء فترة فقد يحس قلب عدوك أو يأتي لك أحد بالماء أو قد تسمى أنت بجيلة ما لتصل إليه

إذن فالأمر الذي لا دخل للإنسان فيه يجده على منتهى الاستقامة ، ولا يأتي

الفساد إلا من الأمر الذي للإنسان فيه دخل .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَصَبُّوا عَلَيْهِمَا غُلًّا مُّكَثِّفًا ۖ كَذَّبَ ۚ كَانَ عَنَقِبُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة الأعراف)

أى أن آخر الأمر ميعاقب الله المفسدين .  
وأراد سبحانه أن يذكر سلسلة القصة لا من بدء سلسلة ، بل يبدأ من نهايتها ،  
فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، والمقطة التي يريدنا في  
هذا السباق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه فى هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف  
أوحى لأمه أن تلقى فى لبحر ، ولم ترد حادث ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا  
شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون  
ويقول سبحانه .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَكْفِرُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ  
الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾

ويشرح لنا القرآن أمر ملاخ موسى لفرعون وقومه بأن الله واحد أحد وهو رب  
العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك  
يلعنهم موسى بأن الإله واحد :

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

(سورة الشعراء)

ويجد موسى بعدد كلمة الربوبية فى آيات أخرى ، ليأتى بالمظهر الذى دُسّت فيه  
دميسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ،  
فقال موسى . إنى أنكم عن الإله الواحد الذى هو رب السماء والأرض معاً فلا إله  
إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فابتنهم موسى بأنه

إله واحد ، وكانو يعتقدون أن للأحياء إلهاً ورباً ، وللموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾

( سورة الشعراء )

ويسف هنا موسى فرعون وقومه :

﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

( من الآية ١٠٤ سورة الأعراف )

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ

جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيَّ

إِسْرَءِيلَ ﴾

فأى هذه الأمور هو الذي يحتاج إلى بيّنة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا لقول بدلنا علي أن موسى اختلف مع فرعون لولا هي أن موسى رسول ، وأن للعالمين رباً واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه - إذن - ثلاث قصايا خلامية بين موسى وفرعون ، ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا في قضية واحدة هي : هل هو رسول مبلغ عن الله بالقول الحق ؟ فماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى في مسألة أن للعالمين رباً ، وأن هذا الرب



لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلا بد أن يرسل رسولاً ، هل وقف فرعون في مسأله : هل موسى رسول مبلّغ عن الله أو لا ؟

ولذلك يقول موسى .

﴿ حَفِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ نَبِيًّا مِنْكُمْ ﴾

(سورة الاحراف)

كان مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بني إسرائيل ونعرف أن قصة بني إسرائيل ناشئة من أيام نبي الله يعقوب وابنه يوسف حين كد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا في أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقاءه في غيابة لجب ، لقد جاء الحق بقصة بني إسرائيل على مراحل لتدرج بالانفعال معها فمراحل الانفعال النفسى أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين صورة تدل على تصعيد الرحمة في قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر في قلبك ، مثال ذلك لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيده ، وتحكى أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول أريد أن انتقم منه بضربه صفتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخير فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصعبه أو أشتمه وأبسه فهذا تصعيد في الخير إذن يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب صفة الخير أو الشر التى في النفس وهكذا نجد إخوة يوسف وهم يكيدون له ، فقالوا :

﴿ يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُ وَنَحْنُ عُصَّاءُ ﴾

(من الآية 8 سورة يوسف)

هم يحرمون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر لقمان هذه البينة لعرف أهميتها ، حتى لا يعمل أحد عبها لقد كان قلب تبنى الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوياء أشداء ، لأن الله سبحانه وتعالى وضع في قلب الأيوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون

قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب . ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بيبك إليث ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والعائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فقول إخوة يوسف ﴿ ونحن عصابة ﴾ هوية ضدهم . وكان السطوق يقتضى أن يعرفوا أنهم ماداموا عصابة فلا بد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسياس وذرية أنبياء ، نجدهم يصعدون الحير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه فى أرض بعيدة نائية ليستربحوا منه ويحلوا لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقائه فى خياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل فى لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أى أن يتركوه فى مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقائه فى خيانة الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضرروه ، أو كانوا يفكرون فى نجاة ؟ إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل فى مصر وكثرت أعدادهم . وعندئذ نسقري التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم منك ، فهناك فرعون وهناك ملك .

فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول :

﴿وَفِرْعَوْنُ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾

(سورة القمر)

هكذا نجد الحق يسمى حاكم مصر « فرعون » وبنى أيام سيدنا موسى أيضاً بسميه الحق فرعون . لكن فى أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سمّاه ملكاً .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُورِي يَوْمَ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسي شامليون - حجر رشيد - عرفنا أن الفترة التي دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفي الفترة التي جلد فيها سيدنا يوسف ساجدهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أعادوا على مصر وحكموها وساعدتهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشئ إلى من أعان الهكسوس ، فبدلوا في استدلال بني إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس بأن حكمهم مصر . ولما عاد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُشْرِعُونَ لِيَ رَسُولَ اللَّهِ الْأَعْلِينَ ﴿١٦﴾ خَفِيقٌ عَلَّيْ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

( سورة الاعراف )

كان موسى يريد أن يخلص بني إسرائيل ، أما مسألة الألوهية ورواية فرعون فقد جاءت عرضاً .

ويقول فرعون :

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ إِحْسَنَ مِنِّي فَآتِنِي مِنِّي بِآيَاتٍ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن فرعون يعتقد أن الله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية :

## ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ (١٧)

وهذا لإلقاء كان له سابق تحربة أخرى حينما حرج مع أهله من مدين ورأى ماراً  
وبعد ذلك قال لأهله :

﴿ اٰمُكُوْا بِرَبِّ اَنْتُمْ مَّارٌ ﴾

( من الآية ١٠ سورة طه )

ثم سمع خطاباً .

﴿ وَمَا تِلْكَ يٰمُوسَى ﴿١٨﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ اَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَهِيَ بِهَا عَلَيَّ غِيًى  
وَلِيَّ بِهَا مَكْرِبٌ اٰخَرُ ﴿١٩﴾ ﴾

( سورة طه )

وحين يقال له : ﴿ وما تلك ياموسى ﴾ ، كان يكفى أن يقول في  
الجواب : عصاى ، ولا داعى أن يقول : « هى » ولا داعى أن يشرح ويقول : إنه  
يتوكأ عليها وأن له فيها مأرب أخرى ؛ لأن انحنى لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن  
فجواب موسى قد حاور في الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من  
الواجب أن يعطى الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه  
لا يوجد من يزهد فى الأنس بحطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام

﴿ هِيَ عَصَايَ اَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَهِيَ بِهَا عَلَيَّ غِيًى ﴾

( من الآية ١٨ سورة طه )

وبعد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيئة المحاطب فكان نهافته على  
الخطاب حياً لأنسه فى الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ ولې فيها  
مأرب أخرى ﴾ كان من الممكن أن يقل استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللمصا  
أكثر من إلقاء ، إلقاء اللبنة والتعريف على لقاء فرعون حين أمره للمحق :

﴿ قُلْ اَلْعِزُّ اَسْمٰوٰى ﴿٢٠﴾ مَا لَقْنٰهُ نِدَاً هِىَ حَيَّةٌ تَسْعٰى ﴿٢١﴾ ﴾

( سورة طه )

فماذا حدث ؟ قال له الله .

﴿ قَالَ حُذِّهِ وَلَا تَخَفْ مَسْعِيَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾

(سورة طه)

فساعة حذ ، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر ؛ لأن السحر حين يبقى عصاه أو حبه يرى ذلك عصا أو حلاً ، بينما يرى ذلك غيره حية ، ولذلك يقول الحق عن السحرة .

﴿ تَخْرُجُ عَنْ أَصْنَافٍ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء في اسحر تظل كما هي في نظر الساحر ، لكن موسى أوجس في نفسه حيلة ، فهذا يدل على أن العصا انتمت من طبيعتها الحشية وصارت حية

وكان من الممكن أن تورق العصا وتحصر على الرعم من أي كسب غصاً يابساً ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً ، ولكن بقلها الله تعالى : نقدها من الجمادية ، وتعنى بها مرحلة لسانية إلى مرحلة الحيوية

وكان لحق العليم ألا يرد على من أراد النعط في مسألة إلقاء العصا ، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرار في الكلام في قصة واحدة . ولم يلحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت متمكة ، فهي لمرّ ثلاثة إلقاءات للعصا . إلقاء التدريب حينما اضطر الله موسى رسولا وأعلمه بذلك في طور سيناء

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وبعد ذلك قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ ﴿١٩﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ

(سورة طه)

والقاء التدريب على المهمة هدفه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام  
فرعون باشرها وهو على يقين أن العصا مستجيبة له فتقلب حية بمجرد إلقائها ،  
ولو أن الله قال له خيراً ، إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستنقلب حية ، فقد  
لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر . فأراد الله أن يدرسه عليها تسريباً واقعياً ، ليعلم أن  
العصا مستجيبة له حين يتقيا فتتقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء  
الثاني فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ،  
وإعلامه بالبيئة ، وهو ما نحن بصدد الآن في هذه الآية التي نتكلم بمخاطبنا  
الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدي للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تنس  
أبدأ أن ذلك تكرر . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملازمات ، فلكل موقع  
ما يتطلبه ، فلا تغني لفظة هنا عن لفظة هناك .

﴿عَالِقٍ ثَمَءٍ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٤٧﴾﴾

( سورة الأعراف )

ومرة يقول عن العصا : ﴿كأنها جان﴾ .

ويقول لمشككون في كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان  
مبين . ثم مرة أخرى يقول : ﴿إِذَا هِيَ حية سَمِي﴾ ، ومرة ثالثة يقول : ﴿كأنها  
جان﴾ . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ،  
فهو ثعبان مرة ، وهي حية مرة ثانية ، وهي جان ؛ لأن الثعبان هو الطويل الحفيف  
الحركة ، والحية هي الكتلة المخيفة بشكها وهي متجمعة ، والجان هو الحية  
المرعبة الشكل . فكانها تمثلت في كل مرة بمثال يرعب من يراه ، وكل مرة لها  
شكل ؛ فهي مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه  
الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جاناً عند من يخيفه الجان ،  
ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم

ومثال ذلك إبهام الحق لأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ،  
ولا يحكمه زمان . وفي هذا إبهام لزمانه وإبهام لسيبه مما يجعله بياناً شائعاً تستشله

بأى سبب فى أى زمان أو فى أى مكان، وهكذا يأتى الإيهام هنا لكى يعطيا العصور المتكاملة ، وقال بعض المستشرقين . إن المسلمين يستنبطون القرآن بالرهبة وبالأنهار . ولا يحركون عقولهم لكى يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مخسفة كثيرة ، قالوا بالنصر « أنتم تعدمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتى لتتحقق مجهولاً بمعوم » ، يقال : أنت تعرف فلاناً ، فتقول . لا والله لا أعرفه . يقول لك . هو شكل فلان ، فى الطول ، وفى العرض ، وفى الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليوضحه . فكيف يلحق القرآن بمجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطى صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الرقوم فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ شَجَرَةٌ تُخْرِجُ فِي صَلَاتِ الْحَجِيمِ ﴿١٠﴾ طَلْمَهَا كَأَنَّارٌ مِّنْ الشَّيَاطِينِ ﴿١١﴾ ﴾

( سورة الصافات )

فكيف توجد شجرة فى الحجيم ، إنها أشياء متناقضة : لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى رى ، ومائية ، والحجيم بار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الرقوم غير معلومة لأنها ستأتى فى الآخرة ، فكيف يُشبه الله مجهولاً بمجهول . واستخدم المستشرقون ديث كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بأنهار ولا يبحثون فيه ، ويرد عليهم . أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة . بل عرفتموها صراحة ، ولم تتفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب . وقد تحدثت لغة لعرب أشياء رأيت فيها البشاعة والفتح ، كأن قالوا . « ومستوى ورق كأياب أحوال » ، ولغول كائن غير موجود ، فكيف تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً ... إلخ

إذن التشبيه قد يكون بالأمر المُخَيَّل فى لذهان الناس ، والأصل فى التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، وشجرة الرقوم لا نعرفها ، ورموس الشياطين لم نرها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها فى صورة معلومة ؟ . لأنه - سبحانه - يريد أن يشرح البيان ، ويعمم العائدة ويرببها ، لأن الإعانة تتطلب مخيفاً ، وإلا كيف يحتجب باختلاف الرائيين ، فقد يوجد شيء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستفتح أنت شيئاً ، ولكن غيرك لا يستفحه ، ولذلك ضربنا - سابقاً - مثلاً . وقلنا : لو أننا أحضرنا مجموعة من كبار رسامى الكاريكاتور فى

العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أينفون على شكل واحد فيه ؟ لا ؛ لأن كل رسم سيرسم الشيطان من وحي ما يخفيه هو ولقد قال الله في سورة : شجرة الزقوم ﴿ طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ ؛ يتخيل كل سامع ما يخفيه من صورة الشيطان ، فتكون الفائلة عامة من التحريف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأحاف قرماً ولم يخف الأخرى . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهي مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حية ، وكلها عبور لشيء واحد محيف ، ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ فالتقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ .

وقوله : ﴿ فإذا هي ﴾ بوضع الفجائية التي أدهلت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم في لمح البصر بمجرد إلقاءها ، ومن هوائه تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا في طور سياء أن موسى لن تأخذ المباحة حين يلعبها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفجأة فرعون . كان التدريب أولاً لإقناع موسى وصحبه عدم خونه في لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب ؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحية حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا في عين ساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إبان التدريب دليل على أنها اتمت حقيقة ، لا تخيلاً ، وتلك هي محاربة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخيل ، وهذا هو الذي يجعل السحرة يخرون ساجدين لأنهم قد ذهبوا مما حدث .

﴿ فَأَنزَلَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ٧ ﴾

( سورة الأعراف )

و « مبين » أي بين ، وواضحة ملامحه المخيفة التي لا تحفى على أحد ، ويقدم موسى عليه لسلام الآية الثانية ، فيقول الحق :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ٨ ﴾

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : « ونزع » تعني إخراج اليد بعصر ، كأن هناك



شيثاً يقاوم إخراج اليد ؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : « ونزع يده » لأن النزع يدل على أن شيثاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ نُزِّلِ أَمْرَكَ مِنْ سُئَلَةٍ وَتَنَزَّعُ الْمَلِكِ مِنْ سُئَلَةٍ ﴾

( من الآية ٢٦ سورة آل عمران )

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلة ، ففى الغالب يحاول صاحب الملك التشبث بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك كذلك قوله : « ونزع يده » ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها شدة له وضع آخر ، كأنها كانت فى مكان حريص عليها إند فيه لقطة بيت الإدخال ، ولقطة بيت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه فى آية ثانية :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ يَدًا مِنْ غَيْرِ مَوْءٍ ﴾

( من الآية ١٢ سورة النمل )

و « الجيب » هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمى « لجيب » فى آيات مطلق شىء نجعله وعاء لما نحب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ شىء ، يضعه فى مكان أمامه وتحت يده ، ثم صعد الناس الجيوب فى الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا

والحق قال فى موضع آخر :

﴿ وَأَخْتُمْ بِدَكِّ إِنْ حَاحَكَ تَخْرُجَ يَدًا مِنْ غَيْرِ مَوْءٍ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة طه )

إذن فميه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلفظة من اللقطات ؛ فآية أوضحت دخول اليد فى الجيب ، وأخرى أوضحت صم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لقطات متعقدة ، تكون كلها الصورة الكاملة ؛ لنسهم أن القصص فى القرآن غير مكرر ، فالتكرير قد يكون فى الجملة . لكن كل تكرير له لفظة تأسيسية ، ونحن نستعرضه تبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللقطات تجمع لنا القصة . وقبلنا قبل ذلك : إن الصراع بين فرعون وموسى لا يشأ إلا عن عداوة ، وحتى يحتدم الصراع لابد أن تكون العداوة متبدلة ، فلر كان واحد عدواً

والناس لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لئد حصومة ، وقد يتسامح مع خصمه  
ويأخذ أمر الخلاف أخذاً هيناً ويسامحه ونمى لمسألة لكن الذى يحمل العداوة  
تستمر ، ويشدد ويعلو لهيبها أن تكون متبادلة . وثأتى لنا لقطة فى القرآن تثبت لنا  
العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ،  
فالحق بقول :

﴿ يَا سَحَدُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ ﴾

( من الآية ٣٩ سورة طه )

هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى .

ويقول الحق

﴿ فَاسْتَفْطَهٗ بِآيَةِ الْفِرْعَوْنَ يَكُونُ لَهُمْ عَدُوٌّ وَحَرٌّ ﴾

( من الآية ٨ سورة القصص )

وهذه تثبت أن موسى عدو لهم . وكلتا اللفظتين تكمل بعضها بعضاً لتعطيها  
الصورة الكاملة .

والحق هنا يقول :

﴿ وَزَعَّ يَدْمُ مَاذَا هِيَ بَيَّضَاءُ لِلْطَّيْرِ ۝١٥ ﴾

( سورة الأعراف )

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون الياص فى يده مخالفاً لبقية  
لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث ساعه يراها الناس يلفتهم صرؤها ويجذب  
أبصارهم ، وهى ليست بيضاء ذلك الياص الذى يأتى فى سُمره نتيجة البرص ،  
لا ، لأن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ تَخْرُجُ بَيَّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة طه )

وكل لفظة كما ترى تأتى لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقرله . ﴿ بَيَّضَاءُ  
لِلطَّيْرِ ﴾ يدل على أن ضوؤها لامع وضوء ، يلمت بظر الناس جميعاً إليها ،

ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولمعان وسطوع ، وقوله ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ

عَلِيمٌ ۝١١﴾

عرفنا أن الملا هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملاؤها أولادهم يملأون العيون هيبة ، والقبوب مهابة وهم هنا المفربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلماً عن السحر . وفي سورة الشعراء جاء القول الحق :

﴿ قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۝٢١﴾

( سورة الشعراء )

إذن لهذه رواية جاءت بالقول من الملا ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس في هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملا : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر في أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا في القرآن حينما نزلت آيات في خلق الإنسان وتطوره بأن كان علقه نمضغة إلخ فقال كاتب الوحي بصوت مسموع :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

( من الآية ١١ سورة المؤمنون )

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

وعن زيد بن ثابت الأنصاري قال . أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية . ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله : ﴿ ... خلقنا آخر ﴾ فقال معاذ : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مِمَّ تضحك يا رسول الله ؟ فقال . « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

لقد جاءت الحواطر في الحالة المهيبة لأسبى الإيمان لحظة نزول الوحي بمراحل خلق الإنسان .

فما الذي يمنع من توارد الحواطر فيجىء الخاطر عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون ؟ أويكون فرعون قد قالها وعلى علة الاتباع والأدب إذا قال سيدهم شيئاً كرره .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

( سورة الأعراف )

ولم يصموا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا في ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم . وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن في هذه السورة .

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

إنها بكبة جاءت لفرعون الذي يدعى الألوهية ، ونكة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل في هيئته وهيئته ؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكي يصرف الناس الدين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والافتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطبعتهم ويهيج ويثير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكابهم فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

( ١ ) رواه ابن أبي حاتم وأورده ابن كثير في تفسيره وقال وفي إسناده جابر بن زيد الجمعي ضعيف جداً ، ونرى أن خير سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصبح

اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج لناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهيج الناس وإثارتهم ؛ لأن فرعون أقنع الناس أنه إله . وهاهي دى الألوهية تكاد تنهدم فى لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم ألف بالسحر ، وقوله : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ على لسان الملا من قوم فرعون يدل على أن القاتل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجىء القول : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يدل على أن الذى يأمر فى مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وخطوسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطبيقاً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست فى الناس أنك إله ؟ وهل يشاور الإله مألوهاً ؟ . إن قولك هذا يحمل الخيبة فىك لأنك تدعى الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه .

ويقول الحق سبحانه .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

و أارجعه أى أخره مثل نوبه الحق :

﴿ وَاتَّخِذُوا مَرْحُوتَ ﴾

( من الآية ١٠٦ سورة النوبة )

أى أنهم مزحرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلصوا عن العزو فحلفوا وأرجىء أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وعلى الثلاثة الذين حلفوا ﴾ إلخ الآية .

وقولهم :

﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾

( من الآية ١١١ سورة الأعراف )

وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة اضطر من أن يتصرف فيها تصرفاً سريعاً

بن تحتاج إلى أن يؤخر الرأي فيها حتى يجتمع الملا ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهي مسألة ليست هينة لأن فيها نقض الوهية فرعون ، وفي هذا ذلك لسلطان الفرعون وإنهاء لانتعاشهم هم من هذا السيطان . فإذ كان قد قال لهم : ﴿ فلماذا تأمرون ﴾ .

فكانه كان يطلب منهم الرأي فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يستدعى القوم الذين يفهمون في السحر . فمادنا نقول عن موسى إنه ساحر ، فلنواجهه بما عنده من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لأنوبيته ؛ لأنه يدعى أنه إله ويستعين بمألوهم هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق على ألسنتهم :

﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

( من الآية ١١١ سورة الأعراف )

يدل على أن السحر كان متشرباً ، ومنبث في المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملا بقوله :

﴿ يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴾

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككوا في القرآن قالوا : ولماذا قال في سورة الشعراء : ﴿ يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴾ . وكأن هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين ﴿ ساحر عليم ﴾ و ﴿ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴾ ؛ ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن « سَحَرٍ » نفيذ المبالغة من جهتين فكلمة « ساحر » تعني أنه يعمل بالسحر ، و « سَحَرٍ » تعني أنه يباليغ في إتقان اسحر ، والمبالغات دائماً تأتي لضخامته الحدث ، أو تأتي لتكرر الحدث . « سَحَرٍ » تعني أن سحره قوي جداً ، أو يسحر في كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . فواحد يقول . ساحر ، وآخر يقول : سَحَرٍ وهكذا . والقرآن يغطي كل اللفظيات .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١﴾ يَا نُؤُوكَ يَكْلِي سَنِيحًا عَلَيْهِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « حاشرين » تعنى من يحشر لك السحرة ويجمعهم لا بإرادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴿١٣﴾  
إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وقوله : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ يدل على بطش الأمر ، أى أنه ساعة قال الكلمة مُرِعَ الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين فى هذه اللقطة أيضاً ففسأولوا : ولماذا جاء بقول مختلف فى سورة أخرى حين قال :

﴿ أَنْ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

( من الآية ٤١ سورة الشعراء )

لقد جاء بها بهمة الاستفهام ، وفى سورة الأعراف جاء بها من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفع انفعالاً أدى به مطلوبه ، فالذى يستفهم من فرعون قال : « إِنْ » ، والشجاع قال لفرعون : ﴿ إِنْ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ وفى القضية الاستهلامية لا يتحتم الآخر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلاً : أَنْ لا أجز لكم ، ولكن فى القضية الحبرية « إِنْ لَنَا لَأَجْرًا » أى أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الآخر ، وقد عطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتى إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر :

## ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾

و « نعم » حرف جواب فائمه مقدم جملة هي : لكم اجر ، و اضاف أيضاً : ﴿ وإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

وهذا دليل على أنه يتأفقههم أو يبالغ في معاملةتهم ؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد الوهية مرعون قد حارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : ﴿ لمن المقربين ﴾ هذه تدل على فساد الحكم ؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب عن قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة ، فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوى بين الناس جميعاً في نظره حتى يعلو كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يسنى أحداً ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع بأنه مقرب . . ويقول لحق سبحانه بعد ذلك :

## ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ مُخَنَّاتٍ الْمُلْقِينَ ﴾

ونلاحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم في أن يلقي هو أولاً عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم في أن يكونوا هم أول الملقين فجاءوا بضمير الفصل وهو ( نحن ) الذي يفيد التأكيد

ونعلم أن من يعقب ويكون عمله تالها لمن سبقه ، فإن فعله هو الذي سينترب



عليه الحكم ، ولا بد أن يكون قري الحجة هم يريدون أن يكونوا هم بمعفس ،  
وأن موسى الذي يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولاً ، بذلك جاءوا  
بالعبارة التي تحمل المعنيين :

﴿ إِمَّا أَنْ تُتَبِّقَ وَمَا أَنْ تَكُونَ نَحْسَ الْمُنْكَرِ ﴾

( من الآية ١١٥ سورة الأعراف )

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأنو بكلمة ( بحر )  
وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولاً ، لأن عصاه ستلعب وتستع ما يلقون ؛  
لذلك يأتي قوله سبحانه :

﴿ قَالِ الْقُرَافِلِمَّا الْقُرَاسِحِرُّ أَعْيُنَ النَّاسِ  
وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾

هم - إدد - سحروا أعين الناس ، والسحر - كما نعلم - لطف حيلة يأتي  
بأعوبة تشبه المعجزة وكأنها تحرق القانون ، وهو صير الحية التي يقوم بها  
الحواء ؛ لأن الحواء يقومون بحفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس  
لكن « السحر » شيء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جسد  
بقانون ، خلق الإنسان بقانون ، وخلق بحر بقانون ، وخلق الملائكة بقانونها

﴿ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

( من الآية ٣١ سورة المائدة )

وكل قانون به خصائصه ومميزته التي تناسب عصر تكوينه ، فالإنسان - مثلاً -  
لأبه محبوق من الطين له من الكشافة ما يمنعه من التسلل من خلال جدار ؛ لأنك  
لو كنت تجلس وهناك فتاحة وراء الجدار الذي تجلس بجواره فليس يتعدى ربحها  
ولا طمسها إلى فست ؛ لأن الجدار يعوب بيتك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك  
حدوة من نار بجانب الجدار لذي تستند عليه لكاء من المحكم أن يتعدى أثرها

بك ، لأن النار إشعاعات تنبعث من الأشياء ، ولأن الجبن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية

﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾

( من الآية ٢٧ سورة الأعراف )

فإذا كان الحى له قانون والإنس له قانون ، فهل القانون هو الذى يسيطر ؟ لا ، بل رب القانون هو الذى يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأتى الله للإنس ويُعَلِّمُ واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستند الجبن لخدمته ، برغم ما للجبن من عجة حركة ، فسبحانه يوضح . لا ننظر أيها الحى أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذى يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولنغيرك ، بدليل أن الإنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه ولتنبه دائماً أن انعم بأسرار تسخير الجبن هو من ابتلاءات الحق للخلق ، لأنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ قَتْلٌ فَلَا تَكْمُرُ﴾

( من الآية ١٠٢ سورة البقرة )

فكان هاروت وماروت وهما يعلمان الإنسان كيف يمارس السحر ، بنصحان لإنسان الذى يرغب فى أن يتعلم السحر أولاً ، ويوصحان له أنهما فتنة أى ابتلاء واختبار ويقولان له : ﴿فَلَا تَكْمُرُ﴾ ، مع يدل على أن كل من يتعلم السحر ؛ إن قال لك . أى سأستعمله فى الخير فهو كاذب ؛ لأنه يقول ذلك ساعة صماء نفسه تجاه المخلوق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أى ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر ؟ هل يقدر على نفسه ؟ لقد قال إنه أمين وقت لتحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء ؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه فى الانتقام من غيره ، ويدل ذلك يصعب تكامل الفرض ، ونعلم أن تكامل الفرض هو الذى يحصى الناس ، ويعطى بعضهم الأمر من بعض ، ويُعلم كل إنسان حده .

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لا يملك مثله ، والإنسى الذى يأخذ سلاح استخدم الجبن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه

الإنسى ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفى هذا ابتلاء ، لأن الإنسان قد ينجح فيه وقد يخطئ فلا يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا تكفر ﴾ يدل على أنهما علما طبائع البشر في أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يَضْمَنُونَ وفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يَضْمَنُونَ يوم تكبير نفوسهم

﴿ فَيَعْلَمُونَ مِنْهَا مَا يَصِفُونَ يَوْمَ بَيْنَ الْعَرَةِ وَذُرِّيَّهِ وَمَا هُمْ بِضَارِعِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

( من الآية ١٠٢ سورة البقرة )

مادام الحق هو الذى أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يصح لله سبحانه وتعالى القدرة لإسنان ليكون عتياً وقافراً على شراء سلاح نارى ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة ينصب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهى عصبه مع أى إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه لكن لو لم يكن معه مسدس ، فقد ينتهى عصبه بكلمة طيبة يسمعها ، إذن ساعة ما يصح الله أمراً بهر يريد أن يرجم ، بذلك يقول : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا بما نحن قنته فلا تكفر ﴾ .

وفى هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحصى خلقه من هذه المسئلة ، ويكفى أن نعلم أنه سبحانه قد قال : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾

فلو أنك نجيت هؤلاء لاستدرك ، واستزفوك ، وشركت الله لهم لأنك اعتدلت فيهم ، أما إن قلت : اللهم إني قد أقدرت بعض خيالك على لسحر والشعوذة ، ولكك احتملت لنفسك بؤس الضر ، فإني أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . هنا لن يمكنهم الله منك ، بما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستزفونك ، وأرد الله أن يفصح مثل هذه العملية فقال على ألسنة أسحرة الدين استدعهم فرعون .

﴿ أَتَيْنَا لَنَا لَاجِئًا ﴾

( من الآية ٤١ سورة الشعراء )

وكانهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم لقدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذى يوفى حاجاتهم ؛ لذلك طلبوا الأجر من هرعون ، وهذا حال الدين يشتغلون بالسحر والشعوذة هم يدعون القدرة ويعانون الصفا والعوز هكذا حكم الحق بضيق ورق من يعمل بالسحر ، وبمصحهم الحق دائماً ، وللعقل أن يقول : ماداموا يدعون إصلاح فلعلهم فى إصلاح أحوالهم . ومادام السحر يدعى أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً فى الأرض التى ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه ؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس

ولذلك تحدد كل العاملين بالسحر والشعوذة بموتون فقراء ، بشعى الهيئة ، مصابين فى الذرية ؛ لأن الكائن منهم استغل فرصه لا توجد لكل واحد من جنسه البشرى ، وذلك للإصرار بالناس . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ بِرِجَالٍ مِّن رَّحْمَتِي فَرَادَوْهُمْ وَهَقًّا ۝٦ ﴾

( سورة الجن )

وهو يقرر الحق أنهم سيعيشون فى إرهاق وتعب . ولذلك يستحدد موقفاً من السحر بأننا لا ننكره مثلما ننكره آخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعصى وضعو فيها رثباً ، وعند وجود الرثب تحت أشعة الشمس تعصى له حرارة فتتولى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يعرفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عفريتاً من الجن تعلت على البارحة لينقطع على الصلاة فلمكتنى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواى المسجد حتى تصبحوا وتظنوا إليه كلكم فذكرت قول أحن سيمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رب اعمر لى وهب لى ملكاً لا يسعنى لأحد من بعدى ﴾ (١) .

فمادام الحق قد قال . إنه خلق خلقاً لا ندركهم بإحساسك ، فنحن نفر

بما أبلغنا به الحق ، لأن وجود شيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعفريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس :

﴿أَنْدَأَيْسَكَ بِهِ قَوْلٌ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾

( من الآية ٢٩ سورة النمل )

وكان الجن يطلب رماً ما ، فقد بجلس سليمان في مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً ، لكن الذي عنده علم من الكتاب يقول :

﴿أَأَنْتَ بِهَذَا قَوْلٌ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾

( من الآية ١٠ سورة النمل )

ولا بد أن يكون حرمه قد ارتد في أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، وبهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول : ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾

مما يدل على أن الله قد خلق الأجساد ، وخلق لكن جسم قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتص به ، لأن خالق القانون يطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه . ولنفق في التعبير القرآني : ﴿ سحرُوا أعين الناس ﴾ .

ونحن أمام أشياء هي العصي والجمال . وجميع من الشر يظفر . ونفهم من قوله الحق : ﴿ سحرُوا أعين الناس ﴾ أن السحر ينصب على الرائي له ، لكن المرئي يظل على حاله ، فالعصى هي هي ، والجمال هي هي ، والذي يتمير هو رؤية الرائي . وبذلك قال سبحانه في آية ثانية

﴿ يُجَبِّلُ إِبْنَهُمْ سِحْرَهُمْ هَاهُنَا تَسْعَى ﴾

( من الآية ٦٦ سورة طه )

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تطل الحقيقة هي هي ويراهما الساجر على طبيعتها . لكن الناس هي التي ترى لحقيقة مخنفة . إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : ﴿ سحرُوا أعين الناس واسترهبهم ﴾ .

واستربوهم أى أدخلوا الرهبة فى نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن يسخرهم ؛ لأنه باصطفاه الله له وتأييده بالمعجزة صار منفذ لقانون الذى أرسله لجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذى يتحكم . وهم قد جاءوا بحر عظيم ، وهو أمر منطقي ؛ لأن العملية هى مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لا بد أن يأتوا بأمر وأعظم ما عندهم من السحر

ويقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ١٧٧ ﴾

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحى جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا ؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتى أمر السيفذ بجىء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شيء من السحر العظيم ، والامترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل للذكرا ، ويستحي النساء ، وأراد ربما ألا يقتل موسى فقتل سبحانه .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَضَّ عَلَيْهِ فَأُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾

( من الآية ٧ سورة القصص )

وقوله سبحانه : ﴿ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَضَّ عَلَيْهِ ﴾ يدل على أن العملية المحوطة لم تأت بعد ، بل ستأتى لاحقاً . وهات آية امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه فى البحر من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسحر منك ؛ لأنها مستسأله : كيف أنجيه من موت مظلون إلى موت محقق ؟ . وهذا هو الأمر الطبعي ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لا يراحمهما شيء قط . ولا يطلب

الإنسان عليه دليلاً لأن نفسه قد اطمأنت إليه ، لذلك ألقت أمام موسى برصيحها في البحر .

ويقتر الله أنها أم فيقول :

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾

( من الآية ٧ سورة القصص )

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جليلاً :

﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

( من الآية ٧ سورة القصص )

وكان الحق سبحانه يوضح لام موسى أن ابنها لن يعرش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى في الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا سم تكن السماء ستحفظ عليه لأجل حاطر الأم وعراطلها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ . ونلاحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة العائذات لكنه في آية ثانية يقول :

﴿ إِذْ أَوْحَيْتَ إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَرَأَيْتَ إِنْ أُنشِئْتَ فَاقِلٌ فِي الْأَرْضِ ۖ

فَدَلِيلُهُ أَلِيمٌ بِالسَّاحِلِ ﴾

( سورة طه )

ولم يقل في هذه الآية : ﴿ ولا تخافي ولا تحزني ﴾ ، لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليم له بالساحل . وقوله في الأولى : ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ . هو إعداد للحدث قبل أن يجيء ، وفي هذه الآية ﴿ إذا أوحينا إلى أمك ما يوحى . . ﴾ الخ تجد الملقطات سريعة متتابعة تتعبر عن التصرف لحظة الحظر . لكن في الآية الأولى : ﴿ ولا تخافي ولا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ سجد البعد والهلوه والرتابة ، لأنها تحكى عن الإعداد . لم يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعنى كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم

في نفاقه ، لأن تكافؤ الفوص بين الأجناس هو الذي يريد الله وحبنا أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينصر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفي آية اثنين - على سبيل المثال - نجد الحق يوصي المقترض «المدين» - وهو الضعيف - أن يكتب الدين ، ويعطى بذلك إقراراً للدائن وهو أقوى القادر فيقول سبحانه :

﴿وَلَا تَسْعَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ جِهَةٍ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والمسألة هنا في ظاهر الأمر أنه يحمي الدائن ويقوده ، لكن علينا أن نتبه إلى أنه يحمي المدين من نفسه ؛ لأن الدين إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يذل الجهد الكافي للسداد ، وباجتهاد المدين نفد الوجود بطاقة فاعلة ولكن إن لم يوثق الدين ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوص في المجتمع ويرفض كل إنسان أن يقرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن سبحانه حين يأمر بتوثيق الدين ، وإن كان في ظاهر الأمر حماية للدائن لكنه في باطن الأمر يحمي سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندي ألف جنيه وخائف أن يضيع مني فخله أمانة عندك إلى أن أحسح إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودع عنده إن شاء أنكر ، وإن شاء أقر ونجد من يقر لهذا الإنسان : هات ما عندك يقول ذلك وفي ذهنه وبينه أن صاحب الألف جنيه حين يأتي ليطلبه يعطيه له ، إنه يؤد ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتي له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتمثل بالحجج ليعذ صاحب المال عنه

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل وساعة الأداء لهذه



الامانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إن بعض الناس يرفض تحمل الامانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء .

ولذي يتعلم شيئاً يفاضل ناعوس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تسعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر في الخير ، ومن يأتي لي وهو في أزمة سوف أحدها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان . أت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ١١٢ ﴾

(سورة الأعراف)

والإفك هو قلب الشيء على وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قل أن كل شيء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً « محمد مجتهد » فهذه نسبة كلامية ، لكن أيجاد واحد في الواقع اسمه محمد وموثوق في اجتهاده ؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصديق ، أما الكذب فهو أن تقول « محمد مجتهد » ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يعلب المسألة ونسبى ذلك كذباً ، وشدة الكذب تسمى إفكاً . أو الكذب ألا يكون هناك تطبيق ، وإن لم تكن تعلم ، والإنك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً فراء ﴿ أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « فإذا » وهي تعبر عن المعجانية حيث ابتليت عصا موسى . بعد أن صارت حية . ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإفك وسحروا به أعين الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

## ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١١٨

وقوله : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أى صار الحق نظري واقعا ملموسا ؛ لأن هناك فارقا بين كلام بلقي نظريا وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه

وقوله سبحانه : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أى ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاما خبريا يصح أن يصدق ويصح أن يكذب ، صار بصدقه واقعا ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

والذى بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل صديق موسى واقعا مشهودا . وبذلك غلب السحرة .

ويقول الحق :

## ﴿ فَغُلِبُوا هُنَا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ ١١٩

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضا فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى فى صغار ، صغر للمستدعى وصغار للمستدعى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ أى أذلاء .

ويقول الحق بعد ذلك

## ﴿ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ ١٢٠

ولم يقل الحق : «مسجد السحرة» ولكنه قال : «ألقى» مما يدل على أن

نخروهم للمسحود ليس برأيهم ، ولكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم ، كأن شيئاً آخر أقامهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فالساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذى يسحر . ثم يباحاً مجموع السحرة أن موسى حين ألقى عصاه وأوما حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وحبالهم انثنى جاءوا بها من كل المذائن ، فبطل أنها حُملت على سبعين نوعاً وشاهدوا كيف أن العصا انثى صارت حية أو ثعباناً لفقت كل هذا وتلعت ! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طال ، وهكذا تيقن السحرة أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لما رأوا :

### ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وهل هم سجدوا بعد الإيمان ؟ أم آمنوا بعد لسجود ؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يمتضى ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإيمان عمل قلبي ، والسجود عمل عضلي وسلوك عملي ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد

وهناك فرق بين أن يزنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم ، فيقولوا : آمنا برب العالمين ، لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإيمان ويعلن الإيمان ، لأن إعلان الإيمان شيء ، والإيمان شيء آخر ، فكانهم آمنوا فصرخوا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان ، وكان الناس سألوه : ما الذى جرى لكم ؟ فقالوا : ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

إذن قد يحاوت أن يستلوك على انتص فعلية أن يتب إلى أن إخبارهم عن الإيمان يعنى وجود الإيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتهجبوا فنحن قد آمنّا برب العالمين .

### ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقيل في بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب العالمين هو : ﴿ رب موسى وهارون ﴾ . وقال فرعون : لقد ريت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم تر رب هارون .

ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو :

﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ١٢٢

ولأن السحرة أعلنوها واصحة بالإيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يعصب فرعون ، ليأتى القرآن بما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِمِقْبَلِ اَنْ ءَاْذَنْ لَكُمْ اِنْ هٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوْهُ فِى الْمَدِيْنَةِ لِيُخْرِجُوْا مِنْهَا اَهْلَهَا فَاْسَوْفَ نَعٰمُوْنَ ﴾ ١٢٣

وكان فرعون مازل يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بني إسرائيل اختلطوا بالناس في مصر ، ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون في مازق ويريد أن يخرج منه ، لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريد هم أن يتشككوا في ألوهيته ، فينهزم الصرح الذي أقامه على الأكاذيب ، لذلك قال للسحرة : إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة . . أى أنكم اتفقت مع موسى ، وسيأتى ويقول : اتهاماً لموسى :

﴿ اِنَّهُ لَكَبِيْرٌ مِّنْ الَّذِيْ عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾

( من الآية ٧١ سورة طه )

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بني إسرائيل وموسى يتوعد لهم فرعون .

لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ  
ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمُوعِينَ ﴿١٧٤﴾

والوعيد - كما نراه - قاس وفظيع ، تقطيع الأيدي والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، لماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ؟ إنهم يقولون :

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٧٥﴾

إنك قد جعلت لنا لخير لأننا سيكون في جوار ربنا ، فانت بطيشك وحماتك قد أسديت لنا معروفا وخيرا من حيث لا تدري . ويزيدون في تقريع فرعون بما يجيء في القرآن على ألسنتهم :

وَمَا نُنْفِقُ مِنْهُ إِلَّا أَنْفَاءً مِمَّا يَنْتَهِ رَبَّنَا لَعَاجَاءُ تَنَافَعًا  
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٧٦﴾

« الذي نكرهه منا لأن » تنفق ، تعنى نكره ، وقولهم لفرعون : اليس الذي نكرهه من أننا آمننا بآيات ربنا لما جهلنا ؟ وهل الإيمان بآيات الإله حينئذ محال ؟!!  
ويسمون ذلك في اللغة تأكيد المدح بما يشبه اللوم : كأن يقول إنسان : ماذا نكره لي ؟  
أصدق ؟ أماني ؟ أجردى ؟ أعلمى ؟

كانه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن المحطأ في مقاييس من يكره الصواب ، فهي أمور لا تستحق أن تُكره أو تُعاب أو تُذم . لقد تيقنوا أن لغناء الله على الإيمان هو الحير وكلهم يفصل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذي يعتبره فرعون عقاباً إنما يشك خيسته حتى لم يترفع العقوبة ؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميتة فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن يفلب إلى الله ، وكانهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم :

﴿لَا قِطْعَ يَدَيْكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ حَلِيفٍ ثُمَّ لَا صَبْرَ لَكُمْ بِجَمْعٍ ۝١٧١﴾

(سورة الأعراف)

ثم تنجهون إلى ربهم وحالقتهم فيقولون ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثوبنا مسلمين﴾ .

ود الإفرع ، أن ينصب شيء على شيء ليغمره ، وكانهم يقولون أعطنا يا رب كل لصير ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض المفسرين بالله عجبي لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء برة .

ويقول سبحانه

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ  
لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ  
سَنُقْذِلْ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ  
قَاهِرُونَ ۝١٧٢﴾

وهكذا يعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطنتهم ، ويدل

هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى شئ أدى ؛ لأنه مارال يعيش في ربه ليقيم وصوف الحق مع جمعه متوجساً وحالف من موسى ؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسأله الوهنه كذب كبها ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلال انهرامه أمام لجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملا من قوم فرعون الذين اهتر أمهم سبطانه ومكثه ، فأنو لفرعون أترك موسى ونومه ليفسدوا في لأرض ؟ أو ليعا يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انهيا من أمر السحرة ، وبم بعضي عنيهما فرعون ؛ لذلك تسأل الملا من قوم فرعون :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا وَيَقْتُلُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُوكَ

وَالْأَرْضَ يَنْشَقُّ ﴾

( من الآية ٦٢٧ سورة الأعراف )

و : يترك : أي يدهك ويشركك ، وكان فرعون يعتقد أن هك ألهة عويين ولة سمليين ، وهارون الحاتم السملى كله لذلك قانوا : « ويترك والهت » وهالك قرعة أخرى : « ويترك ، لاهتك أي عبادتك » أي يترك آت ويترك عبادتك ويقر فرعون : ﴿ قال سنقتل أساءهم ويستحي أساءهم ﴾

وحتى نك السحطة سم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يرل حوفه من موسى بمعه من الاقتراب أو الدنو منه أو لاتصل به ولو بكلمة ، إنه يأحد الحذر من أن يقدم على شئ ضد موسى ، فيعاجته موسى معاجزة ثانية ويقدر إن لشعان الذي طهر ساعة ألقى موسى عصه فتح شدنيه واتجه إلى فرعون ، فصر كف على وأومن بما حثت به وهو أمر محتمل ، لأن فرعون حتى هذه اللحظة لم يحرر على الاقتراب من موسى ، وجاء بحجر قتل لأسه وسبي أساء ولم يأت بسيرة موسى

﴿ سَكَنَ لُؤْلُؤًا هَامًا وَمُتَّعَهُمْ نِسَاءَهُمْ ذِيًا مَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

( من الآية ٦٢٧ سورة الأعراف )

والقوى حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الحياق عليه شدا ليمتث به ، لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يباله في أي وقت ، لكن لو كان الحصم أمملك قوياً مانت ترهبه سلموة حتى يحص لك ، وهما يقول فرعون : ﴿ وانا موفهم قاهرون ﴾

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم سيظفرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن يفتنوا منهم . ويؤكد فرعون ، سيقبل أساءهم ويستحيي ساءهم ؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن من على لحجاب ، وعلى السر ، وفي إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجل ؛ لأن انتع سبكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يعبرون على عدو ، يصححون ساءهم لتزيد الحمية ولا يحور ولا يحجب واحد ونراه روجه أو أخته أو ابته وهر على هذا الحال ، وكذلك كان العرب يحافون الانهرام حتى لا يمت لعدو ساءهم ويأخذهن ساها

وما يؤكد فرعون إصراره على إدلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحيي لنساء ، وكان الفرعون يعمل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب في ذلك أن بني إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفرعية الهكسوس ، اتجهوا إلى إيداء من إسرائيل الذين كانوا في صف الهكسوس ، ومن بقي من بني إسرائيل تعرض لتفيل الأبناء ، لكن الحق أنقد موسى حين أوحى لأمه أن تلقه في البم ليريه فرعون . وهاهو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتفيل الأبناء وسبي النساء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهي أن الأرض ليست لفرعون ، والعبادة لا تكون إلا للمتقين . وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإن قال فرعون : وأنا قاتلهم قاهرون ، مستملون غالبون مسلفون مسلفون ، فإن موسى يرد على ذلك أنا استعين من هو أقوى



ملك . إن موسى عليه السلام يأمر قومه بأن يتعبوا بقله ، ويصبروا على ما يالهم  
من بطش فرعون وظلمه

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمنهم في الأرض  
ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق ولكن ماذا كان موقف قوم  
موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، ولتصر لهم ؟ نحدد الحق سبحانه  
يقول .

﴿ قَالُوا أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا  
جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ  
وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ  
تَعْمَلُونَ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أودينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ،  
وبعد أن حلت هاتين أولاء نلتقى الإيذاء . كان محيطك لم يصنع لنا شيئاً . إذن  
هم نظروا للابتلاءات التي يجربها الله على خليفه ، ولم ينظروا إلى السنة والمنحة  
والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك  
هرمهم موسى ، وكان يجب أن يكون ذلك نبيها لهم لقد عطاءات الله ، هم  
يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسوا أيام الرخاء

وقوله ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يدل على أنهم سوف يخوبون العهود ،  
ويفعلون الأشياء التي لا تتناسب مع هذه المقدمات وفي الإسلام نجد عمرو بن  
عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رعيه أو  
رغبان ، فقال : التمسوا رغباً لأبي عبيد فرد عليه العامل : لا نجد . فيما ولي  
الحلافة وعاش في ثراء املك وبعثه دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم

الحق يا أمير المؤمنين في قوله :

﴿ عَسَىٰ وَبِكُمْ أَنْ يَبْلُغَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة الاحزاب )

وقد قال موسى لقومه هذا الفول بعد أن عاينوه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوفينا من قبل أن تأتيانا ، ومن بعد ما جئنا ، أي بالتذبح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكان مجيئك لم يفدنا شيئاً لأننا مفيمون على العذاب الذي كنا نسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة في أن تكون موجوداً ، بدليل أن الذي حدث بعدك هو الذي حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكان موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء تنتهي ، وأن الله سيهلك عدوكم الذي آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدهم بأن يستخلفكم في الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكان هنا أمرين : الأمر الأول سلبى . وهو إهلاك العدو ، والأمر الثانى إيجابى : وهو استخلافكم في الأرض وهذا أمر لكم ، ووعده من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تنبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم في الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهي كلمة - كما يقول علماء اللغة - تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمنى وبين الرجاء . فالتمنى أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون في الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد - فقط - بالتمنى إشعار حبك به ، فأنت إذا قلت : ليت الشيب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب . وقصارى ما يعطيه أن يعلمت أنك تحب هذا المتمنى . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق .. فهذه ليست واردة .

لكي «الرجاء» شيء محبوب يوشك أن يقع ، وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمني . وأداة التمني «ليت» ، وأداة الرجاء «عسى» . وحين يكون بعد «عسى» ما يرجى فلذلك مراحل تتفاوت بقوة أسباب الرجاء في الوقوع . فأنما مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إليّ أنا ، لأن إكرامي لك يقتضي بقائي ، وعدم تغير نفسي من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسي قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامي لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغير ، وما دمت صاحب أغير فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكني لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسي عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل في حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى أن يكرمك فلان وهو مساوي ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ؛ لأن من يقول ذلك لا يملك أن يقوم فلان بإكرام المساوي له ، لأنه صاحب أغير .

لكي إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يجهز شيء من إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أو يستعصم أو يتأخر عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿ عسى ربكم ﴾ فقد انتهت المسألة ونقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هي : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن يعطي الحق بالإكرام أو بالرحمة .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة الأعراف )  
والكلام كما نراه هو من موسى ، ولا يقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول لرحمة الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوي ويسطيح الحق مكانة عدوي العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم القيامة ؛ لأن الحق يقول :

﴿ قَن زُحْرَحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَعَدَّ قَدَرًا ﴾

( من الآية ١٨٥ سورة آل عمران )

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فمابالك بمن زُحْرَحَ عن النار وأدخل الجنة ؟ لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك جدوكم ﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هي : ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ . لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عبداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلوم كفار

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان فهم المراد منها أى يراك بناظره . وإذا أسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حذقة حين مثل عيونك . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو - سبحانه - عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فرقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ فى مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وصمد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثانى لابد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذى رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت فى الحكم ؛ ولو مكنتى من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدى الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم يرسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إعطاء الطالب فى الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول : ﴿ لينظر كيف تعملون ﴾ . هو سبحانه لا يظنهما ليعلمهما - حاشا لله - فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكنه يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم لئلا بكل من يهدى ومن يضل ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن فى الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن فى

النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الحلق ، ولم يحكم بعلمه في هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً أنتم فلكم كلكم أماكن في الجنة . وعلى فرض أنكم - والعياذ بالله - كفرتم فلكم أماكن في النار ، وسبحانه لمن يشيء شيئاً جديداً ، بل أعد كل شيء وانتهى الأمر .

وحين يأتي أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلم لأهل الجنة : أورثتموها وخلوها أنتم :

﴿وَرِثُوا أَنْ تَلَكَرُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا﴾

( من الآية ٤٣ سورة الأعراف )

وهي ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يفهموا بالممل المؤهل لامتلاكها . عليك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً . لا إنه العليم أولاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾

( من الآية ٢٥ سورة الحديد )

وسبحانه يعلم أولاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذي يكون حجة على الخلق . وهذا في الآية التي نحن بصدد ثلاثه أشياء . أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم في الأرض ، فيظهر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما

وجاء سبحانه في مقدمة الإهلاك ، فقال :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنْ

## الْثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله

نعم نعلم أن السنة هي العام . أى من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تتعلق - أيضاً - على الجذب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه على قومه :

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »<sup>(١)</sup>

أى أن ينزل بهم سبعائه بعضاً من الجذب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال « أصنت القوم » أى أصابهم قحط وجذب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجذب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقها بالشر قليلة فى الكون ، وسبعائه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم فى لحظة ، فإذا ما ابتلاهم فى وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا . فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة ، لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذى يمد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة لتي عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هى أكثر من أيام البلاء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾

وعرفنا أن السنين - كما قلنا - تعنى الجذب والقحط ، أما قوله سبعائه : « ونقص من الثمرات » فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، لو كان الجذب

(١) روى البخارى فى التفسير ، ومسلم فى المتافين ، وأحمد ١ - ٢٨٠ ، ٤٤٦

والقحط في البادية ، أما نقص الثمرات ، فكان في الحضر ، ويقال : إن الخلة الراحنة في الحضر كانت لا تعرج في السنة إلا بلحة واحدة ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمة سبحانه يجب أن تبقى في خلفه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لا نقطع نسل النخل ، لذلك يبقى الله أسباب رحمة لنا .

إننا نرى في واقعنا أنهم مهما حاولوا أن يستروعا فواكه بدون بذور بواسطة التقدم العلمي المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الشمار بلا بذور ثم أكنناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق في استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الشمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تنضج بذرتها ، فأت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسود بذرها ويكون صالحاً لأن نعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصبح مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفي هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العاصين نجده سبحانه يستفي الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعْنَهُمْ يَذْكُرُونَ ١٢٥ ﴾

( سورة الأعراف )

وقوله : ﴿ لَعْنَهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ يعني أن على الإنسان أن يتذكر أنه الخليفة في الأرض وأنه غير أصيل في الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذي يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، ومنها الكونية ويحترث ويبدع ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار يسي أن كل ذلك « أسباب » ولا يتذكر المسبب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال في حياتنا اليومية أن الإنسان م إذا جاء لفتح صنبور المياه في البيت فلم يجد ماءً ففتح أول ما يتجه إلى محبس المياه الذي يتحكم في مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سد ، وإن وجد سليماً ، يبحث هل أنبوبة وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أولا ؟ وإن كانت ماسورة المياه مسددة فهو يبحث عن الخلل في

الله رفع لمياه ، وبطل بحث في الأسباب بكثيرة ، وقد يما لم تكن المياه تأتي إلا من الأمار ومحمد لا يوجد في الشرع يقول الله يا رب اسمي والحصيرة لان أبعدتنا بالأسباب عن المسبب

والحق قد أحد قوم فرعون بالسبب ونقص الثمرات لبعض أيديهم عن أسبابها ، فودع بعض اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يفتنوا إلى المسبب ويقولون يا رب ، ويقول القرآن عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا خَبِيئَةً ۖ وَمَعَهَا تَوْبَاتٌ ﴾

( من الآية ١٧ سورة يونس )

إذن فالإنسان يذكر المسبب حين تمنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذ امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان يا رب ، وهكذا كان تلاء الله لقوم فرعون بأحدهم بالسبب ونقص ثمرات ليذكروا خائفهم

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَدَّاجَاءَ تَهْدِي الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ يَظُنُّوا يُؤْمِنُونَ وَمِنْ مَعَهُ إِلَّا إِمَّا يَنْظُرُهُمْ وَعَدَّ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣١)

والحسنة إذا طبقت فهي الأمر الذي يأتي من ورثة الخير ولكن لحسنة مرة تكون لك ، ومرة تطلب منك ، فالحسنة تأتي لك في ذاتك أولاً أن تكون في عبادة وسلام ، ثم الحسنة هي مقومات الدات ومقومات الحياة ، وهي في السات ، والحيران ، والحصب والثروة والحسنة المطلوبة منك هي أيضاً لك فسحاه يطلب منك عمل شيء يورثك في الآخرة حسنة ، ولذلك يقول سبحانه



﴿فَنَجَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾

( من الآية ١٦٠ سورة الأنعام )

وهذه هي الحسنة التي تعطي الإنسان خيرُ فيما بعد . إذ أن الحسنة التي هي ذلك من عافية وسلامة أو هي مقومات الدار من ثمرات وحيوانات وحبوب وأعشاب وثمار فكلها موقوفه برمس موقوف هو الندي . وحسنة إنشائه غير محدوده لأن رمتها غير محدود . فأى الحساب أرحح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ إنها حبة الأجرة .

وقوله الحق . ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ أى جاء بهم قدر من الحبوب والثمار وغير ذلك من البرق بقولهم : «يا هذه» أى أنت ستحقها ، عوحد يقول : أنت استحقها لأننى رتب بها ونقصت الثروة والحصد مثمناً قال هرون

﴿يَا أَرِبُّهُ عَلَى عَيْنِ عَسَى﴾

( من الآية ٧٨ سورة القصص )

وأجرى عليه الحق التجربة ، فمادام يدعى أنه جاء بالمال على عيني من عبده فليجعل العبد الذى عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنة التى يهبها الله لهم . «قلوا ل هذه» أى بسحقها ، لأنها قدمت مدمات تعطينا هذه السائح . وحررت العدة قديماً بدأ يقبض ليس كل سبه يعمر الأرض ، ثم يبدرون الحب ويتظرون انشمار . فإذن جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسبب ينسبون ذلك لموسى

﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِندَ اللَّهِ وَتَكُنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

( من الآية ١٣١ سورة الأعراف )

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيِّرون أى يتشاءمون لأن الطيرة هي التشؤم ، وصندة التفاءل ، ويقال : «فلان طائرته بحس» ، و «فلان طائرته يمن وسعد» . فقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويرجره وشيره ، فإن طار يميناً فهذا قال حسن ، وإن طار يساراً فهذا قال سيء ،

والحق هنا يوضح لا تطعمو موسى ، لأن شؤمكم أو حفظكم السيء ليس من موسى ، لأن موسى لا يملك هي كرون الله شيئاً ، وإنما المالك يكون هو رب موسى . وكأن الحق يريد لهم أيضاً ألا يفوتوا في موسى إن صنع شيئاً يأتي لهم بحير ، وهنا يقول لهم لا تطعموا موسى ، لأن طائرهم من عند الله

ولأن أحداث الحياة صفان . حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذي لم يذاكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فمطبت به أو أصاب أحد إصابه خطيرة . وهنا لا عريم لهذا الإنسان ، بل هو عريم نفسه . وهناك شيء يقع عليك ، واسمه حدث قهري ، فالإنسان في الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره في شيء . وإما أحداث قدرية تنزل بالإنسان ويقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها إنسان ، لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأنسب ، وإلى عاجل الأمور فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبه الأمر ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل

مثال ذلك . أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكي وترتيبه دائماً من العشرة الأولى ، ثم جاء في ليلة الامتحان أو في يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول . إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، ومبجانه مره عن الحدث ، بل حكيم ولا بد أن له حكمة في مثل هذه الأمور . وبعد مدة تبيّن الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين المسود . وحدث له ما يكره . فكان الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحد . وقديماً حين كانوا يصنعون للعقل الجميل « فاسوحة » ، ولا يهتمون بنطاقته ولا ملامسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتحه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما لدى يدريك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطاريء برود عنه العين ، ويسكت النفس عنه ؟ وما انتهى يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذي يدخله الكلية التي يريد لها ، ثم يستذكر في العام التالي وتكون المذاكرة سهنة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك

عنى أنك لم تنجح فى لعام اسباب وأن الله أراد بك خيراً . . لتبذل جهداً وتنجح  
وتنال المجموع الذى أردته لنفسك

إذن فالمقادير التى تجرى على الناس بدون دخل لهم فيها ، فله فيها حكمة ،  
وهنا يقال : ﴿ طأتركم عند الله ﴾ ، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجرى له  
فيقال : طأترك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك

﴿ مَادَا تَتَّبِعُهُمُ الْخِصَّةُ قَالُوا لَسَا هَٰؤُلَاءِ وَإِنْ يُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ

مَعَهُ إِلَّا نَحْنُ طَائِفُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْتَدُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

( سورة الاحزاب )

ألم يتطير اليهود فى المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت  
الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجيء هذا الرجل ، وبم يتتهموا حكم الله . لقد  
كانوا ملذة فى الحرية ، لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق  
التجارية ، وتعاموا فى الرب وتحلرة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ،  
وأراد الله أن يشعبهم بأحد شيء من أسبابهم ويهد كيانهم يلفتهم إلى أنهم خرجوا  
عن المسح إلى أن هناك رسولا قد جاء بعودة إلى المسح .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعيد أن هناك قلة نعلم . فما موقف  
هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ كان موقفهم هو الصمت خوفاً من  
الظلمين ؛ لأن الطاعة أجبرهم وفهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على  
باطل ، ويرى فى حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الرور ويعلمون الظلمين ولكنهم  
لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ قَالُوا مَهْمَا تَأْتِيَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا

فَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أَيُّ وَقَالِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيُّ شَيْءٍ تَأْتِيْنَا بِهِ مِنَ الْمَعْجَرَاتِ  
لِتَنْصَرِفْنَا عَمَّا نَحْسُ عَلَيْهِ فَلَمَّا يَأْمُرُكَ ، رَسَمُوا مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى « آيَةٌ » اسْتَهْرَاءَ  
مِهِمْ وَمَسْخَرِيَّةٍ وَكُلُّ هَذِهِ مَقْدِمَاتٌ تَسْرُرُ الْإِهْلَاكَ أَيْ قَالَ اللَّهُ بِهِ

﴿عَسَىٰ رُبُّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَذُوُّكَ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة الأعراف )

وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى هُوَ سِحْرٌ عَلَى الرَّعْمِ مِنْ أَنَّهُمْ رَأَوْا السِّحْرَ الَّذِي  
بَرَعُوا فِي السِّحْرِ وَعَرَفُوا طَرِيقَهُ وَبَدَّوْا فِي سَوَاحِمٍ قَدْ حَرَوْا سَاجِدِينَ وَأَمَّوْا ، كَيْفَ  
يُحْدِثُ هَذَا وَالسِّحْرُ كُلُّهُمُ جُمِعُوا إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ ؟ وَشَهِدَ كُلُّ النَّاسِ السَّجَرَةَ  
الْوَاقِعِيَّةَ الَّتِي أَشْعَلَتْ فِيهَا عَصَا مُوسَى كُلَّ سِحْرِ السِّحْرَةِ قَامُنُوا وَسَجَدُوا ، فَكَيْفَ  
يَتَأْتِي لِمَنْ لَا يَعْرِفُونَ السِّحْرَ أَنْ يَتَّهَمُوا مُوسَى بِالسِّحْرِ ؟ وَكَيْفَ يَظُنُّونَ أَنَّ مَا يَأْتِي بِهِ  
مِنْ آيَاتِ اللَّهِ هُوَ لَوْ مِنْ السِّحْرِ ؟ إِنَّهُمْ يَقْرَبُونَ كَلِمَةً « مَهْمَا » وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى  
اسْتِمْرَارِيَّةِ الْعِنَادِ فِي نَفْسِهِمْ مِثْلَمَا يَقُولُ وَاحِدٌ لِآخَرٍ « قَدْ صُمِمْتَ عَلَى الْإِقْبَالِ  
كَلَامُكَ ، فَيَكُورُ الرَّجُلُ - انْظُرْ لِتَسْمَعَ حَتَّى الثَّانِيَةِ فَقَدْ تَقَبَّلَكَ ، يَقُولُ « مَهْمَا  
تَأْتِي مِنْ حُجَجٍ فَلَنْ أَسْمَعَ لَكَ ، وَهَذَا يَعْنِي اسْتِمْرَارِيَّةَ الْعِنَادِ وَالْجَعْدِ وَالْتِمَادِ  
وَيَقْدُمُونَ حِجَاتٍ هَذَا الْجَعْدُ فَيَقُولُونَ

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرِبَا بِهَا لَا نَحْسُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

( سورة الأعراف )

وَإِذَا كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي مَعَ مُوسَى مِنَ السِّحْرِ ، فَهَلْ يُلْمَسُ حُجُورُ إِزَادَةِ  
مَعَ السَّاحِرِ ؟ . وَلَوْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ سِحْرًا لَسَحَرَكُمُ وَأَسْهَى الْأَمْرَ وَقَلْبًا قَدِيمًا فِي  
الرَّدِّ عَلَى الدِّينِ قَالُوا . إِنْ مَحْمُودًا يَسْحَرُ النَّاسَ لِيُؤْمِنُوا بِهِ ، قُلْنَا إِذَا كَانَ هُوَ قَدْ سَحَرَ  
النَّاسَ لِيُؤْمِنُوا بِهِ ، عَلِمْنَا أَنَّهُ يَسْحَرُكُمْ لِيُؤْمِنُوا وَتَنْفُضَ الْمَسْأَلَةُ ؟ إِنْ بَقَاءَكُمْ عَلَى  
الْمَادِّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ السِّحْرِ .

وَأَنْتَ سَاعَةَ تَسْمَعُ كَلِمَةً « مَهْمَا » تَعْرِفُ أَنَّ هَذَا شَرْطٌ ، وَلَهُ حُجُوبٌ ، وَيَقُولُ  
الْعُلَمَاءُ : إِنْ أَصْلُهَا « مَهْمَا » أَيُّ كَفَتْ عَنْ أَنَّ تَأْتِيْنَا بِآيَةٍ أَيْ فَلَنْ نَصْدُقَكَ وَهَذَا يَعْنِي  
أَنَّ هُنَاكَ إِصْرَارًا وَصَادًا عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ .  
وَيَبِينُ الْحَقُّ عِقَابَهُ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ

وَرَسَدًا عَلَيْهِمُ السُّوقَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ  
وَالضَّفَادِعَ وَاللَّمَءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا  
وَكَاؤُاقَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٢٢﴾

وكلمة «سوقان» يراد بها طعير ماء ، والماء - كما نعلم - هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للموت حتى لا تفهم ان المسائل بدائيتها ، بل شواحيها انقادر عليها ، وعندما تنظر الى الطوفان الذي أغرق من قبل قوم نوح ، ولم يح أحد ، لا من ركب مع نوح في السفينة ، ولا مع قوم موسى لا نوحاً سفيته ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقوب على طغيانهم ، وإن كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم من إسرائيل لدرجة أن ابوحدهم كسب المياه تسبح الراقى فيقو ، وانما لأنه لم يخلص موت ، ويظن هكذا ، ومطوت عليهم السماء سعة أيام ، لا يعرفون فيها الذين من النهار ويرون انهم بيوت بني إسرائيل لا أنفسهم ، وهذه معجزة وصحة ، لقد علم الطوفان وأراد ليجز أن يحيى بني إسرائيل من دون حيلة منهم حتى لا يصل آية كونه خدع على هيئة طوفان ونهب ، مسأله ، لكن انطوفان حده ليوهم ولم يخلص من إسرائيل

وقد الرواء ، ان الطوفان دخل على فرعون حتى صرح ويسجد لموسى ، وقد له كف عما هذا ويؤمن بما حئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان لكنهم عادوا إلى الكفر .

وحسن الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح لنا أننا عدت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعصب ملامح تشرق بصدق القصبة ، فيهبط السبل في أي بلد ويهدم الديار ويعرق البرع وحجوانات ، ليرى عبدة كوبيه ، وكذلك الجراد يوسف الله على فرت فيهبط في أي وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التي حكى الله عنها ، فهو لم يوحده جراد ولا طوفان لك عرصة ألا نصدق وبلاهم الله بالفعل كذلك

« وَالْقُمْلُ » هو غير القمل . فالقمل هو لآفة التي تصيب الإنسان في يده وذيانه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القمل فليل هو السوس الذي يصيب الحبوب ، وممردها قملة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التي تهلك النبات ولحرق ، وحين نراه نزع ونحرق عن تحليل الرخ منه دليد والمبيدات ، وكل ذلك من تسيهات الحق للخلق ، وهي مجرد تنبيه وإرشاد ونعت للصفات إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم « الصمادع » ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده في شيء يجد فيها الصمادع ؛ فإباء الطعام يرفع عنه العشاء فترى فيه الصمادع ، والمياه التي يشربها يجد فيها الصمادع !! وإن فتح فمه تدخل صمادة في الفم !! فهي آية ومعجزة ، وكذلك « الدم » ، فكان كل شيء ينقلب بهم دماً

ويقال: إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بني إسرائيل وقالت لها : حذى الماء في فمك ومجيه في فمي ، كأنها تريد أن تحتال على رب وتأخذ مياهها من غير دم ، فبتغل من دم الإسرائيلييه وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التي هي من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَلَسَّلَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالصَّمَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْتٌ مُفَصَّلَتٌ ﴾

( من الآية ١٣٣ سورة الأعراف )

وقوله سبحانه : ﴿ مفصلات ﴾ أى لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمع مع بعضها البعض لتعرضهم دفعة واحدة وتحتبرهم أيعلمون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مفصلة عن الأخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى في وقت واحد ، أوجاء بها علامات وأصحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالات الإنذارات للرجة في أن يذكروا ، وأن يرددوا ، فلو اذكروا وارتدوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه ليلس

وأرسل سبحانه الآيات وهي : طوفان ، جراد ، قمل ، صمادع ، دم ، هذه آيات خمس في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها ، ومن قبل قال الحق إنه

أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبباً ، ومن قبل كانت عصا موسى التي تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثمانى آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التي أراها موسى لفرعون وملكه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هي : العصا ، واليد ، والأعذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هي عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلمها الله على من يريد إزالته ، ويتلى الله بها نوعاً من الناس ولا يتلى بها قوماً آخرين . لماذا كان موقفهم من الآيات اعجاب ؟ نجد الحق يدل الآية . « فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا في حق أنفسهم وقطمو ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
يَا عَاهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ  
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ١٣٤

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذي عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون في عقيدتهم ذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عبدهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقيدة هو أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبول الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُوا يَمُرُّ بَيْتُكَ يَمَّا عُهْدٌ لَّنَا بِكَ لِيُكْشِفَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَتُؤْثِرَنَا  
مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾

( من الآية ١٣٤ سورة الأعراف )

لمى ادع ربك بما اعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسولك المؤيد بمعجزاته وهو لم يتحلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ما جئت به ولرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أخط وأرذل الاعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم للعذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ (١٣٥)

فكان لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين . بين قوله الحق : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم ببالغوه إذا هم ينكثون ﴾ وبين قوله السابق : ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشف عنا الرجز ﴾ ، فمن إند بكشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يرميها الحق ، فهو القائل : ﴿ إلى أجل هم ببالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا  
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا حَافِلِينَ ﴾ (١٣٦)



ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب في ذنوبهم ، وفي مقومات حياتهم ، وفي معكرات صلوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ؛ لأنه لا فائدة منهم ؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قهرة ، بل عن عدالة تقدير ؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما في القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذي جاء في سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ فَتُخْرَجُوا ﴾ (٥٦)

( سورة الشعراء )

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ، لأن كل آية في القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج نقطة من النقاط ، لأن لقصة تأتي بإجمال في موضع وبإطناب في موضع آخر ، وهنا يأتي موقف الإغراق بإجمال ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليوم ﴾ .

وكلمة « فأغرقناهم » لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرساً آخر في سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إنا لمدركون ﴾ . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله عزم أن الله لن يخذله ؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام محتثاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

( من الآية ٦١ سورة الشعراء )

هو يقول : « كلاً » أي لن يدركوكم لا بأس به ، من بأسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحرثتها معها وقال : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذي أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهي عند هذا الوضع ؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلاً » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوعة بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأنتج ذلك بقوله : ﴿ إن معي ربي »

سيهدين ، بالحفظ والبصر . أى أن الأسباب التى سبق أن أرسلها معى الله فوق  
تتلاق أسباب ابشر ، فالعصا سبق أن بصره الله بها على السحرة ، وهى العصا  
نفسها التى أوحى له سبحانه باستعمالها فى هذه الحالة العصبية فائلا له :

﴿ أَصْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

( من الآية ٦٣ سورة الشعراء )

وعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التى تعينه على  
الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلا ، وبه جمود وعظمة لصار قطعاً غير متساوية ،  
ولكن الذى يعمه على الاستطراق هو حابة السيولة ، ولذلك حين يريد أن تضبط  
دقة استواء أى سطح ملجأ إلى ميزان الماء

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ أَصْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

( من الآية ٦٣ سورة الشعراء )

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة ونفذ قانون  
الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ  
كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ . أى صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد فى الجبل  
الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على  
ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سمة كونية ، والذى خلق هذه السمة  
الكونية هو الذى يستطيع أن يعطلها . وحين سار موسى وقومه فى اليابس ، وقطع  
الجميع الطريق الموجود فى البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن  
يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون  
وجنوده ، وهذا تفكير بشرى أيضاً ، ويأتى لموسى أمر من الله .

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

( من الآية ٢٤ سورة الشعراء )

أى أترك البحر ساكناً على هيئته التى هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه  
سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُعْرِى الطريق اليابس

## سورة الأعراف

٤٣٦٥

فرعون وقومه فأتوا وراءكم لينسفوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليا بس ، أعدنا سيوة الماء واستطرقه فيعرقون ، ليثبت الحق أنه يحى ويهلك بالشئ الواحد ، وكل ذلك يجملة الحق هنا في قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم من اليم ﴾ وه اليم ، هو المكان الذى يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً فى قصة أم موسى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا رَحِمَتْ عَلَيْهِ فَاتَّبَعْنَاهُ فِي الْيَمِّ ﴾

( من الآية ٧ سورة القصص )

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا فى سورة الأعراف هو البحر . ويأتى سبب الإعراف فى قوله : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عبداً غافلين ﴾ .

كيف إذن يعذبهم ويفرقهم نتيجة العجلة ، وبعلم أن العجلة ليس عليها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يعمل ويأكل ويصح صومه . ويقال إن رباً أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه عدل . لكن هنا يختلف أمر العقبة ، فالمراد بـ « غافلين » هنا أنهم كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعرافاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمسهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق أن دلله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكَ ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة الأعراف )

ثم يأتى بعد ذلك القول الذى يحقق ما سبق أن قاله سبحانه

﴿ وَبَسَّسْنَا فِي الْأَرْضِ نَظَرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة الأعراف )

ويقول الحق تأكيداً لذلك .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ ﴾

مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الْاَلَىٰ بَرْكِنَا فِيهَا  
وَقَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ  
بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ  
وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أى صارت مصر والشام تحت إمرة بني إسرائيل ، وهى الأرض التى باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شىء من مقومات الحياة ، وترف الحياة . ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ .

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى استمرت عندهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل من الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأوردتهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه لئى جاءت على لسان موسى :

﴿ وَيَسْتَعْلِمُ فِي الْأَرْضِ مِيطْرٌ كَيْفَ تَقْعَمُونَ ﴾

( من الآية ١٢٩ سورة الاعراف )

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا ﴾

( من الآية ١٣٧ سورة الاعراف )

ونعلم أن كلمة « مشرق ومغرب » تقا بالسيات ، فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاعت نسبة ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وسين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر وعلى سبيل المثال نحدد من يسكن فى الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن

يسكنون أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هنا  
فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ، فإذا غربت  
الشمس في مكان فهي تشرق في مكان آخر . وفي رمضان نجد الشمس تغرب في  
القاهرة قبل الإسكندرية بمقاتق .

ونعلم أن سبب هذه النورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله في كل  
أوقات الله ، مثال ذلك حين يصلي نحن صلاة الصبح نجد أناساً يصلون في اللحظة  
نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون  
صلاة المغرب ، وغيرهم يصلي صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله في أن  
هناك عبادة في كل وقت وفي كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر »  
لينادي لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » مبادياً لصلاة الظهر  
أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف في المطالع أراد به سبحانه أن  
يظل اسمه مذكوراً على كل لسان في كل مكان لتعلموا « الله أكبر » ، الله أكبر » في كل  
مكان .

وأنت إذا حسبت الرمس بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا  
الله » أبداً : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة « ابحسنى » وصف  
للمؤت ، و « كلمة » مؤنثة ، والكلمة هي قول الحق :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِيْعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الذَّٰرِئِينَ ۚ ﴾

( سورة التيسر )

لقد قال الحق القصة بلجاء ، وهذه هي التي قالها ربنا وهي كلمة « الحسنى »  
لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنفاس العدو ،  
فهي نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهذه  
وورثهم الأرض : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ .  
وهم بالفعل قد صبروا على الإبقاء الذي بالره وذكره سبحانه من قبل حين قال :

﴿يَسْأَلُونَكَ سَوَاءَ آعْدَابٍ يُدْخِلُونَ أَهْبَاءَهُمْ وَيَسْأَلُونَكَ نِسَاءَهُمْ﴾

( من الآية ٤٩ سورة البقرة )

وجاء عقاب الله لقوم فرعون :

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾

( من الآية ١٣٧ سورة الأعراف )

والتمهيد هو أن تلك شيئاً ونخره ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقياً في الآثار التي تدل على عظمتهم ما فعلوا ، وتجد العلماء في كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثرى جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة « دمرنا » تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتعطيلها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطيلنا نوع ما عَمَرُوا ، كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة في وادي الملوك ، وكانت معطلة بالتراب بفعل عوامل التعرية التي تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن هبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ، ثم تعود فتجد التراب يغطي جميع المنزل والأثاث ، كل ذلك بفعل عوامل التعرية التي تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التي تثبت الأرض نجد طرقات القرية التي تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل له قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعمر ، وكل ذلك من عوامل التعرية التي تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالنسيب ، إذن فكلمة « دمرنا » لها سند . والحق يقول عن أهبة فرعون :

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ﴾

( سورة النجم )

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تكماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء

الهرم قد تم بأسلوب تهريخ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون لصخرة التي على قمة الهرم . إند فقد كانوا على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثار وتخطيط لجنت القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن لقائهم به كانوا من الكهنة المنسوين للدين ، لتأكدت أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال لذين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو لدى هدى لناس من أول الخلق إلى واسع العلم .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغربَهَا أَلَيْسَ سِرّاً فَهِياً وَكُنْتَ كَالْمِتِّ رَبِّتَ أَخْشَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (١٢٧)

( سورة الأعراف )

و « يعرشون » أى يقيمون جنات معرشات ، وقلنا من قبل إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ، ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له حريشة أو كما نسميه نحن التكعيه لتحمله وتحمل ثمرة .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَنُودَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلْبَحْرَفَانُوا عَلَى قَوْمِهِمْ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (١٢٨)

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين في نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلاقاً في الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طعنوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً عدلوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حصلوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف بمعنى أن يقيم إقامة لارمة ، ومنه الاعتكاف

في المسجد ، أي لا تقطع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله في بيته .

﴿يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ أَصْبَارِهِمْ قَالُوا يُمُوسَىٰ أَحْمِلْ لَنَا بِهَاتِهِمُ إِهَابًا﴾

( من الآية ١٣٨ سورة الأعراف )

وهذا القول من قوم موسى هو فئة العناء ، كآل الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أصبح عندهم من العلم الكثير ، وهذه أول حجة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقبيتهم لم تستوعب العلم العامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقولوا : احمل لنا إلهنا ! وأرادوا أن يحب لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغرهما بعض الشيء ، وأنه غير مستقيمة فلنعد لها بالإرميل ، وقولهم : ﴿احمل لنا إلهنا﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ .

ولم يقل لهم : « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشيء ، وبين الجهل بالشيء ، فعدم العلم يعني أن الذمير قد يكون حالياً من أي قضية ، أما « الجهل » فهو يعني أن تعلم مناقضاً للمعصية ، إذن هناك قضية يعتمدها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذي لا يعلم فليس في ياله قضية ، وحين تأتي له لفضية يمتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمل مثلاً الذي لا يعلم . لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذي يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما في نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطى له لمعصية الجديدة ، إن الذي يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمي حين تعطى له المعلومة فليس عنده ما يناقضها لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعَاتُهُمْ فِيهِ وَيَكِلُ مَا كَانُوا



## يَقُولُونَ

و «مُتَّبِر» أى هالك ومدمر ، وهذا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التي تعبد الأصنام ، وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها فلا بد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يستقر ، ومثل ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على نفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف في الوصف لأننا ستوحى واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعة فكيف واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضى يحاور الشهود محبورات ليتبين ما يشتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يسترحون حقيقة واقعة ، فلن يختلفوا في روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربى يقول : « إن كنت كذوباً فكُن ذكوراً » أى إن كذبت - والعياذ بالله - وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تذكر كذبتك ، وأنت لست تذكرها لأنها أمر متخفى وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولعمراً فنقول : ياك أن تغتر بهذه الزهرة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَزَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنًا فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْنَمَلِ السَّيْلُ رَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقَلُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ حُغَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ ﴿٥٧﴾

( سورة الرعد )

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو لسائل أو الماء من الرغوة والفتش والمخلفات التي تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى ونحن نحتبر المعادن لنعرف هل هي مغشوشة أولا . . ونعرضها على النار ، فيطعمو ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى في القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى :

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(سورة الاحزاب)

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لفظة الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أو عن فعل ، والقول والفعل معاً هما «عمل» . ولذلك يقول الحق :

﴿لَا تَقُولُونَ مَالًا تَفْعَلُونَ﴾

( من الآية ٢ سورة الصف )

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل

وقوله الحق ﴿وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إن الأصنام التي كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أموال وأفعال ، كأن يقولوا : يا هبي ، يا لات ، يا عزى ، ويسجدون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقومون أمامها صاعرين أدلاء ، إذن فقد صلب منهم قور وفعل يقسمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام :

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ

فَضَّلَكُمْ عَلَى الْمَلَكِ﴾

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ ، ثم قال : ﴿إن هؤلاء مثمر ما هم فيه ويبطل ما كانوا يعملون﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام

من دون الله إنما يفعلون باطلاً ؛ فقال : ﴿ قال أعير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾

وقوله : ﴿ أعير الله ﴾ أى أن لإله الذى عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذى استبدلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلوا رأياً غيره ؟

وقوله : ﴿ قال أعير الله أبغيتكم ﴾ أى أطلب لكم إلهاً غيره ؟ وفى سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفصيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى :

﴿ وَإِذْ أَنْبَأْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتِلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

وإذا سمعت : إذ ، فافهم أن معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، وه إذ ، يعنى اذكرو جيداً ولا يغيب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشدّه .  
ويقول بعدها مبيناً وممراً ذلك العذاب : ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ .

ونلاحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هي تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفى آية ثانية يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ بِسَوْمِكَ سِرِّ الْعَذَابِ بِدِيَارِهِمْ ﴾

( من الآية ٤٩ سورة البقرة )

أى أنهم تعرضوا للمقتيل ، وتعرضوا للتدبير ، وفى آية ثالثة يقول

﴿ إِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بِسَوْمِكَ سِرِّ الْعَذَابِ بِدِيَارِهِمْ ﴾

( من الآية ٦ سورة زهير )

لقد جاء به أولاه ها للعطف لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، و سبحانه يمتن بقمة النعم لكن : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا ﴾ ، فهو يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فهو الهم والحزن على من يستحق من النساء لاستباحة أعراسهن وامتهانهن فى الخدمة ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِهَا  
فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَزْبَعِيكَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ  
هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ مَسْجِلَ  
الْمُفْسِدِينَ ﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

والثاني تفصيلي ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسيجده في سورة البقرة يقول

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

( من الآية ٥١ سورة البقرة )

جاء بها هالك بالإجمال . ولكنه شاء هنا في سورة الأعراف ألا يأتي بها مرة واحدة مجملة بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أنمها الحق بعشر آخر لمهمة يستعدها فيما بعد ، ليكون الحقيقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد محملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحتمل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال

وضرب من قبل المش في خلق السماء والأرض في ستة أيام ، وكل آيات الحلق تأتي بخر السنة الأيام وهي مجملة . لكنه شاء سبحانه في موضع آخر بالقرآن أن يفوا :

﴿ قُلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَذَكَّرُونَ لَهُ وَإِنْ يَسَّرْنَا بِهِ الْقُلُوبَ لِنُفَصِّلَنَّ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ عَلِيمِينَ ① وَحَصَّلَ فِيهَا رَوْيَيْنِ مِنْ قُوَّهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَ فِي أَرْبَعَةِ يَلَالٍ سَوَاءً لِقَائِهِنَّ ② ﴾

( سورة فصلت )

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وحللتها في ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ أَسْرَوْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا ③ طَائِعِينَ ④ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ مَمَلُوكَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾

( الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت )

وهنا في موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يوصل في ظاهر

الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هي ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل  
المفصل بعضه في بعضه ، فإذا قلت : سمرت من مصر إلى طنطا في ساعتين ،  
والى الإسكندرية في ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا في  
الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدثت عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه  
- سبحانه - سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة  
حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، في مدة  
الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر آخر حتى  
لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعقفه ويشتم  
عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفي  
ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا يَرَأَيْتُ إِلَى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ  
وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

( سورة طه )

فكان العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة هي  
سورة البقرة .

وهنا يقول الحق في سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

( من الآية ١٤٢ سورة الأعراف )

وه اخلفني ، أى كن خليفة لى فيهم إلى أن أرحم وذلك فيما هو مختص  
بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون باعتداد بإمراس الله  
لموسى وهارون ، فالسلوب نقلهم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بصميم  
التثنية التى تجمع بين موسى وهارون :

﴿ إِنَّا رَسُولًا رَّبِّتْ ﴾

( من الآية ٤٧ سورة طه )

لأن كلا منهما رسول ، وقول الحق . ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التحنن ، أي أئني لى بك صلة قبل أن تكون شريك لى فى الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتحلفنى . فالأخوة مقرونة بأنت شريك معى فى الرسالة ، إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريد لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهياً فاعلموا أن موسى هو أول من يطلقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قدم بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بظهره وبتهجير وبتركية النفس بصيام . فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سراكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأرصح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت اخلوف وأنا أريد أن تقبل على بريح المسك نزد عشرة أبام ، حتى تأتى كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد مرسى العجل ، هناك ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الحبيث من الطيب

﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُتَفْسِدِينَ ﴾

( من الآية ١٤٧ سورة الأعراف )

وهما أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و « لا تتبع » هى نهى ، ويعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و « لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صائحين للفعل وعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صائحين أيضاً للفعل وعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال . ﴿ وكلا منها رعدا حيث شتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة «أصلح» تستلزم أن يبقى لصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يريد فيه صلاحاً فليعمل . وقوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لأنه قول موجه لى وهو هارون ، لا يتأني منه الإفساد ، ونكر موسى أسلمه أنه مستقوم فنه بعد قبل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سحدث إفساد ، ففصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألا يتبع سبيل المفسدين ، وبدلك سيقول هارون بعد ذلك مروراً تركه بنى إسرائيل على عادة العجل بعد أن بدلى غاية جهده فى معهم وبدارهم حتى ههروه واستصعبوه ولم بق إلا أن يملوه

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

( من الآية ٩٤ سورة طه )

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَهِجَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

والميعات هو الوقت الذى يعد لعمل من الأعمال ، وسميه وقت العمل . وغلب على أشياء فى الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُطَرَفُ فيهما ، أى يكونان طرفاً به ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما طرف الزمان ، وطرف المكان إلا أن طرف الزمان غير فار أى غير ثابت ؛ فقد يأتى الصبح ويندب ويأتى بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن طرف المكان قار وثابت .



والموقيت - إذن - إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا الموقيت على أنها زمن كل فعل بعد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالذي يتحكم في الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث في أي مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضا الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس في أي مكان يصوم يوم عرفة وبكده غير مطلوب من الحج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان ولزمان معاً . والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما سمي بالمقات المكاني وتكفل أهل حبه بصدقة المكاني الذي يطلب منهم ألا يمروا عليه إلا وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقانا المصروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى لميقات أو جاء في لميقات ؟ لقد جاء في الميقات ، واللام تأتي بمعنى « عند » ونعلم أن « اللام » تأتي بمعنى « عند » كثيراً في القرآن ، مثل قوله

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ لَئِنْ عَنَيْتَ لَيَلِيَنَّ ﴾

( من الآية ٧٨ سورة الإسراء )

أي أقم الصلاة عند دلوك الشمس أي عند زوالها عن وسط وكيد السماء إلى عسق لليل . ومن الدلوك إلى انشق بعد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقي الفرض الخامس وهو العجر ، وقال فيه الحق

﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

( من الآية ٧٨ سورة الإسراء )

ولماد بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل ليلها يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرصت الصلاة في المعراج ، فكانت أول فريضة هي الظهر ، وكان الحق يعني حد العاية وحد البدايه ، وكانت المدايه هي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقي الفجر ،

وجاء فيه : ﴿ وقرآن المجزأ إن قرآن المجزأ كان مشهوراً ﴾

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيم الليل إنه عرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة نظير

﴿ وَمِنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْتَغِيهِمْ يَهْدِيهِمْ نَارُ اللَّهِ لَمَّا كَانُوا عَلَى الْكُفْرِ وَصَوَّبْنَا بِهِ الْأَنْبِيَاءَ بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّاءَ مَا يَشَاءُونَ لِيُخْبَرُوا رَبَّهُمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ أَكْثَرَ الْبَنِيَّاءَ كَاذِبُونَ ﴾

( سورة الإسراء )

ومن ينشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم . ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وكلمه ربه ﴾ هو قول يذن على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال في مسأله الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً :

﴿ وَمَا كَانَ لِمَبْشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيٌ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ

بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

( من الآية ١٠١ سورة الشورى )

وفي هذا نفى أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث . الوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحي بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى في قلب النبي دفعة ، مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يرد بالوحي الإلهامات ، مثل الوحي إلى أم موسى ، والوحي إلى المحاربيين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحي : التسخير ، كالوحي للأرض ، والحل

وبعد ذلك . « أو من وراء حجاب » أي أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، « أو يرسل رسولاً » هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم يزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزل جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل لقرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامت

وهنا في كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن  
الخصوص فيما وراء ذلك لأنه عيب لم يكشف لك عنه ونترك الأمر فيه لله

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها في الشر . فليس وجود الإنسان  
كوجود الله ، وليس غي الإنسان كغي الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام  
الله ، لأن كل شيء يخص الله إنما نأخذه في إطار ليس كمثله شيء . . . وقد بين  
الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾

( من الآية ١١٤ سورة الاعراف )

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد في الشر ، ويوجد مثله . في وصف الله مثل  
« استوى » ، « وجلس » ، « وجه » ، « يد » ، نأخذ كل ذلك في إطار ليس كمثله  
شيء . . .

﴿وَتَذَكَّرَ مُوسَى لِمَقَاتِلِهِ رَبَّهُ قَالَ رَبِّ ارْنِي أُطْرُقَ إِلَيْكَ﴾

( من الآية ١١٣ سورة الاعراف )

وحينما حص الله موسى بحيرة أن تكلم إليه ، حص من موسى استشراف  
اصطفاي ، وكأنه قال لنفسه : ماذا قد كلمني فقد أقصر أن أراه ، لأن استطفية  
الأنس تمتد لمنس سبل الأمل في الامتداد في الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً  
على سؤال الله :

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى﴾

( سورة طه )

كان الجواب يكفي أن يقول : « عصا » لكنه قال :

﴿قَالَ يَٰٓمُوسَىٰ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا فَيَٰهْشِ بِهَا عَلَىٰ غَمِّي﴾

( من الآية ١٨ سورة طه )

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن

يطيل الأس بربه ، وكأنه حرف أنه من غير لائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال الله المثل الأعلى . نجد الإنسان ما حين يرى طملاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إياساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرت نفسه أن يراه ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾ .

لم يقل موسى أرى دانت بل قل . ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشقة الحق . وقدم موسى الطلب مطلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى في الرحي والكلام لم يكتم ربه الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثابتة أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل أساس كلام الله ؛ لأن الصفات لكمالية العليا الحافظة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق

صرباً المثل من قبل - والله المثل الأعلى - بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأي شيء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يعظم الأشياء التي هي أقل منه أو تحطمه الأشياء التي هي أكثر صلابة منه ؛ وإن اصطدم بشيء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد يكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان في البيت شيئاً من النور الصئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما سمي « النواصة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود في المنزل ؛ لأنها تصد فوراً ، لذلك تأتي لها محمول بأحد من القوى ويعطى الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذي لا يأخذ من القوى إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الوساطة من البشر اصطفاً ومن الملائكة اصطفاً ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطى مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطى المصطفى من البشر للبشر كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطى الله اندليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين

نبرزون في الآخرة وتمنون إحداهما آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : ﴿ وجوه يومئذ خاضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

ولا يستوى الناس في ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق يقول تعالى في شأن الكفار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يستوى المؤمن والكافر في هذه الحالة ، مادام الكافر محجوباً فالمؤمن غير محجوب ويرى ربه . وقال موسى : ﴿ رب أرى أنظر إليك ﴾ . قال الحق : ﴿ قال لن تراني ﴾ .

وفي اللغة نجد أن « س » تأتي تأييدية ، أي تؤيد المستبين أي لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لن تراني ﴾ أن موسى لن يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إنه زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر :

﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَرَرُوا ﴾ وَالْوَحْدِ الْقَهْلِي (١٨)

( سورة يونس )

إذن غزم الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفى أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجيء « لن » في قوله الحق : ﴿ لن تراني ﴾ تأييدها إضافي ، أي بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه :

﴿ وَلَنُفِخَ بِنُفْثِ الْأَنْفُسِ فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ فَمَا تَجِدُ رَبُّهُ يُجِيبُ  
جَعَلَهُ دَحْكًا وَتَرْمُوْنِي صَحْفًا

( من الآية ١٤٣ سورة الاحقاف )

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية وانعية فأوضح : لن تراني ولكن حتى أطمئنت أنك مخلوق بصورة لا تمكثك من رؤيتي انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، واللبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن تراني . إن الجبل بحكم الارتفاع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من

الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل انكس . والدك هو الضغط على شيء من أعلى لشيء أسفل منه . والحق هو القائل :

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ۝٢١ ﴾

( سورة الفجر )

وهنا في موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلّى على خلق من خلقه ، ولكن أبقدر المتجلّى عليه على هذا التجلّى أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلّى له ربه انكس ، إذن فمن الممكن أن يتجلّى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلّى أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلّى له بدليل أن الأنبياء منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويهين لنا أن موسى قد صعد لرؤية المتجلّى عليه فكيف لو رأى المتجلّى ؟ ١١ ﴿ فلما نجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ﴾ . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق في آية قرآنية :

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا ۝٢٢ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة ص )

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ، وصعقه تطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماء الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ تَفَيَّعَ فِيهِ أُخْرَىٰ ۚ فَلَمَّا تَفَيَّعَ مِن بَيْنِهِمْ نَزَلَ حَزْؤُهُمْ فِي النَّارِ ۚ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ بِنَظَرٍ ۝٢٣ ﴾

( من الآية ٢٣ سورة الزمر )

إذن النسخة الأولى تصبغ وموت الجميع ، ثم تأتي النسخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما أفاق قال سبحانه ثبت إليك ﴾ . وهنا يدل على أن الصعقة ليست هي الصعقة المحيية ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وانبه إلى أنه لم يكن من اللاقي أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : هـ فلان فلق

لنفسه « وهنا » أفلق « موسى على حاجتين اثنتين ، أفلق من الغشية التي حصلت له من الصعقة ، وكأنه تسامد : لماذا انصرفت ؟ لقد انصقت لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فلما أفلق قال سبحانه ﴾ ، وساعة تسع كلمة « سبحانه » اعرف أنه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذي نحن بصنعه وهو رؤيته - تعالى - أي تنزيها لك يارب أن يراك مخلوقك ، لأن الرؤية قدرة بصر على مرئي ، ومعنى : رأيت الشيء ، أي أن عين البشر قد قدرت على الشيء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعني أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ، لأن المفكر لا ينقلب قادراً ، والفاجر لا ينقلب مقلود .

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

( من الآية ١٤٣ سورة الأعراف )

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات لمحاكمة لنواميس الكون ، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يصعد المسئلة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للبيوضات التي يعطيها الله له ويتعمق بفيض جود لا يبذل مجهوداً .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، أي بأن ذاتك - سبحانه - لا يفكر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الحاطر لأنه طمع إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سبحانه تبنت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له . لا تلتفت إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك :

﴿ قَالَ يَمْسُرُ إِلَى أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ وَرَسَلْتُ

وَبِكَلْبِي فَخُذْ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : ﴿ اصطفيتك على الناس ﴾ تعبير

فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد في دائرة الاصطفاء البشري . ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُ عَلَى النَّاسِ بَرَسَاتِي وَيُكَلِّمِي ﴾ . ولغائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا ﴾

( من الآية ٣٤ سورة آل عمران )

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء في رسالة ومعها شيء رائد ، وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - فإذا جئت كمدرسي لتلاميذ وأعفيت واحدا منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثاني قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر بجموع قلم وزجاجة حبر في هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرب الكلام : ﴿ اصْطَفَيْتُ عَلَى النَّاسِ بَرَسَاتِي وَيُكَلِّمِي ﴾ .

وعرفنا من قبل أن « رسالاتي » هي في مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة في النزول ، فكان كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهي رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين :

﴿ قَالَ يَمْوَسِيَّ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَاتِي وَيُكَلِّمِي فَقَدْ مَاءَ بَيْتِكَ وَكُنْ مِنْ

الشَّاكِرِينَ ﴿١١﴾﴾

( سورة الأعراف )

أي لا تنظر إلى ما صنعتك ، بل اذكر أنني اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لي هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقي له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفائل ينظر إلى الكوب الذي نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب مملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، ويرغم أن كلاً منهما



يقرر الحديقة إلا أن المزمّن المتعاطل نظر إلى ما بقى من نعم الله .  
إنا نجد ابن جعفر حين ذهب للحليّة الأموي في دمشق وحرّحت رحله في أثناء  
السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عديّة طبية فتقيحت ، وحين أحضروا  
له الأعياء وقرروا قطع رحله ، قال بعض الحاصرين : التمسوا له مرقداً أى دواء  
تمخّذ به جسمه لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أعقل عن ربي لحظة  
عين ، فلما قطعوها أحذوها ليدنوها ، فقال هاتوها فأحضروها له وأمسك بها  
وقال : اللهم إن كنت قد أثبتت في عصبى معد عاييت في أعصابى  
هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أحده ، بل ينظر إلى ما بقى له .  
وكذلك كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى  
منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطداء وشرف الكلمة إلى الحائق واشكر ديث  
ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ  
مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ  
قَوْمَكَ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٢٥)

والكتب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى  
شئ ، وعندما يقول ربنا ﴿ وكنا ﴾ فالله لم يرسل الكتابة بنفسه ، ولكن رسله  
من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَكُنَّا مَا قُلُّمُوا ﴾

( من الآية ١٦ سورة يس )

وكتبه الرسل من الملائكة لأعمالنا هي بالأمر من الله ، ومرة يسبب الأمر إلى  
الأعلى ، أو يسبب إلى المباشر أو إلى الواسطة . ﴿ وكنا له في الألواح من كل  
شئ موعظة وتفصيلاً ﴾ .

ويحسن معرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً ، ولكتابة على الألواح سبب ،  
 قديماً كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كنناً مكتوبة  
 على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد فدما المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل  
 حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على الفخف  
 المأخوذ من الحبل ، وكذلك كتبوا على عظام الدنائح ، أخذوا منها قطعة العظم  
 المسبوطة مثل عظم لنوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جداً لديهم ،  
 وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوحاً .

﴿ وَكُتِبَ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَنُوعٌ مِّنْ تَوْحِيدٍ وَتَفْصِيلٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

( من الآية ١٤٥ سورة الأعراف )

وقوله سبحانه . ﴿ من كل شيء ﴾ يعنى : من كل شيء تتطلبه خلافة الإنسان فى  
 الأرض فى الوقت المناسب له : فالرسل تأتي بمهمة ، لكن قد يأتي تشريع مناسب  
 لفترة الزمنية التى جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتي من بعده ، إلى  
 أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمهيج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ،  
 والموعظة تعنى ألا تنشئ حكماً للسامع ، بل تعظه تنبيذ ما علم له من قبل ،  
 ولذلك يقال : واعظ وهو الذى لا ينشئ مسائل جديدة بل يعرف أن المستمع  
 يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه ﴿ وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة ﴾ أى أن الكلام  
 لم يأت مجملًا ، بل يأتى بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة  
 والتفصيلات التى فى الألواح بقوة ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن  
 الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهى نهياً قد  
 يكون هذا النهى مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك يتزع هذا النهى أو ذلك الأمر  
 الإنسان مما ألف ، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان فى هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تغلب على الشهوة الرتبية التى

تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقل على منحه الله فعليه أن يعرف أن المنحه سوف يخرجها مما ألف ، ولا بد له أن يقبل على المنحه بقوة وعزم لوجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنحه يقول له : « افعل » وعلى المؤمن - إذن - أن يأخذ التكليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق من الدنيا الزائلة ، والمنحه يعطى متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداداته ، لكن التكليف يعطى للمؤمن نفع يتناسب مع صلاحية قدرة الله على النفع ، إذن لا بد أن تشرح نفسك بما يعطيه الله لك من المنحه ، وإياك ساعة أن ترى المنحه مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك في المنحه ، بل معك غيرك فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أبعاد المنحه حريتي ؟ لا ، لا تنظر إلي أن حظرت وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يمتدح عليك آخرون ، فقد قال المنحه للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب في هذه الحالة ويتابع الحق بيان ما هي الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك بأكملوا أحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهي « حسن » ، فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابه مصيبة من أحد يعتبره غريباً له . فإذا ما كان للإنسان غريب تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله في القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يغفر ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره ما دامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « لأحسن » ، وجاءت هذه الترتيبات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق في الإنسان عواطف وعرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة في حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقن للغرائز كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ، ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة لشروء و يوقع في أعرض الناس  
وانسداد حرماتهم ، وجب الاستطلاع غريزة ، ويدب اكتشاف الكشوف العدمية  
حاجب أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود ، لكن لا يصح ولا يسعى  
أن يصل حب الاستطلاع إلى انتحس الاستذلال  
إن للإنسان غرائز يعيها الشرع ، أم الحب فهو مسألة عاطفية . فأنمشرع ،  
يقول لك أحب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تنظم من أبغضته  
ولا تنظم لناس لحساب من أحببت

ولما في رسول الله أسوة حسنة حين قال ،

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس  
أجمعين » (١) .

فقال عمر : كيف ؟

وكررها رسول الله فقدم عمر - رضي الله عنه - بمطرفته أن ذلك أمر نكسفي  
وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلي . يقول المؤمن لنفسه من أنا لولا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكل مؤمن يحب رسول الله حباً عميقاً ، وقد  
يتساقط إلى أن يصير حباً عاطفياً والإنسان مما - كما قلنا سابقاً - يحب ندوء  
بعقله لا بعاطفته لأنه مرء ، ولكنه يعصب إن احتسب ندوء من لأسوف ويفرح بمن  
يأتي له به

إذن التكليف يطلب الحب العقلي ومن أخاز ميديا عمر بن الخطاب - رضي  
الله عنه - عندما مرَّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : «رو نفسك عني  
فأنا لا أحبك ، هرد الرجل بكل جرأة يمانية أو غدم حبك لي يمسعي حفا من  
حقوقي ؟ قال عمر لا ، قال الرجل إنما يكي على الحب نساء

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والصابي وابن ماجه

رجع أصله وعرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

والحق يقول هنا ﴿ يَا حُدُو بِأَحْسَنِهَا ﴾ فمثلاً ، حين يُقتل إنسان فلولى الدم أن يقتص ، لكن الحق يحزن قلب ولى الدم على القاتل فيقول :  
﴿ لَنْ عُنِيَ لَهُ مِنْ أَحِبِّ شَيْءٍ قَاتِلُ الْمَعْرُوفِ ﴾

( من الآية ١٧٨ سورة البقرة )

وحين يسمى الحق القتاتل أحاً فهو يهدىء من صراع المواطن ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَزَمَ فَإِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٢٤﴾

( سورة الشورى )

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجئ أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك فى المرض ؟ ومن تعصب ، وعلى من نهيج وإلى أين انشغالك ؟ ولديك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ أى مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلاحظ أنه الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ، لأن لك غريماً يهيجك ساعه أن تراه ، وفى الآية التى نحن بصدده نلاحظ أنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك بآخذوا بأحسنها ﴾ .

يعنى إذا وجدت بهم ذريعة ومصلحة وسيئاً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ، لأن الإنسان إذا روى نفسه ودلها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أسماء إليك ويمكنك أن تسيء إليه ، فعليك أن تراعى فى ردك للإساءة أن تكون بقلها مصداقاً لقوله الحق سبحانه :

﴿ فَتَأْتُوا بِخَيْرٍ مِّمَّا عُرِيتُمْ بِهِ ﴾

( من الآية ١٢٦ سورة النحل )

ولكن من ما يتصف بالدقة هي الموازين النسبية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفعتك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذي في صفعتك له ؟ لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة إذن لماذا تدخل نفسك في متاهات ، ولماذا لا تعفر وينتهي الأمر ؟

وحين يدلك الحق على أن العفر أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهي شراسة النفوس وضغنى الصدور . فحين يقتل إنسان إنساناً آخر ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا وليّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من وليّ الدم فيستحي القتيل - بعد ذلك - أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد وليّ الدم أو من ينب إلى وليّ الدم ، وحينذاك تنتهي أي صغينة أو رغبة في الثأر ، ولذلك نجد البلاد التي تحدث فيها الثارات وتستشري فيها عادة الأخذ بالثأر - مثل صعيد مصر - نجد انقراضها إذا ما أخذ كفته على يده ودخل على وليّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه وليّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من وليّ الدم ، وتصفى الثارات وتنتهي . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وأمر قومك ببايعوها ﴾ ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفى الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُ مُبْرَرٌ ﴾

( من الآية ٢٨٠ سورة البقرة )

القرض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهو عكس السؤال الذي قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقرض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشيء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض يتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حسن وهناك أحسن ، الحسن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تنزل عنه ، ومن ينزلون هم العاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة في سيدنا الحسن البصري - رضي الله عنه - الذي أحسن لس أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعن الله في جانب ؟ » . ودائماً أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أساء إليه ، وكذلك الأمر فيما نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؛ نجد رب المخلوق مع من أساء إليه ، وعلى من أساء إليه أن يفور : هذا الإنسان الذي أساء إلى قد جعل ربنا في جانبى ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾

( من الآية ١٨ سورة الزمر )

وفى آية ثانية يقول الحق .

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

( من الآية ٥٥ سورة الزمر )

ويديل الحق الآية التى نحن بصدد خوارطها عنها بقوله : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ودار الفاسقين هى النار ، وكان الحق هنا يقول : « سأريكم النار » ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيجهرون بها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتى سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبني إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكان الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا لمآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ معناه حملهم على ما فى الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسيقين ﴿ هي المذات التي دمرت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وسفهم لتعتروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تعلمون عليها في العلو والرواح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي الْأَرْضِ  
يَغْيِرُ الْحَقَّ وَإِنْ يَسْرِوْا كُلُّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوْا بِهَا وَإِنْ  
يَسْرِوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوْهُ سَبِيْلًا وَإِنْ يَسْرِوْا سَبِيلَ  
الْعِىِّ يَتَّخِذُوْهُ سَبِيْلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا  
عَنْهَا غَافِلِيْنَ ﴿١١٦﴾

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، إما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ فِي حُلُقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية بها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق :

﴿ سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ ﴾

( من الآية ١١٦ سورة الاحقاف )

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يكفرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعسار في آيات الكون ، أو أن الذين يتكفرون في الأرض بغير الحق سيبتل كيدهم في أن يتجهوا بلحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .



إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبير ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبير قد تكون قوة ، لكن ألم ير المتكبر قوياً قد ضعف ؟ وقد يكون الثراء من مقومات التكبر ، لكن ألم ير المتكبر غنياً قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم ير المتكبر دجاء صار دليلاً ؟ .

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتي لا يُسَلَب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ، لأنه لا يوجد في الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغبار التي تحدث وقد تزول . فكيفها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فبك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتياً فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن مقومات التكبر في البشر غير دائمة .

وقوله سبحانه : ﴿ يتكبرون في الأرض غير الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك والكبرياء لله وحده واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يحظر الله بيباله ، لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله في بابه لتضاءل ، لأن الله يحظر فقط بالالتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إنا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس آخر ، وهناك مرؤوس فقط . والرئيس المرؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له يتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطى أوامر ؛ لأنه قد بلغت فبجد رئيسه وقد دخل عليه فهو جعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحكك منه المرؤوسون له فكذلك الناس الذين لا يستحسرون الله في باهم يجدهم مثار سحرية ، لكن الذين يستحسرون الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطلع على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر

لا يخرج ، وما في خلج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم في الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته في الكون .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّامَةً لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَذَابِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

( من الآية ١٤٦ سورة الأعراف )

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، حين يرون سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس ومواها ، فينبى عن السيئات وهم لا يقدرّون على كبح جماح شهواتهم لأنها تكونت منهم ، ولكن سبيل السبيل يطلق العنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا عقل عن معطيات الإيمان الذي يحرمه من شيء لمعطيه أشياء آمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلاحظ أن كلمة السبيل تأتي مرة كذكر كقوله : ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ ، ومرة تأتي مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قل هذه سبيل ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الشئ من أهل الكبر : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . وقدّمنا قلنا إن العجلة لا توجب الجزاء عليها ، لأن الغافل ساهو وناس ، ولكن هؤلاء صدقوا عن الأمر صدقاً عقلياً مقصوداً ، للرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أي التفات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ  
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴾

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها مباحها في الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صلق من أرسل من الرسل ، والفراتية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

( من الآية ١٤٧ سورة الأعراف )

ويقال: حبط الشيء أي انتسخ وورم من حلة أو مرض . أي أنهم في ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس في بآله أنه يفعل ذلك لإرضاء الله ، بل للشهرة ليتشكر ذكره ويديع صيته ويثنى الناس عليه ، أو للمجاهة والمركز والنفوذ . ولذلك حين مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ قال :

« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (١) .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليعتبره . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ويقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت في بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس في بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾

( من الآية ٢٠ سورة الشورى )

(١) روى أحمد والبيهقي ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي عمير وابن ماجه

﴿وَقَدِمَا إِلَىٰ سَائِغُوا مِن عَمَلٍ كَفْتَهُ هَاءُ مُشْرُؤًا﴾ ﴿١٤﴾

وَكذلك يقول :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْلَهُمْ كِسْرَابٌ رِيفَةٌ يَحْسَبُ أَنْطَمَعًا مَاءً﴾

فَالْكَافِرُونَ مِثْلُهُمْ مِثْلَ الظَّمآنِ اِذْ يَسِيرُ فِي سَهْرَاءٍ وَيَحْتَمِلُ لَهُ اَنْ اُتَاهُ مَاءٌ ، وَيَمْشِي وَيَمْشِي فَلَا يَجِدُ مَاءً . اَمَّا غَيْرُ الظَّمآنِ فَلَا يَهْمُهُ اِنْ كَانَ هَاكِ مَاءٌ اَوْ لَا يَوْجِدُ مَاءً ، فَالظَّمآنُ سَاعَةً يَرَى السَّرَابَ يَمْشِي نَفْسُهُ بِاَنْ الْحَيَاءُ قَادِمَةٌ وَاَنْتَ سَيَحْصِلُ عَلَيْهَا .

﴿كَرَّابٍ يَفْقَهُ بَحْثَةَ الظُّمَاطِ مَا أَدْنَىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْ فِيهِ﴾

وليس المهم أنه لم يجلده شيئاً بل يعاقب . ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . إنه يضاجأ بأن الإله الذي كان لا يصدق بأنه موجود يجلده أمامه يوم القيامة فيؤديه حسابه ويجزيه على عمله الصيغ . إذن فإن عمل الإنسان عملاً فليستظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس في باله الله فعليه ألا يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر في قانون نواميس الحياة الكونية ؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه .

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُحْرَمُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧)

( سورة الأعراف )

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من لحق الذي أنزل هذا المصحح ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٢٨) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي آخِرَةِ الدِّينِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٢٩)

( سورة الكهف )

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ فَكَرَرُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٢٨)

وعوله : ﴿من بعده﴾ أي من بعد دهايه لبقات ربه بعد أن قال هارون : ﴿احملني في قومي﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، ونعرف أن الحلي هو ما يترى به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلي هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر بسهولة ، صلاحه ، كما أن كسر لذهب بطل ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان

الطيب ، كسره بهاء ، ونجباره سهل

وساعة سمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلى . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلى » فالمراد بها الذهب .

وهذه البرينة هي التي صنع بها موسى السامري تمثال العجل ، وبطبيعة الحال اتخذ الحلى الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلى وقد كانوا مستضعفين ، ومستبدلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم لحلى كسلة سيرة منها من بعد ذلك . ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلى معهم !

وعرق قوم فرعون وبقيت الحلى مع قوم موسى ، وصنع موسى السامري من ذهب هذه الحلى عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : ﴿ عَجْلاً جسداً ﴾ أى أنه مخجّم ، أى له حجم واضح . وأحد أهل التفسير من كلمة « جسداً » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذا مجرد جثة » . أى كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : ﴿ عَجْلاً جسداً له خوار ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ، لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عَجْلاً جسداً له خوار ، ولا تكفى بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ له خوار ﴾ دليل على أن الجسدية هي العجل لا تعطى له الحياة . وجاء بالوصف في قوله : ﴿ له خوار ﴾ والحوار هو صوت البقر . وقد صمعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التي كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفساً ، فصمعه - كما نعرف - من الحلى المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقل من دبره همة الهواء ، صنعت وأحدثت في جوفه صوتاً يشبه صوت وحوار البقر الذي يخرج من فمه ، وهذه مسألة براها في الباطن وهو أبوية من القصب مما يسمى العباب البلى وتعتنق به ثقوب ، ويعزب عليه العازف ليخرج منه النغمة التي يريد

وحين صنع موسى السامري العجل بهذه الحيلة ، حدث هذ الصوت مشبها  
لحوار القمر وقصة هذا العجل تأتي في سورة طه بوضوح وستعرض لها حين  
نتعرض بجوهر الإيمان لسورة طه بإذن الله .

﴿عَجَلًا جَدًّا لَهُ رُخْوَانٌ لَّمْ يَرَأْهُمْ لَا يَكْفُرُ بِهِمْ لَبِيبٌ إِلَّا أَنذَرَهُمْ سَبِيلًا أَخَذَهُ وَكَانُوا  
ظَالِمِينَ﴾

( من الآية ١٤٨ سورة الأعراف )

ولماتما احتار السامري العجل ؟ لأنهم حين حوّلهم من مصر ، رأوا قدماء  
المصريين وهم يعبدون لعجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد  
الأحرار الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة . وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم  
وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يعمر الأرض بالمياه ، وكانوا  
يستخدمون العجل حين يريدون حث الأرض . وكان أيّدا ، أي قويا وشديدا  
في حث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة . ولكن كيف اتخذ قوم موسى من  
عجل عجل يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون  
وآله ؟ وهب أوصح لنا الله أنه جاور بني إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون  
الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة  
ريأتى القوم من الحق .

﴿أَنْتُمْ رَوَّاءٌ لَهُمْ لَا يَكْفُرُ بِهِمْ لَبِيبٌ إِلَّا أَنذَرَهُمْ سَبِيلًا أَخَذَهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

( من الآية ١٤٨ سورة الأعراف )

وهذه قصة تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لابد أن يتنهي من المعبود  
أوامر ، وأن يكون عبد المعبود منهج يريد من العبد أن يعبده ، وأن يأتي المنهج  
بواسطة رسل يبعثون رسالات الله وكلام الله للبشر أما الذين يعبدون الشمس  
- مثلاً - فمناهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذى أرسنته الشمس لكم ؟ إن  
العبادة هى طاعة العائد للمعبود فى « اعمل » و « لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس  
« افعلوا » و « لا تفعلوا » ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ،  
وكيف يوجد - إذن - معبود بدون منهج للعباد ؟ وهل قالت : إن من يعبدنى سأسرق

عنه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعطى قلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم نقل الشمس ذلك فهي تعطى من أمر بها ومن كفر ، ولم ترسل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .

وهكذا يبطل أمام كل عادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضي أمراً وبهياً ، في « افعل » و « لا تفعل » ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذي نعبده وما الذي نعصاه . والأصل في المعبود أنه يهدي العائد السبيل الموصل إلى خير في الدنيا وفي الآخرة . بذلك يقول الحق ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . و ﴿ كنوا ظالمين ﴾ لأنهم أعطوا حقاً لمن ليس له الحق ، وأنحق سبحانه أعلى قمة في الحق ، ولذلك قل عن الشرك به . ﴿ إن لشرك لظلم عظيم ﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ  
صَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا  
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور لكن الناس الذين امتلكوا قسراً من البصيرة ، أروحية إيمان قالوا هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها ونسلموا على ما كان ، ويقال . سقط في يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية انطورية التي لا تحصى فيها أمة عن أمة ، بل هي في كل الأجناس ، وفي كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلاً وحدث له عكس ما يفعل بعض على الأمل ندم وغماً ، وهذه من الدلالات الطورية الباقية لنا من الالتقاء الطبيعي في المخططات ، هي كل الأجناس وبعض الإنسان الأامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن عمله ، فإذا كان الشيء عظيماً فهو لا يكفي بالإنملة بل يملك يده كلها وبعضها . والحق بقول ﴿ ويوم يعص الظالم على يديه ﴾



« وَسُفِطَ فِي أَيْدِيهِمْ » أي جاءت أيديهم على أيديهم ، كان الدم يلح أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصرو بعينهم ورأوا أن ذلك باطل وعسوان . أي قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لكوني من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والنحاة إلى الله عز وجل ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ اتَّخَذُوا خَلْقُوتِي مِن بَعْدِي ۖ أَخَعَيْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَالْقَى الْآلُوحَ ۚ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِهِ ۖ الْأَعْدَاءُ وَلَا تَحْتَلِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ ۖ ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غصبان أسفاً ، يدلنا على أنه علم لعبر بحكمة العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : « المواجهات النفسية » ، أي الشيء الذي يجعل الإنسان في نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجهات بالعمليات بزرعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت في نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتج أوداحه ويحمر وجهه ويستمر هياحه ، ويبرق عيناه بالشر وتدفع يده ، وهذا اسمه غصبان وصار موسى إلى الحالتين اللتين ، وقدم الغضب لأنه رسول له منهجه ولا يكفى في مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح

وقديماً قلنا . إن كل تصور شعوري له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية في النفس ، ثم مرحلة بروعية بالحركة ، وصورتها المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويعلمش لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطعها فهذا بروع

حركى . والتشريع سم يقن للإحراك أو لوجودان لكنه قنن للسلوك . إلا فى غص  
البصر مما حرم الله وفلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لم يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر العصب وهو عملية  
نزوعية ، ونلاحظ أنه يأتي بكلمة أسف . وهى مبالغة فهناك فرق بين أسف  
وأسف ، أسف خفيفة قليلاً ، لكن أسف صيفة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد  
اشتد عليه وتمكن منه

﴿ قَالَ يَتَّبِعُوا أَمْرِي مِنْ بَعْدِي أَتَعْلَمُونَ أَمْرًا رَبِّكَ ﴾

( من الآية ١٥٠ سورة الأعراف )

وقوله سبحانه . ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى استبطأتموه ، وهذا نتيجة لذهاب  
موسى لثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أنى لى آتى ؟ أو أنى  
أعطات عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجل أو من أجل إله قادر ؟ .  
ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه  
وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى  
لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتموه  
أو حفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا .

﴿ أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح ﴾ . ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقر  
موسى على أخيه : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ وهذا « النزوع العصبى » الذى  
جعله يأخذ برأس أخيه ، كان الأخوة هنا لا نفع لها ، فمذا كان رد الأخ هارون : ؟

﴿ قَالَ آيُنْ أَمْ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَفُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشِيتْ بِي الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي  
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأعراف )

نلاحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أبا موسى وهارون طوى

اسمه في تاريخ انساب ولم يظهر عنه أى خبر ، والعلم جاءنا عن أمه لأبها من الى  
قامت اشقت في أمر حياته ، لذلك جاءها بالفكر المشرك البارز في حياتها ، ولأن  
الأمومة مستقر الأرحام ، لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ،  
وأخوة من الأب والأم ، ولأخوة من الأب والأم أمرهم معروف لكن نجد في أخوة  
الأم حينا ظهرا ، ويقل الخيان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالفكر المشرك  
ببها - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر في تاريخهم . أما الأب  
عمران نحن لا نعرف عنه شيئا ، وكل الآيات التي جاءت عن موسى متعلقة بأمه ،  
لذلك نجد أحباء هارون يكلمه بالأسلوب الذي يحسنه . ﴿ قال ابن أم إن القوم  
استضعفون وكادوا يقتلونى ﴾ .

ومادم قد قال ﴿ وكادوا يقتلونى ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف  
المعارض والمقاوم الذي أدى ما عنيه إلى حرجة أنهم فكروا في قتله ، ويتابع الحق  
بلسان هارون : ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

والشماتة هي إظهار المرح بخصية تقع بحصم ، والأعداء هم القوم الذين  
اتخذوا لمجمل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ،  
وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيمرحهم . وقوله : ﴿ وانط برأس  
أخيه ﴾ . . جمال للرأس في عمومها ، وفي آية أخرى يقول : ﴿ لا تأخذ بلحيتى  
ولا برأسى ﴾

ولقد صنع موسى ذلك بسمع العذر من هارون ، لأنه يعلم أن هارون رسول  
مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال :  
إن القوم استضعفون لأنى وحدى وكادوا يقتلونى ، مما يدل على أنه قلوبهم  
مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات لطاقة في الحياة ، حتى أنهم كادوا  
"يقتلونه" ، إذن فهو لم يوافقهم على شيء ، ولكنه قلوب على قدر الطاقة البشرية ،  
لذلك يدل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾

وكأنه يقول : لموسى إنك أن أحدثنى هذه المواجهة في حاله عضبك ، ربما طُن في  
أننى كنت معهم ، أو سكتت مسلكهم في اتحاد المعص وعبادته . وأراد الحق سبحانه

أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذي بين العلة في أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولا يمكن أن يطلب منه فرق هذا ، وحينها قال هارون ذلك تنبيه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقى الأكرام وفيها انبهج ؟ والأمر الثاني : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأختة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ  
وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

قال يا رب اغفر لي إن كان قد بدر مني شيء يخالف منطق الصواب والحق .  
واغفر لإخيه هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ فور قتل من عدوا العجل حتى يمنهم أو ينالوا منه ولم يمدون القتل جرحاً لو أخذوا أو . . أو .  
إلخ .

ويطلب موسى لنفسه وإخيه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأعراف )

وحين تسمع ﴿ أرحم الراحمين ﴾ ، أو ﴿ خير الرازمين ﴾ ، أو ﴿ خير الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملاً وإن كان محدوداً يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلاً على أنها عطاء ومنحة منه - سبحانه - أما صفات الله فهي صفات لا محدودة ولا متناهية جلالة وكمالاته وجمالاً فسبحانه ﴿ ليس كمثله

شيء . وإذا كان الله هو ﴿ أرحم الراحمين ﴾ بهذا يعني أنه سبحانه لم يمع الرحمة من خلقه على خلقه ؛ فمن رحم أخاه سمي رحيماً ، وراحماً ، ولكن الله أرحم الراحمين ؛ لأن الرحمة من كل إنسان صمان لمظهرية العصب في هذا الأحد ، يقال : « رحمت فلاناً » أي من غضبك عليه وعفويتك ، وإن عفويتك على قدر قربك ، لكن الله حين يريد أن يلحد واحداً بذهب غفوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَآلُهُمْ غَضَبٌ  
مِّن رَّبِّهِمْ وَدَلَّةٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي  
الْمُفْتَرِينَ ﴾

حين يقال : ﴿ اتخذوا العجل ﴾ قد سعد من يتساءل : هل اتخذوه مديحاً يأكلونه ؟ أو يثير الأرض أو يسقي الحرث ويدير السواقي ؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد اتخذوا العجل لهاً ومعبوداً ، أما اتخافه فيما خلق له فلا غبار عليه ، وهو هنا محدوف ومترك لفظته السامع ؛ فإذا اتخذوا العجل فيما خلق له العجل لا يدلنا غضب من الله ، أما الذين سيئالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل في غير ما خلق له ، إنهم اتخذوه إلهاً ﴿ سيئالهم غضب من ربهم ودلة في الحياة الدنيا ﴾

وقوله : ﴿ سيئالهم ﴾ يدل على أن أوان لعضب والدلة لم يأت بعد ، وسيحدث في المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الدلة ستحدث في الدنيا ، فكيف يكون ﴿ سيئالهم غضب ﴾ مع أنهم تابوا ؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك في قوله . ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فانتلوا أنفسكم فلكم حير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ﴾ .

فبعضهم تاب إلى ناره وقُتل نفسه فلما ذُكِرَ الغضب ؟

ويوضح الحق أن الذي نالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : « اقتلوا أنفسكم » ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : « سينالهم غضب » أي قبل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو منتهى الدلة ومنتهى الإهانة .

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَدَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

( من الآية ١٥٢ سورة الاحزاب )

أي أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مقرر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لابد أن يناله هذا الجراء ؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث في تاريخهم ؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك - سبحانه - أن يعتبر السامع للقصة في نفسه . واعتبار السامع للقصة في نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيها وتحذيراً ﴿ وكذلك نجزي المفتريين ﴾ أي احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما بالهم ، وهو سبحانه ينه كلاً منا ليتفزع من هذه العبرة وهذه اللقطة فإن التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السامع

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا

وآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا المجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى ربكم ، ثم تابوا ورجعوا إلى الله وآمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد نص علينا مظهرية جباريته فإنه أيضاً لم يشأ أن يدعنا في مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا في حنان لرحمانيته . لذلك يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا

## لَقَدْ نَزَّلَ رَحِيمٌ ﴿١٥٧﴾

( سورة الاعراف )

وقوله . ﴿ ثُمَّ تَبَوَّأُوا ﴾ أى ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألا يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة ؛ أولاً . لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانياً ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، وبولم يكن ربما قد شرع التوبة فى ذاتها لتعب الخلق جميعاً ؛ لأن كل من عمل سيئة ، ولم يشرع الله له التوبة سيستشري شره فى عمل السيئات . لكن حين يشرع ربنا للمسيء التوبة ، ويدعو العبد للكف عن السيئة بهذه الرحمة بالمعذب ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه المذنب بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنـا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .

التوبة - إذ ذك - لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطية والرحمة منه سبحانه .

وقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ﴾

( من الآية ١٥٣ سورة الاعراف )

إن هذا القول يدل على أن عمل السيئة يחדش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقبالياً ؛ لأن عملك السيئة يدل على أنك قد فعلت عن الحق فى أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تجدد إيمانك وتجدد ربك حضوراً رحيماً : ﴿ إِنْ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَنُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه فى « الفعل » و « لا تفعل » ، وما دام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفورا رحيماً ، فلماذاكم يا خلقى أن تذكروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب ؛ لأن صاحب الشأن غفر ، فلماذا أن تقول للسارق التائب : « يا سارق » ، ولماذا أن تقول للزاني التائب : « يا زاني » ، ولماذا أن تقول للمرتشي التائب : « يا مرتشي » لأن المذنب

ما دم قد جدد توبته وأمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طغيانياً وتسرر له الذنب من حديد

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ  
وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١٦١)

وهل للغضب سكوت ؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت ؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نروعياً أمام من أذنب ، فكان الغضب يلج عليه ، ويقول للعاصب اصرب ، اشم ، اقل . كان الغضب قد مثل وضوء في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشبه الله الغضب بصورة إنسان يلج على موسى في أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، ويعمل كذا ، فلما قال الله ذلك كان الغضب قد سكت عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء من القلب في الدعة ، أي أنه يقلب المسألة ، ابتكالا على أن فطنة السامع مترد كل شيء إلى أصله ؛ كما نسمع في اللغة : خرق الثوب المسمار ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بحرق الثوب ؛ لأننا لن نتحيل أن الثوب يخرق مسماراً . ويسمى ذلك « القلب » أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تعميها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر في مكانه ، والثوب هو الذي طرأ عليه فانهرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكان الفاعلية الحقيقية من الثوب : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ .

أو تكون كلمة (سكت) كذبة عن أن الغضب زال وانتهى .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ

لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١٦١)

( سورة الاحزاب )



وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غصبان أسفاً أنه تلقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه ورايله أحد لألواح ، وهذا أمر مطلق ، فالغضب حعه يلقي الألواح ، ويأخذ برأس أحبه ، ثم بهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطس من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأحبه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فاحدها ثانية .

﴿وَقَدْ أَسْحَبْنَا هُدًى رَّحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

( من الآية ١٥٤ سورة الأعراف )

انسحة من الكتاب مأخوذة من الشيء المسوح أى المقول من مكان إلى مكان ، ويقال : سحت الكتاب الفلانى من الكتاب الفلانى . . أى أن هناك كتاباً محفوظاً ثم بعث بالطاعة أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من السح ، أى أحدثه من الأصل إلى الصورة ، واسمه مسوخ ، وكلمة نسخة على ورد « فعلته » وثأتى بمعنى مفعولة ، نسخة تعنى مسووحة ، وهى لقرآن مثل هذا كثير والحق سبحانه وبعالى قال

﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِّسِرِّكُمْ شَرْبَ بَنِي فَيْسَ سِنِي وَمَنْ لَّا يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ سَفِيٌّ إِلَى اللَّهِ

أَعْرَفَ غُرْفَةً بَيْنَهُ﴾

( من الآية ٢٤٩ سورة البقرة )

و « غُرْفَة » أى معروفة ، وهى القليل من الماء فى اليد لئلا يريق فقط ، والمعروفة أيضاً تكون فى البيوت : لأنها مكان مقطوع من مكان آخر ولها جدران تحدها ، واسمها عرفة لأنها مفروقة من المكان فى حيز مخصوص وهنا يقول الحق سبحانه ﴿ وهى سحتنا هدى ورحمة ﴾

و « هدى » المقصود بها المصيح لموصل بلعابه من « اعمل » و « لا تفعل » . به يوصل لنعاية وهى ثواب الأخرة إدد فاللهدى واورحمة شيء واحد له طرفان . فاللهدى هو المصيح الذى إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾

وهكذا نجد المصيح هدى ورحمة ، فمن بسمع كلام الله وشعه يهتدى ويرحمه

رب ؛ لأنه جعل الله في بآله ، وحاف من صفات الجارية في الحق ، ولهذا لابد أن يستحضر الإنسان أو المؤمن رغبته لربه وخوفه منه - سبحانه - ليكون المصباح هدى ورحمة له . ويكون من الذين يرهبون ربهم

وساعة ترى المفعول تقدم في مثل قوله سبحانه ها .

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

( من الآية ١٥٤ سورة الاحزاب )

بهم أن هذا هو ما يسمى في اللغة « اختصاص » وتُصَر مثلما قال الحق في فائحة الكتاب : ﴿إياك نعبد﴾ .

وما المرق بين « إياك نعبد » و« نعبدك » ؟ إن قبا « نعبدك » فهو قول لا يجمع من العطف عليه ، فقد نعبدك وبعد الشركاء معك ؛ لكن قولنا : « إياك نعبد » أي خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانه فلا تتعدى إلى غيرك

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص . ومثال ذلك في حيات حين نقول : « أكرمك » ، ولا مانع أن نقول بعدها : « وأكرمت ريداً وأكرمت عمراً » لكن إن قلت : « إياك أكرمت » فهذا يعني أنني لم أكرم إلا إياك . وما يقول الحق ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ . ولما قال أن يقول ألا يمكن أن يدعى أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممثل لأمر الله رباه أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ، ويأخذون في الثناء عليه ؟ ولكن ها نجد لتخصيص الذي يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست ربه ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَخْذَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمًا فَلَمَّا  
أَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّنْ

قَبْلُ وَلَئِنِّي أَتَيْتُكُمَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا  
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا  
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وكلمة « احذر » تدل على أن العمل الإختياري يرجع العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون في الأمر اختيار ؛ لأن « احذر » نعى طلب الخير والخيار ، وكان في مكنتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يثنأى إلا في الأمور الاختيارية التي هي مناط التكليف ، مثال ذلك . اللسان خاضع لإرادة صاحبه فنصع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، ونخضع للملحد حين قال - لعنه الله - . لا وجود لله ، ولم يعص اللسان في هذه ، ولا في تلك . والذي رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإيمان عند المؤمن في أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإلحاد عند الملحد في أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : ﴿ واختار موسى نومه سبعين رجلاً ﴾ .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأن هناك مرجداً للحدث نسيبه فاعلاً مثل قولنا : « كتب زيد الدرس » أي أن زيدا هو الذي أدى الكتابة ، ونسبي « الدرس » الذي وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه « مفعولاً له » أو « مفعولاً لأجله » مثل قول الابن : قمت لوالدي إجلالاً ، فالذي قام هو الابن ، والإجلال كان سبب في إيقاع الفعل ونسبيه « مفعولاً لأجله » ونقول : « ضُحِتَ يوم كذا » ونسبيه « مفعولاً فيه » ، وهو أن الفعل ، وقع في هذا الزمن . فمرة يقع الحدث على شيء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع في يوم كذا ؛ العصر أو الظهور فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه « مثل قولنا : سرت والنيل . أي أن الإنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد التيل في جانبه .

وهنا يقول الحق :

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ فِئَتَهُ مِنَ السِّعْيِ رَجُلًا لِّمِيقَاتٍ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الاعراف )

ولأن اختيار موسى بالسبعين كان وقع من لقوم ، فيكون معمول قد جاء من هؤلاء لقوم ، ويسمى « معمولاً عنه » ، لأنه لم يحترهم كنهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلاً لميقاته مع الله سبحانه

وقالوا في غمة السبعين إن من تبعوا موسى كذبوا أسباطاً ، فأخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين في الميقات ، وكنتم « ميقات » مرت قبل ذلك حين قال الله :

﴿وَلَمَّا حَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِہٖ وَكَلَّمَ رَبَّهُ﴾

( من الآية ١٥٣ سورة الاعراف )

وهل الميقات هذا هو الميقات الأول ؟ لا ، لأن الميقات الأول كان لكلام موسى مع الله ، ولميقات الثاني هو للاعتذار عن عبدة المعجل

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ فِئَتَهُ مِنَ السِّعْيِ رَجُلًا لِّمِيقَاتٍ فَلَمَّا أَحَدَتْهُمْ الرَّجْعَةُ قَالَتْ رَبِّ

لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الاعراف )

ولماذا أخذتهم الرجعة ؟

لأنهم لم يقوموا لدين عبدوا المعجل المقاومة الحثيثة ، وأرد الله أن يعطي لهم لمحة من عذبه ، ورجعة هي برزلة الشديدة أتت نهر المرجوف وتحييه وترهبه من الراحف . وحين أخذتهم الرجعة قال موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ من قبل وإياي﴾ .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم وأهدوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معي ، فإن أمكنتهم يارب فقد يظن هدوهم أني أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى هلاك ولو كنت معيتهم يارب وشئت مشيتك ذلك لأمتهم من

قبل هذه المسألة وأما معهم أيضاً . ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً :

﴿ أَتُهْدِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِذْ هِيَ إِلَّا قِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ اتَّبَعَ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَتَى وَلَبِئْسَ مَا عَمِلْنَا وَآرَحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الأنعام )

أتى أرحم يارب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن لعملية عملية نعم ، والفعل هو عبادة العجل ، فلو أن هذا هو الميقات الأول بما احتاج إلى مثل هذا القول ، لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد ولكنهم قبلوا بعد الميقات الأول . مادام موسى قد كرم الله ، فلا بد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ جَهْرَةً ﴾

( من الآية ١٥٣ سورة النساء )

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم . ﴿ أَرَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً ﴾ وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل ﴿ أَتُهْدِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِذْ هِيَ إِلَّا قِتْنَتُكَ ﴾ .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل . والنتيجة هي الاختبار ، والاختبار ليس مدموماً في ذاته ، ولا يقال في أي امتحان إنه مدموم إنما المدموم هو النتيجة عند من يرسب ، والاختبار والامتحان غير مدموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هي الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإنسان البهاول الذي لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهي إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله ، لأنه يعلم أولاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد ، ولا بد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود في الواقع لتكون الحجة عليهم والأخذ بالواقع هو الأعدل وقول موسى عليه السلام

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا يَتَنَبَّهْتُ بِبَصِيرَةٍ مِّنْ نَّسَاءٍ وَيَهْدِي مَن نَّشَاءُ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الأعراف )

هذا أقول يعني . أنك يا رب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين ،  
يُصَحَّح أن يطيعوا ويصح أن يعضوا . والله سبحانه هو من يُضِل ويهدي ؛ لأنه مادام  
قد جعل الإنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى .  
وقد بين سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء ضلاله فقال :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

( من الآية ٨٦ سورة آل عمران )

والسبب في عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

( من الآية ٢٦١ سورة البقرة )

وممكننا برى أن الكفر منهم هو الذي يمنهم من الهداية . إذن فقد جعل الله  
للعبد أن يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يعمل العبد ويختاره لا يفعله قهراً  
عن الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلاً منا مختاراً لما استطاع الإنسان أن يفعل غير  
مراد الله ، ولكه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار . أي الإنسان - الهداية  
أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بين أن الذي يظلم ، والذي  
يضيق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية ؛ لأنه  
أهل أن يعينه الله على الهداية

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى في نهاية هذه الآية

﴿أَنْتَ وَبِئْسَ مَا عَجَّرَ لَنَا وَآرَحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الأعراف )

والولي هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك بوجد له ، ولم تقربه إلا  
لحبيشة فيه تعجك وتضعك وتساعلك إذا اعننى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه  
عبيد . إذن فالمعنى الأول لكلمة لولي أي القريب الذي قربته لأن فيه خصلة من  
الخصال التي قد تمنحك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

وقول موسى « أنت ولينا » أى ناصبرنا ، والأقرب إلينا . فإن ارتكب لإنسان ما ذنباً فانت أوبى به ، إنك وحدك لقادر على أن تغفر ذنبه ؛ لذلك يقول موسى . « فاعفِرْ لَنَا » ، ونعلم من هذا أنه يطلب ذره المفسدة أولاً لأن ذرهها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعه ربه أن يرحمهم ، وهذه جنب منفعة . وقد قال ربنا فى مجال ذره المفسدة : ﴿ فَمَنْ زُحِزِحَ عَنِ النَّارِ ﴾ وهذا ذره مفسدة وهو السعد عن النار . ﴿ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ ﴾ وهذا جلب منفعة ومصلحة .

إذن فذره المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، - وعلى سبيل المثال - إنك ترى نفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمتد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شأنا يريد أن يقدفك بطوية ، فماداً تصنع ؟ أنت فى مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوية أولاً ثم تأخذ النفاحة من بعد ذلك . وهذا هو ذره لمفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهذا ذره المفسدة متمثل فى قول موسى : ﴿ فاعفِرْ لَنَا ﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول :

﴿ وَسِرِّلْ مِنَ الْفُرْقَانِ مَعْفُورَةً وَرَحْمَةً ﴾

( من الآية ٨٢ سورة الإسراء )

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمسهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألا يجيء لك داء بالمرّة . فإذا أحدث لقرآن لك نصيراً فمن يأتى لك الداء أبداً .

﴿ مَا عَفَرَكَ وَارْحَمَا وَأَتَّ حَيْرَ الْعَمِيرِينَ ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الأعراف )

ومثلها مثل قول الحق سبحانه . ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، و ﴿ وَحَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . و ﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ و ﴿ خَيْرُ الْعَافِينَ ﴾ هنا ؛ لأن المغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكننا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق ؛ لأن العافر من البشر قد يعفّر رياء ، وقد يعفّر سمعة ، قد يعفّر لأنه يخاف بطش المقاتل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير العافرين من غير مقابل . ويقول الحق بعد ذلك .

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي  
الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ  
مَنْ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ  
فَسَاكِنُهَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ  
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

ونلاحظ أن هذه الآية تصم طلبات حليمة لسيدنا موسى من ربه بعد قوله :  
﴿ فاعمر لنا وارحمنا ﴾ . ويرى أن خير العاقبين نعود لقول موسى - عليه السلام - .  
﴿ فاعمر لنا ﴾ أما الحسنة في قوله : ﴿ وكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ فإنها تعود  
على طلب الرحمة ﴿ وكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ .

هو إذن يطلب الحسنة في الدنيا وكذلك في الآخرة ، والحسنة لها معنى  
والمعنى ، ومعنى شرعي ، أما المعنى النفوي فكل ما يستحسنه الإنسان  
يسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هي ما حسنه الشرع ، فاشرع رقيب على  
كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإنسان ، لأن الإنسان  
قد يستحسن المعصية ، وهذا استحسان بشري بعيد عن المنهج ، أم الاستحسان  
الشرعي فهو في تنفيذ المنهج به « افعل » و « لا تفعل »

والحسنة المعتبرة في عرف المكلفين من الله هي الحسنة الشرعية ، لأن الإنسان  
قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعي لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى  
آجلية النفع ، ولا ينظر إلى كمية النافع . والنفع - كما نعلم - في الدنيا هل قدر  
تصورك في النفع ، أما النفع في الآخرة فلا يعلم قدره إلا علام الغيوب - سبحانه -  
إذن فقوله : ﴿ وكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ يكون المراد بها الحسنة الشرعية  
في الدنيا عملاً ، وهي الآخرة جزاء .

ونلاحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة



تلميح : فهو دعاء بالعمامة والعمم الجديدة «بطيئة» ولكن خير الدنيا في صبره مسبح  
الله . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَاصَّةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة الأعراف )

رد : فالخاصة لخاصة هي في يوم القيامة ، ولكن هناك من يتمتع بها في  
الدنيا : بالعمامة يتمتع برحمة الله ، والساتر يتمتع برحمة الله ، وسحيرال يتمتع  
برحمة الله ، والكافر يتمتع برحمة الله . كل ذلك في الدنيا ، وهي الرحمة التي  
وسعت كل شيء ، لكن مسألة الآخرة كجزاء علي الإحسان فهو جزاء خاص  
بالمؤمنين

ويتبع الحق على سبيل موسى عليه السلام : ﴿ ي. هدا إليك ﴾

و . هدا أي رجع ، و هدا إليك أي رجعا إليك ، وهذا كلام موسى عن  
نفسه وعن أخيه ، وعن لقوم يدين عبدوا لمحل ثم بانوا ، ومازما قد رجعا إليك  
يا ربى فأنت أكرم من أن تودب حاثين ويرد الحق سبحانه

﴿ قُلْ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَ لَ تَكُنَّ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ  
وَيُؤْنَسُونَ رُكُوعًا لِلَّذِينَ هُمْ بِكَائِنَتَ يُؤْمِنُونَ ﴾

( من الآية ١٥٦ سورة الأعراف )

وقوله الحق ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ أي لا يوجد من يدفعني ويرشدني  
في ترجية العذاب لأحد ، فحين يذهب عذابك أن أعذبه أو أعصمه ، لذلك  
لا يقول عذ لمذهب إن الله لابد أن يعذبه ، لأنه سبحانه هو المائل

﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

( من الآية ١٥٦ سورة الأعراف )

وما المقصود بالرحمة هه ؟ أهى الرحمة في الدنيا أو الرحمة في الآخرة ؟ إنها  
الرحمة في الدنيا لى تشمل الطائع والمعاصي ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خاصة

في اليوم الآخر - كما قلنا - للمؤمنين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَاَكْتَبَهَا ﴾ يدل على ان هذا سيكون في الآخرة أي ان رحمة الله وسعت كل شيء في الدنيا ولكنها رحمة تنتهي بالنسبة للكافرين في إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهي رحمة مستمرة قد كتبها الله ألا وتعلم المؤمن فضلًا ومنه وعطاء منه - سبحانه -

﴿ فَاسْأَلْنِي لِّلَّذِينَ نَتَّقُونَ رِيْزُوْنَ اَلْزُّكُوْةِ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُّؤْمِنُوْنَ ﴾

( من الآية ١٥٦ سورة الاحزاب )

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا نحن متقون ، قليل لهم : هي أي منهج أنتم متقون أي منهج موسى ؟ لو كنتم متقين هي منهج موسى - كما ترعمون - لأنتم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد - عليه الصلاة والسلام - وبذلك جاء قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرًا مِّنْ عِندِ رَبِّهِمْ وَعَزْرٌ وَنَصْرٌ مِّنْ عِندِ رَبِّهِمْ وَأَتَّبِعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦٧﴾

هذه تسع صفات لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي أن الله أوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، وأنه بلغ ربياً بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق - وهو - عليه الصلاة والسلام - الأُمى الذى لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو - عليه السلام - باقى على الحالة التى ولد عليها ، وقد ذكره ربه - جل وعلا - باسمه وصفاته ونعوته عبد اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل وقد كتبها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلمهم بعمل كل ما تدعو إليه الطباع المستقيمة والعطر السليمة ، لأن فى ذلك الجراح فى الدنيا والعلاج فى الآخرة ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - يجرهم ويهاهم عن كل منكر مستهجن يستبيحه الجيلة العريضة ، والخلفة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التى منعوا منها وحظرها الله عليهم جراء طغيانهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث كأكمل المبتة والمال لحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكاليف التى كانت فى شريعة موسى - عليه السلام - كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الغنائم عليهم ووجوب حراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم المواقب الشديدة لتي فرضت عليهم عقاب لهم على فسونهم وظلمهم .

يقول - جل شأنه - :

﴿ يُغْلِبُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَلِّمَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرٌ ۖ وَأَحِلَّ لَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأُكْلِهِمْ آمُوكَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣١﴾

( سورة النساء )

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يلغوا أقوامهم بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم ، وألا يؤمن الأقوام التى يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبيأؤهم وسجلت فى الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، فد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسلطة

زمنية ويحافوا أن تنزع منهم . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء معه معجزة وبينة فلا بد أن يؤمنوا به .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾

( من الآية ٨١ سورة آل عمران )

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خمرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان ولا بهم أصحاب دين موحود أن دينا آخر جاء لينسحق ويأخذ منه السلطة الزمنية ؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحدث الأقضية للناس بامتداد الزمان فكل الرسل يعرضون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المراغب ولا تتعاند فيها الحركات وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عنهم العهد وبعد ذلك أكده فقال :

﴿ أَتَقْرَأُونَ ﴾ واسترحى منهم الكلام الذي يؤيد هذا الصهج . ولذلك لا يصح لتابع نبى أن يصادم رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمصيح يضمن للإنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

ولم يكتف الحق بأن يجعل لإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة في الكتب التي سبقته ، ووصفه لهم مشخص ، وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام . ولذلك قال عبد الله بن سلام عندما سأله عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منى يا بى . قال . ولم ؟ قال . لأبى لست أشك في محمد أنه نبي . فأما ولدى فلعل والدته قد خانت ، فقبل عمر رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه . ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ .

ولاشك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهي التي تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر في رحلة الإسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه

الرحلة قال : « رأيت موسى وإذا رجل صُربٌ ، وَجَلَّ (١) كأنه من رجل شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا هو زينة أحمر كأنه خرج من حمام - الحمام - وأنا أشبه ولد إبراهيم به » (٢) .

وكذلك أعطى الله في التوراة والإنجيل لا الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أعطى تفاصيل صورته بحيث تشخص لهم ، فلا يلتبس به عند مجيئه مع التشخيص شريك ، فيقول سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . ولكن فريقاً منهم كتموا الحق ليحفظوا بالسلطة الزمنية ، لأنهم كانوا يظنون أنه حين يأتي دين جديد سيأخذ منهم هذه السلطة الزمنية ويقرد الأمم والشعوب . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل رسل السماء إلى الأرض متعاونين لا متعاندين ، ينصر بعضهم بعضاً كما جاء في سورة الفتح

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أُنْزِجَ شَطْرُهُمْ فَتَذَرُوهُمْ كَأَسَدٍ مُخْتَلِفٍ أَلْوَانُهُ فَتَوَلَّى كُلُّ سَوْءٍ يُعِيبُ الْوَرَجَ لِيُخَيِّطَ بِهِمُ الْكُفَّارُ وَتَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

( من الآية ٦٤ سورة الفتح )

لقد جاء الحق بصورة المؤمنين برسالة رسول الله في التوراة والإنجيل ، لأن الدين الإسلامي الذي نزل على محمد لن يأتي دين بعده ، لذلك جاء بسيرة رسول الله وصفاته وصفات أتباعه في التوراة والإنجيل ، وفي هذا الدين ما تفتقده اليهودية

(١) الضرب : الخوف المحم ، والرجل مر من شعره بين السبطة والجمود ، وقوله : من رجل شنوءة أي طويل ، لأن هذه القبيلة كانت مشهورة بطول لغة رجالها ، وزينة أي مزيج الخلق لا طويل ولا قصير .

(٢) متفق عليه .

التي انجرفت إلى مادية صرفة وتركزت الروحانيات ، لذلك تأتي سيرة أتباع محمد في التوراة : ﴿ سبماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ .

حين أسرف اليهود في المادية أراد الله أن يأتي برسول يجنح ويحيل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام . . ليحصل الاعتدال في تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .

إدراك الحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يشر به الرسول السابق لأنه لا معاندات في الرسائل . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالي ، كان ولا بد أن يصفه الله - سبحانه - وصفا ليس بالكلام ، بل يصفه كصورة ، بحيث إذا رآوه يعرفوه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسي حين رأى رسول الله في المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى في كتف الرسول خاتم النبوة .

ولكن هل نفع ذلك ؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبدالله بن سلام ، الذي قال بعد أن أسلم بين يدي رسول الله : « يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني <sup>(١)</sup> » عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي رجل فيكم عبدالله بن سلام ؟ قالوا : أهلنا وابن أهلنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أفرايتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا : أعانه الله من ذلك ؟ فخرج عبدالله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه <sup>(٢)</sup> .

إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاثفة في أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم ممزولاً عن بعضه ، وكل

(١) بهتوني : قالوا على ما لم أكن . من البهت والبهتان وهو الباطل والكذب والافتراء .

(٢) من حديث أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب بدء الخلق - من أكن - رضي الله عنه .

بيئة لها أجواؤها وجماداتها ؛ فيأتي الرسول ليحالج في مكان خاص دامت خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداعات في الدنيا ؛ جاء رسولنا الكريم ليحالج هذه الداعات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التي تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإصر هو الجش الثقيل ، والأغلال جمع غل وهو الحديدة التي تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهد الأذعان إلى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بانور الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هي الجمجمة اسمانة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَتَايَهُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ  
جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَايَمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ  
الْأَمِينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ  
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

هنا يأمر الحق رسوله بالآتي : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ في رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفي ذلك يقول رسول الله :

« أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي . . . نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة يبعث إلي الناس كافة وأعطيت الشفاعة » (١) .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة وعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس . ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسى إليهم . ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وأراد سبحانه أن يعطينا لحسينات النبي تجعل الله رسولا يلج قومه وكافة الأقسام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال ﴿ الَّذِي لَهُ مِثْرُ السَّمَرَاتِ وَلَا أَرْضُ ﴾ .

ومادام هو الذي يملك السموات والأرض ، ولم يدع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفي السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفي هذا يقول الحق :

﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾

( من الآية ٩١ سورة المؤمنون )

إذن فمادام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأولي أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحقيقة ألوهيته لأولى أن له ملك السموات والأرض . ومادام إلهاً فلا بد أن يطاع ، ولا يطع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بأفعول ولا تفعل . ولأن المنهج القمة العقلية إنه هو التوحيد وجعل الله للتوحيد حجة من واقع الحياة فقال ﴿ يَحْيَى وَيَمِيتُ ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذي له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيى ويميت ولذلك نجد من حاج إبراهيم في ربه يقول الحق عنه .

﴿ أَنْ أَدَّيْتُكَ اللَّهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

( من الآية ٢٥٨ سورة البقرة )

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائياً مضللاً لإيهام ويسكت إبراهيم عليه السلام . فقال :

﴿ أَنَا أَخْبَرُهُ وَأُمِيتُ ﴾

( من الآية ٢٥٨ سورة البقرة )



وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يميته بل يحييه في منطق السفسطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ طبعاً لا ؛ لأن هناك فارق بين الموت والقتل ، فقد يقتل انسان انساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته ؛ لأن الموت يأتي بدون علم بئنه بشيء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقتلة . ولا أحد قادر على أن يميته أحداً إذا رغب في أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون مسبب . لكن أن يقتل انسان انساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

( من الآية ١٥٨ سورة الاحزاب )

وانظروا إلى الدقة في الأداء ؛ فمادام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إني رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثه الإيمان هي الإقرار والاعتقاد بوحداية الإله الذي له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيى ويميت ؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى . ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

لم يقل محمد وآموا بي ؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، وجاء بالحيثية الأصيلة ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . وبعد ذلك قال في وصف النبي : ﴿ السبي الأسمى الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ . والامية - كما علمنا من قبل - شرف في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهي إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإما بالذي قاله موسى لقومه « واجعل كلامي في فيه »

ويقول فيه عيسى - الذي لا يتكلم من قبل نفسه - ، وإنما تأتي له كلمات ربها في همه ، والقول الشامل في وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم ما بينه الحق في قوله :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ۝١ ﴾

( سورة الجهم )

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٧٧)

(سورة يس)

ولقاتل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول . إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أي شيء هو أزلي في عدم الله ، وكأنه يقول لنفسه . اظهر يا كائن للوجود لبرائك الناس بعد أن كنت مطموراً في طي قدرتي .

وسواء اكانت الكلمة بخلق لأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شيء بلا أسباب ، كعميسى - عليه السلام - فإنه « كلمة منه » أى كلمة تخطت نطاق الأسباب ، بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفى هذا تخطيط للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ بكلمة مه ﴾ . ونعلم أن كل شيء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هي أيضاً الآيات التي فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَّا بِإِذْنِهِ رَأَيْتُمُ اللَّحِقَ وَالْحَقَّ وَيَعْقُوبَ  
وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ  
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

( سورة البقرة )

ويروى لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

«إني أجد في الأنواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون  
فصلوا الفضيلة حتى يقاتلوا الأعداء الكذاب ، فلجعبهم أمتي قال : تلك أمة  
أحمد» (١).

(۱) ابن کثیر می تفسیر قوله تعالى : ﴿وَمَا مَكَّنَّا عَنْ مُوسَى الْخَضْبَ﴾ (الحج



﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ  
وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

وحين يسمع قوم موسى هذا القول يقولون في أنفسهم إنه يعلم ما في صدورنا من تفكير في الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولكن لو علم الحكم فمن يفكر في الإيمان بمحمد يقول لماذا يصدر حكماً صلباً وأنا أفكر في الإيمان ؟ لكن الحق : صان الاحتمال ، وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يمكنون في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

( سورة الأعراف )

أى يدلون الناس على الحق ويذعنونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون في حكمهم بين الناس ولا يجورون

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا  
إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ الْغَارِ أَضْرِبْ  
بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَتَجَمَّعَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ  
عَيْتًا فَرَأَيْنَاهُمْ أَصْفَحًا ثُمَّ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِهِمُ  
أَلْغَمًا مَا يَقْرَأُونَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

## مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْتَكُمْ وَمَا ظَلَمْتُمْ وَأُولَئِكَ كَتَبْنَا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يحصى كل كتاب فصلاً لموسى وآخر لموسى وثالث لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيماني عجيبة واحدة في الدعوة ، فيأتي بقضية عيسى ، ثم يدخل في الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كي يستمل انفعالات النفس بعد أي قصة من القصص .

وهنا يعزّد الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى فبعد أن أنصفهم وبين أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول ﴿ وَفَطَعْنَاهُمْ اثْنِي عَشْرَ آسَاطًا أَمْثًا ﴾ . والمقصود هـ بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعنا الشيء » أن الشيء كان له تمام وجوده مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « آسَاطًا » ، و« السبط » هو ولد الولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثني عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت :

﴿ يَنَابِتُ إِلَى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

( من الآية ٤ سورة يوسف )

وحين تعد وتحصى ستجد أحد عشر كوكباً ماثية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائي ، فبصير العدد أربعة عشر واثرك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، ويحد لأحد عشر كوكباً ، وأصف الرائي وهو يوسف فيكون العدد اثني عشر . وهؤلاء هم الاثنا عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثني عشر ابناً من أمهات مختلفات ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميل الأعوانية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف :

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

( من الآية ٥ سورة يوسف )

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سب من أسباب وحيثية التقطيع :  
﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً ﴾ .

وفي سورة يوسف نقراً :

﴿ هَذَا نَارِيذُ يَدَيَّ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾

( من الآية ١٠٠ سورة يوسف )

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ آخِرِبْ بِعَمَلِكَ الْخَجَرُ فَآخَبَهُمْ مِنْهُ  
اثْنَتَا عَشَرَ عَمَتًا ﴾

( من الآية ١٦٠ سورة الأعراف )

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك في الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ،  
فجعل الحق لكل سبط منهم حينا يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الخيرة  
والحق علي بعضهم البعض ، لأن الحق قال عنهم : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة  
أسباطاً أسباطاً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأساطير في أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل في  
أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسموهم  
« أسباطاً » ، ويعرف أن لفظ « اثنتي » يدل على أنهم إناث ، و « عشرة » أيضاً  
إناث ، لأننا نقول : « جاءني رجلان إناث » و « امرأتان اثنتان » أي اثنتان  
للذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة « اثنتي عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً  
مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ .

إن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط  
مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذ جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث »  
وأيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردتها قبيلة وهي مؤنثة ، وقطعهم أي كانت بهم  
- من قبل - وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شيء واحد ، فجاء  
بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ،

ولا يقال اثنا عشرة قبائل ، فوضع أسباط ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تصمم أسباطاً  
لدا جاء التمييز مذكراً ..

﴿ وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا أُمَّمًا ﴾

( من الآية ١٦٠ سورة الأعراف )

أى جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكومى أثبت أنهم كذلك ، لأنك  
لا تجد لهم - فيما مضى - تجمعاً قومياً وهو ما يسمونه « الوطن القومى لليهود »  
برغم أن الدول الظالمة القوية أعانواهم وأقاموا لهم وطناً على أرض فلسطين ، ومع  
ذلك نجد حتى كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التى تحيا فى  
رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى الشعوب ، ففى باريس - مثلاً - تجد  
« حى اليهود » ، وفى لندن المسألة نفسها ، وفى كل مدينة كبيرة تتكرر هذه  
الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، ويمادتهم معزولين عن  
الشعوب ، وكأنهم ينفلون قدر الله فيهم : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا  
أُمَّمًا ﴾ .

وقطعهم ربنا فى الأرض أى أنه شرهم فى البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً  
مستقلاً ، ولذلك ستقرأ فى سورة الإسراء إن شاء الله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي  
إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ .

أى أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى . اسكنوا الأرض وحين تقول لنا  
يا رب : « اسكن » فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان فى  
الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن « اسكنوا  
الأرض » فهذا يعنى أن اتساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لُمِيفًا ﴾

أى أنه حين يجرى وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم - أيها اليهود - لأن  
هدوكم لن يتبكم فى كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم فى كل مكان  
تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتى بهم الحق لفيماً  
ويتجمعون . فى هذا الوطن القومى الذين يفرحون به ، ويقول لهم : لا تفرحوا

فهذا هو التجمع الذي قال الله عنه : « جئنا بكم لقيماً » لتكون الضربة موجهة لكم في مكان واحد تستأصلكم وتقضي عليكم

ويأتي الحق بعد ذلك بخير المعجزات :

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَىٰ قَوْمَهُ ۖ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هي طلب الماء الذي يمنع عن الإنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلا بد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم في التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرى .

والحق يقول : ﴿ إِذِ اسْتَسْقَىٰ قَوْمَهُ ﴾ ، أى طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتي أروىكم ، ولكن سأستسقى لكم رى ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودى الاضطرابى . الهواء والماء والصنع . وساعة ترى « همزة » وسيناً « ودة » واقعة على شيء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلاً قرية استطعما أهلها ، أى طلباً طعماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهذا « استسقى » أى طلب المقوم الثانى وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغنى عنه . لذا لم يضعه الله فى يد أحد بل أعطاه ومنحه كل المخلوق .

ولما كان الهواء غير ممنوك وهو مشاع ، لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعم يمكن أن يملك ، والماء يمكن أن يملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد فى القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هوا .

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْ الشَّيَاطِينُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)



أى ظليت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريد الله

ونقص الاستسقاء وردت من قبل في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ . وفي سورة الأعراف التي نحن بصدده حواطرها عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الوهاب للماء ؛ فقال هنا : ﴿ إِذْ اسْتَسْقَىٰ قَوْمُهُ ﴾ ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعي . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقى هنا القوم ، والمستسقى لهم هنا هو موسى والمستسقى منه هو الله - جلّت قدرته - وهذا أمر طبيعي

والحق سبحانه يقول في سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ قُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

ونجد الرحي نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ ﴾ ؛ وهنا هي سورة الأعراف نجد الحق يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذْ اسْتَسْقَىٰ قَوْمُهُ إِذْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولما أن تعرف أن ﴿ قُلْنَا ﴾ تساوي « أوحينا » تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مباحث تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المباح في قوله الحق : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ .

فليس كل رحي لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحى له من بعد ذلك كغيره من الرسل .  
وقوله الحق :

﴿ اِنْ اَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسْجًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الاحقاف) :

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فنهجس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرة الله في أن يعطي ويمنع بالشئ الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التي في يد الله بحركتها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أي كالجبل ، وامتنت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فلوحى له الله : ﴿ اترك البحر وهو ﴾ .

أي اتركه كما هو عليه ، لأن الله يريد أن يفتر فرعون وقومه بأن يروا اليأس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا التغاضي منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته ففرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشئ الواحد ، وكذلك في أمر العصا ، إنها هي حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة نسياً من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .

﴿ اَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسْجًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الاحقاف)

وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، وتعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ، فالانبجاس أن يأتي الماء قطرة قطرة ، ثم يأتي الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتي ونجى المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التي أعقبت الضربة في لقطات متعددة لمظهر واحد ، له أولية وله آخرية

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم  
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا  
ثم جاء لسيدنا محمد وقال :  
وفجرت ينبوع البيان محمداً  
علمت بالقلم القرون الأولى  
وابن النبول معلم الإنجيلا  
فسقى الحديث وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع في العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أم القرآن بمناولة من الله لخلقه والحق يقول : ﴿ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشْرَ عَيْنًا ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تتبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتي عشرة عينا وعلم كل أناس مشربهم ، لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً . وإن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض .

﴿ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشْرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾

( من الآية ١٦٠ سورة الأعراف )

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذي يخصه ؟ إنها قسمة الله وحيلت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهنا يدل أيضاً على التساوي ، فلم تنفجر عين بناء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أرادته الحق : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بني إسرائيل في التيه ، وفي الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط علامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم في عشرين خيمة مثلاً ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا .

وإذا كان الحق قد ضمن لنا في الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نهرى ،  
ولا نحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقي أمر الطعام لهؤلاء . فقال .

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

( من الآية ١٦٠ سورة الأنعام )

ساعة تأتي كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُمتنع أن  
يكون مكانها هالي ، لكن هي مسألة جاءت من أعلى من قدرتك . أي من فوق  
أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المَنَّاءُ » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الرثيق . يجذونه على  
الشجر . ولا يرال هذا الشجر موجوداً إلى الآن في العراق ، يهزونه صباحاً فيتساقط  
ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاعة بيضاء واسمه  
عندهم المَنَّاءُ - أيضاً - وهو في صميم القشدة وليونها ، وحلاوة العسل .

و « السَّلْوَى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوروبا وحوض البحر المتوسط  
واحدته « سلواة » وهو « السَّمَانِي » ويسميه أهل السواحل « السَّمَان » وهو يأتي  
مهاجراً وم يربه أحد ، وفي هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد  
وأسبابهم .

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

( من الآية ١٦٠ سورة الأنعام )

وهناك مصانع تصنع اسمن في أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن  
زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسَّلْوَى - كما قلنا - هو طائر « السَّمَان »  
الموجود في بيئة أخرى يفره ربنا بالطقس الدافئ فيأتي إلينا لنأكله ، وهذه الطيور  
جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبحثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدل على أنه حين يريد  
أن يأتي لهم برزق غيبى يمدهم ويمسحهم المَنَّاءَ والسَّلْوَى كما أخرج من الحجر  
الماء ، وكما ظلهم بالقمم ، وبذلك صارت حاجاتهم قدرية ليس لهم فيها أسباب  
وجعلت لهم بالهناء . فقالوا : ومن يدري أن الرزق الذي يأتينا من المَنَّاءَ والسَّلْوَى  
سيسعر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيئنا موسى

ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ مَا نَدْعُ لِسَارِيبِكَ خُذْ لَنَا مِمَّا تَنْتِفِ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَنَشَائِبَ وَتُومَهَا وَعَلِمَهَا بِمَا تَصْلِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أي بضر من الأمصار والمدن تجعلوا ما تريدون : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببة ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ديل الحق الآية بقوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَدًا نَّغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً في سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ، لأن طبيعة الأمر في الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عينا يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يتنافون ، فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقيب ، والنقيب يقول للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقيب ، والنقيب قالوه للأسباط ، وفي آية أخرى قال الحق : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لفظة توضح أن

المصدر الأصيل في القول هو الله ، ولأنهم أساط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « واذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هي بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا . لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأخافوا :

﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة المائدة )

والحق لا يبين لنا القرية في هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التي لها وزنها وخطرها وهي تنعيل الأمر على أي مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم في التيه من تظليل ضمام ، وتمجيير ماء من صحر ، ومن وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم . ﴿ وكلوا منها حيث تشتم ﴾ . وقديما كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعني الدعاء بأن يقولوا . يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التي أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفقهم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَغْفِرَ لَكُمْ سَخَطَنَا وَتَرْهَقَ السَّيِّئَاتُ أَفْسَانًا ﴾

( من الآية ٢٦١ سورة الأعراف )

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أي مسب مغفرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك في سورة البقرة قد جاء النص التالي :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَخُودُوا حِطَّةً نَغْفِرَ لَكُمْ سَخَطَنَا وَتَرْهَقَ السَّيِّئَاتُ أَفْسَانًا ﴾

﴿ وَتَرْهَقَ السَّيِّئَاتُ أَفْسَانًا ﴾

( سورة البقرة )

فالكبان العام واحد ومجد خلافاً في الألفاظ واللفظيات عن الآية التي وردت في سورة الأعراف . أو خلاف ﴿ وإد فلما ﴾ ، ﴿ وإد قبل ﴾ ، وشاء الحق ذلك لبأني لنا بلفظة مختلفة كما أوضحنا من قبل . وفي آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفي آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهي السكن أي ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله في سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ يبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة . وأراد سبحانه أن يعطيهم العاية النهائية ، لأنه لا يسكن أحد في القرية إلا إذا دخلها

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتي لتكرار ، بل للتأسيس والإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وفي آية سورة البقرة يقول : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والنو بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغدا » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ، لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وثأن . وقال الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا ﴾ . أي أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفي آية سورة البقرة قلهم :

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

( من الآية ٥٨ سورة البقرة )

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات لسايعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من يفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر يفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنقيداً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا في سورة الأعراف :

﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَيْكُمْ سَنَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

( من الآية ١٦١ سورة الأعراف )

وفي سورة البقرة يقول : ﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تأنيث ، ففي جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » بدل « قفل » فهو في جمعها « أفعال » . أما في جمع التأنيث فمضئ نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد في المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و « فاطمات » ، و « أكنة » ، و « أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ؛ أي أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة لكن جمع لتكسير يدل على الكثرة طبعاً - سبحانه - بجميع المؤنث السالم الذي يدل على القلة ويجمع التكسير الذي يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن الخطاطيين غير متساوين في الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً في عجز الأيتين ، فقال في سورة البقرة : ﴿ وستزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بـ « واول » فقال : ﴿ ستزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعاند الحق إلى أن نقول اغفر لنا وأنت خير العافرين ، ولرحمتنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لك في هذه الدنيا حسنة . وهذا يوضح سبحانه . أنا لن أكتفي بأن أعمر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكني سأزيدكم حسناً ، وفي هذا سلب للصرور وجلب للنفع . كان الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذي ينبيء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و « خطيأتكم » التي تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : ومادا بعد الغفران يا رب قليل ؟ بهم : ﴿ ستزيد المحسنين ﴾ هي سيعمر لنا فقط ، أو أنه سيحزينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيعمر لهم ويزيدهم ويملهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المصهلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِدَّتِي أَهْلٌ لَوَحَّدُوا فِيهِ أَهْتِلًا كَثِيرًا ﴾

( من الآية ٨٢ سورة النساء )

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي



## فِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

هذه الآية تدل على أنهم اترفوا فرئيس ؛ لأن الحق سبحانه مدام قد قال : ﴿ منهم ﴾ فهذا يعنى أن بعضهم قتلوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجداً والتغيير منهم جاء فى القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرثى مما يدل على أن بعضهم يرائى بعضاً ، ففى لقول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا يشفى ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حطة » استهزاء بالكلمة

وهكذا نرى أن التبدل جاء فى القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبدل أيضاً حدث من بعضهم فى الفعل فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على عقباتهم ، كنوع من التعالى ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم فى الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل .

﴿ قَبَّلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي وُفِّي لَهُمْ ﴾

( من الآية ١٦٢ سورة الأعراف )

وكان الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم فى أثناء التيه وكيف ظلل صبيهم الضال وأمرهم عليهم المن والسلوى ، واستبقى لهم موسى شعاع المياء . لكن هزيمة التبدل والتمرد لم تغادرهم وماداموا قد بدلوا فى كلمات الله ، وعليهم أن ينالوا العقاب . ﴿ فأرسلنا صبيهم رجلاً من السماء ﴾ .

وهناك آية ثانية فى سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿ فأُنزلنا على الذين ظلموا رجلاً من السماء ﴾ . والمارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مستمر ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه فى

المطر : ﴿ وَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن في الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ . فاللذي يحتاج إلى استمرارية في الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجيء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال :

﴿ فَوَسَّلْنَا بَيْنَهُمُ الْطُوفَانَ ﴾

( من الآية ١٣٣ سورة الاحراف )

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود في الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والاثام قال لهم .

﴿ وَبَقَرَمِ اسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوُّوا لِنَا إِلَهٍ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾

( من الآية ٥٢ سورة هود )

إذن فالإرسال يعني التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بنى إسرائيل أن يأتي لنا بقطعة فجاء بكلمة « أنزل » ، ونقطة أخرى جاء فيها بـ « أرسلنا » ، لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، بهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنب أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ، فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عذاباً على قدر ذنبه . ومن تسادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

( من الآية ١٦٢ سورة الاحراف )

و « رجزاً » أى عذاباً ، وهناك رجز ، ورجز ، والرجز يؤخذ من الرجز : وينشا مثل قوله الحق : ﴿ وَالرَّجْزَ فَاهْجُر ﴾ . أى اهجر الرجز . أى المأثم والمعاصي والذنوب لتسلم من الرجز . أى من العذاب . وهذا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك في الآية الأخرى قال : ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

والفسق يسبق الظلم : لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا

فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالمسبب وجاء بالسبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة في القرآن جاءت لمعنى أساسي تؤديه ولا تكرر إلا لمجموع القصة في ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تنسياً في كل شيء لتعطي معاني ولقطات جديدة .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً  
الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ  
جِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعَاوِيَوْمَ لَا يُصِيبُوهُمْ  
لَأَتَاتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبَلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾



من سؤال عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التي دُخِبوها هي « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التي كانت على البحر هي « أهلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أي قريبة من البحر ومشرفة عليه ، لأننا نقول فلان حضر ، أي كان بعيداً فاقرب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه اسؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا في كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحي من الله إليه ؛ لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ في كتاب ، وإنما علمه من أمرله ، إنه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يعلم منهم ، بل يريد أن يعلمهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مهيئ له كعلم سائر البشر ؛ لا جلس على معلم ولا قرأ في كتاب ولذلك تجد « ماكنات »

القرآن أي قوله الحق . « ما كنت » و « ما كنت » و « ما كنت » و « ما كنت » مثل قوله :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قُضِبْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرِ ﴾

( من الآية ٤٤ سورة القصص )

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَارِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ إِنِّي أَنَا ﴾

( من الآية ١٥ سورة القصص )

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُمْنُونَ أَقْلَهُمْ أَنِّي هُمْ يَكْمُلُ مَرْمٌ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

( من الآية ٤٤ سورة آل عمران )

إذن فأنت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول لهم ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم في كتبهم ، إذن فالذي علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُوهَ بِمِيسِكٍ إِذَا لَارْتَابَ الْمُنَاطِلُونَ ٥٨ ﴾

( سورة العنكبوت )

وهي هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به .

﴿ رَسَلْنَاهُمْ فِي الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرِ ﴾

( من الآية ١٦٣ سورة الاحزاب )

وكلمة « واسألهم » تحمل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيته في الحجر وقریش نسائي عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت

المقدس لم أثبتها فكربت كرياً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلى أنظر إليه ، ما سأكوني عن شيء إلا أنأتهم به ، وقد رأيت في جماعة من الأبياء ، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شموط ، وإذا عيسى قائم يصلي أقرب الناس شها به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شها به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم فلما فرغت قال قاتل يا محمد هذا مالك حازن جهنم فالتفت إليه فبدأنى بالسلام (١) .

وتأتى آية في القرآن تفوق :

﴿وَنَقَلَ مِنْ تُرْسَلَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُتِ﴾

( من الآية ٤٥ سورة الزخرف )

والأمر برسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسول الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالحبر مصدق لأنه قد أدى أمر الله ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ . والسؤال هنا سؤال للتفريق والتفريع والتربيع : وما قصة القرية التي كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أى القرية من البحر ، ونفهم أن ما يتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أن لبحر فيه مدحلاً ، لأن المسألة متعلقة بالحيثان والسمك والصيد ، لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية .

﴿إِذْ يَقُولُ وَيَأْتِيهِمْ حِينَهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَسْنُونَ لَا تَأْتِيهِمْ  
كَذَلِكَ نَبُوءُهُمْ عَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ﴾

( من الآية ١٦٣ سورة الأعراف )

وحيثان جمع حرث ، مثلما يجمعون «نوباً» - وهو الحرث أيضاً - على «نينان» ، وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل فى يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم «السبت» ، ومارالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحد منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ،

ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالي . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال :

﴿ فَعَلِمَ مَنْ لَدِّينَ هَٰؤُلَاءِ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ رَبِّي أَن يَفْعَلُ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفي هذه مثل رعب لاى محرف ، ولكل منحرف يقول : إياك أن تظن أمث بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء رما وتسرقها ، لا ، لأن ربا قادر أن يبتليه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشى مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب يضيغ عليه كل شيء أحده .

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فبتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل في يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قرياً من حاضرة البحر يبتلهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك في المياه وهو يرفع زحانفه كشراع المركب ، وتظل عليهم أشعة الحيتان وهم في بيوتهم . وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم في يوم السبت ، لكن في بقية الأيام التي يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة ؛ ﴿ ويوم لا يستون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

وهنا قالوا : مادام ربنا قد حرم علينا أن نضطاد يوم السبت فعلى أن نحتال . وصنعوا كيساً من السمك المضفر والذي يسميه « الجوية » وهم أول من صنعوا هذه الجوية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتي السمك يوم السبت ويدخل في الجوية ويستخرجونه يوم الأحد . وفي هذا اعتداء . لو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفي هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أهلها لنيرهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ  
أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ  
وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلا بد أن هناك أنساً قيل لهم هذا القول .  
إذن ففيه «قوم وعظون» ، و«قوم موعظون» ، و«قوم مستكبرون وعظ  
الواعظين» . وهكذا صاروا ثلاث فرق .

الذين قالوا وحفظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقاً .  
وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يحالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصالحون  
من أهل لقرية الذين يشعرون من صلاح حال المحالفين للمنهج .  
وحين ندقق في الآية :

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأعراف)

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يحفظوا وقالوا هذا التساؤل لمن  
وعظوا ، لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجيين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله  
لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك وهنا  
قال بعض بني إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين في الكفر ، لماذا ترهقون  
أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ :  
﴿قالوا معلرة إلى ربكم ولعلهم ينتقون﴾ .

وما هي المعلرة إلى الله ؟ يقال : عورك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان في

ظاهراً أنه ذنب ثم بينت العذر في محله ، كأن تقول : لقد جعلتني انتظرك طويلاً وتأخرت في ميعادك معي . أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل محالف وهو التأخر في ميعاد ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت مني السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر إذن فمعنى « العذر » هو إبداء سبب لأمر يخالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أندر ، والحق يقول :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾

( من الآية ٩٠ سورة النور )

ونعلم أيضاً أن هناك مُعَذِّراً ، ومُعَذِّراً هو من يأتي بعذر كاذب ، والمُعَذِّر هو من يأتي بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظمهم ، وأنتم حكمتهم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اشتاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكننا لم نياس ، وعلى مرض أننا يشا من فعلهم ، فعلى الأمل نكون قد قدمنا لربنا المعذرة في أننا عملنا على قدر طاقتنا

وكلمة « وَعَظَ » تقتضي أن تقول فيها : إن هناك غارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ، فالوعظ أن تكرر للموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت لومظة . وهم من يقولون للناس الأحكام التي يعرفونها ، ليحذروا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ ﴾ ليس مراداً به العنة التي لم تعمل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به العنة الموعوظة ، كان الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا علماداً توعظوننا ؟ . وتقول : لا ، لأن عجز الآية ينافي هذا . فالحق يقول : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلمهم بتقون ﴾

ومعنى « ولعلمهم » يؤكد أن هذا خبر عن الغير لأنه من الموعوظين . ويقول الحق بعد ذلك :



﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِمُ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ  
عَنِ الشُّعْرِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا  
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

وقد قربنا الحق هنا أن الموعوظين حينئذ سوا ما وعظهم به بعض المؤمنين  
أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وسوقهم عن المنهج وأنجي الله  
الفرقة الواعظة . وملا من الفرقة الثالثة التي لم تنصم إلى الواعظين أو  
الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لم نعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ إن قولهم هذا لون من  
الوعظ ؛ لساعة يحولونهم بأن ربما مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو  
وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ يدل على أنه قد وعظهم فبرهم  
وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعو  
من وعظهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم وسحقوا العذاب الشديد ؛  
فالمسألة ليست تمتاً من الله ؛ لأنهم لسبب في هذا ، إما بفسق ، وإما بظلم  
لأنفسهم .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً  
خَاسِيَةً ﴾

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يرهق حياتهم ويميتهم ؛ لأن العذاب هو إيلام  
من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهي الإحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق  
بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدد مع سيدنا سليمان ، بقول سيدنا  
سليمان حين تبه لغياب الهدد عندما وجد مكانه خالياً :

﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَذَابًا مُهِينًا  
أَوْ لَا تَذَكَّرُ ﴿

(من الآيةين ٢٠ ، ٢١ سورة النمل)

هكذا يرى الفارق بين العذاب وبين الموت وهنا يقول الحق ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾ و « عتوا » تعنى أبوا وعصوا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذى أوصحه قول الحق : ﴿ كونوا قررة خاسئين ﴾

لأن « العتوا » كبرياء وإباء ، فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأحسن الحيوانات ، فصيرهم أشباه القردة ، كل منهم مفسوح السوءة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قررة ؟ نعم ، لأنك حين تأمر إنسان بفعل . . . ألا تقدر قبل الأمر له بالعمل أنه صالح أن يعمل وألا يفعل ؟ . وحس يقول الله : ﴿ كونوا قررة ﴾ فهل فى مكتبتهم أن يصيروا من أنفسهم قررة ؟ . ونقول . إن هذا اسمه « أمر تسخيرى » أى اصبحوا وصيروا قررة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظومهم ، وهى هنا مقولة « خبر » نصدقه بترثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمن شاهده .

ولذلك نجد المعجزات التى حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذى وصينا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تثبت بقرينهم وإيمانهم . وثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذمك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف لإيمانك ، لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، ركن معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنه فلى ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويؤمن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوة : ﴿ كونوا قررة خاسئين ﴾ بأنه لوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قررة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عما نهوا عنه . والذين وعظومهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قدراً أو مختبراً ، يظل فترة  
كذلك ليراه من رآه طالماً ، ثم بعد ذلك يموت ويتهى .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ  
مَنْ يَمْسُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ  
الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

وتأذن نجد مادته من الهمزة واللام والنون ، منه أذن ، ومنها أذان ، وكلها  
يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هي الأذن والسمع ، حتى اننى سنعلمه بواسطة  
الكتابة نقول له لسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف  
القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » ، « الخ » ، ثم تهجها . إذن  
فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل فى المعلومات ،  
ونقرأ فى القرآن :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا رَحَّتْ ۖ ﴾ ﴿١﴾

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها . . أى سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها . « انشقى » امتثلت  
وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَمْسُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ  
رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١٧﴾

(سورة الأعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبنى إسرائيل ، وبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين  
فى أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة متردة ، ولن يهدأ لهم حال

في نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون للدين ، والله لا يسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره والحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله به رسولا . ولكن المنسوب لله دينية ، والمنسوب لله رمزية ، والمنسوب لله كتاباً ، إذ فسد مع كون الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبي ، وأن له كتاباً ، حيث يكون أسوة سيئة في الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فيما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد عسوب لمن هو منسوب إلى الله . وعرف أن مائة أدن كلها مسلط الإعلام ، وحسما تكلم الله عن شعبنا قال :

﴿وَأَلَّهْ أَنْتَرَجَكُمْ مِنْ ظُلُمٍ أَمَهْتِكُمْ لَا تَعْلُونَ شَيْئاً وَحَلَّ لَكُمْ السَّمْعُ وَالْأَبْصَرُ

وَالْأَفْئِدَةُ﴾

( من الآية ٧٨ سورة البحل )

إن الحق - سبحانه - يسمى العرب المعاصرين برسول الله آمين ، أي ليس عندهم شيء من أصاب العنم ، وسبحته خفي ل وسائل تعلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهي وسائل العنم التي تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها في أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان ما إذا كان له ويبدأ - كما قلنا سابقاً - ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يظرف ، لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدي مهمة لرؤيته إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا حثت في أدبه وصرحت بعمل

إن هذا دليل على أن أدبه أدت مهمته من نور ولادته ، بينما عينه لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتي السمع ، ثم يأتي البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون بعضهم مثلاً : ' يبك أن تقس على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومطر النار يحرقه فيدمر ، فتسعه مرة واحدة ، وبعد أن تسعته النار مرة واحدة ، لم بعد في حاجة إلى أن يتكرر له القول . بأن النار محرقة . فقد تكومت هذه معنوية عقلية . فأولاً

يأتى السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتى الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أممكم بوسائل العلم ليخرجكم من أميتكم .

وهناك لغة إيجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقل : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هي الآلة التى تنتعظ الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففى طبيعتها تكوينها حجاب لغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا غمض السمع واحد ، لكن فى أى مظهر من المظاهر قد تكون لديك رغبة فى أن تراه ، فتفتح عينك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار متعددة مراتبها ، أما السمع فواحد ولا اختير لك فى أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختير فى أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق فى القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأمره فى السمع ، وجمع فى البصر مع أنهما فى مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جمعت فى القرآن :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنَّا مَشْفُوعًا ﴾

( من الآية ٣٦ سورة الإسراء )

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هي المردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقلعت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا فى آية واحدة أيضاً ، نتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

( من الآية ١٧ سورة السجدة )

هنا قدم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتى سرى تعيراً فى الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الأعراف)

وإذا نأذن أي أعلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بني إسرائيل ستظلون على إحراف دائم ، ولذلك سيطر الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلاً فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع وغيرهم ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق .

﴿وَكَذَلِكَ يَرْى تَقْصُصَ الظَّالِمِينَ بَعْضٌ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلاً حدث من يختصر ، وهنتر . إذن « وإذ تأذن ربك » أي أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ، لأن البشر قد يعلمون بشيء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكي يعملوا ما أعلموا به . فإذا أعلمت أنت بشيء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أما الله - سبحانه - فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يعلم بالشيء ، أما غيره فبظروف المحيطة به قد لا تساعد على أن يمد . مثال ذلك صحابة رسول الله لأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحرموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ، منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوى يحتمى به ، فيزل الله في هذه الظروف العصية آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿سَيَهْمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٣٥﴾﴾

(سورة الفجر)

وتساءل البعض كيف يهزمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعلمنا نزلت هذه الآية قبل سيدنا عمر : أي جمع يهزم ، قال عمر : قلما كان يوم يدر رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يثب في الدروع وهو يقول : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ، ففرغت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أعلم بالنصر ، وهو قادر على إنقاذ ما أعلم به على وفق ما أعلم ، لأنه لا يوجد إله آخر

يصاحبه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعنى أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحشية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ﴾

( من الآية ١٦٧ سورة الأعراف )

أى يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلو بينه وبينهم ، فلا يمنهم الله من ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق :

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ أَمْ لَا ﴾

( سورة مريم )

أى أنه - سبحانه - أرسلهم لهذه المهمة وخلق بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وكلمة « إلى يوم لقيامة » تفيد أن هذا العصر ، المشاكس من اليهود سيبقى فى الكون كخميرة ( عكثة ) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ١٩

هم يقومون بمهمة الشر فى الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود فى الوجود ، وبعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهاونت على الحق وعلى الخير . فالشر - إذن - جاء لبعض الناس بالآلام وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعمل فى صدور المسلمين وأقوى نزوع حركى إلى الإسلام حين يجدون من يضطهد قضية الإسلام .

إن مهمة الشر فى الوجود أنه يجمع عناصر الخير فى الوجود ، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضرهم على محاربة الشر وماهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتشايق مع الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مِنْ يُسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

( من الآية ١٦٧ سورة الأعراف )

(وسوم) من ملاتها سام ، ونسجها في البهائم ونسجها السائمة وهي التي تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذي يجهر لها مقومات حياتها . أما البهائم التي تربط وليست سائمة فهي التي تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أي طلب ، وبهية سائمة أي تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و « سام » أيضاً أي طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أضرغ قوته في التعذيب . فطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أي أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهداً طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره .

إذن فطلب العذاب معناه أنه • عذب هو ، ولم يكف بأنه عذب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و « يسومهم سوء العذاب » أي العذاب السيء الشديد . ويذبل الحق الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الاحزاب)

ومعنى سرعة الشيء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له ، لأن السرعة هي اختصار الزمن . « لسريع لعقاب » هي للدنيا والآخرة ، فساعة يقترون دنيا . يسلط عليهم من يعذبهم في الدنيا ، أما الآخرة فيها سرعة عالية ، لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هي عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهي الدنيا بالسبب له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » (١) .

إن هناك سرعة لحساب الآخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهي الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أي إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سيفصل من عمر الدنيا .

(١) رواه البخاري عن أنس مرفوعاً .



وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لعفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف ولحديث هنا عن العقاب ؟ ونقول : به سبحانه انذى يتكلم . وهو القادر . فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعنى أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ، لأنه عفو رحيم بالمظلومين الذين يظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظلمة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه - سبحانه - يأتى بالمقابل لكى يشجع كل إنسان على الدخول فى رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَمْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ  
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَكَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ  
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٦٨)

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً .

﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمْ آتَنَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

( من الآية ١٦٠ سورة الاعراف )

ولكن القول هنا يجرى لمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أُمَمًا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لا يبقى لهم وطن ، ويعيشون فى ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضاً منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أُمَمًا ﴾ .

ومعنى « قطعناهم » أى أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتى فى نفسها ، وأيضاً لا تشيع فى المكان الذى تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون فى المجتمعات أبداً ، - كما قلنا - فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حقاً خاصاً ، كذلك فى

مربسا ، وألماتب ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق ذلك بعد أن قال لهم :

﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

( من الآية ٢١ سورة المائدة )

فبعد أن من عليهم بلوضى يقبضون فيها ، قالوا :

﴿إِنَّا لَنَنصِلُهَا بِمَا عَمَدَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِلُوتٌ﴾

﴿قَتِلُوتٌ﴾

( من الآية ٢٤ سورة المائدة )

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطناً واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم في الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن لنديا كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا في مكان فلا بد أن تتألب عليهم القوى وتخرجهم معرودين أو تعذبهم ، وأعلى حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل في شرح قوله الحق :

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾

( من الآية ١٠٤ سورة الإسراء )

لقد قلنا : إن السكن في الأرض هو أن يتجشروا فيها ، لأنه - سبحانه - لم يحدد لهم مكاناً يقبضون فيه ، فهذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتي الحق بهم لقيماً تمهيداً للصربة القاصمة : ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ .

هناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بئلية للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالتدى دخل منهم في الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، والحق قد قال :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ٥٥ ﴾

(سورة الاحزاب)

وقلنا ان هذه تسمى صيانة الاحتمال بمن يفكرون في الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ وقطعناهم في الارض امةً منهم انصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ . و « دون » أى حير ، فالقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون من القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط ويتابع الحق سبحانه .

﴿ وَيَلْوَنُهُمْ يَخْصَفُ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٥٦ ﴾

(سورة الاحزاب ١٦٨)

كلمة « لعلهم يرجعون » هي التي جعلتنا نعلم أن قول الحق سبحانه وتعالى : إن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أى كالفرون ، لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق بـ ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و « بلونا » أى اختبرنا ، لأن الله في الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه سبحانه - عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلى لا يعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا . ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتقونا الأسباب في الدنيا من السبب الأعلى الذى ربهها .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ٥٧ ﴾

(سورة العلق)

فالواجب أن بشكر النعمة ونؤذيها في مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤذيها بالشكر فقد نجح ، وإن أداما على عكس ذلك فهو يربس في الاختيار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر لعبد أو لا يصبر ، أى ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أولاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ ﴾

(سورة الفجر)

إننا نجد من يقول : « ربي أكرم من » . ومن يقول : « ربي أهان من » والحق يوضح : أنما كادبان . فلبست النعمة دليل الإكرام ، ولا سبب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام بشئ حين تستقبل النعمة شكر . وتستقبل النعمة بصبر . إذن مجيء النعمة في ذاتها ليس إلا اختباراً . وكذلك إن قدر الله عليك دراهم وضيعه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحْصُونَ عَلَى صَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ وَتَكُونُوا أَكْثَرًا أَكْلًا لَّمَّا ۝ وَتُحْمَوْنَ أَنْتُمْ حُبَابًا ۝ ﴾

(سورة الفجر)

أنتم لا تطعمون في مالكم يتيماً ولا تحصون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه بقمة عليكم . وما يقول الحق : ﴿ وسواهم بالحسابات والسيئات لعلمهم يرجعون ﴾ . والله المثل لأعلى ، يقول : إن فلاناً أتبعني ، لقد قلبه على الجبين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سحائي عليه نفع فيه ، ولا ضي عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بني إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تاصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ

يَسْأَلُهُمْ وَيَاخُذُوهُ الَّذِينَ يُؤْخَذُونَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا  
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ  
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٩﴾

وَالْحَلْفُ أَوْ الْحَلْفَةُ أَوْ الْحَلِيفَةُ هُوَ مَنْ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ ، وَيَقَالُ : فَلَانُ خَلِيفَةُ  
فَلَانٍ ، وَمَنْ قَبْلَ قَرَأْنَا أَنْ سَيِّدَنَا مُوسَى قَالَ لِسَيِّدِنَا هَارُونَ .

﴿ اَخْلَفِي فِي قَوْمِي ﴾

( من الآية ١٤٢ سورة الاعراف )

أَي كُنْ خَلِيفَةً لِي ، إِلَّا أَنْكَ حِينَ تَسْمَعُ « حَلْفٌ » بِسُكُونِ اللَّامِ ، فاعلم أنه في  
الفساد ، وَإِنْ سَمِعْتَهَا « خَلْفٌ » بِفَتْحِ اللَّامِ فاعلم أنه في الخير ، وَلِذَلِكَ حِينَ تَدْعُو  
لِوَاحِدٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ خَيْرَ خَلِيفٍ لِحَيْرِ سَلَفٍ . وَهَذَا يَقُولُ الْحَقُّ : ﴿ فَحَلِفَ  
مَنْ بَعْدَهُمْ خَلْفٌ ﴾ وَالْحَدِيثُ هُنَا عَنْ أَنَّهُمْ هُمُ الْمَاسِدُونَ وَالْمَهْسَدُونَ ، وَالشَّاعِرُ  
يَقُولُ :

ذهب الذين يعاشي في أكابهم      وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجر

الشاعر هنا يَكْنِي موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان  
يعيش في رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فَقَدْ ذهب الذين يُعَاشِي فِي أَكْبَاهِهِمْ أَي  
جوارهم ؛ لِأَنَّ هَذَا الْجَوَارَ كَانَ نِعْمَةً أَيْضاً . وَحِينَ يَجَاوِرُ رَجُلٌ ضَيْقَ وَقَبْرِ عَلَيْهِ  
رِزْقُهُ رَجُلًا طَيِّبًا عَمْدَ نِعْمَةٍ ، فَتَضَحَّ عَلَيْهِ نِعْمَةُ الرَّجُلِ الطَّيِّبِ . وَالشَّاعِرُ هُنَا قَالَ :  
( وَبَقِيَ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرِ ) أَي أَنَّ جِلْدَهُ قَرِيبٌ وَلَا صَبْرَ لَكِنَّهُ جِلْدُ أَجْرٍ .

وعرفنا قصة « أبودلف » وَكَانَ رَجُلًا كَرِيمًا فِي بَغْدَادَ . يَعِيشُ فِي نِعْمَةٍ كُلِّ  
النَّاسِ وَمَنْ يَحْتَاجُ يَعْطِيهِ . وَطَرَأَ طَبْرٌ عَلَى جَارٍ فَقِيرٍ لَهُ ، وَارَادَ أَنْ يَبِيعَ دَارَهُ ،  
فَمَرَّصَ الدَّارَ لِلْبَيْعِ ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الثَّمَنِ الَّذِي يَرْتَضِيهِ ، فَقَالَ : « دَارِي بِمِائَةِ دِينَارٍ .

لكي حوارى لآبي دلف يالف دينار ، مبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال إن رجلاً قدر حوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لتحقيق ألا يفرط فيه قولوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال .

﴿ فعلم من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والحنف أحدوه ميراثاً ، والشئ لا يكون ميراثاً إلا إذا حصله السابق بأمانة وأداء للاحق ، ولكن لأهم أهل إفساد قلنر ماذا فعلوا في الكتاب ؟ لقد ورثوه . وبلغ إليهم وعرفوا ما فيه .

﴿ بِأَحْذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُعْمَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ يَشْتَرُوا بِأَحْذُوهُمْ ﴾

( من الآية ١٦٩ سورة الاحزاب )

أى لا حجة لهم في ألا يكونوا أصحاب مسيح حير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما في الكتاب - التوراة - من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ، لم يلتفتوا لكل هذا : لأهم قلوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطي النعيم البعيد في الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأبدى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمسحج الله ، والدنيا فيها جواهر وأعراس ، والجوهر هو الشئ الذي يذوق ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا قرص ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وعياً أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراس هي ما توجد وتزول ، والجواهر هي التي تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والقرص ما قدم بعيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل في المال الحرام ، وأن يفتشوا ويستحلوا الرشوة . ويعلم أن الإنسان - حتى المومن - قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذن بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق :

﴿ وَالسَّرِيقُ وَالسَّارِقَةُ فَاَنْطَعُوا إِلَيْهِمَا ﴾

( من الآية ٣٨ سورة المائدة )

إن معنى هذا القول أن المومن قد نسول له نفسه أن يسرق مثلاً ، ولم يترك

الحق هذا الحرم بدون عقوبة وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجرّم من الإسلام ، وله عقوبة ، ومُحرم لا يمكن أن يرتكب الحُرْم وهو ملتزم بالدين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يسمي بنوب ويعزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو أنحط عنه معصيته عيود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه في كل مرة لا يصبر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب ، وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيعفو الله لنا ، بل إياهم لم يفكروا في التوبة ، ووجدنا منهم من يقول :

﴿ تَحَنَّنْ رَبَّنَا حَتَّى نَمُوتَ وَنَجْزِيَّاتُكَ فَإِذَا نَمُوتُ مِنْهُ يُخْرِجُنَا مِنْهُ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

( من الآية ١٨ سورة المائدة )

ويأتي الرد :

﴿ قُلْ قَلِيلٌ مِمَّا يُعَدِّتُكُمْ يَدُّؤِيكُمْ بَلْ أَنْتُمْ تَشْرِكُونَ خَلَقَ ﴾

( من الآية ١٨ سورة المائدة )

إذن هم يأخذون عرص هذا الأدنى ، ويحكمون في أحدهم بهذا العرص أنه سبحانه سوف يعمر لهم ، وبذلك استحبوا حرم ، وتنقوا من معلقة المعصية إلى صفة الكفر ، لأن هناك فرقاً بين أن تفعل شيء وتقول هو معصية لكن أن يرتكب لإسنان المعصية ويقول ليست بمعصية ، فهذا تنقذ من العصيان إلى الكفر . ومثل ذلك لما حين نجد من يعصي ، يقول له : أفعل أن تكون عاصياً ولا تدخل نفسك في كفر ، لأنك إن فعلت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به وانعبد بالله ، أما إن قلت : هو حرم ولكن ظروف صعبة ولا قدر على نفسي فقد عفى الله لك . لكن قوم مرسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون سيعفو الله بنا .

ويقول الحق ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَصٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ﴾

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرص الحياة الأدنى ويتمددون في غيهم ويرتكبون المعاصي تلو المعاصي دون أن يدقوا باب التوبة لذلك يسبهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾

( من الآية ١٦٩ سورة الأعراف )

لقد ورثوا الكتاب ، وفي الكتاب قد أخذ عليهم عهد موثق ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما في هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾

وكلمة « دَرَسَ » تدل على تكرار العمل ، فيقال : « فلان درس الفقه » أي تعلمه تعلماً متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة . وهو مختلف عن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصح الفقه عنده ملكة . وحتى يفهم الفرق بين « العلم » و « الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقى المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من يمتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة . إذا التقى صائم مثلاً - بنفسه وسأله عن فتوى في أمر الصيام يجيبه فوراً ، لأنه علم كل صغيرة وكبيرة في لفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئاً في الأزهري فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة ، لأن الفقه لم يصبح لديه ملكة . والملكة هي المعنويات هي مقابل الآلية في الماديات التي تحتاج إلى دُرَّة ، فس يعسك النول لينسج النسيج ويتفنن تمرير المكوك بين الفتلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرَّة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن فقوله : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أي تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا ما فيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هي « درس القمح » ، ويعلم من تمرى في الريف كيف تدرس القمح ، حين يسور المورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .

إن ما فعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق في ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما في الكتاب المزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتي لنا بمقابل العرض الأدنى موضح لنا أن مصير من يريد الدار الآخرة هو اثواب الدائم ولذلك يقول الحق :



﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَمْسُكُوا بِالْكِتَابِ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الاحزاب

وهذا يعنى التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تطرو ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطى الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

إِنَّا لَنُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾

إن الكثير من بنى إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرص الأدنى ، ولم يرموا الأمور بعقولهم ، لذلك لم يمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هوىهم ، كأهم غير مقبلين بمهيج فعل كذا ولا تفعل كذا ، ويقادهم بعض الذين يمسكون بالكتاب أدنى ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين وانكف نل على الارتباط الوثيق ، فلهذا يجعل الانسان متصلاً بالشئ هو ماسكه ، وتفرون . «مسك» وتقول «مسك» ، و«أمسك» ، وتقول «نمسك» ، و«نماسك» ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : «يمسكون» مبالغة فى المسك ، مثل قطع وقطع ، ولكن قطع أبلغ .

و«مسك» يعنى أن الماسك تمكن مما يمسك ، و«استمسك» أى طلب ، و«نماسك» أى أن هناك تفاعلاً بين الاثنين ، بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملئت إلى القرب منى والرلى إلى ، فأترك البانى عنك فالمعونة منى أنا ، ولذلك يدنا على أن من يمد مهيج القرآن لا يلقى الهوان أبداً ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهما يستخدم

الحق سبحانه كمنه ( استمسك ) لا كلمة منك ، فمن وجه نيتي في أن يعين  
يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي .  
« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسي ، ذكرته في  
نفسي ، وإن ذكرني في ملا ، ذكرته في ملا خير منه ، وإن تقرب إلي بشئ ،  
تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي ،  
أتته هرولاً » (١) .

فأنت بإيمانك بالله تعبر نفسك وتقويها بمعونه الله لك . فإن أردت أن  
يدركك الله مدرك اليه ، فإن ذكرته في نفسك يدركك في نفسه ، وإن ذكرته في ملا  
يدركك في ملا خير منه ، وإن تقربت إليه بشئ تقرب إليك ذراعاً ، معاذ تريد أكثر  
من ذلك ، خاصة أنك لن تضيق إليه شيئاً ، إذن فالموقف في يدك . فإذا أردت أن  
يكون الله معك فسر في طريقه ثلاث لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك  
ويستقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به

ولديك قلنا من قبل . إن الإنسان إذا أراد أن يلتقي عظيمًا من عظماء الدنيا وفي  
بداية مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فما أن يوافق هذا العظيم وإما  
الآن يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير  
مكتبه عن الموضوعات التي مستكلم فيها ، وحين تقابله وينتهي الوقت ، فهو يقف  
من كرسيه ليسهل المقابلة ، هذا هو العظيم من الشر ، لكن ماذا عن العظيم  
الاعظم الأعلى الذي تلقى به في الإيمان ؟ أنت تلقى الله في أي وقت ، وفي  
أي مكان ، ونقول له ما تريد ، وأنت الذي تنهي المقابلة ، ألا يكفي كل ذلك  
لتستمسك بالإيمان ؟

﴿ وَالَّذِينَ يُبَيِّنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّ لَأُضَاعِفَ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٧)

(سورة الاعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب العروث ، والمقصود به التوراة وهو الذي درسوا

(١) من صحيح البخاري في كتاب التوحيد . أخرجه مسلم في صحيحه بثلاث طرق عن أبي هريرة ،  
كما أخرجه الترمذي وابن ماجه

ما فيه ، وقد أحد الله في هذا الكتاب الميثاق عليهم "لا يقولوا على الله إلا لحق ،  
والحق يقول ها . ﴿ راقموا الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ،  
ولكنه حصص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن لصلاة عماد الدين ، وعرفنا في رسالة  
محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمبشرة ، وكل فروض  
الإسلام - غير الصلاة - قد فرضت بالوحى .

لقد قلنا من قبل والله المثل الأعلى ، إن رئيس أى مصلحة حكومية حين يريد  
أمراً عادياً روتينياً ، فهو يرفع الورق الذى يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : يعرض  
على فلان ، ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليمونيا إلى  
الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية فى الأهمية الفصوى فهو يطلب من  
الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم  
للولاء لله خمس مرات فى اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك نملاً ونهجاً  
فعلت .

إنك يا الصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالى الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم  
فى شهر واحد هو رمضان ، وبالجمعة مرة واحدة فى العمر إن استطعت . لكن  
الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ، لذلك لا تسقط  
أبداً . وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً  
رسول الله ، إتباع الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تفصل ، وبكفى أن  
ينطقها الإنسان مرة لثكتب له ، ثم تأتى أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ،  
والجمعة ، والجمعة ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان  
مال يخرج عنه الزكاة ، فلا يجب عليه إخراج شيء حينئذ ، وقد يكون الإنسان  
مريضاً أو مسافراً فلا يصوم

إنك فحصر فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهي لا تسقط  
أبداً ، لأن فى الصلاة من ظهر لأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن  
كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقطع من وقته ساعتين ونصف  
الساعة كل يوم فى أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإنسان . وفى الصلاة بدل  
لبعض الوقت الذى يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالا ، ومبها أيضا الصوم عن  
الأكل والشرب ومباشرة الروحانيات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام . لذا فهي  
لا تسقط أبداً .

﴿وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾

(من الآية ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمسك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمسك  
بصالح الإيمان ولذلك سمع من يقول حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشياً  
الصفاء النفسى والإشراق الروحى ، وعشب مع لتحنى والور لدى ينثر الأعماق  
وأقول لمن يقول ذلك : ربما هو ربما هناك ، فقط أنت هناك الثمرت ، بساعة  
كنت تسمع لأذان كنت تحرى وسمعى إلى الصلاة ، وإذا صنعتها مثلاً وسمعت  
هناك فسترى التحليات نفسها ، إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه  
وتعالى فالحق لو يضيئ أحرار كتحذ لمصلحين لأن القائل ﴿ لا تصيغ أجر  
المصلحين ﴾

وهذه نصية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح وقوله ﴿ لا يضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله ﴿ يَمْكُورُ بِالْكَافِ وَأَقْدَمُوا الصَّلَاةَ ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويسمىون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يفسد إلا إذا استلذت أنت صمتك من حقيقتك وحلق المجتمع ، وأنزل لك المسحج القويم ويقول الحق بعد ذلك -

وَاذْنَلْنَا الْجِبِلَّ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلٌّ وَطُوبَىٰ لِّأَنفِ رَاقِعٍ  
بِهِمْ خُذُوا مَاءَ أَنْيُسْكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ  
تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار السميكة في بعضه والمكونة لجرم عالم قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال « والجبال أرساها » ولا يهدل أرساها إلا إذا كان وحده شيء له ثقل ، فأت لا تقول « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول « أرسيت لوح ارجاع على المكتب ليحميه » ، وأنت بذلك ترمي شيئاً له وزن وتقل

وقد أرسى ربت الجبال وجعلها في الأرض أوتادا، والوتد - كما تعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل في مكانه نضع له ما نسميه «تخشينة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق: ﴿وإذ نتقنا الجبل﴾ «نتقنا» أي قلعنا، وهالك قول آخر:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ لُبَنٍ﴾  
«في السَّبْتِ»

(من الآية ٦٥٤ سورة البقرة)

وقال الحق أيضا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين «نتق» و«رفع»؛ لأن الجبل راس في الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من لأرض، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع، و«نتقنا» تعني نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليضع منه ظلة عليهم، أي أن هناك ثلاث عمليات: نتق أي نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحة ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه في المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول: «إذ» أي اذكر إذ نتقنا الجبل، أي نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا نترعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أي لنجعل ظلة، وكان تظليل لغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة «عذاب»؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له: إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساعط: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التي جاءت لمصلحة البشر؟ وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كطلة تحمل التهديد كأنه قد وقع فوقهم ﴿كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾.

لذلك نجد أن كل يهودي يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضى تساوى وضع الجبهة على الأرض، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأو الجبل فوقهم وملكهم الخوف من سقوط الجبل، وكانوا يسجدون وفي الوقت نفسه يرقبون الجبل، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم، وصاروا لا يسجدون إلا على حجبهم الأيسر، بسبب حكاية الجبل الذى نطق الله وقلعه ورفع فصر فوقهم. ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾

والظن هو رجحان قضية، وقد يأتى ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين، مثل قوله الحق: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾

وحين بقيت الحالة هذه، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويسمردون على ما فيه لذلك قال لهم الحق:

﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ قُرْءًا وَادْكُرُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْقَهُونَ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الاحقاف)

والخدوا «فعل أمر، والأمر يفتضى أمرا، ولا بد له من شيء يأمر به. وكلمة «القوة» هذه هي الطاقة الفاعلة، والأصل فى الكون كله أن تقبل على كل شيء بقوة؛ لأن لكون الذى تراه مسخرا ليس له رأى فى أن يفعل أو لا يفعل، بل هو فاعل دائما إذا أمر، وكما قلنا من قبل: لم تعصب الشمس على الناس وقالت: لن أخلق هذا اليوم، وكذلك لم يمتنع الهواء، وأيضا لا يرفض اللحماء مثلا أن يحمل الروث، أو أن يظلمه صاحبه ويأتى له به «البودعة» ليجمعه ركرية متميزة، اللحماء إذن لا يعصى لها ولا يعصى هناك، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة.

﴿لَا الشَّمْسُ بِنَهْجٍ هَاتَا أَنْ تَقْرُبَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُّ سَائِقُ النَّهْرِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (١٧١)

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف، والمحكوم بالغبورية الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلى، ومع هذا الاختيار

فالإنسان له أشياء تعمل فعلها فيه ولا يتدرى عنها شيئاً مع أن بها قوام حياته ، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : كدق ، ولرئة كذلك وحركة لتففس ، والحركة الدودية في الأمعاء ، والحالب ، ويرغب الإنسان في دخول دورة المياه عندما تمتلئ المثانة بالبول ، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبداً ، والأمر ملحق بحكومة الغرائز ليس لنا فيها اختيار ، كأن يأكل الإنسان ويشكلم في أثناء تناول الطعام فتتزل حبة أرز في القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال ، هذا اسمه « عريضة » أى أمر غير محكوم بالفعل الاختيارى .

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاماً فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه . أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع ، وحين يقول له مُضيف - على سبيل المثال - : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم ، فيأكل . ولهذا نجد أن الأمراض في الإنسان أكثر من الأمراض في الحيوان ، لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضربه وتؤذيه .

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان ، نجد للإنسان يغلى النعناع ويشربه ، ويطيخ الملوخية ليأكلها ، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين ، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية ، رغم تشبه أوراقهما . لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار ، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار ، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب ، وهما يفعلان ذلك بالغريزة ، فالمحكوم بالغريزة له نظام ، ولو كان الحيوان مختاراً لارتكبت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة ، وهذه لقوانين موجودة في الكون لتخدمنا نحن بنى البشر . فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن نتفع بها ، لكن بعد ذلك انتفعنا بها ، وكذلك الجاذبية ، كانت موجودة في الكون منذ الأزل ، لكننا لم نتبه لها ، وحين اكتشفناها زادت قدرتنا على الاستفادة منها ، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون ، إلا أنه يسمير بأن له جهة اختيار في

بعض الأمور، وله جهة قهر في البعض الآخر، فهو بشارك انكون في القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - هذا الجن - بالاختيار في أمور أخرى. ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذي يعاني قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً بهج ويتابع نفسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأن غريزته للحكوم بها ثبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطي الأوكسجين الذي يساعد على الصعود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاء ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان في هذا الأمر مختلف عن الإنسان، لأن الحيوان تحركه الغريزة التي تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، ومادامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها، فاختلاف الإنسان عن الحيوان في هذا الأمر؛ فلهذا الإنسان في الجنس أعلى من لمة الحيوان، لأنها في الحيوان توضح للغريزة محاسب، أما في الإنسان فإنها مع الغريزة توضح أيضاً للاختبار الذي منحه الله للإنسان

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً في بعض الأشياء ومحنداً في أشياء أخرى، بـ «افعل» و «لا تفعل» حتى يختار بين البدلات.

وهنا يقول الحق: ﴿خذوا ما آتاكم بقوة﴾

أي خذوا ما آتاكم في الكتاب بجهد واحتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم في شرح معنى القوة. وقد وصل إلنا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقع المادى، فصرنا نرى الطاقة التي تعطي القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثاني والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبقى على سكونه إلى أن يأتي محرك يحركه - وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسه ماسك. وسعى العلماء هذا التأثير بالمعصور الذاتي. أو التعطل، أي أن الساكن يعطل عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يعطل عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشيء.



وفي الأسواق يرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتي بمنضلة وعليها مفروض لامع وأملس، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً، ثم يحرك المقرش بحمّة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المقرش.

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة، وقلنا إن العطالة تعني أن الساكن يتعطل عن الحركة، والمتحرك يتعطل عن السكون، وهذه هي القضية المادية في الكون التي خدمت العلم لقضائى الخفاص بسفن الفضاء والصواريخ. ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور في الفضاء بالوقود، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذي يسيرها لسنوات، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتي أو العطالة إنها بدون وقود، وهي تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكوني، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف. ويرى ذلك في التجربة البسيطة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنتلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدّها، وهي تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف، أما في الفضاء الخارجي فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء، لأنها تسير بقانون القصور الذاتي أو لعطالة.

وهذه السفن الفضائية تعتمد في صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لصل إلى مدار خارجي، والصواريخ تسير بالعاز المتعلت الذي أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن، وهو القانون القائل، إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاده في الاتجاه، وحين يسحق هذا الغاز المتعلت يخرج من حلق الصاروخ بقوة فيدفع الصاروخ للأمام.

وهكذا يرى قول الحق: ﴿حذوا ما أتياكم بقوة﴾ في الواقع المادى والواقع القيمى. وانظر إلى غير المتدينين تمدهم ساكنين في بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلى، ولا يزكى، ولا يقول كلمة معروف، وهو في ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن صاحبه الله. ونجد أيضاً من غير المتدينين من يشرب خمرة. أو يزنى أو يسرق أو يرتشى. وهؤلاء يحتاج إلى قوة لتصله

عن مثل هذه الحركة . ولذلك نقول . إن الإنسان في أعماله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير ، وإن كان متحركاً إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه ، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في « افعل » ، و « لا تفعل » . فمن يترامى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلّ ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه ، إذن فالقوة الشرعية تكون في المنهج بـ « افعل » لتحرك الساكن ، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج .

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين بيئتنا المستعقبة علينا في قوانين الكون ، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهنتها نحن في إطار الماديات والمعنويات ، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين في الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم ، بل علينا أن نشحذ الهمم لتتقدم في العلم الذي يُسير أمور الحياة ، ولنعلم أنه لا شيء يشيء فينا فطرة جديدة ؛ لأن البشر من قديم مفلطرون على الفطرة السليمة التي تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً ، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد . بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك ، وأغلب الفلاسفة كانوا خير مؤمنين ، وهم يبحثون وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم ؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده . ولأنهم جميعاً يعلمون أن الإنسان طراً على كون ، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة ، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعاً أن تأتي بمثلها ، إذن لا بد لهذا الكون من خالق .

لقد بينا أن القوانين التي نظهر لنا في المادة تتسائل مع قوانين القيم ، إلا أن الناس يتهافنون على قانون المادة لأنها تحقق لهم غيراً أو تدفع عنهم شرّاً . فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم ، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التي تحقق له السعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة ، أما قوانين المادة في الأرض فتسركب الله لنشاط العقل ، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها ، وينهرون من قوانين القيم لأنها تحمّلهم من شهوات النفس ، وتحمّلهم بمشقة التكليف ، فتشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُلِدُوا مَاءً أَنْتُمْ بِغُرَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الاعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم في الفعل ورد الفعل ، لنفهم أن كل حركة للنفس قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها ، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له في الحركة ومضاداً له في الاتجاه ، فإن كنت ترتاح في هذا العمل وتحب وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذي يأتيك بالعقاب عليه ، وكذلك مشقات لتكليف ، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ﴾

(سورة الحاقة)

وفي هذا القول فعل ورد فعل ، الفعل هو العمل الصالح في الأيام التي مضت ، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنيء في الآخرة . ولئن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ قَلِيلٌ مَّا تَصْخَرُوهَا وَلَئِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ كَفِيرٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة لضحك القليل . ويأتي الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ دُخِيَ إِلَيْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى اناس فليسوف تلقى العقاب .

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عيكم العجلة من هذه الناحية ، فالذي يتعب الناس في مناهج الله أنهم يغفون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض غناء ، والمعاصي تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل في هذه القيم

ونعلم أن للذكر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأما أعط من علم الحكم ، لأنى أريد أن يفعله ، فيبعد أن علمه الموضوع علماً فقط يريد منه الواعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاعنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل في تطبيق هذا العلم . ونظّل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمت صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق .

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهي عن المنكر عظة قولية ، ويمددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول في الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أصعب الإيمان » <sup>(١)</sup>

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهي وهو قول أيضاً إلى أمرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فليذكره بقلبه ، ولحمد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين

المعلومة التي تدخل الذهن ، وحمل النفس على مطلوب المعلومة . ولذلك نحن ندرس الدين في مدارسنا ، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة ، والكيمياء ، والطب ، والمتعب ليس بتدريس الدين ، بل الذي يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين . لكن التعميد حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء ، فهذه علوم تعطى الإنسان خير الدنيا فيذهب لها ، لكن مسألة الدين مسألة قيم ؛ لذلك لا يكفي أن يعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم ، وتنمي هذه المسألة يكون بالتطبيق في سلوك من أسوة حسنة وقوة طيبة .

وهب أن الذي يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها في نفوس التلاميذ ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نفساً على سلوك من علمها ، ماذا يكون الموقف ؟ . هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذه ، وتضعف ثقته في الدين ؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال ، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه ، وفي هذا فشل في تعليم منهج الدين . والخطأ إذن في أن الناس يظنون أن مهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية ، لا . إن تعليم الدين يقتضي تنفيذ ما فيه من معلومات ، عكس العلوم الأخرى التي تعطى المعلومة فقط . وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها في حياته انتفع ، وإن لم يرد فهو حر في ذلك .

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومرة يكون بالفعل ، « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه » ، وماذا يعني التغيير باللسان ؟ . يعنى أن الإنسان إن كان عنده حسن تأد واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصيح فله أن يقبل على تناول العظة . وليس كل إنسان صالحاً لأن يصيح ؛ لأن المنصوح يخالف المنهج ، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج ، إنه يخرجهم عما ألف وأحب ، لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصيح .

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء ، والدواء قديماً كان كنه مرراً . وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة ، ويمسك الكسار الأطفال ليعطوهم الدواء . وحين ارتقت صناعة الدواء ، قام الصيادلة بتعليف جرعة الدواء بعلاف يحجب المرارة . لينطقوا مع مريض الجسم ، فمما بالناس بمريض القيم ؟ . إنه يحتاج إلى المسألة نفسها . لذلك لابد أن نجعل النصيح خفيفاً ، ولا نجتمع على المنصوحين

أن يخرجهم عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا : إن انصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنساناً فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك في ذلك، وهذا هو أول مطب، ويتظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه. ولهذا قالوا في الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله حبلاً، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضاً: الحقائق مرة فاستعبروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغير على المعير، وهذا لا يأتي إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغير يثبت فيها المغير أنه يحب مصلحة المغير. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول : كأن تكون أبه أو أمه، والأب والأم يفومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصرفاً. وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصح.

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتي له بالساعة وتقول له يا ولد أنت أردت مني ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لي إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له نويحاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه، وبيت له أنك تحبه فيقبل النصح، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن لتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول، وتعير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ والأصل في التقوى أن تتقى شيئاً شئخ؛ تتقى مؤلماً بجعل رقاية بينك وبينه، وهي تأتي كما علمنا في المقابلات؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساهل : كيف يقول : « اتقوا الله » ، و« اتقوا النار » ؟

نقول : نعم ! لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم ، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية ، ولا بد أن تجعل بينك وبين النار وقاية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كتب علمت له صفات جلال وصفات جمال ، وصفات الجمال هي التي تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - ' غفوراً ' ، و ' رحيماً ' ، ' باسطاً ' ، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة ، فهو - جل شأنه - جبار ومتقمم فائق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التي منها جبار ومتقمم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾



وإذ تنصرف إلى الزمن ، أى اذكر وقت أن أخذ الله من بنى آدم ، والأخذ هو الله ، والمأخوذ منه بنو آدم ، والشئ ' المأخوذ ' هو ذريتهم ، هذه هي العناصر . ولنتأمل

ذلك بدقة، إن الرب هنا هو الأخذ، وبنو آدم مأخوذ منهم، والمأخوذ هو اللزيم. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهما اتخذ المأخوذ والمأخوذ منه، ولا بد أن نرى نصريفاً في هذا المعنى؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً، والمأخوذ بعضه

والمثال : إن أنا أخذت منك شيئاً، فلما أخوذ منه هو لكل، والمأخوذ بنفسه هو البعض. لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

(لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال : أي رب من هؤلاء؟ قال : هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم. فأصعبه وميض ما بين عينيهِ. فقال : أي رب من هذا؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال : رب كم جعلت عمره؟ قال : ستين سنة. قال : أي رب رده من عمري أربعين سنة، فلما أنقضى عمر آدم جاءه ملك الموت. فقال : أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال : أولم تعط ابنك داود؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي فسيت ذريته. وخطى آدم فخطت ذريته (١)).

إذن ذرية آدم أخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أن كلاً منا قبل أن نحمل به أمه كان ذرة في ظهر أبيه، وأبوه كان ذرة في ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أن كل واحد مأخوذ من ظهر ذرية، هناك أناس يؤخذون - كذرية - ولا يؤخذ منهم، مثل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيباً، وكذلك آخر جيل تقوم عليه الساعة، ولن يجيوا، وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه. وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح.



والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذي سينقطع عن النسل.

وأوضح النبي صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح يده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية ، وقال لهم : أأستبرئكم؟ قالوا : بلى . وبهذا علمنا أن كل ذرة من لدرات قد أخذت مما قبلها ، وأخذ منها ما بعدها ؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه ، اللهم إلا القوسيين ؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شيء ، والقوس لثاني : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه ؛ لأن الإنسان منا وجد من حيوان أبيه المنوى . ولو أن الحيوان المنوى أصابه موت لما أحبب الأب . ومن وكّد من حيوان منوى لأب ، هذا الأب مأخوذ من حيوان منوى حتى من الخلد أيضاً ، وسلسلها إلى آدم ، مسجدة أن كل واحد ما فيه جرىء حتى من لدن آدم لن يدركه موت أبداً .

لذلك يقول ربنا :

﴿ وَادَّخَلَ رَبُّكَ مِنْ نَفْسِ آدَمَ مِنْ طُحُورِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تقل إن الكل سيكون في ظهوره ؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس المرحود في ظهوره ، ومادام كل شيء يتكاثر فهو قد وجد من أصل شيء . ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً . وقد أخذ ربنا من ظهور بي آدم الذرية وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ أأستبرئكم ؟ 》 .

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على التعلو ؛ إنها ذرية ستظهر التكوين الآخر ؛ لتتحد مثلاً " البريضة " في رحم الأم ؟ فرد عليه ويقول : لماذا تظن أن معاطبة ربنا لهم أمر صعب ؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يتعلم عشر لغات ، ويتزوج من أربع سيدات ، وكل سيده ينجب منها ذرية ، ويضعده يوماً عند سيده ، وفريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلاً ، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية ، ويعلم الثالثة وأولها اللغة العربية ومكداً ، بل يستطيع أن يتفهم حتى

بالإشارة مع من لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسان يستطيع أن يعدد وسائل الأداء، ألا يقدر أن يعدد ربنا وسائل الأداء لمخلوقاته؟ إنه قادر على أن يعدد ويخطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبان :

﴿ يا جبال أرى معه ﴾

(من الآية ١٠ من سورة ساء)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أيًا من مخلوقاته؟ إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ إِجْبَالَ يُسِيحَنَّ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الانبياء)

ويعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى فرات يد الكافر تسبح، وإن كان نسيبها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ إِجْبَالَ يُسِيحَنَّ ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داود وتلاوته للزبور، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل، إلى كل مخلوق، فتحن - على سبيل المثال - نقرأ في القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النمل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يمرشون. إذن قلله مع خلقه أدوات خطاب؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات، وله سبحانه خطاب بالفاظ، وخطاب بإشارات، وخطاب بإلهام، وخطاب بوحي، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لدعوة آدم : أأست برىكم؟ فهذا يعنى أنه قالها

لهم باللغة التي يفهمونها ، لأنه هو سبحانه الذي قال للسماء و لأرض :

﴿ أَتَيْنَا طَرَوْا أَوْ كَرِهًا قَالْنَا أَتَيْنَا طَاعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها ، ولو لم يُعَلِّم الله سليمان كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكُكُمْ لَا يَمَظُمُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يلبسون عسى كائنات صغيرة دون أن يروها ، ولكن سليمان نبي من أنبياء الله ، ولن يعتدى على خلق الله ، والنملة التي تكلمت كانت تحرس بقية النمل . وكذلك تكلم الهدد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس ونومها .

إذن فالله عز وجل يخاطب جميع خلقه ، ويجيبه جميع خلقه ، فلا تغفل : كيف خاطب المولى سبحانه الذر ، والذر لم يكن مكلفاً بعد ؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا في هذه المسألة ؛ لأنها في ظاهرها بعيدة عن العقل ، وكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا : ألسنت بركم ؟ . فلو : بلى . ويبدو من هذا القول أن اسألة تمثيل للقطرة المودعة في النفس البشرية . وكأنه سبحانه قد أودع في النفس البشرية والذات الإنسانية فطره تؤكد له أن وراء هذا الكون إلهاً خالقاً قادراً ملهماً .

وقديماً قلنا : هب أن طائفة رقت بك في صحراء ، وحين أفقت من إغماءة الخوف ، فكثرت في حالك ركيك أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً ، وأصابك غم من هذه الحالة فمت ، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطيب الطعام وشراب ، ألا تتلفت لتسأل من الذي أقام لك هذه المائدة قبل أن تد يدك إلى أحاييب الطعام ؟ . كذلك الإنسان الذي طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع ؛ البديع

التكوين؛ ألا يجدر به أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون؟

إننا نعلم أن المصباح الكهربى احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانيات لا حصر لها لينير هذا الصباح حجرة محدودة، وحين نرى الشمس تنير الكون كله، ولا يضيئها كلل أو تعب ولا نحتاج منا إلى صيانة، ألا نسأل من صنعها؟ وبخصوصاً أن أحداً لم يدع أنه قد صنعها، وقد أبغنا لمولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذى خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً؛ فعنده، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحت عن صنع وخلق الكون لنعبده.

وبما أن أحداً لم يدع لنفسه صناعة هذه الكائنات، فهي تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله. إذن الفطرة تهتد أن وراء هذا الكون العظيم قدرة تناسب هذه العظمة، قدرة تناسب السعة، هذه الدقة التى أخذنا منها موازين لوقتنا؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن؛ ولولا حركة الأملاك التى تنظم الليل والنهار؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات، ولولا أن حركة الأملاك مصنوعة بدقة متناهية؛ لما استطعت أن نعدّها مقياساً للزمن. وحيثما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة "بحسبان" وردت مرتين، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى أنه جعل الشمس والقمر بحسبان، أو حسيان، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثاً بل لحكمة عظيمة.

﴿تَعْلَمُونَ أَعْدَادَ الْسِّنِّ وَالْحَسَابِ ۝﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دوره الشمس والقمر مقياساً، ولم نكن لنعمل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن تلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل ؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أن هناك قوة ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتي لنا رسول من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادها، وجاء الموكب الرسالي فجاءت ارسلى ليبلغ كل رسول مراد الحق من الخلق، فقال كل رسول : إن اسم القوة التي خلقتكم هو الله، وله مطلق التصرف في هذا الكون، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون في ضوء منهج عبادة الحق الذي خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن متهى حدود العقل هو إيمان بقوة خالقة وراء هذا الكون، وتستوى العقول المطرية في هذه المسألة. أم اسم القوة والمنهج المطلوب لهذا الاله فلا بد له من رسول.

وأرهب الفلاسفة أنفسهم في البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "الميتافيزيقا" أى "ما وراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان. ومن الذى قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وعالماً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التي هدتنى إلى ذلك. وتشبت الفسفة إلى مدارس كثيرة، وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها. وغرق الكثيرون من الفلاسفة في القلق النفسى المدمر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلوا لنا هذا اللغز، بدلاً من إرهاب النفس بالخطب بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وانتنى فى هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو ألا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين فى حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالبواب؛ وهذا الشيء المجمع عليه من الكل يمدُّ تعقلاً، لكن أنستطيع

أن تصور من انصرف ؟ رجل ؟ امرأة ؟ شاب ؟ شيخ ؟ . المؤكد أننا سنختلف في التصور وإن اتحدنا في التعقل

ونقول للعلاسة : أنتم أرلى الدس بأن ترهقوا أذانكم لحج رسول بحل لكم لغز هذا الكون ، واسم لقوة لشي وراء هذا الكون ، ومطلوب هذه لقوة مما .

واحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرس ، ويقول هنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾

( من الآية ١٧٢ سورة الأعراف )

وهذه شهادة العصرة ، ونحن نرى أن المفارقة تكون موجودة في اطفال المولود الذي يبحث بعمق عن ثدي أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك لثدي ليرضع بالمعطرة وبالغريزة ، وهذه المعطرة هي التي تصون الإنسان مما هي حاجات كثيرة ، وفي رد العمل الانعكاسي ، مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين عمل ، فيعمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن في عالم نذر

﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾

ويقال " أشهدته أي جمعته شهاداً ، ولشهادة على النفس كون من الإقرار ، والإقرار سيد الأدلة ، لألك حين تشهد إيماناً على غيره ، فقد يغير انبساط شهادته ، ولكن لأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد المعطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة

﴿ إِنْ كُنَّا مِنْكُمْ مَخْافِينَ ﴾

فحين يأتي يوم الحساب ، لا داعي أن يقول أحد بني كفت غولاً .

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً  
مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١٧٣)

كان الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخافتهم لمهج الله ، فينبه إلى عهد  
الفطرة والطبيعة والسجية المظمورة في كل إنسان ، حيث شهد كل كائن بأنه إله  
واحدٌ أحدٌ ، وذكّرنا سبحانه بهذا العهد الفطري قبل أن توجد أغيار الشهوات  
فينا.

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ وهل كان أحد من الدر وهو في علم الله وإرادته  
وقدرته يعجز عن أن يقول : لا لست ربي ؟ ، طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل  
الذر بالفطرة " بلى " . وهي تحمل نفي النفي ، ونفي النفي إثبات مثل قوله الحق .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١)

(الآية ٨ سورة النين)

و " أليس " للاستفهام عن النفي ، وللك يقال لنا - حين تسمع " أليس " عليك أن تقول " بلى " وبذلك تنفي النفي أي أثبت أنه لا يوجد أحكم الحاكمين  
غيره سبحانه ، وهنا يقول الحق : " ألسنت بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى  
شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون  
بأن الله هو الرب ، والذي جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرك شهواتهم في  
نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات في نطاق الاختيار إن سألتهم من  
خالقهم ؟ يقولون : الله ، ومادم الله هو الذي خلقهم فهو ربهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحَرَّ الشَّمْسِ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

( من الآية ٦١ سورة النكبات )

وجاء الحق بفصحة هذه الشهادة حتى لا يقولن أحدٌ : ﴿ إني أشرك أبائنا من قبل ﴾

وبذلك نعلم أن أهدار العاصيين وأعدار الكافرين التي يتعللون ويعتذرون بها تنحصر في أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر، وتقليد الآباء.

وما الغفلة؟ وما التقيد؟ الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك. ولمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوي المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللائق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك. ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة، ثم جاء إشراك الآباء في المرحلة الثانية؛ لأن كل واحد يوقلد أباه في الإشراك؛ لانتهى الشرك إلى آدم، وآدم لم يكن مشركاً، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بني آدم، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقة يتطلبها المنهج، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد في بؤرة شعورهم؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود في بؤرة شعوره. أما الشيء الذي سيكلفه مشقة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهي الغفلة في آبائهم. وهنا يضاف عدلان اثنين : عامل الغفلة، وعامل الأسوة في أهله وآبائه. ولم تكن القضايا الإيمانية في بؤرة الشعور، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره، في بؤرة الشعور، ويخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور. ولأن البعض قد يتصور أن في التكليف الإيماني مشقة، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه ويتناساه، وكذلك يحاول هذا البعض أن يتأني بنفسه عن هذه التكاليف.

وتأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مديناً لمحل بقالة أو متجر وليس عنده مال يعطيه له، لذلك يحاول أن يعتمد عن محل هذا البقال، أو أن يسير بعيداً عن



أعين التجار، وهكذا يكون افتعال الغفلة في ظاهره هو أمراً متنجياً من مشقات التكاليف، لكن البشر في ميثاق الذر قالوا : ﴿ بلى شهدنا ﴾

وقد أخذ ذلك العهد عليهم ، وأقرّوا به واستشهد الحقُّ بهم ، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً ، ولكن الحق تبارك وتعالى عرف أنّنا بشرٌ ، وقال في أبينا آدم .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا لَآدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتْنَىٰ ﴾

(من الآية ١١٥ من سورة طه)

ومادم آدم قد نسي ، فسببه يفع عليه حيث بين وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح : فقال عليه الصلاة والسلام :

(رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (١) .

والخطأ معلوم ، كان يقصد الإنسان شيئاً ويحدث غيره ، والنسيان ألا يجرى الحكم على بال الإنسان. والمكره هو من يقهره من هو أقوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته وتقييدها ما لم يفعل ما يؤمر به ، وفي الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم . وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينشأ المسلم وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤخذون به. وإذا سلسلنا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذي خلق بيد الله المباشرة ، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون ؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد هلاقة زوجية فيأبى النسل.

وسد كلف الله آدم في الحنة التي أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهي ؛ فقال له سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان، والدارقطني والطبراني وإسحاق في المستدرک من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَتَّىٰ شَقَّتْهَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إذن فنصارى كل تكليف هو أمر فى " افعل " ، ونهى فى " لا تفعل " ، وقد سى آدم التكليف فى الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة ، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذى يذكره ؟ وما كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ، ومكلف من الله مباشرة ، والتكليف وإن كان بأمرين ؛ لكن ظاهر العناء فيه على أمر واحد ؛ الأكل من حيث شاء هو أمر لمصلحة آدم ، و" لا تقرب " هو تكليف واحد .

- ولذلك قال الحق فى آية أخرى . ﴿وَقَصَّ آدَمُ رِيسَ رَقِيٍّ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

وهو عصبان لأنه سبى أمر واحد ، ما كان يصح أن ينسأ . لعدم تعدده ويقون الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

(سورة الأعراف)

جاء هذا القول لينهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكليف شاقة ، والإنسان قد يسهو عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

وهنا يعنى أن إيمانهم هو إيمان المقلد ، رغم أن الحق قد أرسى لهم البلاغ ، وإذا كان الأباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن ينقلوا عن صحيح الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٦)

والآيات التي فصلها الحق هنا هي العهد الخاصة، ورفع الجبل ليأخذوا التوراة بقوة، وكذلك العهد العام الذي اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدة يجب أن تكون في بؤرة الشعور، فمن عقل فليتذكر، ومن قلد آباء في شيء مخالف للمهج القويم، فليرجع عن هذا التقليد؛ لأن التكليف الإيماني تكاليف ذاتية، وسبحانه لا يكلمك وأنت في حاجة إلى أبيك، أو إلى أمك، لكنه يكلفك من بعد البلوغ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالاً كاملاً مثل والدك، ومادمت مكتمل الرحولة كوالدك وصالحاً للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً، فلا تقل إني أقلد أبي ولو كان على غير المهج السليم؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو في دور الطفولة، حيث الأب يسمى لإطعام أبنائه ورعايتهم، لكن التكليف لا يأتي للإنسان إلا بعد البلوغ، ومعنى بعد البلوغ: أنك صانع لإنجاب مثلك ورعاية نفسك.

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يسربوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجيء أوان تكليف الله، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع) . . إلخ (١)

الأب إذن يأمر ويُعاقب قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسان بعد البلوغ

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

أي أن على العاقل أن يرجع عن عقلته فينذكر، وأن يرجع المقلد لأبائه

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن (رياض الصالحين ص ١٨١)

عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق .

﴿ لا يجرى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

( من الآية ٣٣ من سورة نعام )

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك .

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾



ولأنهم قالوا : ﴿ ناكنا عن هذا ضالين ﴾ ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول . ﴿ وأنت عليهم نأ الذي آتاه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

والنبا هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن نتفع به وليس مطلق حبر . ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ۚ ۝١﴾

( سورة النبا )

كما يقول ﴿ وأنت عليهم نأ الذي آتاه آيات ﴾ ، كأن هذا النبا كان مشهوراً جداً ، ويقال : إنه قد قيل في « ابن يعمر » أو أمية بن أبي الصلت ، أو عامر الراهب ، أو هو واحد من هؤلاء ، والمهم ليس اسمه ، المهم أن إنساناً آناه الله آياته ثم انسلخ من الآيات ، بدلاً من أن يتفع بها صينة لنفسه ، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه وعمال إلى الشيطان .

وكلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج خبرات معصية لينسلخ الإنسان منها ، لأن الأصل في لسلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكان ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان آيات فانسخ منها، وهذا يعنى أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه سرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله «فاسقاً» مثله مثل الرطبة من الملح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتسخر منها بعض من الماء، فتتكشش ثمرة البلحة داخل قشرتها ويظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج «فاسقاً» من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله صر وحل يقول هنا: ﴿آتيناه آياتنا﴾. وكان يجب ألا يفعل عنها، لأن الإتيان بعمه جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسسخ من الآيات.

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذى تحته قد نضج، وصلح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يتدلق سائل ساخن على جلد الإنسان، تنحط تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهي تحمى المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتتصلب عن الجسم، وكذلك يعلم أن الشاة مثلاً لا تسليخ نفسها. بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَأَيُّ نَحْمٍ أَلْبَسُ سَلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يس)

فكان الليل كان محلاً ومغماً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف: الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيسى، البنفسجى، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً. والأبيض هو مزيج من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك. وقوله الحق: ﴿سلح منه النهار﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار.

وإذا انسلخ من آتاه خسر الإيمان عن المسيح يقول الشيطان: إنه يصلح لأن يتبعني، وكأن الشيطان حين يحد واحداً فيه أمل، فهو يحرق وراءه محامه أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمسيح، ويترك الشيطان في نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل: إن المعاصي تأتي مرة من شهوة النفس، ومرة من ترين الشيطان وأوصحا الفسارق، وقلنا: إن الشيطان لا يجبر عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان في الطاعة ويحاول أن يكرمه فيها، والشيطان لا يذهب - مثلاً - إلى الخمار، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التي تتجه إلى الخير، أما الآخرون فنفوسهم جاهزة له. إذن فالشيطان ساعه يرى واحداً بدأ في الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه محامه أن تستهويه الآيات ثانية، ولذلك لا بد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من برغ للشيطان، فإن جاءت المعصية وحدثت نفسك بأن تفعلها ثم عرت عليك تلك المعصية لأي طرف طارىء، ثم ألحمت عليها ذاتها مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عليك ثم فكرت في معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المسيح فقط، تكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها، ثم فكرت في معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان - ويقول الحق:

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾

الغاوى و لغوى هو من يضل عن الطريق وهو الممغن فى الضلال ، ونعلم أن الهدى هو الطريق الموصل للغاية ، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه فى الصحراء ، وهو الذى يسمى « الغاوى » ، ومادام من الغاوين عن منهج الله فلنفسد بنشأته لأنه فسد فى نفسه ويفسد غيره .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا وَلَكِنَّهَا أَخْلَدَتْ إِلَى الْأَرْضِ  
وَأَنْتَ هَاهُنَا قَاشِقُهَا كَمَا يَلْهَى السَّكْبَ أَنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ  
يَلْهَى أَوْ تَنْتَرِكَهُ يَلْهَى ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ  
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ



وهنا أمران اثنان ، الرفع ، وهى العلو والتسمى ، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاق إلى الأرض أى إلى التسفل ، والعلان منسوبان لفاعلين مختلفين

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا ﴾ ، والفعل رفع هنا مستند لله . ولكه اختار أن يخلد فى الأرض . وجاء الأمر كذلك لأن الرفع من المعقول أن تنسب لله . لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله ، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون . وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج ، وحين يقول الحق نبلوك وتعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ أى أبها مشيئتنا . ولو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة ، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار ، والحق يريد أن يُبقى للإنسان الاختيار ، فإن اختار الصواب فأعلا به وجزاؤه الجنة ، وإن أراد الضلال فليسوف يلقى العذاب الحق ، وليريد من الاعتبار بقصص القرآن أفرا معنى قصة العهد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا نَشَاءُ ۝٦٥ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَنَا ۝٦٦ ﴾

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأب على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فأتبعه موسى ليقول له: ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ﴾ .

وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم عن أعطاه لله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح ؟ لقد حذر موسى وقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا أَلْقَتْ بِكَ رِيحُ هَبْ ۝٦٨ ﴾

(سورة الكهف)

أي أنك يا موسى لن تصبر لا لنفص فيك، بل لأنك ستري أموراً لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ وأصر موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يحصى له أمراء واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شيء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظري ، فيه أخذ ورد ، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماماً . بعد أن ركبا في السفينة وخرقها العبد الصالح ، لم يصبر سيدنا موسى بل قال :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ .

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح ،



وحين ذكره العبد الصالح بما وعده من ألا يسأل، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير، إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أمرار ما لم يحط به عدما وهنا يقول الحق : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ لماذا ؟ . لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريد، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاء، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يشيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعذبه ويشيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم في كل فعل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

( من الآية ١٧٦ سورة الأعراف )

و ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾ ، أى أنه احتار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ ﴾

( من الآية ١٥١ سورة الأنعام )

ونحطى، حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا مهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه ونعالي يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقى وناخذ منهج الله الذى يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول : تعالوا وتساموا فى أخذ منهجكم من الله العلى الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء فى شرع الله، لأن فى هذا تسفلاً ونزولاً إلى الخضيض.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ لَمَسَّهُ عَذَابُ الْعُلَى ﴾

إن تحمّل طيِّبه يَلَهُتْ أو تفرّقه يَلَهُتْ ﴿

( من الآية ١٧٦ سورة الأعراف )

ويقال: «حملت على الكلب»، فانت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وترجره وتطرده وتنهره، فهذا تفسير لقوله: «تحمل عليه»، أى أنت تحمل عليه طرداً أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضاً يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية في الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ويعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إن فرحت فتهجرى، لتفوت من الأكل أو من العذاب الذى يترصدها من كائن آخر، وحين يجرى الحيوان فهو يحتاج بطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم مما فيه من عذاء إلى كل الجسم، ولا بد للقلب أن يتعاون مع الرئة التى تمد الدم بالهواء. ونلاحظ أن الكائن الحى حين يجلس يرتابة فهو لا يلحظ نفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجريف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنسبط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجرة، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها، جائعاً أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث؟ لأن الذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه منبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة لأن، يتساءل هل سيقفل مثلها غداً؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش فى كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث أمماً أو غير آمن، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿قَسَمْتُ لَكُمْ أَنَّهُ كَلْبٌ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ النُّعْمِ

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فاقصص القصص لعلهم يتذكرون﴾

هكذا يكون مصير من كذب بالآيات.

وقول الحق : ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً ، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتي سبحانه بلقطة جديدة ، لتعند ما في القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لفان لنا روايته مرة واحدة ونجد في القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل ، ومن قصص المبتلين مع المحقين ، ومن قصص المعاندين مع الرسل ؛ لأن لقصة أمر واقعي ، والتقنين للمناهج أمر لفظي ، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع ؛ لأن واقع الحياة يعطي القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظري معزول عن الواقع .

وهكذا يتبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية ، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه ، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً ، وتوطين ما علم ثانياً ، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء . ومن يعطيه الله ذلك المنهج ، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء ، ليهبط إلى مستوى الأرض . وهذا ما يفعله ابشر حين يقتنون لأنفسهم ، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم ، وعلى وفق نظمهم . ويتركون منهج الله الذي خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون عيانتهم .

وهذا كلام نظري له واقع في ابن « باعوراء » ، هذا الذي آتاه الله العلم ، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم ، فنسلخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ كَافِرٌ أَنْكَرَ أَنْ يُخَيَّلَ عَلَيْهِ يَلَهُ أَوْ تَرَكَهُ يَلَهُ ﴾

( من الآية ١٧٦ سورة الأعراف )

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحي بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين، لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهله غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذي فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقله يصور حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغي أن تفعلوا: وما ذنب الكلب في أنه يلهث، ويضرب به المثل في الكفر؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بعير تكليف فيصنع ما يشاء، أما الإنسان الذي ارتفع بفكره وميره الله بأن يحترق بين البدلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك في الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإليك أن تقول: لما فاربتنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هي؟

والحق - سبحانه - هو القاتل من اليهود :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوا كَثْلَ الْخِمَارِ يَمْثَلُ أَسْفَارًا﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الخمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما في الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته لبس منها فقه وفهم ما في الأسفار، بل مهمته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول: لا تكونوا مثل الخمار الذي يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنتفعوا بما يحويه من التشريع إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هي ذماً للحمار. إنما دم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يردده الله لها، وأراد الله للمثل قبيها شيء لا تدم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذي لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة في الحياة، حتى وإن كان في نعمة، لأنه معزول عن الله، وما دام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل. أيديوم في هذا النعيم أو لا أيديوم؟ ويميش دائماً في قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبته.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتذكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية في هذا الرجل المسمى "ابن باعوراء" ، لسيحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أى أن الذى يريد الله أن يرفعه بما علمه من سهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وستتم بدعاً في هذا ، فبالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخطدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة "مثل" إذا سمعتها هي من مادة الـ"م" و الـ"ث" و الـ"لام" ، وتنطق كما يأتى : إما أن تنطقها مثل "بكسر الميم وسكون الـ"اء" ، وإما أن تنطقها مثل "بفتح الميم والـ"اء" ، والمثل هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مثل فلان في الكرم ، في العلم ، في الطول ، في العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَبَسَ لَغْوِيهِ نِسِيءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أى لا أحد يشبهه في شيء ؛ لأنه مَرَّةً في الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً بقول : هذا مثل هذا ، أى أن فلاماً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك ، وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجرى اسمه على كل لسان ؛ فنحن نقول : إنه مثل ؛ كقولنا عن الكريم : "هو حاتم" لأن شهرة حاتم في الكرم جعلته مثلاً ، والفرق أنك إذا قلت في فلان إنه يشبه حاتماً في الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتى بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مثل ، كأن تقول : مثل حاتم في الكرم ، أو مثل عنترة في الشجاعة. والمثل في الذكاء لباس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر (١) الخليفة (٢) قال فيه :

إقدام عمرو<sup>(١)</sup> (في شجافته) في سماحة حاتم (أى الطائي) في حلم أحنف (الأحنف<sup>(٢)</sup> بن قيس وكان مشهوراً بأحلم عبد العرب) وفي ذكاء إياس<sup>(٣)</sup>.  
وقال رجل من القوم : كيف تُشَبَّهُ الأميرُ بصعاليك العرب ؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً .

ما عمرو بالنسبة للأمير ؟

وما حاتم بالنسبة للأمير ؟

فقال الشاعر :

وشبهه الملاح في البأس والندى

• بمن لو رآه كان أصغر خادماً

ففي جيشه خمسون ألفاً كعتر

وفي خُزْنِه ألف ألف كحاتم

أى أن عنده أمثال حاتم وأمثال عترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته  
وبديته ؛ فقال :

"لا تكرو ضربى له من دونه

مثلاً شروداً في الندى والبأس

فالله قد ضرب الأقل لنوره

مثلاً من المشكاة والنيراس

وكان الشاعر يقول : أنا ضربت بهم المثل لأنهم أصبحوا المثل المشهور  
والأمثال لا تتغير

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدي فارسي اليمن (٢) من سادات القديمين كان شهماً حليماً (٣) كان  
قلبي البصرة وضرب به المثل في الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر في المثل ، فقد تقول : فلان حاتم ، وحاتم انقضى عمره ، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً في التاريخ ، أو تقول : 'فلان عترة' ، أو 'فلان إياس' ، وفي ذلك يرنقى التشبيه ، بأن صار المشبه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .

ويُعرفون المثل بأنه : قول شبه موره بمضريه ، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً ، ومثال ذلك : حسيما أرسل عظيم من عظماء العرب خاطبة اسمها 'عصام' لتخطب له أم إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال . اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فذهبت الخاطبة وخلت أم العتاة بينها وبينها ، وقالت لها : يا هذه ، هذه خاتك جاءت لتنظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجهه وخلت ، وناطقيها فيما استنطقتك به . ثم أرسلت إلى خبء ، ونظرتها كلها رفحصتها فحصباً شاملاً . فلما عادت إلى من أرسلها ، وكان ينتظرها في شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : 'ما وراءك يا عصام ؟' قالت : 'أبدي المخض عن الربد' أي أن لرحلة جاءت بفائدة .

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولا ذكرا أو أنثى أو مثنى أو جمعا ، وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : 'ما وراءك يا عصام ؟' ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدي الجهد فيه يقال عنه : 'أبدي المخض عن الزيد' . فحين ينجح الولد ويأتي بالمجموع المناسب يقال : 'أبدي المخض عن الربد' .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ لَكُم مَّوْقِفًا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكنوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعضه ؛ وقال سبحانه :

﴿ كُنْ يَحْتَفُوا ذُنُوبًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : " فما فوقها " أنها أكبر منها ، والمراد غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل ؛ لذلك قال : " فما فوقها " من باب فما فوقها في الاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تنكرونه ، وهو الصالة ، وحتى تفهم ذلك نسبح أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان موقه في المرض ، ونجد " موقه " هنا لا تعنى المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أي أنتم يا بني إسرائيل مثلكم مثل الرجل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم في التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذي جاء ذكره في التوراة ، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله ، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به . وصار مثلكم كمثّل الرجل الذي آناه الله الآيات فانسلخ منها . ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التي يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التي يثبت بها الرسول صدق بلاؤه عن الله . وكذلك آيات القرآن التي تحمل منهج الله .

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان ، وأنت لن تحكى الأمر التافه ، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع .



## مَعْنَى الْأَمْرِ



ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكير والتذكر والتدبر .

والتفكير - كما نعرف - هو عمل العقل في المقارنات بين البديلات المتنوعة ليرجع بديلاً على بديل فتعقل به القضايا .

والتذكر بمعنى إن فعلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيع عنك الغفلة عن القضية المعلومة .

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي . فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما يتبع عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المبنى الخفى فيه ، يقال . والمثال في قول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَعِيزُ أَنْ يَقْرِبَ مَثَلًا مَّا مَوْصُوعًا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحيث تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى " فما فوقها " لا يعنى الأعلى منها فى القرّة ، بل الأعلى منها فى انضعف الدي أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خفى اللفظ ، ومعانيه .

﴿ فقص القصص لعلمهم يتفكرون ﴾ أى يتفكرون فى أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلمهم يؤمنون . وهذه فائدة القصص .  
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ

كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

والحق قال فيهم من قل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بابن باهوريا  
وكان مشهوراً في أيامهم . لكنهم فاقوا ابن باهوريا لأنه كان فرداً وهم جماعة ؛  
لذلك لا نقل . إن في المسألة تكراراً ؛ لأن المثل من قل كان على فرد واحد ، أوتى  
آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج  
يجعل موقفهم أشد سوءاً .

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

و ' ساء ' أى قُبُح ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أى قبيح أمره ، ولكن أى أمر  
من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحة أى صار مريضاً أو ساء حالاً أى صار  
فقيراً ، أو ساء خلقاً أى صار شرساً ، وأنت حين تقول ' ساء ' فهنا السوء عام  
له جوانب متعددة ، ويقتضى الأمر التمييز .

و ' ساء مثلاً ' أى ساء من جهة المثل ، والمثل هو ذاته لا يسوء ؛ لأن الله  
تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يعنى ليبين ويشرح ويوضح . والمعنى هنا :  
ساء مثلاً حال القوم أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا  
بالآيات ظلموا أنفسهم ، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله فى الأرض ، ولم  
يعرقلوا بالتكذيب شيئاً فى كون الله تعالى ، فالكون بعظامه ونسقه يسير بإرادته  
سبحانه وآيات الكون سائرة . إذن تكذيبهم بآيات الله لن يفسير أبداً فى أى  
شيء . والخيبة إنما تقع عليهم . وإن كان التكذيب فى الآيات والمعجزات فقد بقى  
ذكر المعجزات إلى الآن . وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج  
فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أى شيء .  
وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لم يسمع كلام  
الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شيء ، والله سبحانه قد أعطانا  
المنهج لتستقيم به حركة الحياة ، فمن يأخذه ينفع نفسه ، ومن لا يأخذه لن يضر  
الله شيئاً .

هم . ذن ظلموا أنفسهم ، ومن يظلم نفسه كان هو أرل عدو لها ولن يضر الله  
شيئاً ، ولا الرسول ، ولا المجتمع .

﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة الأعراف)

وحين نجد معمولا تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك ما يسمى بالقصر في علم البلاغة ، وقد نقول : " يظلمون أنفسهم " ويصح أن تعطف قائلاً : ويظلمون الناس. ولكن حين نقول : أنفسهم يظلمون، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم، ويكون الكلام فيه نصراً وتخصيصاً، مثلاً نقول : ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾، أى أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

وهذه الآية هي الوحيدة التي جاء فيها قومه سبحانه وتعالى : " المهتدي " - بالياء - بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة " المهتد " - من غير ياء - في آيات متعددة عدا هذه الآية :

واقرا قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الإسراء)

ويقول الحق . ﴿فَإِنَّهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحديد)

وكذلك نأى الكلمة بدون " ياء " في قوله سبحانه :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

(من الآية ١٧ سورة الكهف)

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإصلاح قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذبول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر في الأذهان ، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟ . وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مرر للنفس العاصية غير الملتزمة . ويقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة العسر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وأمنت ؟ . إن اقتصرارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

وضربت من قبل أمثلة كثيرة ، لنفرق في هذه المسائل بين المختلفين ؛ لأن الجهة عديم منفعة . وهم قد ناقشوا مسألة 'خلق أفعال العباد' وتساءلوا : من خلق هذه الأفعال ؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟ .

ونسأل : ما هو الفعل ؟ . إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أي عمل تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل به إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تربت بها على اليتيم .

إذن ففى اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأى عضلة تحركها حين ترتفع ليدك تضرب ؟ . إنك بمجرد رغبتك هي أن تضرب ، تضرب ؛ عكس الإنسان الأكلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزوار تعمل . وكلها آلات .

وأنت حين تربت على كنف يتيماً ، ما هي الأعضاء والأجهزة التي تحركها لتعمل هذا العمل ؟ . إذن فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للعمل . فإن نظرت إلى ذلك ، فكل فعل من الله ، ولكن توجيهه الحارحة إلى الفعل هو محل التكليف .

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت ، لا لأنك خلقت ؛ لأن خالق الأعمال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تعمل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل للسان فيه طاقة

مخلوقة لبيان ما فى النفس ؛ إن أردت أن تقول بها ' لا إله إلا الله ' صلحت ،  
وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول والحياد بالله لا يوجد إله . واللسان لم  
يعص فى هذه ولا فى تلك .

إذن مالى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله . وأنت توجه الجارحة ،  
إذن فكل الأفعال مخلوقة لله ، لكن توجيه الطاقة للفعل يالميل والاختيار إنما  
يكون من العبد . والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج ، ومن يقبل عليه  
بنية الإيمان ، يعينه على ذلك ، وبذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه ،  
وأن نسأل من خلق الأفعال ، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد ، وما دور  
الإنسان فيها ؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث ، مثل من  
يريد أن يؤذى إنساناً يسه له يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو  
الذى يخلق برفع يده وأذى بها من أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل .

وعلى ذلك تكون الهداية نوعين : هداية دلالة ، وهى للجميع ؛ للمؤمن  
والكافر ؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ،  
فمن يقبل على الإيمان به ؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة .  
فياخذ بيده ، ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل  
الخير ، ويشرح له صدره ويسر له أمره ؛ وسبحانه القائل :

﴿وَأَنقُرْ أَفْئِدَةً رَّعِيَّةٍ﴾

( من الآية ٢٨٢ سورة البقرة )

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا يَهْدِيهِمْ إِلَّا ضَلَالُهُمْ﴾

( من الآية ١٧٨ سورة الأعراف )

فإذا كان لله قد عمم حكماً ثم خصه ، فالتخصيص هو الذى يحكم  
التعميم .

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية ،

ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً، وقد بين أن من شاء هدايته يهتدى وهذه معونة من الله، والكافر لا يهتدى وكذلك الظالم، والفاسق؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختباره، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة. ونقرأ في القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة، فهو سبحانه يقول :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

والهداية التي كانت لقوم ثمود إنما هي هداية الدلالة، وليست هداية المعونة ويقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾

(سورة محمد)

أي أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبَّتْ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

أي أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك. ويقول سبحانه لرسوله :

﴿وَمَا تَكُ تَهْدِي إِلَيَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

أي أمك يا محمد تهدي هداية الدلالة بالمنهج الذي أنزله الله إليك.

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثاً مثبتاً لواحد ومتفياً عنه . فاعلم أن الجهة منكفة، والكلام هنا لحكيم عليم . ولماذا يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا تُلْهِكَهُمُ الْحَسِرُونَ ﴾ (١٧٨)

(سورة الاعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه. ويعيش وحالته كروب، سواء كان في أسر مادي أو في عسر. هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء، فهذا أخيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة، فالحسارة تكون كبيرة حقاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ  
هُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ  
أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ  
هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٩)

وإذا، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء :

﴿ وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ﴾

كما يقول الحق أيضاً : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الاعراف)

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن ؛ لأن كلا منهما في سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن :

﴿ مسفرغ لكم أيها الثقلان ﴾

ودرأنا معناها بشنا وتشرن وكثرنا، وكلمة كثير لا تعنى أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابلته أيضاً كثيراً، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم :

﴿الرَّزَّازَ أَهَهُ يَسْجُدْ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق في ذات الآية :

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أى هناك كثير يسجدون ويخضعون لله، ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب. وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول،

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

فقد يثور في الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يارب جهنم - ماذا يستطيعون إذن ؟ ولا شيء في قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا. ولنلفت الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى « لام العاقبة »، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن الفصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥١﴾

(سورة الذاريات)



ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكف عن المهي عنه، والمأمور صالح أن يفعل  
والأ يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعي وجود طائع ووجود عاصٍ، وأضرب  
هذا المثل ولله المثل الأعلى ومثله سبحانه وتعالى: يأتي لك من يروى لمحة من  
سيرة إنسان ويقول لك: لماذا يقف منك هذا الموقف العدائي، أليس هو الذي  
أخذته معك لتوظيفه؟ فترد عليه: «زرهته ليقلمني»، هل كان وقت مجيئك به  
كنت تريد أن يقلمك؟ لا. ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار. لكنه عز وجل خلقهم  
ليعبدوه، فمعهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، ومنهم من عصى فدخل النار  
وهذا اسمه «لام العاقبة»، أي ما صار إليه الأمر غير مرادك منه، ومثال ذلك  
حيثما قال الله سبحانه لأم موسى:

﴿فَإِذَا خِطَبَ عَلَيْهِ فَأَلْقِهِ فِي النَّارِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ غُلَامٍ مِّنَ  
الْمُرْسَلِينَ ۝ قَالَ تَقَلُّهُ رَبُّكَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ۝﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا، لأن زوجة فرعون قالت:

﴿فَحَرَّتْ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقُنُّهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا ۝﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هي أن يكون قرة عين، لكنه صار عدواً في  
النهاية، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار، في قوله  
الحق:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۝﴾

لأن علة الخلق في الأصل هي العبادة، والعبادة تقتضي طمأنينة وعاصياً، فالذي  
يطيع يدخل الجنة، والذي يعصى يدخل النار، ولله المثل الأعلى، أذكركم بالمثل الذي

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للمسبوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحدهم ، لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم في إجابات الطلبة ، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه ، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾

يعنى أننا تشرنا وبشئنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، وهم من معرضون عن منهجنا ، ثم يأتي الحق بالحيثيات لذلك وهي أولاً .

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً .

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولنأفل أن يقول إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . ومداامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك مادامت لأذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا ، لم يخلقهم الله للعذاب ، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم ، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة ، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها ، وكذلك الأذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية ، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القصايا التي تنتهي إليها الإدراكات ، ونعلم أن الإدراكات تأتي بواسطة الحواس

الخمس، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس، ونعرف أن اسك وانحنه طيبة بالشم، ونعلم أن انسل حلو الطعم بالذوق.

إذن لكل وسيلة إدراك، وهي من المحسّات، وبعد أن تتكون المحسّات يمتلك الإنسان خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصبح قضية عقلية منتهية ومسلماً بها.

وكلنا يعرف أن النار محرقة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه، فيعرف أن النار محرقة، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى. إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتهما الحواس الطاهرة، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بأحمل. وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل؛ لأنك حين تحمل شيئاً قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً.

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد، فهذه اسمها حاسة البعد، وكذلك حاسة الير وهي التي تميز بها سمك القماش مثلاً.

كل الحواس - إذن - تربي المعاني عند الإنسان وحين تربي المعاني في النفس الإنسانية تتكون لقضايا التي تستقر في القلب.

ولذلك يمتدح خلق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى :

﴿وَاللَّهُ أَنزِلَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْبُونَ شَيْئاً وَجَمَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ  
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾

وايفقه هو الفهم، ويصير الفهم قضية موجهة تنتهي إليها الاقتناع من المراتى والمحسّات، لكن هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم، وكذلك لا تسمع

أذانهم إلا ما يروق لهم ، فلا يستمعون إلى هدى ، ولا يلتفتون إلى الآيات التي يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه ، بهم إذن لهم قلوب وأعين وأذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التي تروق لانحرافهم .

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول :

﴿ أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا نَعَمٌ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَمَلُونَ ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو : ما ذنب الأنعام التي يُشبه بها الكفار ؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأي منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو أذان تسمع بها آيات الله . هي فقط ترى المرعى فتذهب إليه ، وترى الذئب فنفر منه ، وتتعود على أصوات تتحرك بها ، وكافة الحيوانات تحيا بألية العريضة ، ويهتدي الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التي أودعها الله فيه ، لا بعقله .

والإنسان منا لا يعتمد عن لصر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً . لكن الحيوان يعتمد عن الصر من غير تجربة بل بالغريزة ، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات ، وقطره الله على غريزة تُسبِّره إلى مقومات صالحة ، ومثال ذلك : أنه قد يوجد الحيوان في بيئة ما ، ويمطى الله له لوناً بمائل لون هذه البيئة ليحمي نفسه من حيوانات أقوى منه .

ومثال آخر : نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان ، ولا بد أن يتناسل ليؤدي ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هي في الإنسان ، حيث تصير في بعض الأحيان ضاية في ذاتها ، بجانب أنها وسيلة للتسل . ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَبَّحَ اللَّهُ خُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَبَفٌ يُوْرِي سَوَةَ أَخِيهِ ﴾

( من الآية ٣١ سورة المائدة )

إذن فالغراب مَهْدَى بغير رته إلى كل متطلباته ، ولذلك نحمد من يقول : كيف  
نشبه الضال بالأنعام ؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام في أنه يملك  
الاختيار وقد رفع فوق الأنعام ، لكنه وضع نفسه موضع لأنعام حيث لم  
يستخدم العقل كي يختار به بين البدائل . وبذلك صار أصل من الأنعام ،  
وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة ، لأنها محكومة بالغريرة لا  
اختيار لها في شيء . لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجحهم من الجن والإنس ، لا  
يعرفون ربهم ، بينما الأنعام ، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ۚ وَلَكِنْ لَا تَقْضُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

( من الآية ٤٤ سورة الإسراء )

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده . وفي آية أخرى يقول المولى تبارك  
وتعالى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ صَلَاتٍ وَتَسْبِيحٍ ﴾

( من الآية ٤١ سورة النور )

وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - يعلم صلاته وتسبيحه .

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم  
البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية . والعارف بالله من هؤلاء  
الصلحين يستقبل الأحسن منه في العبادة بالضحك ، أما الأحسن منه في أمور  
الدنيا فيستقبله « بالنكشير » ، وقال واحد منهم لآخر : أنشتاق إلى ربك ؟ فرد  
عليه : لا .

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك ؟ .

قال له : نعم . إنما يشتاق إلى غائب .

﴿ أَوَلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

( من الآية ١٧٩ سورة الأعراف )

ولا نظن أن الصلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مذكر، أو لعدم وجود منذر أو مشر بل هي غفلة منهم، فالأمور واضحة أم مهم، لكنهم يهملونها ويعملون عنها.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

وحيث يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ نقول : إنه لا يوجد لعبير الله اسم يوصف بأنه من الحسنی، إن قلت عن إنسان إنه « كريم »، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه « حليم »، وكلها صفات عارضة في حادث، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلاً - لك قدرة تفعل أفعلاً متعددة، والله قدرة، لكن قدرتك حادثة من لأعيار، بدليل أنها تسلب منك لتصبح عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحددها شيء. فهي قدرة مطلق. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، والله غنى، لكن ثرائه محدود، وأما غنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنی على إطلاقها هي لله، وإن وجدت في غيره صارت صفات محدودة مهما اتسعت.

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

والحسنی . . تأتي لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل، وهي الأسماء الحسنی في صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحيث نقول عنه سبحانه : إنه « رحيم »، فهذا أمر حسن عندي وعندك لأنني أنظر إلى رحمته لي، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحيث نقول : « غفار »، فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.

وحين تقول : « قهار » وأنت مذهب ستخاف ، وهي صفة حمسى بالنسبة للإله ؛ لأن الإله لا بد أن تكون له صفات جمال وصفات جلال ، فصغات الجمال لمن أطاع ، وصفات الجلال لمن عصى . ولذلك لا تأخذ النعم بمدلولها عندك ، بل خذ النعم بمردات الله تعالى فيها .

وساعة يتكلم لحق سبحانه وتعالى قائلا :

﴿ مَنعُغْ لَكَ آيَةُ الْفَلَاحِ ۚ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبِينَ ۝ بِمَشْرِائِي وَأَلْبِشِ وَأَلْبِشِ ۚ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنۢ نَّظَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَآنَعُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبِينَ ۝ يُرْسِلُ عَلَيْكَا شَوَاطِئَ مِّنۢ مَّاءٍ وَغَاسِقَ فَلَا تَنصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

فهو إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها . « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »

نقول : نعم ، هي نعمة كسرة ، لأنه سبحانه وتعالى ينيها قبل أن توجد النار ، أن النار قوية ، ويعطى لك نعمة العظة والاعتبار . وعظته ونبيه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى ، وأيضاً هي نعمة بالنسبة للمقاييس ، فحين بطيحه المؤمنون في الدين ويلزمون أنفسهم بمنهج الله ، فلهم ثواب حق الالتزام ، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية ، ينوعدهم سبحانه بالعقاب ، وهذه نعمة كبرى

﴿ ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها ﴾

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه ، لأننا قد نعرف مسماء من

القوى القادرة وهي التي تعرف بالعقل ، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم .  
ومسبق أن قلت : لنفترض أن أناً يجلسون في حجرة ثم طرق الباب . هنا  
يجمع الكل على أن طارقاً بالباب ، لكن حين دخلوا في التصور اختلفوا ،  
فواحد يقول : إن لطارق رجل ، فيرد الآخر : لا ، إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة ،  
ويقول ثالث : هذه الفتحة على الباب تأتي من أعلاه وهي دليل على أن الطارق  
ضخم ، وهو ينير لأنه يطرق بشدة ، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق ،  
ولا أحد يعرف اسمه . إذن حين تريد أن تعرف من الطارق ، فأنت تسأله من  
أنت ؟ فيقول بك : اسمه .

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل . ومن خلق الخلق كله قوى ، قادر ، حكيم ،  
عليم ، لأن عملية الخلق تقتضي كل هذا . أما اسم الله . فهذه مسألة لا يعرفها  
العقل وتحتاج إلى توقيف . إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية ، فحين يقول  
لنا : هذه أسمائي فإننا ندعوه بها ، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به ، ولذلك  
يقول تعالى : ﴿ فادعوه بها ﴾

فإذا أنت فعلت هذا إلى غيره . فأنت تدعو بالأسماء الحسنى سواء ، مثلاً  
كتاب الإمامة مسجلة سمي نفسه الرحمن ، وبذلك ألحد في اسم الله حيث  
نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته ، ومثله فعل غيره ، ألم يسموا « اللات » من الله  
؟ . ألم يسموا « العزى » من العزيز ؟ . ألم يسموا « مناة » من المنان ؟ . كل  
هؤلاء ألحدوا في أسماء الله التي لا ندعو غيره بها ، ولذلك ورد عنه صلى الله  
عليه وسلم قوله في دعائه : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمك ناصيتي  
بيدك ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك ، سميت  
به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في  
علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وذهاب  
حزبي وغمي (١)

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا بنفسه ، لأنها لا تعرف بالعقل . أما إذا نظرت  
إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف ؛ لأنه تعالى  
(١) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم في المستدرک .



خلق الكون بحكمة وتدبير وقدره . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصاييح ، فنصنع زجاجاً ونفخه من الهواء ، ونضع داخله أسلاكاً تتحمل ذبذبة الكهرباء ، وبعد استخدام هذه المصاييح لفترة تفسد ، بينما الشمس تضيء الكون كل هذا العمر ، من بلد الخلق ، ولا تحتاج منا إلى قطعة عيار

وحين نقول هو : « حكيم » ، نقولها ونرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة ، وكل كوكب بدوره في فلكه ولا يصطدم بأخر ، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة .

وينبها الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكره ؛ لأنه هو الرب الذي خلق من عدم ، وأمد من هدم . وصان الخلق بقيومية ، وحين تأتي لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادى الله بها ، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذى وضعه لنفسه وهو « الله » ، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود ، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء ، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات .

ولله المثل الأعلى أنت تقول : « زيد » فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد ، ثم له صفات أخرى ، كأن يكون تاجراً ، أو عالماً متفهماً في العلم ، أو مهندساً . لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذى لا يشترك معه أحد من معارفه فيه وهو زيد ، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره .

والأسماء لله نوعان ، اسم يدل على ذات الله ، الذات المجردة عن أى شيء وهو الله ، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والمليك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن ، وهذه صفات ارتقت في السموات والعلو لأنه لا أعلى منها ، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاقاً الكمال الأعلى لا تتصرف إلا له . فصارت أسماء

قد نقول فلان غنى ، وفلان كريم ، وفلان حكيم ، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى .

والأسماء الحسنی ناشئة من صفات مبالغه فی العلو فیها، لأنه سبحانه الأكمل فیها وهي فی الأصل صفات لها متعلقات فعلية، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل، ونأتى بصفة شبيهة بالاشتقاق، فنقول : « غنى »، ونقول : « معنى » فهو غنى فی صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه، ومعنى وجدت بعد وجود من يُعنه من عباده، وسبحانه حی فی ذاته، ومحیی لغيره، والإحياء صفة فعل فی العیر. ولا بد لها من مقابل، فنقول : « محیی وممیت ». ولم نقل حی ومقابله، إذن فالاسم الذى ترى له مقابلاً هو صفات الفعل، أما صفات الذات فهي التى لا يوجد لها المقابل ويحدون فی أسماء الله أى يُميلونها إلى غیر الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو یأتى باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يفهم منه أى معنى على الله. إذن « الإلحاد » یأتى فی ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غیر الله، أو یأتى باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً لله من غیر أن يكون قد أنزله الله توقيفياً.

﴿ وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

ويعلم أن « العمل » هو اسم للحدث من أى جارحة ؛ فنطق اللسان عمل ، وشم الأنف عمل ، وتعلم أن هناك ما يسمى بـ [قول وفعل] ، والفعل عمل الخوارج ما عدا اللسان ؛ والقول عمل اللسان، والاثنان يطلق عليهما عمل ، ولذلك يقول الحق : « تبارك وتعالى فی سورة الصف »

﴿ لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

إذن فالقول مقابله الفعل ، والخراء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل. وإذا كان لله أسماء كثيرة ، فهل يجوز لنا أن نأخذ من فعل الله فى شيء اسماً له ؟ وخصموا أنه القائل :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

وهو الفاعل أيضاً :

﴿وَعَلَيْكَ مَا لَمْ تُكُنْ تَعْلَمُ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن تقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن تأخذ من قوله :

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

(سورة الطور)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيعية ، وإن رأيت تعلاً منسوباً لله فقط عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

يَعْدِلُونَ﴾

وبعد أن قال سبحانه : 'ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس' أراد أن يعطى أهل منهج الله ، فلم يقل : 'كل الناس' ، بل كثير من الجن والإنس ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى في سورة الحج : ﴿وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾ أى كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعنى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

(سورة الأعراب)

أن كون الله لا يخلو من هداة مهتدين ، لتستمر الأسوة لسلوكية في المجتمع

والأسوة السلوكية في المجتمع هي التي تربي صفائد المواجهين عند الصغار ،  
 بالصغير لا يعرف كيف يصبي ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب  
 والصدق ولكنه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة  
 يؤذن للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية  
 الصلاة ، وحين يتكلم إنسان في سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعي  
 للحوض في سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف  
 يصون لسانه عن الحوض في سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنفخ عليه ،  
 بدليل أن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من  
 نفسه ليحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته.

ونعمهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم في حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو  
 نفي الشرك ، وقد يكون العدل في مسألة الكبار ، أو يقيمون العدل في مسألة  
 الحقوق بين الناس.

﴿ ومن خلقنا أمة ﴾

وقوله في الآية الكريمة : " أمة " يعني أن صفات لكمال المنهجية أكثر من أن  
 يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز  
 بالصدق ، وآخر في الشجاعة ، وثالث في الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة في  
 مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه  
 السلام - فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١١٦ ﴾

(سورة النحل)

أي أنه جامع لخصال الخير التي لا توجد إلا في مجتمع واسع ،

﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وأي أمة من أم الأرض - إذن - هي التي تهدي بالحق ؟ لقد قال سبحانه في  
قوله مرسى !

﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّرسًّى أُمّةٌ يّهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده ، لذلك تظل هذه  
الأمة المسماة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة.

فإذا رأيت ، لحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس في الإلحاد ، زاد  
الله في المدد ، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة في الفسق فقد يكون فيها  
واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله  
مصونة بالسلوكيين المتابعين لمنهج الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للعساذ أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل :  
ما لزوم هذا الشر في كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول ! لولا أن الناس  
يفسارون بالشر ؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير ، ولو أن الإنسان لم يصب من  
أصحاب الباطل بسوء ؛ ما تحمس للحق أحداً ، ولا عرف الناس ضرورة أن  
يتأصل الحق في الوجود ، فللشر - إذن - رسالته في الوجود ، وهو أن يهيج  
إلى الخير ، فكما درأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس ؛ أوضح سبحانه وتعالى  
في قوله : ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمّةً يّهْدُونَ بِالْحَقِّ ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ ، فِي الْحُكْمِ ، عدلاً في  
القيمة ؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هي مخالفة  
الشرك وهو ظلم عظيم ، فالشرك والعباد بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير  
مستحقه ، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله ، وكل ذلك ظلم ،  
وكذلك عدم حمظ التوازن في الحقوق بين الناس ، فإن لم يحصن العدل بحمظ  
الحقوق بين الناس من حاكم رولى ومسلط ؛ سنجد كل إنسان وهو يضمن  
بجهده في الحياة يكتفى بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك لنظام أن  
يأخذ منه شيئاً ، فلا يتحرك في الحياة إلا حركة محدودة ، ولا يعمل إلا بقدر ما  
يكفيه فقط ، فإذا ما حدث ذلك ؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرّون على  
الحركة الإنتاجية أى فائض ليعيشوا به.

إذن أراد الله أن يضمن بالمعدل عرق وتعيب كل واحد. فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك. لكن لله حق فيه، وأنت لك الساقى، حتى يجد الضعيف الذي لا يقدر على حركة الحياة من يقبته. ولذلك يحذرك المهج الإيمانى بقوله إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف، لأن قوتك التي استعملتها في تحصيل هذا المال إنما هي عرض لا يدوم لك، فإن أخذنا منك وأنت قوى قادر على الحركة، منأحد لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة، وذلك هو التأمين والعدالة.

وبالنسبة للأمة في تلك الآية ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

فقد جاء فى الآثار أن المراد بالأمة هى هذه الآية الأمة المحمدية، قال قتادة : بمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا قرأ هذه الآية : هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون<sup>(١)</sup>

ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله : هذه لكم، أى فى امتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة " للناس " هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهى أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً ؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

وذكر " أمة " لأن تحصيل الخير لا يمكن أن تجتمع فى إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء، وذلك فيه سبحة، وذلك عنده مال، وذلك له خلق. فكان الأمة المحمدية قد وجد فى أفرادها ما يجمع المراهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثانى، والتبصرة المجلد السادس.

المصالحة للخلافة في الأرض.

ويأتى الحق بعد ذلك بمقابلهم، لأن مجيء الشيء بمقابلته أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهلون بالحق وبه يعدلون، ولايات جمع آية، وقلنا: إن لايات التى فى الكون ثلاث؛ آيات تنظرها لتنهدي بها إلى من صنع ذلك الكون المثراسى الأطراف بتلك الدقة العظيمة، وذلك الأحكام المتقن، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر، وكذلك آيات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله، وآيات قرآنية تحمل مسيح الله، والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعيروا بها، ولم يستبطلوا منها وجود إله قوى قادر حكيم، وكذبوا لآيات المعجزات لصدق النبوة، وكذلك كذبوا آيات القرآن فسم يعملوا بها، ولم ينسكروا بها؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلا بدخلهم الحق النار فقط، بل لهم عذاب أقرب من ذلك فى الدنـب، لأن المسألة لو أجلت كلها بالأخرة لاستشري بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة، لكن من يؤمن بالأخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان فى الكون، وتكون حركته جملة متوافقة مع المسح. عكس من يعرـد فى لكون؛ لذلك لابد أن يأتى العذاب لمن يعرـد فى الكون أثناء الحياة الدنيا، وسبحانه وتعالى القاتل

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى أن لهم عذاباً قبل الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب فى الدنيا:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وحين تقول : أبا استدريجت فلانا ، فأنت تعنى أنت أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكبل النيابة حين يحقق مع المجرم ، ويحاصره بالأسئلة من هنا ، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف ، وهذا هو الاستدراج . و " الاستدراج " من الدرج ونسبه في لغتنا اليومية " السلم " وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلاً في عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثني عشر مستقيماً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويقعها على الدرج دون إرهاق النفس ، وهذا يعنى أننا نستدرج العلو لنصل إليه أو ننزل منه .

وقد خصوا في الآخرة الجنة بالدرجات العليا ، والنار بالدرجات السفلى .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٧)

(سورة الأعراف)

أى بأحدهم درجة درجة ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهبهم بما وصلوا إليه ، كما قال سبحانه من قبل :

﴿ حَتَّى إِذَا فَرَّسُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه في حق أخيه الإنسان في الدنيا يأخذه من أول جرم ، لأن الأخلة في هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يعلى له ويعليه ثم يلقيه من عل .



﴿ فَلْيَأْكُرُوا بِمَا لَدَيْهِمْ قَدْ خَلَقْنَاهُمْ أَبَوَّابَ كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا مَرَجُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَهْلُ الْأَنْعَامِ ﴾  
بِقَنَّة

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكون الأخذ بأخذ عزيز مقتدر.

وحين يستدرج البشر، فإن الطرف المستدرج له أيضا ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وقع منصوب له، لكن حين يكون ربنا القوي العزيز هو الذي يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلت. والملة في قوله: "مستدرجهم" هي قوله: ﴿من حيث لا يعلمون﴾، لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ أَتْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

والإملاء هو الإمهال وهو لتأخير، أي أنه لا يأخذهم مرة واحدة، ساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر في المجتمع، بجذأهل الخفيروهم يزدون من فعل الخيبرات، ونسمع دائما من يقول: لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً، فالإيمان يعطى الأسوة واليقين. والإملاء للظالم الكافر ليس إمهالاً له من المولى تعالى، بل هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهذا يوضح الحق. إذا كنت سأستدرج وسأملئ فاعلم أن كيدي متين والكيد هو المكر، والمكر أخذهم من حيث لا يشعرون وهو عملية خفية تسوء المكور به.

وهو تدبير خفي حتى لا يملك المكور به مكات الدفع، وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يحفى على بعضهم، فماذا حين يسير الله للكافرين مكيدة أو مكر؟ أمستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً؟ طبعاً لن يستطيع أحد ذلك. هذا هو معنى ﴿إن كيدي متين﴾، ومتين أى قوى، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر، ونعرف أن الظهر مكور من عمود فقرى وفقرات عظمية، تحيط بها عضلات، فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان

أي حمل عليه يكسره. فشئت نجيت ربك عز وجل وانتضت رحمته وقدرته أن يحاط هذا العظام بمصلتين كبيرتين، وهما ما نسببه في عروق الخرافين "القاتر" لحماية الظهر وتقويته ورقابته.

وإذا نظرنا لى كلمة "متين"، نجد "متن" هو شيء عمودي في الأشياء، وفي العلم مثلاً ندرس الفقه وندرس النحو، ويقال هذا هو متن في الفقه، أي الكلام الموجز الذي يحترق تعلم في كلمات محددة، والذي هو من يستوعبه وعالماً نجد مع امتن الموجز شرحاً للمتن، ثم حاشية للمتن.

ويقول الحق بعد ذلك

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ  
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

وهذه الآية خير سبحانه وتعالى كن أحق أن يتمكروا على أمر الرسول المسخ الذي يقف عن القوة العليا مرادها من الحق. وأول ما يستحق التمكير فيه أن نعرف من هذا الإنسان الذي يقول إنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولماذا ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل مرور الرسالة عليه، وجدد الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله. لكنهم لا يريدون أن يسمعون، ليوجدوا أنفسهم مبررات بالكفر عن المنهج، فقال بعضهم اتهاماً برسول. إنه مجنون، مثلاً قال بعضهم من أين إنه ساحر، وكاهن، ونحوه، شاعر ويرد ربنا على كل تلك الأقويل.

وتساءل: من هو المجنون؟

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكري في الاختيار بين الدلائل، وحين يأخذ منه هذه القدرة على إدراك المكرى، يصحح غير أهلي للتكبير، لأن التكبير فيه حثيث أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا، والمحمول لا يملك لقدرة على هذا الترجيح.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل ؛ لأنه حين يبلغ نصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه ؛ لذلك نلاحظ العصف وهو صغير يختار له والده أو والدته الملابس والطعام ، وبعد أن يكبر نجد الصمل قد صار مرافقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه ما يريد له لأنه قد صارت له ذاتية ، والذاتية - كما نعلم - توجد في النبات وفي الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منهم قادراً على تجنب مثله ، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والسل ، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير ؛ فهذا يسقط عنه التكليف ؛ لأنه مكره بفقدان العقل .

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يبلغ ، والمجنون والمكره عن هو أقوى منه ، وهذه عدالة الجبر . من الحق ، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله ، وبهذا يحرس ربنا أن يكون بقبوليته .

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان لعقله الذي يختار بين البديلات ، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات ، بل كانوا يعترضونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عبده كل غل غلب نفيس لهم حتى وهم كالمفرون به . وخلقهم الفاضل ذاتي مستمر ودائم .

لقد فاق ذلك على محمد ظلماً له ، وبقرعاً ثائفة ، وكل واحد يلقي اتهاماً ليس له من الواقع نصيب ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بَرِيَّةً أَن تَتُوبُوا إِلَيَّ مَتَى تَوَلَّيْتُمْ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ

مِّنْ حِجَّةٍ ﴾

( من الآية ٤٦ سورة سبا )

أي أن يجلس كل اثنين ويتدارسا : هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أن محمداً هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه

الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحي ، وليس من المعقول أن يضرب الوحي ، أو أن يفقد بالوحي توازنه الخلقى ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تَنْزِيلُ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَحْجُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَأَبْرَأٌ غَيْرُ مُتَمَنِّنٍ ۝ وَإِنَّكَ لَمَعَنَ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(سورة القلم)

كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هو الصفات التي تؤهل الإنسان لأن يعيش في مجتمع سليم وهو سالم وما دام خلقه سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه ' إنه ' ساحر ' ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر كبار رجال فريش ليؤمنوا برسالاته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس فيها سحر على الإطلاق

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا بذر مبین ﴾

الجنة التي تقولون عليها وتفنون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم - هي منتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم بذر ووضح ، جاءكم أولاً بالبشارة ، لكنكم في غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ  
أَجَلُهُمْ فَيَأْتِيَهُمْ خَدِيشٌ بَعْدَهُ يُتُومِنُونَ ۝ ﴾

وبذلك يتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذي يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى ، يتقل الجدل إلى التفكير ومستقبله :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

والتفكر هو إعمال لعقل حتى لا يقولنَّ أحد : إن رسول الله مجنون، لأن مجرد النظر في الكون يجعل الإنسان راثياً للسماء مرفوعة بلا عمد، والأرض مسبوطة والهواء يتحرك في انتظام دقيق.

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

إذن فوقنا سماء، وهناك ما فوق السماء، وتحتنا الأرض، وفيها ما تحت الأرض، وهناك ما بين السموات والأرض. وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه « ملك » أما الخفى عنك الذى لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت ».

ويقول سبحانه في سيدنا إبراهيم :

﴿ وَكَذَلِكَ رَأَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة في الملك، مثل رهبوت أى الرهبة الشديدة، ورحموت أى الرحمة الشديدة، وكلها صيغة « فعلوت » وهى صيغة المبالغة.

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾

وسمى نرى السماء والأرض بوضوح، ولكن لعظمة والسر ليسا في السماء والأرض فقط، بل هناك أشياء دقيقة جداً، بلغت من النطق أنها لا تدرك بالنظر، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق. وأنت قد ترى ساعة « بيج بن » الشهيرة فى لندن ونكاد أن تكون أضخم ساعة فى العالم، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة فى حجم الخاتم، ونبهر ونعجب بدقة عمله وصنمته. فما بالنا بالخالق الأعظم الذى يعظم خلقه من لسموات والأرض لأنها فرق إدراكات البشر، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة

لا تستطيع أن تدركها أنت مجرد النظر، كما ميكروب، أو تدركها بصعوبة كائدية والعوضه وبكل هذه الكتابات كل مقومات حياتها، حتى الكائن الذي لا معدة له يحفره خالقه بقدره على امتصاص نداء مباشرة عقله أو عريته يسعى ليأكل ويأخذ معدته وأنه أحجرة تحول عداه ليكون دماً.

إذن فليست اعظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ نَعْتَمِرُ بِؤْمُنٍ﴾

أي من أول شيء يقابل له شيء، صمد محكوماً عليه وجودياً، بأنك إن صيرت إليه مشجدة الأجهزة التي تعطي له حياة، وتعييه، حتى وإن كنت حوس استشعارية في ذات هذا كائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل مثل ذلك نجد أن ما يفرئنا حدوث الرلارون هو الخبير حتى تهتمها بالعلم.

وحيث يتأمل العقل ما وصل إليه العلم في السحت في عالم خيول وعالم البحار، سجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم. وإن كان بكافرون مصرورين عن النظر في ملكوت سموات وأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصدحهم فعمى أن يكون قد اقتراب أجلهم

إنسانهم أن لاسان جنس، وأن له نوعين نوع ذكورة، ونوع أنوثة، وبسهم جنس مشته بسميه الخش، ولأجس لها أفرده متعددة وكل واحد له حق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة ومناعة يطلب ما حق إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك، وبحسب عيتك أن تجعل كلمة «شيء» هذه هي القياس، وبذلك يقول لك اشروع إنك حين تقدم حصة إياك أن تستكثرها، بل قل هي ليست بشيء، دي بال، وإن هم واحد يعمن سيئة فلا يقل وماد ستمعل لى سيئة واحدة؟

مستصغراً شأن هذه السيئة . وهذا تقول له : لا ، لأن كلمة « شيء » يجب أن تحكم الكون . إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً صئيل التكوين ، ولا بسطة له في جسمه ، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة ، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة ؛ لأن الله قد يعطي اضئيل فكراً عميقاً ، أو حيلة كبيرة ، أو موهبة خاصة في أي شيء . فلا تنظر إلى شيء قليل في أي إنسان ، بل انظر إلى الشيء الجميل الذي فيه وهو المحقق عندك في نفسك .

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾

ولماذا تأتي هنا حكاية اقتراب الأجل ؟ ولماذا جابهة من التساؤل أقول : إنها هامة جداً ؛ لأننا مادمتنا أفراداً أي جنسين أو ثلاثة أجناس ، وقال عنا ربنا إننا خلفاء في الأرض ، فعلياً أن نعلم أن الخليعة في الأرض جاء ليخلف من سبقوه ، وقد يميت ربنا أي إنسان في سن شهر أو سنة ، أو سنتين أو خمسين عاماً ؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى - نفسه ولا يعلمه أحد ؛ لأن غاية التساوي لا بد أن تكون متساوية ، وعلى سبيل المثال : إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا : لنيل إجازة الليسانس ، وستجد منهم الطويل ، والقصير ، والأبيض ، والأسود ، والدكي والغبي ، والقوي والضعيف ، وهم لا يفتقون إلا على دراسة الحقوق ، وكذلك لا نتساوي جميعاً كبشر إلا أمام الموت ، فهناك من يموت وهو في بطن أمه ، ومن يموت وهو طفل ، ومن يموت وهو فتى . وإن كنا نختلف فيما بقي بعد ذلك ، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول : لا لن أموت .

ومادمت متموت فانظر إلى مصلحتك أنت ، لتثاب على ما فعلت في الدنيا بدلاً من أن تعاقب ، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل ، وإيهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل ، والإيهام هو أوضح أنواع اليأس ، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحاً كاملاً فهو يبهمه .

ومثال ذلك : لو جعل لله للموت سناً ، لصار الأمر محدداً بلا أمل ، لكنه

سبحانه لم يجعل للموت سناً أو سبباً، وأشاعة في كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت في أي لحظة، ونزول الموت لا ينوقف على سبب، فقد يأتي بسبب وقد يأتي بغير سبب، وما دام الإنسان يستقبل الموت في أي وقت، فعلى العاصي ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله.

وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو خير مريض؟ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذي نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سستان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوي هذه الحياة؟ وما ذنب الذي لم يعيش في الدنيا إلا شهراً؟ لابد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تنتظركم، غايات فردية هي آجال الناس بلوتهم، وآجال إجماعية تتمثل في يوم القيمة.

وهي قوله تعالى ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾

بوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذا كان هذا الحديث الذي أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟

وهل في اتباعهم للأهواء وتقنيات بعضهم لبعض سعادة لهم؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ لَهُمْ يُزَكِّرْهُمْ

فِي طَعْنَتِهِمْ يَعْزَّوْنَ ۝١٨١﴾



وقد كرر الحق هذا التحذير كثيراً؛ لأن الأشياء التي قد يقف العقل فيها، أو تأخذ مذاهب الحياة منها، ويكررها الله، ليجعلها في بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع، وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه في سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة:

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر في ذهن السامع

﴿من يضل الله فلا هادي له﴾

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدى، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا يعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، ويتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل في ذلك إساءة للطبيب؟ لا. وكذلك منهج الله.

﴿من يضل الله فلا هادي له﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد، لا، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء. ولذلك يقول لنا الشرع: إياك أن تشرك بالله شيئاً في أي عمل، لأن ربنا يقول لنا في الحديث القدسي الذي يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه﴾ (١)

ومعنى الشراكة في عرف البشر، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم، وموهبة كل منهم، لا تكفي لإقامة مشروع ما، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين، فهل هناك ما ينقص ربا ليستكمل من آخر؟ حاشا

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في باب تعويم الربا.

لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكاً يجعل الله رفضاً لعبادة العبد  
المشرك . لذلك نقول في الحديث القدسي : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من  
عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه» . وما دام ربنا قد تنازل عن رعايته له  
فليتلق المتعبد من حيث لا يدري .

ومن قوله تعالى :

﴿ من يصل الله فلا هادي له ﴾

نتبين أنه حين يحكم الله ضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن  
يعدل على الله ، يجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو  
ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من في قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً  
ويتركهم في ظلماتهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو  
فقدان العين للبصر .

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا  
عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِيهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا  
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ



والمستول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين  
سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، فكان الجواب من مطابقاً  
لما عندهم في التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذي يقوله محمد إنما يأتي منه جزأ

## سورة الأنعام

٥٠١

يبدون ضابط وليس من رب يترئه فلما أجاب بما عندهم في التوراة، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده، ولذلك سألوهم أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم، وكانوا جماعة في الزمن الماضي، واتفقوا معه على كل شيء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه :

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ٥٠﴾

(سورة الكهف)

فقال اليهود: الثلاثمائة سنة نعرفها، أما التسعة فلا نعرفها، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يورخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ٥١﴾

(من الآية ٣٦ سورة النوبة)

إذن التوقيعات كلها حسب التوقيات العربي، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يزرعون له بالهلال، والمثل أن كل عالم البحار تكون الحسابات الماتية فيها كلها بالهلال، لأنه أدق، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر، لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل، بينما القمر دلالة شهرية، ومجموع الاثنين عشر هو الدلالة السنوية. لكنهم لم يفتنوا إلى هذه، وأخذوا على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي، وأضاف الحق: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا ٥١﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين.

ومادة السؤال في القرآن ظاهرة صحيحة في الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ «افعل» و «لا تفعل»، وساعة يقول الشرع: «افعل، ففعل» فظهر هذا الفعل مشقة، وساعة يقول: «لا تفعل» فظهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب، والمسع عنه يناقض شهوات النفس، وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحيحة من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته، حكاهما القرآن بصور متعددة، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله: «وَيَسْأَلُونَكَ» ومرة

ورد بصورة فعل ماضٍ « وإذا سألك » . وكثيراً ما جاء لسؤال بهيئة المضارع « يسألك » لأن المضارع يكون للحال وللإستقبال .

وجاءت الأسئلة بالقرآن في صيغة المضارع خمس عشرة مرة ، وجاءت بصيغة الماضي مرة واحدة . وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً ، وإذا نظرت إلى مادة الفعل « يسأل » في القرآن وترتيب المصحف ، تجد القرآن يقول :

﴿ يَسْأَلُكَ عَنِ الْأَمْرِ قُلٌ مِنْ مَوْتِيَتْ لِلنَّاسِ ﴾

( من الآية ١٨٩ سورة البقرة )

ويقول سبحانه :

﴿ يَسْأَلُكَ مَاذَا يُعْمَلُونَ قُلْ مَا أَعْنَتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآفَرِيقِينَ ﴾

( من الآية ٢١٥ سورة البقرة )

ويقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ يَسْأَلُكَ عَنِ النَّهْرِ الْحَرَامِ قَالِ بِهِ قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالسَّجْدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْعِنتُ الْأَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾

( من الآية ٢١٧ سورة البقرة )

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْأَلُكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ مِنْهُمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ ﴾

( من الآية ٢١٩ سورة البقرة )

ومرة أخرى يقول في ذات الآية السابقة :

﴿ ويسألونك ماذا يثقبون قل العمو ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾

( من الآية ٢٢٠ سورة البقرة )

ويقول عز وجل .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا آتِيسَةَ فِي الْمَحِيضِ ﴾

( من الآية ٢٢٢ سورة البقرة )

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾

وبعد ذلك في سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾

( من الآية ١٨٧ سورة الأعراف )

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ كَذَّبْتَ حَتَّىٰ عَنَّا ﴾

( من الآية ١٨٧ سورة الأعراف )

ثم يقول الحق .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ( من الآية ١ سورة الأنفال )

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

( من الآية ٨٥ سورة الإسراء )

ويقول المولى سبحانه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ ﴾

(سورة طه)

و يختم هذه الأسئلة بقوله .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝ ﴾

(سورة النازعات)

نلك هي خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك » ، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۝ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۝ ﴾

(سورة البقرة ١٨٦ الآية)

والآيات الخمس عشرة التي جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مُصنوعاً به « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا ، قل كذا ، ولكن في الآية الواحدة التي جاء فيها بصيغة الفعل الماضي و « إذا سألك » ، لم يقل : فقل إني قريب ، بل قال : « فإني قريب أجيب دعوة الداع » ، لأن الله يعلم حب محمد لأمة ، وحرصه عليهم ولذلك يقول :

﴿ لَعَلَّكَ تَنْجِعُ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَتَلَّكَ نَحْمٌ تُمْسِكُ عَنْ أَثَرِهِمْ إِنْ زَبُومُوا هَذَا الْحَدِيثَ أَفْأَنْتَ ﴾

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق عدم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحرص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوق فيها ، أخيره الحولى عز وجل بأنه سوف يرضيه فى أمته . وقد ورد فى الحديث ما يؤكد ذلك ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ رَبِّ إِنْهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ أَنْتَ مَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَمُورٌ رَحِيمٌ ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنْ تَعْلَبْهُمْ فَمِنْهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ( فرغ يديه فقال : أمتى أمتى وبكى فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وريك أعلم فسله ما يبيكه ؟ فأناه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا مسترضيك فى أمتك ولا نسؤك ) (١)

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسوله على أمته ، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرم به الرسول ، فجاء الخطاب فى آية الدعاء بدون « قل » .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمة أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه . لذلك نجد أربع عشرة آية تأتى فيها « يسألوك » ونكون الإجابة « قل » ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألوك » وكانت الإجابة « فقل » لنبدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد ، فكان الفاء دلت على شرط

(١) روى مسلم

مقدر هو : إن سألوك فقل ينسفها ربي نسفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِيهَا إِلَّا  
مُؤْتَفَاتٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كُنْتُمْ  
عَنْ عَثَبٍ قُلْ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧)

( سورة الأعراف )

و « يجليها » أى يظهرها ، وهناك ما يسمى « الجلوة » وما يسمى « الخلوة » ،  
و « الجلوة » أن يظهر الإنسان للناس ، و « الخلوة » أن يحتلى عن الناس ،  
و « لا يجليها » أى لا يظهرها ، و « لوقتها » ترى أنها مسبقة باللام ، ويسمونها فى  
اللغة العربية « لام التوقيت » ، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ ﴾

( من الآية ٧٨ سورة الإسراء )

وهى بمعنى « عند » ، ومعنى ذكرك الشمس ، أنها تتجاوز نصف السماء ،  
وتميل إلى المغرب قليلاً ، وقوله : « لا يجليها لوقتها إلا هو » أى لا يبينها عند  
وقتها إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

والثقل يعنى أن تكون كتلة الشئ أكبر من الطاقة التى تحمله ؛ لأن الكتلة إن  
تسوت مع الطاقة فهى لا تنقل على الحمل .

أو أن الطاقة التى تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض ؛ فيكون الشئ ثقيلًا ،  
وقد يكون هذا الثقل أمراً مادياً ، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أرباً  
من القمح فيقدر على حمله ، لكنه إن زاده إلى أربب وبصف ، فالحمل يكون  
ثقيلًا على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن « فيسخ » به .



﴿ثقلت في السموات والأرض﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط ، بل هو ثقل فكري وعقلي أيضاً ، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسي أو تمرين في مادة الجبر ، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقل على فكره ، وصعب الحل في بعض الأحيان .

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس في ملكاتها ، مثل الهم جاثم على الصدر وثقل عليه ، وهو أقسى أنواع الثقل ، ولذلك فالشاعر القديم يقول :

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاء الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال : ثقل مادي ، وثقل فكري ، وثقل نفسي .

﴿ثقلت في السموات﴾ ، ونحن تعلم أن السموات فيها الملائكة . ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة ، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر ، أما الملائكة فهي ليست مكلفة لأنها لا اختبار لها ، وبعضها يخدم البشر ، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه ، وبحياته ، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيّداً جديداً للكون . فكونوا جميعاً مسخرين في خدمته ، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون ، ولهم ألف بالخلق ، ألف كاره للعاصي ، وألف محب للطائع . ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به . وإن وقع من الطائع زلة ، بأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى . ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط متقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » (١)

ونعلم أن المتق سيأخذ ثواب إنفاقه ، أما الممسك فإن تلف ماله وصير عليه نهر أيضاً ينال ثواباً عليه . وهكذا تدعو لنا الملائكة .

« ثقلت » هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا ، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض ، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة ، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يعطى لها صورة توضح قوله الحق :

﴿ لا تأتیکم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول : « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السرق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه » (١)

ومثل هذه التوقعات تخيف .

وقوله الحق :

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتیکم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة ، أى يجرى من غير استعداد نفسى لاستقباله ، ويتابع سبحاته :

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفى من الحفاوة ، والحفى هو الملح فى طلب الأشياء ، مثل التلعب الذى يتوقف عند درس لا يفهمه ، فيسأل هذا ، وذلك إلى أن يجد إجابة .

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه ، والحفى أيضاً عالم بما يسأل عنه ، وسبب العلم أنه ألح فى السؤال عليها .

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستغر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتة بمكان ، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثاني لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشی ويسعى على رجليه، و« يدوب » النعل الذي يضعه في قدميه من المشى فيقال عنه إنه: « حافى ». ولذلك يقال: حفى فلان إلى أن وصل للمشى الفلاتى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشی حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم: ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك معنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق:

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال: ﴿ علمها عندى ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأتت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقتك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شيء ويمتعه البركة، وكذلك يطفى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى تتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا يُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ ﴾

(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ  
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ  
وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾



ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله : أنتم تسألونني عن الساعة ، وأنا بشر ، ومثلق فقط ، والإرسال بالمنهج يأتي من الله وأنا أبلغه ، ولا علم لي بموعد قيام الساعة ، ولا أملك لنفسي لا ضراً ولا نفعاً ، أى لا أملك أن أدفع الضر عنى أو أجذب النفع لنفسي ، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر ، فالإنسان يملك ما يعطيه الله ، والمافل حين يملك ، يقول : إن هذا ملك عرَضى ، لا آمن أن يتزع منى . ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ نُورُ الْمَلِكِ مَنْ نَشَاءُ وَتَرَعُ الْمَلِكِ مَنْ نَشَاءُ وَنَزَعُ مَنْ نَشَاءُ  
وَنَزَلُ مَنْ نَشَاءُ بِسِيْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

أى أن أحداً لا يملك شيئاً إلا ما شاء الله أن يملكه ، ورسول الله من البشر .  
ويضيف :

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾